

تاريخ البحريّة الإسلاميّة في المغرب والأندلس

تأليف

دكتور

إسماعيل العبادي

استاذ التاريخ الإسلامي

بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية

دكتور

السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد

بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٦٩

دار النهضة العربيّة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

أحمد دار
شاه علي بن علي
المرعاني
محمود جواد
المرعاني

تاريخ البحريّة الإسلاميّة

في المغرب والأندلس

تأليف

دكتور

السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية

دكتور

أحمد مختار العبادي

استاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة الاسكندرية وبيروت العربية

مكتبة
جمعية أتاباع الشريف حسن الناصر الإسلامية
«هاقة الغربية»
رقم التصنيف: ٩٥٦.٧
رقم التسلسل: ٥/١٨٩٦
تاريخ الودود: ١٥/١١/١٩٩٦

١٩٦٩

دار النهضة العربية

لطباعة والنشر

بيروت - لبنان

المقدمة

تشغل دراسة تاريخ البحرية الاسلامية في النصف الغربى من حوض البحر المتوسط ركنا أساسيا من أركان الحضارة الاسلامية ، اذ أن هذه الدراسة تشتمل على تفاصيل متعلقة بالقوى البحرية التجارية ، وما يرتبط بها من دراسة للنواحى الاقتصادية التى تؤثر تأثيرا مباشرا في حضارة الاسلام في العصور الوسطى ، كذلك تتضمن هذه الدراسة تفصيلات هامة عن المعارك الحربية للأساطيل الاسلامية في حوض البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ، ولا يخفى على القارىء اثر دراسة القوى البحرية التجارية والحربية للإسلام في مجريات تاريخه الحضارى والسياسي ، فقد كان لاتصال المغرب الاسلامى بحرا بثغور البحر المتوسط الشرقي عن طريق التبادل التجارى والعلى أعظم الاثر في توثيق الصلات الحضارية بين سائر أنحاء العالم الاسلامي وهو أمر تفسره ظاهرة تداخل التقاليد الشرقية والمغربية في حضارة الاسلام في العصور الوسطى . أما من حيث الاثر السياسي فينعكس بصورة واضحة فيما أحرزه الاسلام من مكاسب سياسية عظمى عن طريق تلاحم المغرب والاندلس وسيطرتها الفعلية على النصف الغربى من حوض البحر المتوسط ، وتمكين النفوذ السياسي للإسلام في جنوب غرب القارة الاوروبية عن طريق التفوق البحري على القوى البحرية اليونانية واللاتينية . ويسكتنا أن تبين فعالية هذا التفوق البحري على الاحوال السياسية في المغرب والاندلس بوضوح تام اذا ما قارنا بين فترة الازدهار التي خضعت فيها جزيرة صقلية للإسلام وأصبحت تمثل براسيها العديدة وقواعدها البحرية المتوزعة على سواحل

الجزيرة نقطة الارتكاز الاسلامى في البحر المتوسط الغربى وبين فترة الاضمحلال التي أعقبت سقوط صقلية في أيدي النورمان ، عندما فقد الاسلام في المغرب نقطة الارتكاز الرئيسية وتعرضت سواحله المطلة على صقلية النورمندية للغزو النورمندي حينما من الوقت الى ان حررها الموحدون ، كما تبين هذه الفعالية أيضا اذا ما قارنا بين الفترة التي كان المغرب على اتصال سياسي وثيق بالمغرب عن طريق السيطرة على مجاز جبل طارق ، وبين الفترة التي سقط فيها جبل طارق نقطة الارتكاز الثانية للاسلام في البحر المتوسط الغربى في أيدي الاسبان وما ترتب على ذلك من انقطاع الاتصال بين المغرب والاندلس ، الامر الذي أدى الى ضياع ملك المسلمين في الاندلس ، وانتقال الحرب المقدسة الى التراب المغربى نفسه .

وهكذا كانت السيطرة الاسلامية على حوض البحر المتوسط الغربى تعتمد أساسا على تفوق القوى البحرية الاسلامية في المغرب الاسلامى . والجدير بالذكر ان هذه القوى البحرية الاسلامية نهضت نهوضا واضحا المعالم ابان القرنين الثالث والرابع للهجرة ، بحيث يسكننا أن نطلق على هذا العصر عصر السيادة الاسلامية على جزر البحر المتوسط الغربى وعلى السواحل الاوربية المطلة على هذا القسم من البحر المذكور . وقد ظل المغرب الاسلامى يحتفظ في عصر الموحدين بتفوقه البحري ، وسخر قوته البحرية لمداغة القوى المناهضة للإسلام في اسبانيا ، ثم أخذت قوته تفقد فعاليتها تدريجيا نتيجة للتفتت السياسى الذي أعقب هزيمة الموحدين في وقعة العقاب (٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م) ولم يلبث التفوق البحري أن انتقل الى القوى البحرية الايطالية والقطلانية والقشتالية .

وعلى الرغم من أهمية دراسة تاريخ البحرية الاسلامية بالنسبة للتاريخ السياسى والتاريخ الحضارى للإسلام ، فان هذه الدراسة بوجه

عام لم تحظ لا في المصادر العربية ولا في التواليف الحديثة الا بقدر ضئيل من الاهمية يتمثل في بحوث قليلة تقتصر على دراسة تاريخ البحرية الاسلامية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط وفي المحيط الهندي ، كما أن هذه البحوث مع قلتها لم تغط التاريخ الاسلامي الوسيط كله ، وانما اقتصرت على القرون الاربعة الاولى للهجرة •

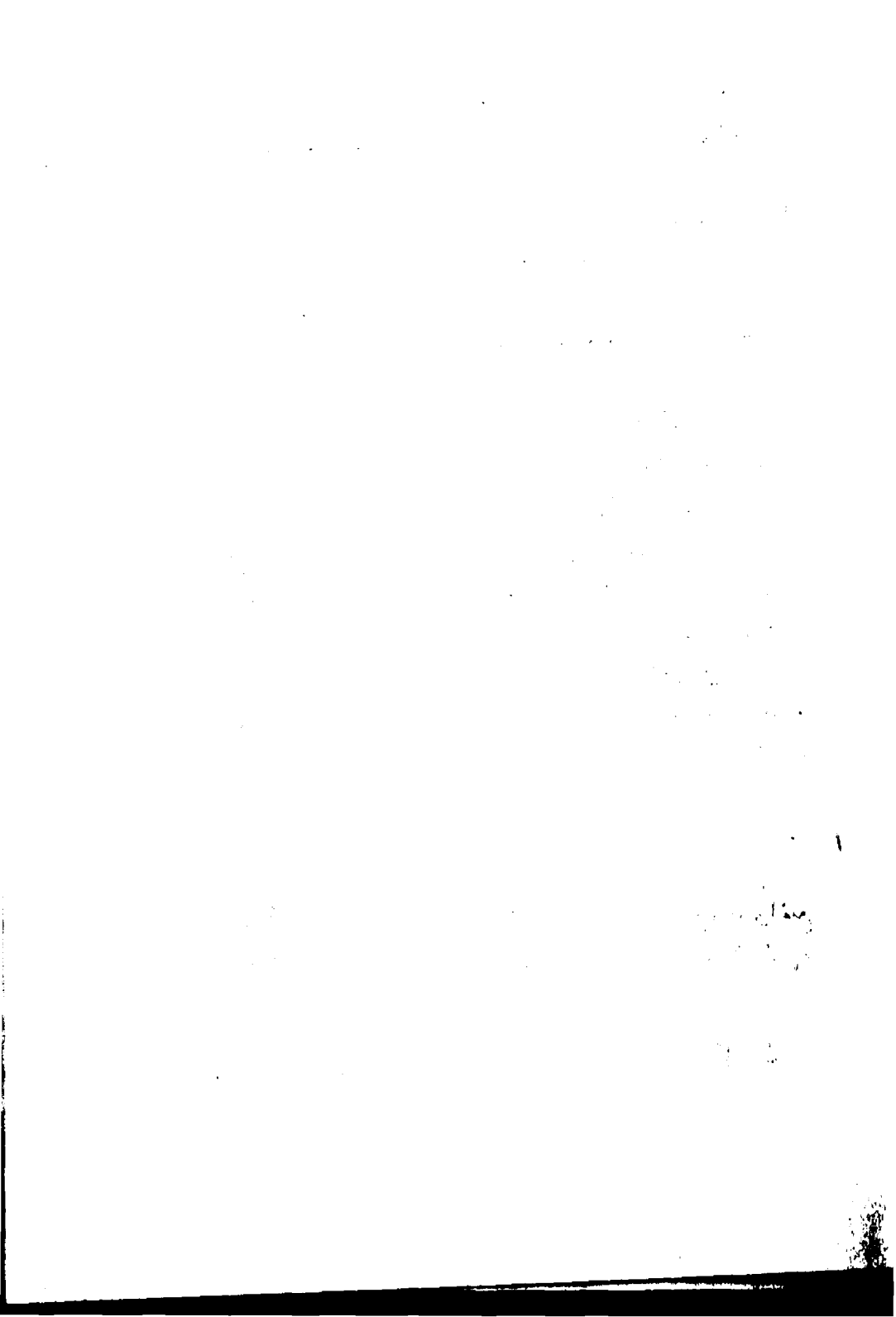
لذلك كان لا بد من توجيه مزيد من العناية بالبحرية الاسلامية في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط مع تغطية العصر الاسلامي كله منذ فتح العرب للمغرب والاندلس حتى نهاية دولة الاسلام في الاندلس • وكان لزاما علينا ان نستببط مادة البحث من بطون المصادر العربية تاريخية أو جغرافية أو أدبية وأن نفيد مما كتبه المستشرقون في هذا المجال ، كذلك كان من الطبيعي أن تتعاون معا في البحث ، أمام صعوبة المهمة وامتداد التاريخ الاسلامي ، اذ ليس من السهل على باحث واحد أن ينفرذ بهذا العمل • وعلى هذا النحو اقتسمنا الفترة التاريخية التي نقوم بدراستها فتولى السيد عبد العزيز سالم الكتابة عن البحرية الاسلامية في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط منذ قيامها حتى نهاية عصر ملوك الطوائف في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، بينما تولى احمد مختار العبادي الكتابة عن البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس منذ بداية عصر المرابطين حتى سقوط مملكة غرناطة •

وكان من ثمرة هذا التعاون المشترك ظهور هذا الكتاب المتواضع الذي يعتبر بحق اول ما صنف عن البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس • والله ولي التوفيق ؟

المؤلفان

بيروت في ٧ رجب ١٣٨٩ هـ

١٩ أيلول ١٩٦٩ م



الفصل الأول

قيام البحرية العربية

في المغرب

- (١) نشأة البحرية العربية الاسلامية في خلافة عثمان بن عفان .
- (٢) غزو العرب لصقلية وجزر البحر المتوسط الغربي في النصف الاول من القرن الاول للهجرة .
- (٣) دور مصر في قيام البحرية الاسلامية في افريقية .
 - أ - مرحلة الغزو البحري الموجه من مصر
 - ب فضل المصريين في انشاء دار الصناعة بتونس
- (٤) غزوات العرب في بحر تونس في العصر الاموي .

مكتبة
جمعية أبحاث التراث حيدر الأمازيغ الإسلامية
«مألة العربية»
رقم التصنيف:
رقم القسط:
تاريخ الودع:

الفصل الأول

قيام البحرية الإسلامية في المغرب

(١)

نشأة البحرية العربية الإسلامية في خلافة عثمان بن عفان

إذا كان عرب اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، في العصر الجاهلي بوجه عام ، والعصر السبئي بوجه خاص^(١) ، قد برعوا في ركوب البحر^(٢) ، بحكم موقع بلادهم على البحر الأحمر من الجهة الغربية ، والمحيط الهندي جنوبا ، والخليج الفارسي شرقا ، وبحكم اشتغالهم بالتجارة في البر والبحر في مراحل تاريخهم القديم ، واحتكاكهم بشعوب بحرية ، فإن العرب قبيل ظهور الاسلام كانوا قد نسوا كل اتصال لهم بالبحر ،

(١) محمد ياسين الحموي ، تاريخ الاسطول العربي ، ١٩٤٥ ، ص ٨ -

Aly Mohamed Fahmy, Muslim Sea - Power in the Eastern

Mediterranean, Cairo, 1966 - السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ

العرب ، ج ١ عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

وذكر السعودي أن البحرين من أهل عمان هم عرب من الأزد (السعودي ، مروج

الذهب ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ١ ص ١٠٧)

(٢) مما يدل على ان العرب بشؤون البحر في العصر الجاهلي ان اللغة العربية مليئة بالفاظ واصطلاحات بحرية ، اما عربية المصاغة او مشتقة من اللغة الفارسية او اللاتينية او اليونانية ، وردت في الشعر الجاهلي ، فمن أسماء السفن : الفلك وبوصي وعدولي وخلية والجاري . وقد وردت في القرآن الكريم أسماء سفن منها : سفينة ، وفلك ، ومجداف ، وسكان ، ونوخ ، وفرقور (راجع : فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، وجواري ، وذات الواح ودسر اما بالنسبة للاصطلاحات البحرية فمنها نوتي ، واسطول القاهرة ١٩٦٧ ، ج ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ - السيد عبد العزيز سالم ، دراسات ، ص ١٦٨ -) Aly Fahmy, op. cit. p. 41

وأهملوا شؤونهم . وفقدوا الدربة على ركوبه وخوض أهواله ، واقتصروا في تجارتهم على الطرق البرية بسبب تعرض بلادهم للسيطرة الأجنبية الحبشية والفارسية . فالفرس بضم اليمـن والبحرين وما يليها ، قضوا على تجارة العرب في الخليج الفارسي ، واحتكروا لأنفسهم تجارة الهند ^(١) ، والأحباش منذ فتحوا اليمن وحضرموت استأثروا بالطريق التجاري عبر البحر الأحمر . ويعمل ابن خلدون تخلف العرب في ثقافة البحر وركوبه بيداوتهم ، بينما يفسر تفوق البيزنطيين والافرنجة البحري بممارستهم أهواله « ومرأهم في التقلب على أعواده » ^(٢) . ومما لا شك فيه أن العرب انصرفوا عن الاشتغال بالملاحة في البحر لأسباب ، من بينها أن بلادهم صحراوية تندر فيها الأشجار التي تصلح أخشابها لصناعة السفن القوية ، وأن بلادهم — باستثناء جبال اليمن — تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسي والمسامير ، ومن الزيت والقطران ، هذا بالإضافة إلى أن الملاحة في البحر الأحمر كانت تكتنفها الأخطار ، لكثرة الصخور والشعاب المرجانية التي تعترض سبيل السفن ^(٣) .

وكان ظهور الاسلام انتقالا حاسما في تاريخ العرب ، اذ حقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل منهم أمة قوية موحدة مرهوبة الجانب تغلبت في عصر الفتوحات زمن الخلفيتين الراشدين أبي بكر وعمر على أمم عريقة في الحضارة ، لها نظم ادارية واقتصادية منظمة . وأحس العرب بعد أن افتتحوا بلادا تطل على البحر المتوسط ، بضرورة اصطناع سياسة بحرية لمواجهة غارات الروم البحرية ، الذين كانت لهم السيطرة البحرية في هذا البحر . ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب يرهـب البحر ويخشاه

Aly Fahmy, p. 48 (١)

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق دكتور علي عبد الواحد والي ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

(٣) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٣٥ .

أو يشفق على المسلمين من ركوبه^(١)، كما يزعم الرواة والأخباريون^(٢)، ولكنه كان بعيد النظر، شديد الرأي فالعرب كانوا ما يزالوا حديثي عهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر المتوسط، والعدو الذي يواجهونه، وهم البيزنطيون، خصم عنيد متمرس في شؤونه وثقافته، متدرب على ركوبه وخوض مياهه، بخلاف الفرس الذين كانت صلتهم بالبحر أقل بكثير من البيزنطيين، ولذلك نجح العرب في أمد وجيز في تقويض دعائم الامبراطورية الفارسية، بينما استمر نضالهم مع البيزنطيين في الشام وفي المغرب بوجه خاص ما يزيد على ستين سنة، بل إن هذا النضال استمر بعد فتح الشام والمغرب ما يقرب من أربعة قرون. ولا شك أن الخليفة عمر أدرك أن العرب في هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم والفرس في البحر لقلّة خبراتهم البحرية، وقد دفعه هذا الإدراك إلى تأديب العلاء بن الحضرمي، وإلى البحرين، لتغريبه بالمسلمين في الخليج الفارسي، وتعريضهم للهلاك في سنة ١٧ هـ^(٣)، ولوم عرفة بن هرة الأزدي سيد بجيلة لما أغراه عمان، فبلغه غزوه في البحر^(٤). وقد يكون إدراك عمر بن الخطاب بتخلف المسلمين البحري نتيجة لاختلاف

Cheira, la lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, (١)

1947, p. 88 — Aly Fahmy, op. cit. p. 74

(٢) يعللون نفور عمر بن الخطاب من البحر بأمره على اتخاذ الأمصار الإسلامية بعيداً عن السواحل أو الأنهار، برغبته في ألا تتعرض هذه الأمصار لتهديد أساطيل الروم (المغربي، الخطط، ج ١ ص ٢٨٦، طبعة بولاق، ١٢٧٠ هـ) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ١ ص ٥٧ طبعة مصر ١٢٢٧ هـ — السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٦٥

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق دي غوبه، لندن ١٨٨١ — ١٨٨٢، ج ١ ص ٢٥٤٦. يذكر الطبري أن العلاء ندب أهل البحرين وحملهم في البحر إلى فارس بغیر ان عمر «وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوبه غازيا، بكره التفريق بجنده... فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا في اصطخر وبازائهم أهل فارس وعلى أهل فارس الهربد اجتمعوا عليه فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم، فقام خليلد (بن المنذر بن ساوي أحد فواد العلاء) في الناس... وغرقت سفنهم ثم لم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلا».

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٦٢٨

علقة بن مجزر المدلجي في حملته البحرية الى الحبشة سنة ٢٠ هـ ، اذ غرقت سفنه في البحر ، فكان لذلك الحادث أثر عميق في نفس الخليفة (١)

ولذلك عمد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الى تأسيس الأمصار الاسلامية في داخل البلاد ، كما عمل على انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين ، فاهتم بتحسين السواحل وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها (٢) ، متوسلا في ذلك كله بوسائل برية ، فأمر بمرمة حصونها ، واقامة الأربطة والمناظر والمسالح على طول الساحل ، وشحنها بالمقاتلة ، لمراقبة النواحي التي يقبل منها البيزنطيون في البحر ، والانداز باقتراب العدو ليلا عن طريق ايقاد النيران في موايد خاصة بأعلاها ، تنبيهها للمرابطة بالخطر ، وتوجيهها لهم للاستعداد والتأهب لصد الغزاة .

وكان هذا النظام الدفاعي البحري ضروريا في العهد الأول الذي تبع الفتوحات ، عندما كان العرب - وان كانوا يعرفون قليلا عن ركوب البحر - يجهلون الحروب وأساليب القتال فيه ، ومواجهة الروم الذين كانت لهم حتى ذلك الحين السيطرة البحرية في حوض البحر المتوسط كله ، بالإضافة الى أن العرب كانوا لا يشقون في المغلوبين من أهل البلاد المفتوحة ، مما حمل العرب على ابدال سكان السواحل الشامية بسكان من العرب أو من المواليين للعرب .

وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام مبنوثة بالقلاع والأبراج

(١) الطبري ، ج ١ ص ٢٥٩٥

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة

١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٥٢ - Cheira, op. cit. p. 85

التي كانت أشبه بسور (١) يستد بحذاء الساحل ، اعتمد عليه العرب في الدفاع عن البلاد من جهة البحر ، وحظيت سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط وعكا وصور وصيدا وطرابلس وعرة وجبيل وأنطاكية بقلاع ومحارس ، ووضعت في هذه المدن حاميات مرابطة تنقسم كل منها الى عرافات أي مجموعات ، وكل عرافة تتألف من مائة رجل . وكان المرابطة يقومون بالرباط أثناء فصل الصيف عندما يصبح البحر صالحا للملاحة ، أما في فصل الشتاء ، وهو فصل انغلاق البحر بسبب العواصف والأنواء ، فكانت الحاميات تعود الى قواعدها في دمشق أو القسطنطينية ، ولا يبقى منها في الثغور والسواحل الا جماعات يسيرة .

ومضت مرحلة الدفاع البحري بوسائل برية عندما فشلت بيزنطة في استرداد الساحل الشامى سنة ٢٣ هـ ، والمصري في سنة ٢٥ هـ ، أمام قوة الدفاع العربي ، واستقرت دعائم السيادة العربية الاسلامية في الشام ومصر ، وآن للعرب أن يبدؤا بدورهم بالهجوم . وكان لزاما عليهم في تلك الحالة أن يكون لديهم أسطول قوي يضمن لهم احباط أي محاولة بيزنطية لاسترداد الشام ومصر من جهة البحر ، ويمهد لهم السبيل للدفاع عن مكاسبهم وتأمين مناطق النفوذ البحرية ضد البيزنطيين الذين كانوا ما تزال لهم السيادة البحرية في البحر المتوسط . ويرجع الفضل الأعظم في انشاء الأسطول العربي الاسلامي الى معاوية بن أبي سفيان ، عامل الشام في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، الذي أدرك فضل الأساطيل في الدفاع عن السواحل ابان غزو أخيه يزيد لسواحل الشام . وبدأ معاوية وهو بعد عامل على الشام بتحسين السواحل وشحنها بالمقاتلة ، واقطاع من ينزل من المسلمين بالسواحل القطائع والأخاند (٢) ،

Cheira, op. cit. p. 87 (١)

البحرية الاسلامية (٢)

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٢

وتشجيع انتقال المسلمين الى السواحل من كل مكان . ثم انتقل بعد ذلك الى عملية بناء السفن في مصر ، فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان وأرسلها في السفن الى الاسكندرية ، واستعان بالخبراء من القبط وبعض الملاحين من أهل مصر في صناعة السفن وتسييرها في البحر ^(١) ، تمهيدا للسيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لسواحل الشام ومصر ، لاتخاذها قواعد بحرية أمامية لغزو بلاد البيزنطيين نفسها .

وإذا كان عمر بن الخطاب قد نهى معاوية عن ركوب البحر وغزو أرواد عندما استأذنه معاوية في ذلك الأمر ، فإن عثمان بن عفان ، على الضد من ذلك ، أطلق لمعاوية يده في الشام ، وأذن له بغزو الروم بحرا في قبرص على ألا يحل الناس على الغزو كرها ، وأن يصحب معه امرأته فاخنة . ويعتبر غزو المسلمين لقبرص في سنة ٣٨ هـ أول غزو بحري لهم في البحر المتوسط ، ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبل هذه الغزوة ^(٢) . وفي نفس الوقت الذي تهتم فيه معاوية بانشاء أسطول عربي شامي كان عبدالله بن سعد عامل مصر في خلافة عثمان يقوم بدوره بانشاء أسطول عربي مصري في الجزيرة ، ألقى عبثه على كاهل المصريين الأقباط . وقد اشترك الأسطول المصري مع الاسطول الشامي في غزو قبرص ^(٣) ، كما اشترك الأسطولان معا في واقعة ذات الصواري التي حدثت في سنة ٣٤ هـ ^(٤) ، وفيها انتصر المسلمون انتصارا حاسما ثبت لهم السيطرة في البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين ^(٥) . ويعلق الأستاذ

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٠

(٢) نفسه ، ص ١٨١

(٣) ابن الأثير ، حوادث سنة ٢٩ هـ ، فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٣٨

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ،

القاهرة ١٩٦١ ص ٢٥٥ .

(٥) ابراهيم المدوي ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٤ -

Aly Fahmy , op. cit. p. 89 - المدوي ، قوات البحرية العربية في مياه البحر

المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٥٠ ، ٥١ .

فتحي عثمان على انتصار العرب في ذات الصواري بأنها تعتبر «حدا فاصلا في تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قنسطانز كان يرمي الى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ، ولو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين» (١) .

غير أن معاوية لم يفد من هذا النصر الذي أحرزه في متابعة الغزو البحري ، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥ هـ ، ومناوئة على ابن أبي طالب من أجل الظفر بالخلافة ، عن مواجهة البيزنطيين ، أما هؤلاء فقد اعتنموا ذلك لتدعيم جبهتهم ، ثم وجهوا هجوما عاتيا على سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ . ويبدو أن البيزنطيين سببوا بهذا الهجوم خسائر كبيرة للمسلمين حملت معاوية على اقامة دار لصناعة الأسطول في عكا ، لتنتج له سفنا بدلا من الاعتماد على دار صناعة مصر وحدها ، فأمر « بجمع الصناع والتجارين ، فجمعوا ، ورتبهم على السواحل ، وكانت الصناعة في الأردن بعكا » ، وظلت عكا دار الصناعة في الشام الى أن نقلت في زمن بني مروان الى صور (٢) .

ومنذ أن أسست دار الصناعة بعكا حتى أخذ المسلمون يشكلون خطرا متزايدا على البيزنطيين ، فقد استعمل معاوية على البحر القائد العربي عبدالله بن قيس الذي غزا خمسين غزوة ما بين شامية وصائفة ، وافتتح معاوية بالاضافة الى قبرص ، جزيرة رودس التي تم فتحها على يد جنادة ابن أبي أمية الأزدي في سنة ٥٢ هـ (٣) ، وغزا اقريطش في سنة ٥٥ هـ (٤) ،

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٢٨

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٩

وتهاً له بعد ذلك مهاجمة البيزنطيين في عقر دارهم القسطنطينية (١) .

وأمام انتصارات العرب المتتابعة ، صرف الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني نظره عن محاولة استرداد الشام ومصر ، ورأى أن يحول نشاطه الى الميدان الغربي ، الى القسم الغربي من حوض البحر المتوسط (٢) ، حيث كانت جيوش العرب الظافرة تهاجم افريقية ، وتشن الغارات على صقلية وسردانية وقوصرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربي ، ورأى أن اتخاذ صقلية قاعدة له في سنة ٣٥ هـ (٣) أجدى عليه ، لقربها من الساحل الافريقي ، ولسهولة التحرك منها لضرب قوى العرب البرية في هذه المناطق المتطرفة من العالم اذا ما اقتضت الظروف ذلك ، ولكنه اصطدم هناك بقوى لم تكن في حسبانته ، وبمصرعه في سرقوسة سنة ٤٨ هـ انتهى مشروعه بالفشل (٤) .

(١) العدوى ، قوات البحرية العربية ، ص ٥٦ وما يليها

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٠

(٣) ابن الاثير ، ج ٢ ص ٦٧

(٤) فازيليف ، العرب والروم ، ترجمة الدكتور عبد الهادي شمعة ، ص ٦٣ - العدوى ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ص ٩٥ - العدوى ، الاساطيل البحرية في المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٦٧ .

(٢)

غزو العرب لصقلية وجزر البحر المتوسط الغربي في النصف الاول من القرن الاول للهجرة

كان من الطبيعي أن يفكر العرب بعد فتحهم لمصر جديدا في فتح برقة وطرابلس ، تطبيقا لمياسة الاستمرار في الفتح وتأميننا لحدود مصر الغربية ، زد على ذلك أن برقة كانت تعتبر امتدادا طبيعيا لمصر ، واقلها متمسا لها ^(١) من الناحية الجغرافية ، وحتى السياسية ، في العصر السابق على الفتح . فما كاد عمر بن العاص ينتهي من فتح الاسكندرية حتى سار على الخيل الى برقة ، فاستولى عليها ، وتابع زحفه غربا ، ولم يجد صعوبة كبيرة في التغلب على سرت ولادة وطرابلس وصبرة ^(٢) . غير أن طرابلس لم تلبث أن خرجت عن طاعة المسلمين عقب عودته الى حر ، كما أن الروم تنبهوا الى خطورة وجود العرب لصق حدود افريقية ، فاهتموا بتحصين المدن الشرقية من افريقية (تونس) ويغيرون على قواعد المسلمين في برقة ، الأمر الذي دعا عبدالله بن سعد الى أن يستأذن الخليفة عثمان بن عفان في فتح افريقية ، فأذن له ، وخرجت جيوش المسلمين بقيادة ابن سعد الى افريقية ، واشتبكت مع جيوش البيزنطيين في موقعة حدثت بالقرب من

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ١٤١

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٦٠ - ٦٢ ، الطاهر احمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ص ٢٢ - وراجع المصادر لهذا الفتح في : ابن عبد الحكم ص ٢٢٩ - البلاذري ، ص ٢٦٤ - البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دي سلان ، الجزائر ، ١٩١١ ، ص ٤ - ابن الاثير ، الكامل ص ٢ - ١١

سيطة ، انتهت بمقتل جريجوريوس حاكم افريقية البيزنطي وابتصار المسلمين ودخولهم العاصمة البيزنطية في افريقية . ولكن ابن سعد لم يحاول استغلال هذا النصر في اقامة قاعدة ثابتة للمسلمين في هذه البلاد ، واضطرته سوء الأحوال في مصر الى العودة اليها في سنة ٢٩ هـ ، فكتب الى نائبه في مصر يطلب منه أن يبعث اليه سفنا في البحر ، فوافته السفن وهو بطرابلس ، فحمل فيها أثقال جيشه ، ومضى هو وأصحابه عن طريق البر الى مصر (١) .

وما ان اقتتل قنسطانز الثاني الى صقلية واتخذها مقرا له حتى بادر باستعادة افريقية الى سلطانه ، وأقام عليها عاملا من قبله يقال له أوليمة (لعله أوليبوس) ، ويبدو أن نزاعا خطيرا نشب بين أهل افريقية وبين البيزنطيين بسبب تعسف أوليمة في جباية الأموال ، أدى الى قيام الأفارقة بطرد عامل الامبراطور ، فعاد الى بلاده (٢) . وعندئذ وجه معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج على رأس جيش لغزو افريقية في سنة ٤٥ هـ ، فتصدت لجيشه حملة بيزنطية بقيادة نجفور (٣) ، قدمت من صقلية ونزلت على الساحل التونسي ، فانهزم البيزنطيون ، وأقلعوا بسفنهم في البحر . ولم يكتف ابن حديج بما أصابه من انتصارات على البيزنطيين ، وإنما عزم على مهاجمة جزيرة صقلية ، قاعدتهم في البحر تجاه افريقية ، والمركز الرئيسي الذي تصدر منه غارات البيزنطيين على الساحل الافريقي ، فكان ابن حديج بذلك أول من غزا صقلية (٤) . وذكر ابن عذارى أنه «أغزى جيشا في البحر الى صقلية في مائتي مركب فسبوا وغنموا ، وأقاموا شهرا ثم انصرفوا الى

(١) المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١

(٢) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥ - - عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ،

ص ١٧٧

(٣) ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٥ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١٦

(٤) البلاذري ، ج ١ ، ص ٢٧٨

افريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر ، فاقسموا
 فيهم » (١) . الا أن الدكتور مؤنس يعتقد أن البلاذري يقصد بتلك
 الغزوة الحملة التي بعث فيها معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج فيما
 يقرب من سنة ٢٧ هـ أو ٢٨ هـ في خلافة عثمان لغزو رودس ثم صقلية ،
 ويرجح أن ابن عذاري أخطأ في النقل عن البلاذري ، فذكر سنة ٤٦ هـ
 وصحتها في رأيه ٢٦ هـ (٢) . ويستند في ذلك الرأي على ما ذكره أماري
 (استنادا على البلاذري) من قيام معاوية بن حديج بغزو رودس وصقلية
 في سنة ٣٢ هـ (٦٥٢م) في مائتي سفينة (٣) ، مما دعا قنسطانز الثاني الى
 نقل عاصمته الى سرقوسة بصقلية صيانة لأملاكه في افريقية وصقلية
 وإيطاليا من الغزو العربي (٤) . ولا ندري من أين استقى الأستاذ أماري
 هذا الخبر ، فالبلاذري الذي يزعم أنه استقى منه لم يشر الى تاريخ غزوة
 معاوية بن حديج لصقلية ، كما أن ابن الأثير لم يشر هو الآخر الى غزو
 صقلية في هذه السنة ، وانما ذكر أن أهل قبرص أعانوا الروم في سنة
 ٣٢ هـ «على الغزاة في البحر براكب أعطوهم إياها ، فغزاهم معاوية
 سنة ثلاثة وثلاثين ، ففتحها عنوة » (٥) . وأعتقد أن أماري خلط بين
 غزوة قبرص في سنة ٣٢/٣٣ هـ وغزوة صقلية التي تمت في سنة ٤٦ هـ
 كما حددها ابن عذاري (٦) . ويرجح الدكتور شعيرة غزوها في سنة
 ٤٩ هـ بقيادة عبدالله بن قيس وفقا للبلاذري ، أو ابن حديج وفقا لابن

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٦ ، ١٧

(٢) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٢٦

(٣) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Catania, 1933, t. I, p. 194

مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٥

(٤) ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، القاهرة
 ١٩٦٠ ص ٩٤ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٦٧

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ١٨٦

عبد الحكم ، أو عقبة بن نافع وفقا للطبري ، وذلك عقب قيام البيزنطيين بالاعتداء على سواحل افريقية (١) . ولكننا نعتقد أن غزوة صقلية وقعت في غضون سنة ٤٦ هـ أثناء قيام معاوية بن حديج بغزو افريقية في خلافة معاوية بن أبي سفيان (٢) .

واختتم ابن حديج غزوته في افريقية بحملة بحرية بقيادة روفيع بن ثابت الأنصاري ، عاملة على طرابلس منذ سنة ٤٦ هـ ، الى جزيرة جربة الواقعة تجاه ساحل قابس ، وتمت هذه الغزوة في سنة ٤٧ هـ (٣) .

ثم عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج عن ولاية افريقية في سنة ٤٨ هـ ، وولى مكانه عقبة بن نافع الفهري الذي شرع في تمكين الفتح العربي بافريقية بتأسيس مدينة القيروان ، رابعة الحواضر الاسلامية ، بعيدا عن البحر حتى لا تطرقها جيوش البيزنطيين بالغزو من جهة البحر (٤) . ولم تطل ولاية عقبة اذ عزله الخليفة في سنة ٥٥ هـ ، وخلفه على ولايتها أبو المهاجر دينار (٥٥-٦٢ هـ) . ثم رد عقبة على ولاية افريقية في أول خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ ، فظل يليها الى أن لقي مصرعه في تهوده في سنة ٦٤ هـ على يد كسيلة الأوربي وحلفائه البيزنطيين . وتمكن كسيلة من الاستيلاء على القيروان بعد أن انسحبت الحامية العربية منها الى برقة بقيادة زهير بن قيس البلوي . وهكذا نشهد البيزنطيين يستغلون انشغال الأمويين بفتنة عبدالله بن الزبير ليوجهوا ضرباتهم للعرب في الشرق والغرب .

(١) Cheira, op. cit. p. 136

(٢) التوبري ، نهاية الارب في فنون الادب ، ج ٢٢ ، مخطوط ، ص ٢٢٦ - ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، تونس ١٢٨٦ هـ ، ص ٢٢ - أبو عبدالله الشيخ محمد الباجي السمودي ، الخلاصة النقية في امراء افريقية ، تونس ، ١٣٢٣ هـ ، ص ٢ (٣) المالكي ، ص ٥٣ - أبو المحاسن بن تفرج بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٢ - ابن أبي دينار ، ص ٢٤

(٤) المالكي ، ص ٦

(٣)

دور مصر في قيام البحرية الاسلامية في افريقية

١ — مرحلة الغزو البحري الموجه من مصر :

تدل الروايات الخاصة بغزو جزيرة صقلية على أن أساطيل مصر هي التي كانت تتولى مهمة غزو هذه الجزيرة وغيرها من جزر البحر المتوسط الغربي حتى بداية القرن الثاني للهجرة ، عندما بدأت دار صناعة الانشاء بتونس تنتج لأول مرة سفنا اسلامية • وكانت بالاسكندرية دار لصناعة السفن منذ العصر البطلمي تنتج سفنا تجارية وحرية تحمل المجانيق وآلات قذف الحجارة والنيران ^(١) • وكان يخرج منها أمراء البحر للغزو كما حدث عندما خرج معاوية بن عامر الجهني في سنة ٤٧ هـ بعد أن تولى امرة البحر ^(٢) ، ولذلك اعتمد العرب بادئ ذي بدء على دار صناعة الاسكندرية ودار صناعة الجزيرة ، وعلى خبرة المشتغلين بالبحر من أهل مصر الأقباط الذين لم يشتركوا مشاركة فعلية في المعارك البحرية الأولى التي خاضها المسلمون ^(٣) فحسب ، بل ساهموا مع جيش عبدالله ابن سعد في موقعة سببلة التي حدثت في ٢٨ هـ ^(٤) • ومما لا شك فيه أن الأسطول المصري هو الذي نقل غنائم عبدالله بن سعد التي كان ينوء بها جيشه من طرابلس الى الاسكندرية ^(٥) والأسطول المصري أيضا

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية الاسلامية ، مقال في كتاب تاريخ الاسكندرية منذ اقدم المصور ، الاسكندرية ، ١٩٦٢ ص ٢٢٤

(٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ ص ٢٨

(٣) Cheira, op. cit. p. 92

(٤) المالكي ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٥ - المغرب الكبير ، ص ١٥٦ ، ١٥٨

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧

هو الذي غزا صقلية في سنة ٤٦ هـ في الوقت الذي كان معاوية بن حديج يفتتح سوسة ، فقد ذكر البلاذري نقلا عن الواقدي أن عبدالله بن قيس ابن مخلد الدزقي ، وقيل الفزاري غزا صقلية « فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالذهب ، فبعث بها الى معاوية ، فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل الى الهند فتباع هناك ليشن بها » ^(١) والأسطول المصري أيضا بقيادة عقبة بن نافع غزا في البحر في شتاء سنة ٤٩ هـ ^(٢) . ومن بين قواد المسلمين الذين غزوا صقلية وجربة وقوصرة في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الفتح العربي لأفريقية : أبو محمد فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي (ت ٥٣ هـ) الذي كان قد اشترك في غزوة قبرص مع معاوية بن أبي سفيان في سنة ٢٨ هـ ^(٣) ، وكان يتولى القضاء والبحر ببصر في خلافة معاوية ، ودخل أفريقية غازيا هو ورويفع بن ثابت بن سكن بن عدى بن حارثة الأنصاري ^(٤) الذي كان يلي طرابلس من قبل معاوية في سنة ٤٦ هـ ، وفي صحبة حنش بن عبدالله الصنعاني الذي غزا جزيرة جربة في سنة ٤٧ هـ ^(٥) . وقد يكون من بينهم أيضا القائدان عبدالله بن نافع بن الحصين وعبدالله بن نافع بن عبد القيس اللذان يزعم الطبري أن عثمان ابن عفان أرسلهما من أفريقية لغزو أفرنجة والأندلس في سنة ٢٧ هـ ^(٦) ،

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٨

(٢) أبو المحاسن ، ج ١ ص ١٢٨

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ١٨٢

(٤) المالكي ، ص ٥٢ - التجاني ، رحلة التجاني ، تحقيق الاستاذ حسن حسني عبد

الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ص ١٢٤

(٥) المكري ، ص ١٩ - التجاني ، ص ١٢٤ - محمد أبو راس الجربي ، مؤنس الاحبة

في اخبار جربة ، تحقيق محمد المزوقي ، تونس ١٩٦٠ ، ص ٤٠ - الخلاصة النقية ، ص ٨

(٦) الطبري ، ج ١ ص ٢٨١٧ - أبو المحاسن ، ج ١ ص ٨٤ - ابن عذارى ، ج ٢

ص ٥ - ابن أبي دينار ، ص ٢٢ . لم يثبت ان الاندلس وأفرنجة افتتحتا في خلافة عثمان ،

فان المصادر التاريخية تجمع على ان الشروع في فتح الاندلس لم يتم الا بعد ان تمكن موسى

ابن نصير عن فتح معبري الاندلس طنجة وسبتة في خلافة الوليد بن عبد الملك .

والصحابي أبو يقطان الذي يشير المالكي الى أنه غزا صقلية (١) .

ويبدو أن الأسطول الاسلامي الذي كان يتألف بوجه خاص من مراكب مصرية اشترك في العمليات الحربية ضد البيزنطيين في ولاية حسان ابن النعمان ، وقد أحرز هذا الأسطول في مياه قرطاجنة انتصارا ساحقا على الأسطول البيزنطي بقيادة البطريق جان اعظم قواد ليوتتيوس ، وكان هذا الأسطول قد نزل على الساحل الافريقي في سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) (٢) ، وفر معظم من كان بها من الروم في مراكبهم الى صقلية ، في حين تعرض من بقي منهم فيها لسيوف المسلمين (٣) . كذلك ساهم أسطول مصر في غزو جزيرة سردينيا في خلافة عبد الملك بن مروان ، وقيل خطأ أن الغزوة حدثت في سنة ٨٣ أو ٨٤ هـ ، والواقع أن والي افريقية في هذا التاريخ لم يكن موسى بن نصير الذي تولى قيادة الحملة وانما حسان بن النعمان ، وتغصيل خبر هذه الغزوة كما رواه ابن قتيبة ان عبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل عبد الملك أخيه سير عطاء بن أبي نافع الهذلي (٤) وقيل عطاء ابن رافع (٥) مولي هذيل في مراكب أهل مصر لغزو سردينيا ، فوصلت سفن عطاء الى سوسة للتزود بما يلزمها من أقوات ، وكان الوقت في بداية فصل الشتاء ، فنصح موسى بن نصير بالبقاء فترة الشتاء الى أن يطيب ركوب البحر ، ولكن عطاء لم يستمع لنصح موسى ، وشحن سفنه ، ثم رفع مراسيه ، فغزا جزيرة يقال لها سلسلة (لعلها سكلية أي صقلية)

(١) المالكي ، ص ٦٢

(٢) البكري ، ص ٢٨ - المالكي ، ص ٣٣ - Charles Diehl, Histoire du Moyen âge, t. III, Le Monde oriental de 395 à 1081, Paris 1936 p. 207

(٣) المغرب الكبير ، ص ٢٤٢

(٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٣٧ ، ج ٢ ص ٧٤

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨٣ - الذهبي ، العبر في خبر من غير ، تحقيق الدكتور

صلاح المنجد ، الكويت ١٩٦٠ ، ج ٢ ص ٢٢٢

وافتحها وأصاب فيها مغانم كثيرة وتحفا من الذهب والفضة والجوهر ،
ثم انصرف قافلا ، فأصابته عاصفة شديدة أغرقته وأغرقت معظم سفنه ،
فوجه موسى يزيد بن مسروق في خيل الى سواحل البحر للبحث عن
بقايا سفن عطاء وعمن قذفه البحر من أصحابه الناجين ، فأصاب يزيد تابوتا
منحوتا كان مليئا بالتحف . وقد استفاد موسى من الملاحين المصريين
الناجين ، فألحقهم بدار الصناعة بتونس ^(١) . غير أن المالكي يذكر
تاريخا يخالف فيه التاريخ السابق الذي أورده ابن قتيبة ، فيذكر أن عطاء
ابن رافع غزا في البحر بقصد الجهاد في سنة ١٠٧ هـ غزوة اشترك فيها
عدد كبير من المجاهدين من التابعين ، نخص بالذكر منهم اسماعيل بن
عبيدالله المعروف بتاجر الله الذي خرج مطوعا في تلك الغزوة فغرق
وهو متقلد المصحف ^(٢) ، والمالكي من المصادر الثقات الذين يعتمدون
على مصادر مغربية ، ولذلك نسيل الى الأخذ بتاريخه .

وفي سنة ٨٩ هـ قام عبدالله بن مرة بطالعة أهل مصر على موسى ،
فعمد له موسى على بحر افريقية فغزا سردانية وافتتح مدنها وغنم منها
غنائم كثيرة ^(٣)

ب - فضل المصريين في انشاء دار الصناعة بتونس :

لم يؤسس العرب الفاتحون في افريقية دارا لصناعة الأسطول الا
بعد حملة حسان بن النعمان الثانية ، ولم يصبح للمغرب الاسلامي
اسطوله الخاص به الا في سنة ٨٩ هـ ، وكان العرب الفاتحون لافريقية
يعتمدون في غزواتهم البحرية من سنة ٢٨ هـ الى ٨٩ هـ على سفن مصر

(١) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥

(٢) المالكي ، ص ٧٠

(٣) ابن قتيبة ، ص ٧٥

التي كانت تغزو جزر صقلية وسردانية وتقفل بعد ذلك الى قواعدهما في مصر على النحو الذي أوضحناه . وقد كان نشاط هذه السفن في النصف الغربي من البحر المتوسط يشتد حيناً ويفتر أحياناً ، بسبب تعرض سواحل مصر للغزو البحري البيزنطي كما حدث عندما غزا البيزنطيون الاسكندرية في سنة ٢٥ هـ ، وعندما حاولوا غزوها للمرة الثانية في سنة ٣٤ هـ ، وكما حدث أيضاً عندما أغاروا على البرلس في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري في سنة ٥٣ هـ واستشهد في هذه الغارة وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائذ بن ثعلبة البلوي ، وأبو عمرو بن قيس اللخمي في جمع كثير من الأهالي ^(١) ، وعندما أغاروا على دمياط للمرة الثانية في سنة ٩٠ هـ ^(٢) وأسروا أمير بحرها خالد بن كيسان ، وذلك رداً على غزوة صقلية وسردانية ، وعندما أغاروا على الاسكندرية فيما يقرب من سنة ١١٨ هـ ^(٣) ، وعلى دمياط في سنة ١٢١ هـ ^(٤) ، وذلك رداً على قيام ولاية المغرب بغزو صقلية في سنتي ١٠٩ ^(٥) ، ١١٠ في ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ^(٦) ، وفي سنة ١١٦ هـ ^(٧) في ولاية عبيد الله بن الحجاب .

وتبين لولاية العرب في افريقية أهمية انشاء دار صناعة للانشاء في إحدى مدن الساحل لتزويد الجيش البري بأسطول مستقل عن أسطول مصر ينفرد بحركاته في البحر لغزو صقلية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التي كانت تشكل خطراً ماثلاً أمام السواحل التونسية ، ويقوم بحماية هذه السواحل والدفاع عنها من غارات البيزنطيين .

(١) الكندي ، ص ٢٨

(٢) القرظي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢٧٧ (طبعة لبنان) - Cheira, p199

(٣) الكندي ، ص ٨٠ - القرظي ، الخطط ، مجلد ١ ص ٣١١

(٤) القرظي ، ج ١ ، ص ٢٧٧

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٠١ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٨

(٦) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢١٥ - ابن أبي دينار ، ص ٢٤ ، ٢٥

(٧) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢١٩

ويزعم بعض مؤرخي العرب أن بحر افريقية أصبح في سنة ٧٣ هـ عملا لتولاه محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ^(١) . وواضح أن هذا التاريخ غير صحيح ، لأن افريقية خرجت عن طاعة العرب منذ مقتل زهير ابن قيس البلوي في سنة ٦٩ هـ حتى قدوم حسان بن النعمان في حملته الأولى على افريقية في سنة ٧٤ هـ ^(٢) . وصحة هذا التاريخ في رأينا هو ٩٣ هـ اعتمادا على ما ذكره المقري اذ يقول : « كان (محمد بن أوس) من أهل الدين والفضل . معروفا بالفقه ، ولي بحر افريقية سنة ثلاث وتسعين ، وغزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير » ^(٣) . ومن المعروف أن أول غزوة غزيت في بحر افريقية حدثت في سنة ٨٥ هـ في ولاية موسى ابن نصير ، وذلك عندما عقد لولده عبدالله في البحر ^(٤) .

والى حسان بن النعمان يرجع الفضل في انشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ^(٥) الذي ينسبون اليه حركة تعريب الدواوين وتعريب العملات ، كما ينسبون اليه القيام بغرس البذور الأولى للفن العربي الاسلامي ، وانشاء بحرية اسلامية في المغرب . أبدى عبد الملك اهتماما كبيرا بالقوة البحرية ، وذلك بسبب ما تعرضت له البلاد الاسلامية في بداية خلافته من غارات الروم والمردة ، مما حمله على مهادتهم ، واقتسام دخل قبرص معهم ^(٦) . وقد اختلف مؤرخو

(١) الضبي ، بغية المنتسب في تاريخ اهل الاندلس ، مدريد ١٨٨٤ ، ص ٥١ - الحميدي ، حلوة المنتسب في ذكر ولاة الاندلس ، تحقيق محمد بن ناوي الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٤٢ (٢) المغرب الكبير ، ص ٢٤٢ وما يليها

(٣) المقري ، فتح الطيب من غصن اندلس الرطيب ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ،

ج ٤ ص ٥٨

(٤) ابن قتيبة ، ج ٢ ص ٧٥

(٥) ذكر ابن خلدون ان الخليفة عبد الملك هو الذي « اوعز الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد » (مقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٨)

(٦) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٢٩

العرب في اسم مؤسس دار صناعة تونس ، فبعضهم ينسبها الى حسان ابن النعمان ، وبعضهم ينسبها الى موسى بن نصير ، وبعضهم الى عبيد الله بن الحبحاب . غير أن عمل ابن الحبحاب في حقيقة الأمر لم يكن يعدو ترميم بناء دار الصناعة وتجديدها ^(١) ، ولذلك فإن الخلاف يصبح منحصرًا بين حسان وموسى . وللتوفيق بين الطرفين نرى ان حسان بن النعمان هو الذي شرع في انشاء دار الصناعة بتونس وذلك بعد أن أجرى البحر بين مرسى رادس وموضع دار صناعة السفن الواقع الى الشرق من تونس ^(٢) ، ثم استكمل موسى بن نصير بناءها من بعده ، ذلك لأن موسى بن نصير تولى على افريقية من قبل عبد العزيز بن مروان في اواخر سنة ٨٥ هـ ، وشغل منذ ولايته باستنزاع ثوار البربر في افريقية والمغرب الاوسط ، ولم يغز في البحر الا في آخر سنة ٨٥ هـ الغزوة المعروفة بالأشراف ، في الوقت الذي توفي فيه عبد العزيز بن مروان ، وقبيل وفاة عبد الملك بشهور معدودة ^(٣) . ولو أن موسى بن نصير هو الذي أسس تونس ودار صناعتها ، فكيف نعلل مقاطعة حسان لعبد العزيز واتصاله مباشرة بعبد الملك بن مروان الذي أمر أخاه عبد العزيز بتسيير الأقباط الى تونس ؟ وكيف نفسر قيام موسى بانشاء دار الصناعة ونتاج السفن في نفس السنة التي تولى فيها على المغرب وأغزي فيها بالمراكب التي صنعت بتونس الى صقلية في غزوة الأشراف ؟

ويذكر المؤرخون ان حسانا بعد أن تغلب على الكاهنة في سنة ٨٢ هـ ، وقضى على كل أثر للمقاومة في افريقية اتجه الى قرطاجنة للسرّة الثانية ليظهرها من البيزنطيين ، فاضطر هؤلاء الى الفرار بحرا ، واسترد

(١) البكري ، ص ٢٨ - ابن عداري ، ج ١ ص ٥١ - النويري ، ج ٢٢ ص ٨٥ - ابن أبي دينار القيرواني ، ص ١١

(٢) البكري ، ص ٢٨ ، ٢٩ - المكي ، ص ٢٧ - ابن أبي دينار ، ص ١١

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٢٦٥

حسان المدينة (١) ، ولكنه كان يخشى أن يفاجئه الروم بغزوها من البحر مرة ثانية ، فرأى ان يقيم تجاهها مدينة عربية اسلامية . فاختار لذلك الغرض موصعا قديما يقال له ترشيش ، وكانت مجرد قرية صغيرة تقع بجوار بحيرة الى الجنوب من مرسى رادس ، وعلى بعد نحو اثني عشر ميلا شرقي قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق روماني قديم ، فترك حسان ترشيش التي عرفت فيما بعد باسم تونس جماعة من المسلمين ، ومضى الى القيروان ، فأغار البيزنطيون عليهم من البحر ، ولم يكن يحميهم عنهم سور أو حصن ، فقتلوا لسيوف البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير . ولما بلغ حسان ذلك أرسل الى عبد الملك بن مروان (٢) وفدا من ٤٠ رجلا من أشرف العرب لاطلاعه على ما يعاينه المسلمون هناك من غارات أساطيل الروم ، وكتب اليه معهم رسالة وضح له فيها أهمية انشاء دار للصناعة في تونس ، فطلب منه ان يبعث اليه جماعة من الأقباط يتولون انشاء دار صناعة تونس ، وذلك لشهرة الأقباط في صناعة السفن (٣) .

(١) المالكي ، ص ٢٧ - Ch. Diehl, op. cit. p. 207 - مؤنس ، ص ٢٦

(٢) تجنب حسان بن النعمان الاحتكاك بعبد العزيز بن مروان والى مصر ، فلم يطلب منه ان يبعث اليه باللاحين والصناع الاقباط من مصر ، وذلك بسبب نزاع كان قائما بينهما مرجعه رغبة عبد العزيز في الاستئثار لنفسه بفنائم المغرب (المغرب الكبير ، ص ٢٥٠)

(٣) ساهم اقباط مصر في المعارك البحرية التي خاضها العرب مع البيزنطيين ، فلم يتن مع محمد بن ابي حذيفة في مركبه في يوم ذات الصواري سوى قبط (فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٣٨) ، ولذلك لم يكن للبحرية الاسلامية التي اشتبكت مع البيزنطيين من سمات عربية الا من حيث العنصر العربي المعارب فحسب (Cheira, P. 92, 93) . ومما يدل على شهرة المصريين في فن الملاحة وتسيير السفن ما رواه المقرئ اذ ذكر ان ابا سلمة بن عبد الرحمن اراد الخروج الى الاسكندرية في سفينة ، فاحتاج الى رجل يجذف ، فسخر رجلا من القبط (المقرئ ، الخطط ج ٢ ص ٥٨) ، ويؤكد ابن خلدون ان العرب « استخدموا النواية في حاجاتهم البحرية امما » ، اي انهم اعتمدوا على ابناء الامم التي خضعت لسلطانهم وكانوا خبراء بشؤون البحر وثقافته (ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٨ - سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧٣) . وكانت مصر من اولى البلاد التي اعتمد العرب على اهلها في شؤون الملاحة ، وتكشف البرديات من عدد كبير من الصناع المصريين ، كالتجاردين والعمال الهرة والمقلطين وقصارى الاقمشة ممن كانوا يشتغلون في دار الصنعة بالاسكندرية (فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٤٤)

وعظم على عبد الملك ذلك، وعز عليه - وكان رجلا مجاهدا شارك في فتوح افريقية في حملة معاوية بن حديج - أن يتعرض المسلمون لهذه الاخطار المتواصلة ، فعمل على تحقيق رغبة حسان ، ونصحه اثنان من الصحابة هما أنس بن مالك وزيد بن ثابت بامداد هذه البلاد ونصرة أهلها ، وبيّنا له فضل المراقبة فيها ، فكتب عبدالله الى أخيه عبد العزيز بمصر أن « يوجه الى معسكر تونس ألف قبضي بأهله وولده ^(١) ، وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهي تونس ، وكتب الى ابن النعمان يأمره ان يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ، ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر ، وان يصنع بها المراكب ويجهد الروم في البر والبحر ، وأن يغار منها على ساحل الروم ^(٢) » . فوفد القبط عليه وهو مرابط في تونس ، فجعل معظمهم في رادس ، ووزع الباقي في مراسى افريقية ، ثم أجرى البحر من رادس الى موضع دار الصناعة ، واستقدم البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، وأمر القبط بعمارتهما في الميناء المتصل بالبحيرة ، وأصبحت البحيرة متصلة بالبحر ، وتحولت تونس على هذا النحو الى قاعدة بحرية هامة ، لمهاجمة الجزر البيزنطية وفي مقدمتها صقلية وسردانية ، وميناء رئيسية تأوى اليها السفن في فصل الشتاء وتحتفي في مرساها عندما تهب العواصف والأنواء ، ودار صناعة تنتج للمسلمين السفن والآلات . وقدر لهذه المدينة أن تصبح أعظم ثغور افريقية بعد ذلك بثلاثين عاما على يدي عبيد الله بن الحبحاب (١١٦ - ١٢٢ هـ) ، وثغرا للجهاد البحري والغزو .

(١) ذكر التجاني ان عبد الملك امر عبد العزيز بان يوجه الى حسان الف قبضي والف

قبضية يستعين بهم (التجاني ، الرحلة ، ص ٦)

(٢) البكري ، ص ٣٨ - التجاني ص ٥ - ابن ابي دينار ص ١١

البحرية الاسلامية (٢)

ويذكر بعض المؤرخين أن موسى بن نصير هو الذي خرق البحر
الى تونس ، وأنه هو الذي بنى دار الصناعة وصنع بها مائة مركب غزا
بها صقلية الغزوة المعروفة بالأشراف ، وان هذه الغزوة كانت اولى
الغزوات في بحر افريقية (١) . وقد فندنا فيما سبق هذا الرأي ، ورجحنا
أن موسى بن نصير انما أكمل انشاء دار الصناعة بتونس أو أضاف اليها
ووسعها لتزيد في الانتاج ، وأشرف على انشاء عدد من السفن أسهمت
في غزوة الأشراف المذكورة .

(١) ابن أبي دينار ، ص ١٢ ، ٣٠ .

(٤)

غزوات العرب في بحر تونس في العصر الاموي

بعد أن أصبح لتونس اسطولها الخاص ، اتجه موسى بن نصير الى اصطناع سياسة بحرية من أهدافها السيطرة على جزر البحر المتوسط الغربي وعلى رأسها صقلية ، واتخاذها قواعد بحرية امامية تحمي السواحل الافريقية وتنطلق منها الغزوات المنتظمة على الأندلس وغالة . وقد طبق موسى بن نصير ومن خلفه من ولاة افريقية سياسة تقوم على الضغط المتواصل على الروم في صقلية ، بحيث لم يترك لأساطيلهم فرصة للتفوق البحري (١) . وأول الغزوات العربية في بحر افريقية غزوة الأشراف التي قوا فيها عبدالله بن موسى صقلية (٢) ، وفي نفس الوقت تقريبا أغزى عبدالملك بن مروان عبد الملك بن قطين في البحر ففتح ما كان هناك من الجزائر والقصور وخربها ، ومن بينها جزيرة قوصرة (بنظارية) الواقعة بين صقلية وساحل افريقية (٣) . ثم عقد موسى ليعاش بن أخيل (٤) على سفن افريقية ، فشتا في البحر ، وغزا جزيرة صقلية ، وأصاب مرقوسة ، فقاتل أهلها ، وقتل في سنة ٨٦ هـ (٥) . كذلك عقد موسى

(١) Cheira, p. 238

(٢) ابن أبي دينار ، ص ١٢

(٣) البكري ، ص ٤٥ - حسن حسني عبد الوهاب ، قصة جزيرة قوصرة ، المجلة الشهرية المصرية ، المجلد الثاني ، عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٤٩ ص ٥٩

(٤) وقيل عباس بن اجيل ، ويعاش بن شراحيل (الصبي) ، ص ١٧ ، ٤١٩ . وقد حمل جيش البحر زمن بني امية ودخل الأندلس في حملة موسى بن نصير ، ثم قدم بالسفن بها الى افريقية في سنة ١٠٠ هـ

(٥) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ص ٧٥ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٦ - الخلاصة ص ١٢

ابن نصير لعبد الله بن مرة على بحر افريقية في سنة ٨٩ هـ ، فغزا سردانية ، وافتتح مدنها وغنم غنائم كثيرة ^(١) ، وقيل فتحت في سنة ٩٢ هـ بعد فتح الأندلس ^(٢) ، فدخلها المسلمون ، وغنموا غنائم هائلة ، شحنوا بها سفنهم ، وعند عودتهم تعرضت سفنهم للفرق بسبب ثقل ما شحنوها به من آلات وأواني الذهب والفضة التي غنموها ^(٣) .

وفي سنة ٩٣ هـ ولي محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري بحر افريقية ، وكان غازيا بصقلية في الوقت الذي قتل فيه عامل افريقية يزيد بن أبي مسلم ^(٤) ، وذكروا ان ابن أوس غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ، كما تولى على بحر تونس في سنة ١٠٢ هـ ^(٥) .

وفي ولاية موسى أيضا افتتح ولده عبدالله جزيرة ميورقة سنة ٨٩ هـ ^(٦) ، وقد خلط كل من الذهبي وابي المحاسن بين هذه الغزوة وغزوة الأشراف التي قام بها عبدالله بن موسى . أما قصة استعانة طارق ابن زياد بسفن يليان ، صاحب سبتة ، الأربعة ^(٧) ، أو سفن التجار التي كانت تختلف بين ساحل طنجة وجبل طارق حتى لا يشعر الناس بحركة الغزو ^(٨) ، فأمر بعيد عن الحقيقة ، فمن المعروف ان دار الصناعة بتونس كانت تنتج سفنا اشتركت كما رأينا في كثير من الغزوات البحرية

(١) ابن قتيبة ، ص ٧٥

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٢٤ - ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٢٥ - ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٠٩ - الذهبي ، ج ٢ ص ٢٢٥ - ابو المعاسن ، ج ١ ص ٢٢٥

(٣) ابن عبد الحكم ص ٢٨٢ - النويري ، ج ٢٢ ، ص ٨٢ ، ٨٢

(٤) اتحاف اهل الزمان ، ص ٨٩

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٨٩ - الحميدي ، ص ٤٢ - الضبي ، ص ٥١ - المقرئ ،

ج ٤ ص ٥٨

(٦) ابن سعيد المغربي ، المغرب ج ١ ص ٢٦٦ - الذهبي ، ج ٢ ص ٢٢٩ - ابو

المعاسن ، ج ١ ص ٢١٦ .

(٧) اخبار مجموعة ، ص ٦

(٨) ابن عدي ، ج ٢ ، ص ٨

طرد الروم ، فمن الطبيعي اذن ألا يغامر موسى بن نصير بجيشه لينقله الى الأندلس بسفن أربعة « لا صناعة له غيرها » ^(١) تنقل فوجا بعد فوج ، وتختلف على هذا النحو بين ساحلي المجاز مرات عديدة قد تستغرق لنقل كل جيش طارق ومعداته أكثر من يومين حتى توافقت جموع المسلمين عند الجبل الذي عرف فيها بعد بجبل طارق ^(٢) . واذا كانت هذه السفن حقا ملكا ليليان فكيف يجوز لطارق ان يقوم بحرقها بفصد حث رجاله على الاستبسال في القتال ، فيقاتلوا قتال الموت ، ولا يفكر أحدهم في الفرار اعتمادا على وجود السفن ؟ ولسنا نصدق ان طارق يقدم على مثل هذا العمل الذي يدل على جهل بالقيادة ، لأنه بذلك يقطع على نفسه خط الرجعة ، واذا افترضنا أنه أحرق السفن الأربعة ، لما الفارق بين أن يتركها راسية وبين أن يحرقها في حالة انهزامه ؟ اذ ليس من المعقول ان يتدافع جنده في تلك الحالة ليركبوا هذه السفن الأربعة التي لا تتسع لحمل عشر الجيش اذا اعتبرنا ان كل مركب منها كانت تتسع لما يقرب من مائتي رجل . ونعتقد ان سفنا عديدة لا يقل عددها عن ٣٥ سفينة بالإضافة الى مراكب اخرى لنقل المعدات والأقوات قد استخدمت في عملية النزول بالأندلس ، وأن طارق فيما يظهر أحرق بعض هذه السفن حتى يدفع الحماس في جنوده فيوطنوا أنفسهم على الاستشهاد او الفتح ، فحذف النساخ النقطة من الخاء ، وخرق السفن يختلف كثيرا عن حرقها لأن الخرق من الممكن مداواته وعلاجه عند الضرورة وقد يكون ذلك هو المقصود . ويبدو ان موسى بن نصير منذ وجه طارقا لوجهته ، أمر بصناعة مزيد من السفن لنقل دفعة جديدة من

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٢٢٨

(٢) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور مختار المبادي ، صحيفة المعهد المصري بمطبعة ١٩٦٥ ، مجلد ١٢ ص ٤٥ ، ٤٦

الجند عدتها خمسة آلاف مددا لطارق ، فصنع فيها عدة كثيرة (١) ،
كذلك نعتقد ان دار الصناعة بتونس أتتج عددا آخر من السفن
استخدمها موسى بن نصير في حملته على الأندلس في سنة ٩٣ ، وهي
حسلة أضخم بكثير من حملة طارق اذ كان جيشه يتألف في هذه المرة من
١٨ الفا من العرب ووجوه الناس (٢) .

وتابع ولاية المغرب بعد موسى بن نصير سياسة الغزو البحري
التماسا للجهاد ضد البيزنطيين ، فقد غزا اسماعيل بن عبيد الله بن ابي
المهاجر أمير افريقية بحر افريقية (١٠٠ هـ - ١٠١ هـ) مع أبي عقيل
زهرة بن معبد بن عبد الله التيمي ، وأبي عبد الرحمن الجبلي (٣) .
واشترك محمد بن يزيد القرشي في غزوة صقلية سنة ١٠٢ هـ (٤) . وفي
سنتي ١٠٣ هـ ، ١٠٦ هـ غزت جزيرة سردينيا في البحر ، في حين
هوجمت صقلية سنة ١٠٨ هـ في غزوة قام بها قثم بن عوانة . وفي سنة
١٠٩ هـ غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه ، فأصاب بها سبيا كثيرا (٥) .
ولما ولي عبيدة بن عبد الرحمن السلمي امارة افريقية في سنة ١١٠ هـ ،
بعث المستنير بن الحارث الحريشي غازيا الى صقلية في سنة ١١٣ هـ ،
فقضي المستنير فصل الشتاء مجاهدا في صقلية ، وعند قفوله من غزوته
ثار البحر ، ففرقت سفنه بمن فيها من المسلمين ، ولم ينج الا المستنير في
مركبه الذي قدفته الرياح الى ساحل طرابلس ، وبلغ ذلك عبيدة ، فأمر

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤١

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٩٤

(٣) المالكي ، ص ٩٠

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٨٢ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٢ - السلاوي ، ج ١ ص ١٠٢

(٥) ابن عداري ، ج ١ ص ٤٨ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٠١ - الخلاصة النفية ، ص ١٣

يريد بن مسلم الكندي عامله بطرابلس بالقبض عليه ، وشد وثاقه ،
وارسالة اليه بالقيروان ، ففعل ذلك ، فلما وصل الى القيروان أمر به
عبدة فجلد ، وطيف به في المدينة على آتاز ، ثم القي به في السجن ، فظل
به حتى أفرج عنه الوالي الجديد عبيد الله بن الحجاب في سنة ١١٤ هـ ،
وولاه تونس ^(١) . وذكر ابن عبد الحكم ان عبدة انتقم من المستنير لأنه
« أقام بأرض الروم حتى نزل عليه الشتاء واشتدت امواج البحر
وعواصفه » ^(٢) ، ومن المعروف ان تجهيز الأساطيل للغزو كان يبدأ عندما
يصحو الجو في شهر أبريل ، وتنتهي الغزوات في أول أكتوبر من كل سنة ،
ولا يمكن ان يطول لبث السفن في البحر خلال فصل الشتاء ، وهو
الفصل الذي ينغلق فيه البحر ^(٣) .

وفي سنة ١١٦ هـ أغزى ابن الحجاب حبيبا بن أبي عبدة بن عقبة نافع
الى صقلية ، وفي هذه الغزوة اشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم في قتال
عنيف انتهى بهزيمة الروم ^(٤) . كذلك أغزاه في البحر في سنة ١١٧ الى
جزيرة سردانية ، فغنم المسلمون غنائم هائلة ^(٥) ، ثم أغزاه في سنة
١١٨ هـ الى جزيرة قوصرة ، وأغزاه للمرة الثانية الى جزيرة صقلية في سنة
١٢٢ هـ ، فاصطحب معه حبيب بن ابي عبدة ولده عبد الرحمن ، فلما
لؤل بأرضها اشتبك ابنه عبد الرحمن في جماعة من فرسان المسلمين مع
الروم وهزمهم ، ونزل على مدينة سرقوسة ، فقاتله الروم ، ولكنه انتصر
عليهم ، فصالحوه على الجزية ، وعاد عبد الرحمن الى القاعدة التي استقر
بها جيش أبيه حبيب ، وكان حبيب قد عزم على المقام بصقلية حتى

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢١٥

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٢ - ابن ابي دينار ، ص ٢٥

(٣) Cheira, p. 93

(٤) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢١٩

(٥) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٢٢

يستكمل افتتاحها ، فأتاه كتاب ابن الجحباب يستدعيه الى افريقية عندما بلغه وثوب البربر في طنجة بعامله عمر بن عبدالله المرادي واشعالهم نار الثورة في المغرب الأقصى (١) .

وفي سنة ١٣٠ هـ تم للمسلمين فتح جزيرة قوصرة في ولاية عبد الرحمن ابن حبيب الفهري ، وفي سنة ١٣٥ هـ غزا عبد الرحمن الفهري صقلية وسردانية فسبى منها وغنم ، وصالح أهل سردانية على الجزية (٢) .

ثم غلبت الخارجية على المغرب بعد انقراض دولة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وأصبح المغرب الاسلامي في قبضة الاباضية والصفورية ، وأصاب الخمول قاعدة افريقية البحرية ، وتوقفت غارات المسلمين في بحر المغرب فترة دامت ما يقرب من نصف قرن، استعادت بيزنطة خلالها سيادتها في البحر المتوسط (٣) . وقد ساعد على خمول النشاط البحري في المشرق والمغرب انصراف الدولة العباسية عن شؤون البحر المتوسط وعكوفها على مشاكلها الداخلية في آسيا ، واذا كانت البحرية الاسلامية قد نشطت في القسم الغربي من البحر المتوسط في طليعة القرن الثالث الهجري، ونجح المسلمون في المغرب والاندلس في الاستيلاء على جزيرتي اقريطش وصقلية ، فانه مما لا شك فيه ان الفضل فيما احرزه المسلمون من تفوق بحري في هذا القرن يعود الى المغاربة والاندلسيين (٤) .

وفي خلال فترة الخمول البحري التي امتدت من ١٣٥ هـ الى ١٨٥ هـ تقريبا قنع المسلمون بنظام الرباطات او المناور المقامة على السواحل

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢٢٢ - ابن قناري ، ج ١ ص ٥٢

(٢) نفس المصدر، ج ٣ ص ٢٤٥ - ابن عذاري ج ١ ص ٧٢ - اتحاف اهل الزمان، ص ٩٢

(٣) فتح عثمان ، ج ٢ ص ٢٤٠

(٤) فتح عثمان ، ج ٢ ص ١٢٢ ، وما يليها

التونسية ، كالشأن في رباطات فلسطين التي وصفها كل من البلاذري والمقدسي . وقد اقترنت نشأة الرباطات في المغرب بعصر الفتوح ذلك لأن المغرب الإسلامي كان ارض جهاد ^(١) ، وكان ساحله كله معرضا للغارات البحرية المفاجئة التي يوجهها البيزنطيون من قواعدهم في صقلية وسردانية وجنوبي إيطاليا على السواحل التونسية ، ولذلك اعتبره المسلمون « ثغرا يعد الرباط فيه جهادا في سبيل الله وقرية اليه » ^(٢) . وكانت سواحل افريقية اكثر سواحل المغرب تعرضا لأخطار الغزو البحري البيزنطي ، وعلى هذا النحو نشأت الأربطة والمحارس او المناور على طول ساحل افريقية وبرقة منذ عصر مبكر ، فأقيمت في طرابلس الغرب وما يليها غربا ، وفي سفاقس وسوسة والمنستير . ومن المعروف ان هزيمة بن أعين والي افريقية من قبل الرشيد زود المنستير بالقصر الكبير في سنة ١٨٠ هـ ^(٣) . ثم كان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية ، والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية حافزا على زيادة اهتمام الأغلبية بتحصين هذه السواحل بالرباطات والمحارس . وقد لعبت الرباطات دورا هاما في الحياة الدينية والحرية ببلاد افريقية ، وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلا للذير باقتراب سفن العدو ، وعن طريق هذه الاشارة تستعد الحاميات المرابطة وتتأهب لملاقاة العدو برا وبحرا ^(٤) . وقد ساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم ، وكان الخروج لمداغة الروم في صقلية وجزر البحر المتوسط غاية ما يشتهي العابدون المرابطون ، ولا شك أن اختيار زيادة

(١) محمد توفيق بلبع ، نشأة الرباط وتطوره واهمية الرابطة في تاريخ المسلمين ، مقال في دراسات اثرية وتاريخية ، من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ، عدد ٢ ، ١٩٦٨ ص ٤١
(٢) حسين مؤنس ، مقدمة كتاب رياض النفوس ، ص ٢٥ م
(٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٩٦ - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٠٩ - ابن الخطيب ، الجزء الثالث ، ص ١١
(٤) المغرب الكبير ، ص ٤٤٩ - مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ص ٢٠١ - محمد توفيق بلبع ، نشأة الرباط ، ص ٥٤

الله بن الأغلب امير افريقية للقاضي أسد بن الفرات ، مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك ، قائدا للحملة البحرية على صقلية في سنة ٢١٢ هـ يعبر أصدق تعبير عن روح الجهاد السائدة ^(١) . ومن أقدم أربطة افريقية رباط المنستير الواقع بين سوسة والمهدية ، وكان في الأصل رباطا أو قصرا يربط فيه المسلمون لحماية ثغور افريقية من غارات الروم ، ثم أضيف اليه في أيام هرثة بن أعين قصرا اتجعه الناس ، وبنوا بيوتهم حوله ، وأقيم بالقرب من المنستير محارس خمسة كانت معمورة جميعا بالصالحين ^(٢) . وكان يقوم بين رباط المنستير والمهدية رباط يعرف باسم شقائنس يقع على حافة البحر ^(٣) . ومن تونس انتقل نظام الرباط الى سواحل المغرب والأندلس وصقلية . وقد اهتم الامويون في الأندلس منذ سنة ٢٣٠ هـ بنظام الرباطات والطلائع ، فأقاموا الكثير منها على طول الساحل الشرقي والجنوبي الشرقي من الأندلس لمواجهة غارات النورمان ، ومن أهم هذه الرباطات الأندلسية رباط المرية الذي أنشيء عند رأس قبطة بني أسود Cap de Gata ، على حاشية البحر ^(٤) . قريبا من قرية البجانس الواقعة في نهاية جون المرية . وكان هذا الرباط أو الرابطة مزودا ببرج من الحجارة خصص لوقيد النار عند ظهور العدو في البحر على مسافة تصل الى ستة أميال ^(٥) ، ومنها أيضا رباط كان مقاما عند الزقاق ، هو رباط التوبة الواقع تجاه مدينة ولبة قريبا من مصب نهر تننو ، في نفس الموضع الذي يقوم عليه اليوم دير الرابطة المشهور ^(٦) . وفي المغرب الأدنى كانت سفاقس وما يليها من سواحل محصنة

(١) المغرب الكبير ، ص ٢٨٦

(٢) البكري ، ص ٣٦

(٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٧٤

(٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٩٨

(٥) نفس المصدر

(٦) الحميري ، الروض المعمار ، ص ٦٤ - Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, Paris, 1953, p. 112.

بمسلسلة من الأربطة والمحارس ، نخص بالذكر منها محرس بطوية الذي كان مزودا بمنار مفرط الارتفاع يرقى اليه في ١٦٦ درجة ، ومنها محرس حبله ، ومحرس أبي الفصن ، ومحرس مقدمان ، ومحرس اللوزة ، ومحرس الريحانة ^(١) . وقد استمر الاقبال على تأسيس الأربطة في بلاد المغرب في عصر الاغالبة ^(٢) ، والاندلس في عصر بني أمية ، وعمت حركة المراقبة حتى شغلت روح الرباط قبائل بأسرها للجهاد في العصور التالية . وقد بلغ عدد اربطة سبتة وزواياها في القرن التاسع الهجري نحو من سبع وأربعين ما بين زاوية ورابطة محاذية للبحر من جانبي الشمال والجنوب ، بينما بلغ عدد المحارس ثمانية عشر محرسا تمتد من سبتة الى اثني عشر ميلا من خارجها من جهة البحرين وما وراء ذلك الى ملاد الريف وطنجة ، بخلاف الناظور او الطالع الكبير الواقع على جبل مينائها والذي بناه المرابطون هنالك ^(٣) . وفي كتاب المسند الصحيح لابن مرزوق ان أبا الحسن المريني أقام من المحارس والمناظر على السواحل المغربية ما لم يعهد مثله في عصر من العصور ، وليس أدل على ذلك من أنه كان يتوزع على الساحل محارس ومناظر من مدينة آسفى الواقعة على المحيط الى جزائر بني مزغنة من المغرب الأوسط « اذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة ، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحو من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار

(١) الكرى ، ص ٢٠

(٢) وذكرنا ان محمد بن أحمد بن الاغلب (ت ٢٦١ هـ) بني الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى كانت النار توقد من سبتة فيصل الخبر الى الاسكندرية في ليلة واحدة (ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٠)

Torres Balbas, Ràbitas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol. XIII 1948, PP. 475-491.)

(٣) اختصار الاخبار ل محمد بن القاسم بن محمد بن محمد الانصاري السبتي ، نشره ليلى بروفنسال ، في مجلة Hespérís ، ج ١٢ ، كراسة ٢٢ ، سنة ١٩٢١ ، ص ١٥٥ ، ١٥٦

وطلاع يكتشفون البحر ، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد
المسلمين الا والتنير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل
ساحلهم » (١) .

(١) الخطيب ابن مرزوق ، نخب من كتاب السند الصحيح في مآثر مولانا ابي الحسن ،
نشره ليفي برونسسال في مجلة Hespéris ، العدد الاول سنة ١٩٢٥ ص ٢٠ وما يليها .

الفصل الثاني

هوامل تفوق البحرية المغربية الاندلسية في القرنين الثالث والرابع للهجرة.

أولا - امتداد السواحل المغربية والأندلسية وكثرة المراسي

ثانيا - سيطرة المسلمين على الجزر الواقعة أمام الساحل المغربي
الأندلسي

ثالثا - توافر المواد اللازمة لصناعة السفن

رابعا - اتصال المغرب والأندلس بالشرق الاسلامي علميا واقتصاديا

الفصل الثاني

العوامل تفوق البحرية المغربية الاندلسية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

منذ نهاية القرن الثاني للهجرة أخذت بيزنطة تهمل شأن قواتها البحرية مجارية في ذلك المسلمين الذين انصرفوا عن البحر منذ قيام الدولة العباسية التي اتبعت سياسة شرقية ، ونقضت يدها من مشاكل البحر المتوسط ، غير أن المغرب الاسلامي بعد انفصاله عن العباسيين في ثالث الاخير من القرن الثاني الهجري لم يحد حذوهم ، بل أخذ يتجه لها بحريا ، ولم يلبث مسلمو المغرب والأندلس أن استغلوا لمصلحتهم اضطرابات التي واجهت البيزنطيين في الداخل وانشغال هؤلاء بمحاربة البلغار في عهد ليون الخامس ، وباخماد ثورة توماس التي قامت في صاب مصرع ليون الخامس في ٢٥ ديسمبر سنة ٨٢٠ م (٢٠٥ هـ) استمرت السنين الثلاث الأولى من عصر الامبراطور البيزنطي ميشيل الثاني (٨٢١ - ٨٢٣) والتي كان لها خطورتها الواضحة من النواحي الاجتماعية والدينية والسياسية (١) . وهكذا تغير الموقف في حوض البحر المتوسط الغربي والأوسط ، وآلت السيادة البحرية الى المسلمين . ترجع الفضل في التفوق البحري الذي أحرزه المغرب الاسلامي على البيزنطيين الى العوامل الآتية :

١ : امتداد السواحل المغربية والاندلسية وكثرة المراسي :

حب الطبيعة بلاد المغرب عامة وافريقية بوجه خاص بالمقومات السياسية لقيامها بدور بحري هام ، فان شكل الساحل التونسي، ووضع

Vasiliev, Byzance et les Arabes, t.I, la Dynastie d'Amorium (١١١)

Bruxelles, 1935, pp. 22 - والترجمة العربية ص ٢٨

الفصل الثاني

هوامل تفوق البحرية المغربية الاندلسية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

منذ نهاية القرن الثاني للهجرة أخذت بيزنطة تهمل شأن قواتها البحرية مجارية في ذلك المسلمين الذين انصرفوا عن البحر منذ قيام الدولة العباسية التي اتبعت سياسة شرقية ، ونقضت يدها من مشاكل البحر المتوسط ، غير أن المغرب الاسلامي بعد انفصاله عن العباسيين في الثالث الأخير من القرن الثاني الهجري لم يحذ حذوهم ، بل أخذ يتجه اتجاها بحريا ، ولم يلبث مسلمو المغرب والأندلس أن استغلوا المصلحتهم الاضطرابات التي واجهت البيزنطيين في الداخل وانشغال هؤلاء بمحاربة البلغار في عهد ليون الخامس ، وباخماد ثورة توماس التي قامت في أعقاب مصرع ليون الخامس في ٢٥ ديسمبر سنة ٨٢٠ م (٢٠٥ هـ) واستمرت السنين الثلاث الأولى من عصر الامبراطور البيزنطي ميشيل الثاني (٨٢١ - ٨٢٣) والتي كان لها خطورتها الواضحة من النواحي الاجتماعية والدينية والسياسية ^(١) . وهكذا تغير الموقف في حوض البحر المتوسط الغربي والأوسط ، وآلت السيادة البحرية الى المسلمين . ويرجع الفضل في التفوق البحري الذي أحرزه المغرب الاسلامي على البيزنطيين الى العوامل الآتية :

اولاً : امتداد السواحل المغربية والاندلسية وكثرة المراسي :

حبت الطبيعة بلاد المغرب عامة وافريقية بوجه خاص بالمقومات الاساسية لقيامها بدور بحري هام ، فان شكل الساحل التونسي، ووضع

Vasiliev, Byzance et les Arabes, t.I, la Dynastie d'Amorium (١١)

Bruxelles, 1935, pp. 22 Sqq - والترجمة العربية ص ٢٨

البلاد الجغرافي . وامتداد سواحلها على مسافة تصل الى نحو ١٤٠٠ كم. ، متصلة في الشرق بسواحل ليبيا التي تستد بدورها مسافة تصل الى ١٩٠٠ كم. تقريبا ^(١) ، وبسواحل المغربين الأوسط والأقصى حتى المحيط الأطلسي في شريط طويل، وكثرة خلجانها وجزرها البحرية الحامية للسواحل ، بالإضافة الى موقعها المركزي في حوض البحر المتوسط ، حتم عليها القيام بهذا الدور ، وتقرير مصيرها البحري في ثقة تامة ^(٢) . وقد ادرك الفينيقيون هذه الخصائص والمزايا التي تتمتع بها البلاد التونسية لأنهم كانوا شعبا من الملاحين والتجار بطبيعتهم ، كما بنى الوندال سياستهم البحرية على هذا الأساس ^(٣) . وقد لاحظ ابن خلدون أهمية هذا الامتداد الساحلي لأفريقية والمغرب وأثره الكبير في مهارة المغاربة في خوض مياه البحر وفي قدرتهم على ركوبه فقال : «والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوته يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار . فقد كانت الروم والأفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله . ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدو الجنوبية مثل الروم الى أفريقية والقوط الى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها ، وتغلبوا على البربر بها ، وانتزعوا من أيديهم أمرها . وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة، ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل البحر الساكنين حفافيه ، معروفة في القديم

(١) مصطفى عبدالله بغيو ، دراسات في التاريخ اللوبي ، الاسكندرية ١٩٥٢ ، ص ١١ .

(٢) Brunnschwig (R.) : La Berberie Orientale sous les Hafsides

t. II, Paris 1940, p. 94 - Pellegrin, Histoire de la Tunisie, 1948 p. 19

(٣) المغرب الكبير، ص ٢٢

والحديث « (١) » . ويصف ابن خلدون وظيفة قيادة الأساطيل في المغرب بأنها « من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية ... ويسمى صاحبها في عرفهم المند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الافرنجة ، فانه اسمها في اصطلاح لغتهم ، وانما اختصت هذه الرتبة بملك افريقية والمغرب لانها جسيما على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب » (٢) .
ويفسر الأستاذ روبر برنشفيج كلمة المند بأنها قد تكون مشتقة من القملانية الميراث التي اشتقت بدورها من العربية أمير البحر (٣) .
وقد أثر امتداد الساحل التونسي على شكل شريط ساحلي طويل يتصل بسواحل طرابلس وبرقة ولويا ومصر من جهة الشرق ، وبسواحل المغربين الأوسط والأقصى حتى المحيط الاطلسي من جهة الغرب ، في الحياة الاجتماعية لسكانه ، فكانوا يتميزون بنشاطهم البحري الذي لم يكن يتضح الا في الاوقات التي يقطع فيها المغرب صلته السياسية بغيره ، ويتحرر من التبعية للخلافتين الأموية والعباسية (٤) ، فيارسون هذا النشاط بهمة لا يباريهم فيها الا الشعوب المطلة على حوض البحر المتوسط من الجهة الشمالية ، وقد بلغ هذا النشاط الذروة في القرن الثالث ، احتلالهم صقلية واقريطش ومالطة وقورشة وسردانية وجنوبي ايطاليا .
ومن الملاحظ بالنسبة للبلاد اللوية أن خليج سرت المستد ما بين الرأس البارز لشبه جزيرة برقة حتى مدينة سوسة في افريقية كان له أعظم الأثر في الاقتصاد اللوبي ، اذ أصبحت موانئها أقرب المنافذ لحاصلات افريقيا دون بقية الموانئ المغربية الأخرى ، وبذلك قصرت طرق الوصول الى تجارة أواسط افريقيا في مواطنها الأصلية (٥) ، ومن المعروف أن حاصلات

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٧

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٦

(٣) Brunschvig, t. II, p. 94, note 3

(٤) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٨٩ ، ٢٤٨

(٥) مصطفى بيمو ، ص ١١٣

السودان كانت تصل الى مرافئ برقة وإلى طرابلس عن طريق أوجلة ومدينة كوار . وقد استغل الفينيقيون في العصر القديم هذه الظاهرة فأقاموا على سواحل ليبيا محطات تجارية ممثلة في أويا (طرابلس) ولبدو وصبراته . وتعتبر طرابلس من أهم قواعد الأساطيل المغربية في العصر الاسلامي ، فكانت مركزا لغارات الأسطول الاغربي على جزيرة مالطة التي افتتحها الأغالبة في سنة ٢٥٥ هـ . وكانت في العصر الفاطمي دار صناعة للأسطول الفاطمي ، فازدادت أهيتها العسكرية عندما اتخذت قاعدة من قواعد أسطول صقلية ^(١) . وظهر من أهل طرابلس بحريون مهرة شغلوا مناصب كبيرة في البحرية الفاطمية ، من بينهم ابن وسيم الاطرابلسي ^(٢) . وفي أيام المعز بن باديس الزيري انشأ خليفة بن وروا بطرابلس أسطولا كان له أثر كبير في تدعيم بحريتها ، بحيث أصبحت طرابلس قوة بحرية يخشى الزيريون بأسها ^(٣) .

أما الأندلس فشبه جزيرة ، سواحلها يدور بها البحر المتوسط من الجهتين الشرقية والجنوبية الشرقية والمحيط الأطلسي من الجهات الجنوبية الغربية والغربية والشمالية الغربية . ولقد تعرضت سواحل الأندلس على الأقل في المنطقة الساحلية الممتدة جنوبا من مصب وادي ابرة عند طرطوشة ثم شمالا حتى مصب وادي تاجه عند أشبونة في الغرب في القرنين الثالث والرابع لغارات قوى الأعداء ^(٤) ، فكانت الأندلس لذلك «دار جهاد وموطن رباط ، وقد أحاط بشرقيها وشماليها

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة في تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ، مجلد الاول ، بنفاري ، ١٩٥٨ ص ١٨

(٢) نفس المرجع ، ص ١٦

(٣) نفسه ، ص ٢٤

(٤) Lévi - Provençal, Histoire t. III, p. 109

وبعض غربيها أسنان أهل الكفر» (١) . وهكذا نشأت الأربطة على سواحل الأندلس ، وأهمها قاعدة مرية بجانة الواقعة في الجنوب الشرقي من الأندلس ، موضع الاحتكاك مع أمم النصرانية ، اتخذها العرب «رباطا» . وابتنيت فيها محارس ، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها ولا عسارة فيها يومئذ ولا سكنى» (٢) . واسم المرية في حد ذاته مشتق من وظيفتها أو من الغرض الذي أقيمت من أجله ، إذ كانت تتخذ في الأصل مرمى (٣) ، ومحرسا بحريا لمدينة بجانة القريبة منها ، والتي لا تبعد عنها بأكثر من ستة أميال شمالا (٤) . وكان لا بد لأهل السواحل ، بحكم احتكاكهم بالبحر وبحكم عزلة بلادهم عن بقية أقطار العالم الاسلامي ، واحاطة الأعداء بهم خاصة من الجهة الشمالية الشرقية ، الى انتهاج سياسة بحرية ، فالأندلسيون لذلك هم وأهل صقلية أخبر الناس بالبحر المتوسط وبعهوده وخلقائه لأنهم «يسافرون فيه ويفزون من هو يليهم ، وفيه طرقتهم الى مصر والشام» (٥) . وعند أمراء بني أمية الى توطين بعض الأسرات المربية على الساحل الجنوبي الشرقي لحمايته من الغارات التي يفسنها النورمان أو القطلانيون أو البيشيون أو البنادقة ردا على غارات المسلمين على السواحل الايطالية ، فأنزلوا جماعة من عرب اليمن وهم ملو سراج القضايعون على ساحل بجاية ، ووكلوا اليهم «حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل» (٦) ، فعرف الاقليم لذلك باسم أرش اليمن . ثم لزل مرية بجانة في سنة ٢٧١ هـ جماعة من البحريين الأندلسيين الذين كألوا يترددون بسفنهم فيسا بين الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس

(١) الحميري ، ص ٢

(٢) الطبري (ابن الدلائي) نصوص ، عن الأندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك الى جميع الممالك ، تحقيق الدكتور عبد الطراز الاهواني ، مدريد ١٩٦٥ ص ٨٦

(٣) الحميري ، ص ١٨٢ (٤) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٠٠

(٥) المقدسي ، احسن التفاضيم لمعرفة الاقاليم ، ص ١٥

(٦) الحميري ، ص ٢٧

وساحل تنس بالمغرب الأوسط ، وكان بعضهم من المولدين أو المعاهدة ^(١) ، وقد توسع هؤلاء البحريون في الاختطاط بأرض بجانة في إمارة عبدالله ، فاتخذوا بها عشرين حصنا منها حصن الحامة والخاية وبرشانة وعاليه وبني طارق وناشر ^(٢) .

ومما لا شك فيه أن امتداد السواحل كان سببا في تعدد المراسي ، ونشأة قواعد بحرية للحط والاقلاع في الخلجان والأجوان التي تنكسر فيها السواحل نحو الداخل ، فتساعد السفن على الارساء بعيدا عن تيارات البحر وأنوائه . ومن أهم مراسي افريقية مرسي تونس الذي يقع في وسط خليج خارج عن البحر على نحر بحيرة محققة ^(٣) ، وكان مرسي تونس يعرف باسم مرسي رادس ^(٤) ، ومنها مرسي سوسة الذي يقع على الساحل الى الجنوب الشرقي من تونس ، ومن سوسة فتح المسلسون جزيرة صقلية ^(٥) ، ومرسي المهديّة وتقع شرقي سوسة على طرف داخل في البحر الذي يحيط بها ، وكانت المهديّة فرضة للقيروان تأتيها السفن من مصر والشام والأندلس وبلاد الروم ^(٦) ، ومرسي صفاقس ويقع الى الشرق من المهديّة ، وكان مرسي ميت المياه ^(٧) ، ومرسي قابس وكان مرفئا للسفن الصغيرة والمتوسطة التي كانت تدخل في واديه ^(٨) . وكان لمدينة بونة مرسي حسن تخرج منه الشوانى غازية الى بلاد الروم وسردانية وقرشقة وما والاها ^(٩) . أما طرابلس الغرب فكان لها مرسي مأمون من

(١) Levi-Provençal, Histoire t. III, P. 109

(٢) ابن حبان ، القتبس في تاريخ رجال الاندلس ، قطعة من عهد الامير عبدالله ، نشرها الاب ملشور انطونية باريس ، ١٩٣٧ ص ٥٢

(٣) الاديسي ، ص ١١١ ، ١١٢

(٤) البكري ، ص ٣٧

(٥) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١١٦

(٦) الاديسي ، ص ١٠٧ وما يليها .

(٧) الاديسي ، ص ١٠٧

(٨) نفسه ص ١٠٧ - تقويم البلدان ص ١١٢

(٩) البكري ، ص ٨٢

الرياح ، وكان ساحلها كثير الأربطة ، وأشهرها رباط مسجد الشعاب ^(١) ، وكان لجيجل مرسيان أحدهما في جنوبها وهو مرسى صعب ، والثاني في الشمال وهو ساكن الحركة حسن الارساء ، ويسمى مرسى الشعراء ، وبالقرب من جيجل كان يقع مرسى القل ^(٢) .

ومن مراسي المغرب الأوسط : بجاية التي كان لها جون عميق بحميتها ، ويعبر منه بالمراكب اليها ^(٣) ، ومرسى فروخ فرضة تاهرت ، ومرسى الدجاج ، وكلاهما كان مأمونا لضيقه ، ومقصد الأساطيل الأندلسية بوجه خاص ^(٤) ، ومرسى وهران ومرسى هنين وكانا فرضتي تلمسان ^(٥) . وكان لوهران مرسي يقال له أرزاو ، كما كان لتلمسان فرضة تسمى أرسقول ، وأشهر مراسي المغرب الاوسط مرسي تنس التي أنشأها البحريون من أهل الأندلس ^(٦) .

ومن مراسي المغرب الأقصى : المزمه وهي فرضة مشهورة يبرر المدوة ، ومرسى سبتة مورد بر العدو وبر الأندلس ، ومفتاح باب المرفقين ، ومجمع البحرين ، ومرسى آنفا ، ومرسى مازيغين ومرسى أسفى ^(٧) ، ومرسى فضالة الواقع بالقرب من سلا وكانت ترده المراكب من الأندلس ^(٨) .

ومن مراسي صقلية مسيني وطبرمين وقطانية وسرقوسة والبالص

(١) البكري ، ص ٧

(٢) الإدريسي ص ٩٧ ، ٩٨

(٣) العمري ، وصف الفريقية والمغرب والاندلس ، تحقيق الأستاذ حسن حسنى عبد

الوهاب ، تونس ١٩٠٦ ص ٦

(٤) البكري ص ٦٥ - الإدريسي ص ٨٩

(٥) تقويم البلدان ص ٧

(٦) ابن عشاري ، ج ١ ص ١٥٤

(٧) الإدريسي ، ص ٧٢ ، ٧٤

(٨) نفس المصدر ، ص ٧١ ، ٧٢

وقرينس (١) . ومن مراسي قرشقة مرسى البوالص ومرسى الزيتونة (٢) ،
ومن مراسي جربة البرج الكبير المعروف بالحصار، ومرسى آجيم، ومرسى
الساقية ومرسى انرملة ومرسى التفاح (٣) . ومن مراسي ميورقة
قطين (٤) ، ومن مراسي الأندلس : بنشكلة وبلنسية وشاطبة ولقنت
وقرطاجنة الخلفاء مرسى مرسية (٥) ، ومرسى محلة من عمل المرية
ومرسى بزليانة من عمل مالقة (٦) ، ومرسى جبل طارق ومرسى الجزيرة
الخضراء ومرسى سهيل من مالقة ، ومرسى المنكب ومرسى النيرة الذي
يلي البجانس المجاورة لمالقة ، ومرسى عذرة ومرسى بليسانة ومرسى
شلوبنية ومرسى مرية بلش (٧) .

ثانياً : سيطرة المسلمين على الجزر الواقعة امام الساحل المغربي الاندلسي :
كان لاستيلاء المسلمين على جزيرتي قبرص ورودس أعظم الأثر
في تدعيم البحرية الاسلامية في شرق البحر المتوسط ، فقد اتخذهما
المسلمون قاعدتين هامتين ، وجهوا منهما الحملات على أملاك الدولة
البيزنطية ، فقبرص تستند أهميتها من موقعها الجغرافي في الزاوية
الشمالية الشرقية من حوض البحر المتوسط ، وهو موقع يجعلها تتحكم
بسهولة في مياه هذا القسم الشرقي من البحر بما يطل عليه من أقطار
أوروبية وإفريقية وأسيوية (٨) . أما رودس فقد اكتسبت أهميتها من
قربها الشديد لسواحل البيزنطيين ، ولذلك اتخذها المسلمون قاعدة
بحرية ثانية ، وأقام فيها معاوية حامية ثابتة ، ونظرا لقرب هذه الجزيرة
من أراضي البيزنطيين زودها معاوية بأسطول مقيم على اتصال بالأساطيل

(١) نفسه ، ص ٢٧ - ٢٥

(٢) الحميري ، ص ١٧٧ ، حاشية ٢

(٣) محمد أبو راس الجربي ، ص ٧٥ - ٨٢

(٤) الضبي ، ص ٢٦

(٥) ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٧٤

(٦) القتبس ، القسم الثاني (من عصر المستنصر) ص ٤٢

(٧) الادريسي ، ص ١٩٨

(٨) ابراهيم المدوي ، الاساطيل العربية، ص ٢١ ، ٢٢ - قوات البحرية العربية ،

الإسلامية الأخرى بهدف شل حركات أساطيل العدو (١) .

أما النصف الغربي من حوض البحر المتوسط فكانت تكثر به
الجزر المتوزعة في منتصفه تقريبا بين سيفيه الشمالي والجنوبي ، بحيث
للف لمن يسيطر عليها ستارة أمامية أو خطا دفاعيا أماميا يقيه هجمات
الأعداء ، وفي نفس الوقت تعينه على توجيه الغارات على السواحل
الجنوبية لايطاليا وفرنسا . فجزيرة صقلية بحكم موقعها بين الساحلين
التونسي والايطالي كانت لها أهميتها العظمى في الصراع البحري بين قوى
حوض البحر المتوسط الغربي باعتبارها مفتاحا للبحر المتوسط الأوسط
والغربي ، ويعتبر فتحها على أيدي الأغالبة في طليعة القرن الثالث الهجري
هدئا من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الإسلامية وتحولا خطيرا في
السيادة على هذا القسم من البحر ، فمن طريقها عرف الأغالبة كيف
يهددون الامارات الايطالية مثل امارة قلورية وأبوليا وأمالفى ونابل وجنوة
وييشة ، كما عرفوا كيف يسودون البحرين التيراني والأدرياتي .

وجزر البحر المتوسط الغربي متعددة ، فأكبرها صقلية ، يليها
سردانية وقرشقة وميورقة ومنورقة ويابسة ومالطة ، وأصغرها ألبه
وبالوسه واسترنجلو وجزيرة البركان وجزيرة ليبر وجزيرة دندمة
والطرفانية وأركوذة واشتقة والراهب وقوصرة ونبوشة وكسونة
ومليطمة (٢) . ومن الجزر القريبة من قرشقة وجنوبي فرنسا جزيرة
وقبرة وشكله ومونسه وبونسه (٣) .

أما الجزر الواقعة تجاه الساحل التونسي فمنها : جزيرة قوصرة
وتقع الى الشرق من جزيرة مليطمة (٤) . ويقابل المنستير في البحر جزيرة

Cheira, p. 134 (١)

(٢) الإدريسي (صفة البلاد الايطالية ، نشرة اماري ، رومة ١٨٧٨) ص ١٥

(٣) المكتبة الصقلية ص ٢١ ، ٢٢ (نص الإدريسي)

(٤) الحميري ، الروض المطار (منتخبات) نشرها الدكتور اومبرتو ريتزيتانو ، مجلة

كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٨ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٦ ص ١٧٢

قورية ، ويقابل قصر زياد وصفاقس في البحر جزيرة قرقة ^(١) ، وتجاه مرسى بجاية جزيرة جوبة ، وعلى مقربة من مرسى بنزرت بتونس جزيرة قسنارية وجزائر الكراث ، وفي قبالة مرسى بونة جزيرتان ، احدها تعرف بالجامور الكبير ، والأخرى بالجامور الصغير ، وأمام رأس قبودية جزيرتان تسيان الزرقاء الكبيرة والصغيرة ، وبالقرب من المهديّة جزيرتان كبيرتان تشق السفن طريقها بينهما ^(٢) ، وبازاء المهديّة جزيرة تعرف بالأحاسي ^(٣) وبين قابس وصبرة في البحر تقع جزيرة جربة الشهيرة ، ويتصل بها في الشرق جزيرة صغيرة تسمى زيزو ^(٤) ، ويقابل قابس جزيرة رازوا ^(٥) .

وفي المحيط الأطلسي غربي مدينة سلا سبع جزائر تعرف بالجزائر الخالدات ، وجزائر السعادة ، ويسمّيها البكري فرطناتش أي السعيدة لكثرة فواكهها ^(٦) ، من بينها جزيرة مسفهان وجزيرة لغوس ^(٧) . أما جزائر البليار التي سبق أن ذكرناها فتعرف بالجزائر الشرقية لوقوعها الى شرق بلنسية ، وكانت بشابة واجهة تحمي ساحل شرق الأندلس ، شأنها في ذلك شأن صقلية التي كانت تحمي ساحل افريقية ^(٨) ، وبالقرب من لقنت والى الغرب منها جزيرة أبلناصة ، وكانت مرسى حسنا ومكنا لمراكب العدو ^(٩) .

(١) الادريسي ، نزهة المشتاق ، طبعة ليدن ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢) البكري ، ص ٨٢ - ٨٥

(٣) الحميري ، مقتبسات من الروض المطار ، تحقيق دبرتبانو ، ص ١٧٢

(٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٢٨

(٥) البكري ، ص ١٧

(٦) نفس المصدر ، ص ١٠٩

(٧) الادريسي ، ص ٢٨

(٨) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٢٦٠

(٩) الادريسي ، ص ١٩٣

ثالثاً - توافر المواد اللازمة لصناعة السفن :

كانت تتوافر في بلاد المغرب والأندلس وصقلية المواد الضرورية لصناعة الأساطيل ، كالخشب الصنوبري القوي الذي تصنع منه ألواح السفن والصواري والقرى والمجاديف وخشب الطخش لصناعة القسي والسلايم وبعض الرماح والتروس ، ومعدن الحديد اللازم لعمل المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف أو الكلاليب والعرادات والفؤوس واللثوت والدبابيس والجواشن وغير ذلك من الآلات والأسلحة ، والنحاس الذي تصنع منه السلاسل ، والألياف لعمل حبال المراسي ، والقطران والزفت لقلطة السفن حتى لا تؤثر المياه في ألواحها المغسورة في البحر ، والقطران والكبريت اللازمان لصناعة النفط البحري وهو نوع لا ينطفئ إذا سقط في الماء ^(١) ، والقطران والكتان اللازمان لصناعة النار الحارقة ^(٢) .

أما أخشاب السفن في الأندلس فكانت تجلب من أشجار الصنوبر الذي يعرف أيضاً بالشين ^(٣) ويكثر في طرطوشة ^(٤) ، وفي قصر أبي دانس ^(٥) ، وفي قادس ^(٦) ، وفي يابسة ^(٧) . وفي شلطيـش ^(٨) ، وفي الجزر

(١) مرضى بن علي بن مرضى الطرطوسي ، نبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ، نشرة الاستاذ كلود كاهن في مجلة Bulletin des Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas t. XII, ann.1947-48, p. 129

(٢) الحميري ، ص ١٦٦

(٣) النسي ، ص ٢٢٢

(٤) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢٤ . ويذكر الحميري ان خشب الصنوبر بطرطوشة خشب أحمر صافي البشرة لا يؤثر فيه السوس .

(٥) الإدريسي ، ص ١٨١ - الحميري ، ص ١٦١

(٦) الحميري ، ص ١٤٥

(٧) الحميري ، ص ٩٨ - المقرئ ، ج ٦ ص ٢١٢

(٨) الحميري ، ص ١١١

الواقعة بازاء شتتيرية بالبرتغال ^(١) ، وفي شلب ^(٢) ، وفي قلصة (بجوار كونكة) . وفي هذه المدينة الأخيرة كان يقطع الخشب ، ويلقي في الماء ويحمل الى دانية وبلنسية في البحر وذلك بتسييره في النهر من قلصة الى جزيرة شقر الى حصن قلبية ، حيث يفرغ هناك ، فنوسق منها السفن الى دانية وبلنسية ^(٣) .

أما في صقلية فكانت الأخشاب اللازمة لصناعة السفن تتخذ من جفلود التي تتوفر بها أنضر أجناس العود ^(٤) ، ومن جبال شنت ماركو ^(٥) . أما المغرب فغني بخشب الصنوبر والأرز والبلوط ، وتكثر هذه الأخشاب كلها في جبل درن المعروف بسنجنفوا ^(٦) ، أما الأرز وحده فيكثر في مدينة نكور ^(٧) . وفي أودية بجاية وجبالها خشب كثير تصنع منه الأساطيل والمراكب والسفن والحرايبي ^(٨) ، وفي جبال بني يزغة (بالقرب من فاس) خشب جيد « قد تعمر العود منه في الموضع الذي لا يناله الماء ألف سنة وأزيد ولا يغير ولا يستاس » ^(٩) . وجزيرة قوصرة مقطوع للخشب الجيد، كانت تصدر كميات منه الى صقلية ^(١٠) ، وبمالطة أشجار الصنوبر الذي تصنع منه السفن ^(١١) .

(١) الحميري ، ص ١١٥

(٢) الادريسي ، ص ١٨٠

(٣) الادريسي ، ص ١٩٥

(٤) معجم البلدان (المكتبة الصقلية) ص ١١١

(٥) الحميري ، مقتبسات (تحقيق ريتزيتانو) ص ١٥٦

(٦) البكري ، ص ١٤٧ ، ص ١٦٠

(٧) البكري ، ص ٩٠

(٨) الادريسي ، ص ٩٠ ، ٩١

(٩) الجزناوي ، كتاب زهرة الاس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الفريد بل ، الجزائر

١٩٢٢ ص ٢٦

(١٠) الحميري ، مقتبسات ، ص ١٧٢

(١١) البكري ، ص ٢٢٥

وإذا انتقلنا الى معدني الحديد والنحاس نجد أنهما كانا يوجدان بوفرة في كثير من مدن الاندلس ، فقد اشتهرت بهما المرية ^(١) ، وطليلة ^(٢) ، في حين اشتهرت غرناطة بالحديد ^(٣) . واختصت شلطيـش بصناعة مراسي السفن ^(٤) . أما الزيت والقطران فكان يستخرج من كورة جيان ، ويحل منها الى اشبيلية ، ثم الى الجزيرة لصناعة السفن في دار صناعتها ^(٥) .

وفي المغرب كان الحديد يستخرج من بونة ^(٦) ، ومجانة ^(٧) ، والأربس ^(٨) . وبيلاذ كتامة كان يتوافر الحديد والنحاس في آن واحد ^(٩) . ومن أقاليم بجاية كان يجلب الزيت البالغ الجودة والقطران والحديد الطيب ^(١٠) . وفي صقلية كان الحديد يستخرج من مسيني ^(١١) وبلرم ^(١٢) . أما الزيت والقطران بصقلية فكان يحل من لياج « Aci » وكذلك الخشب الذي يستخدم في صناعة الشرع والأرجل الضخمة (السكان الخاص بالمركب) ^(١٣) . ومن جزيرة قوصرة كان يجلب القطران وخشب المصطكي ^(١٤) . وكانت الجبال تصنع من نبات يسمى البربير

(١) الإدريسي ، ص ١٩٧ - الحميري ، ١٨٤

(٢) الإدريسي ، ص ١٨٨ - الحميري ، ص ١٢٣

(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ تحقيق الأستاذ محمد عبدالله طنان ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٠٤

(٤) الحميري ، ص ١١٠

(٥) المقتبس ، القسم الخاص بعهد المستنصر ، ص ١٠١

(٦) المقدسي ، ص ٢٢٦ - ابن حوقل ، ص ٧٧ - الإدريسي ، ص ١١٦

(٧) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، تحقيق دي غوية ، لندن ١٨٩٢ ص ٢٤٩

(٨) الإدريسي ، ص ١١٧

(٩) البكري ص ٢٢ - ابن حوقل ، ص ٨٤

(١٠) الإدريسي ، ص ٩١

(١١) الإدريسي (المكتبة الصقلية) ص ٢٤

(١٢) ابن حوقل ، ص ١١٧

(١٣) الروض المطار ، مقتبسات ، ص ١٤١ ، ١٧٤

(١٤) نور الدين علي بن موسى بن سعيد المغربي (المكتبة الصقلية) ، ص ١٢٤

شبه البردى ، وكان ينبت بكثرة في بلرم ، فكان يقتل حبالا لمراسي السفن ^(١) وهو نوع يقابل القرقس الذي يتخذ في مصر من نبات يقال له الدقس يصنع منه حبال السفن ^(٢) .

رابعا - اتصال المغرب والاندلس بالشرق الاسلامي علميا واقتصاديا :

كان لبعده بلاد المغرب والاندلس وانقطاعهما عن المشرق الاسلامي ، مركز الحضارة الاسلامية ومهداها ، واحتكاكهما بالعالم الأوروبي ، أثر كبير في تطلع أهل المغرب والاندلس للرحلة الى الشام ومصر والعراق ، وأهل المشرق الى المغرب ، اما التناسا للعلم في مراكزه المختلفة ، ورغبة في تحصيله على شيوخه في المشرق والمغرب ^(٣) ، واما سعيا للتجارة ^(٤) ، أو لأداء فريضة الحج . ولقد عقد المقري في كتابه نفح الطيب بايين كبيرين أفردهما لذكر الوافدين الى الاندلس من المشرق ، والوافدين الى المشرق من الاندلس ^(٥) ، وهكذا التحم المشرق بالمغرب علميا واقتصاديا وفنيا عن طريق الرحلات التي كانت تتم غالبا عن طريق البحر . وقد سجل بعض الرحالة ما كانوا يعانونه من

(١) ابن حوقل ص ١١٧

(٢) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، لندن ١٨٨٥ ، ص ٦٦

(٣) من أمثلة الرحلات العلمية : رحلة المهدي بن تومرت الى المشرق ، فقد ذكروا انه أجاز البحر الى الاندلس طالبا العلم ، ووصل الى قرطبة ، ومن هناك انتقل الى الريف ، ثم ركب من مينائها مركبا حمله الى الشرق ، وغاب في رحلته في طلب العلم ١٥ عاما . (ارجع الى ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، تطوان ، ص ٤١) .

(٤) من أمثلة الرحلات التجارية رحلة التاجر الفارسي الفسوي ابي يزيد ثيمة بن موسى بن الفرات الى الاندلس فقد خرج من فارس الى البصرة ، ثم سافر منها الى مصر ، ومن مصر رحل الى الاندلس تاجرا ، وكان يتجر في الوشى ، وعاد من الاندلس الى مصر ، فمات بها في سنة ٢٢٧ هـ (الحميدي ، ص ٢٤٠) .

(٥) عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٢١٢

أهوال البحر في كتاباتهم أمثال ابن جبير الأندلسي ^(١) ، والقاضي العالم أبو بكر بن العربي ^(٢) ، والوزير أبو عبدالله محمد بن عبد ربه ^(٣) . وكثيرا ما كانت تتعرض السفن في البحر لأخطار تنشأ عادة عن هياجه واشتداد المواصل فيه مما يؤدي في بعض الأحيان الى تحطيمها ، كما حدث للسفينة التي استقلها عمر بن علي الخرجي الأنصاري المرسي وزوجه وولديه اذ هرفت بمن فيها بالقرب من بونة ، وقدر لابنه أبي العباس أحمد المرسي ان ينجو ^(٤) .

وقد كان للرحلات التجارية في البحر أثر كبير في حذق البحريين المسلمين لطرق الملاحة ، وكانت السفن التجارية تتردد ما بين مدن الاندلس والمغرب ^(٥) أو بين ثغور المغرب كتونس وسوسة وبونة وتنس ووهران وبين الاسكندرية والشام ^(٦) ، أو بين المرية ومالقة وبين الاسكندرية وطرابلس ، أو بين ثغور صقلية وبين طرابلس الغرب ، حاملة

(١) يصف ما تعرض له أثناء رحلته من هول البحر وارتفاع الامواج وهياجهاء ، في طريقه من سمرانديه الى صقلية (رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، لندن ١٩٠٧ ص ٢٥) . كذلك يصف ما عاناه من هول البحر أثناء عودته من المشرق وذلك في أثناء رحلته الى صقلية واشرافه على الفرق (ص ٢٢١)

(٢) كان قد رحل الى المشرق في سنة ٨٥٠ وعاد الى الاندلس في سنة ٤٩١ هـ ، وعانى في رحلته من المصيبة كثيرا من الأهوال وسجل ذلك في كتابه « قانون التاويل » (المقرئ ، ج ٢ المقرئ ، ج ٢ ص ٢١٩) .

(٣) ركب البحر من المغرب الى الاسكندرية وعانى كثيرا من الانواء البحرية ، وبقى رفيله في الرحلة محمد بن علي اليحصبي القرموني ما عانيه حتى اشرفا على الفرق (المقرئ ، ج ٢ ص ٢١٩)

(٤) جمال الدين الشيبان ، اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ١٩٢

(٥) كان هناك اتصال وثيق في البحر بين المريفوتنس التي انشأها البحريون من اهل الاندلس (ابن عذاري ، ج ١ ص ١٥٤) ، وبين تكور ومالقة (نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٥٢) . وكانت السفن تأتي الى جزائر بني مزغناي من افريقية والاندلس (البكري ، ص ٦٦)

(٦) كانت السفن تصل الى جزيرة قرقة الواقعة امام سفاقس من الاسكندرية او الشام او برفة (البكري ، ص ٢٠) .

الى المغرب والأندلس سلع المشرق كالتوابل والأفاويه والمنسوجات
الحريرية والوشى والبردى ، وحاملة الى المشرق سلع المغرب والأندلس .

ومن أهم منتجات المغرب التي كان يتجهز بها في المشرق وتوسقها
السفن وتمير بها زيت الزيتون الذي كان يتجهز به من المهدية الى سائر
بلاد المشرق^(١) ، وكذلك كان يصدر من سفاقس^(٢) وقابس وبرقة^(٣) .
وكان الفستق يحمل الى مصر والأندلس وسجلاسة من قفصة^(٤) ، والجوز
من سطيف^(٥) . وكانت الثياب والعصائم السوسية تحمل الى الافاق^(٦)
بينما كانت الثياب الحريرية تصدر من قابس^(٧) ، والصوفية من أغمات
وريكة^(٨) . وكانت السفن القادمة من الاسكندرية والمشرق تحمل من
برقة جلود النمر والبقر التي تصل الى برقة من أوجلة^(٩) ، وسفن
الأندلس تحمل جلود اللط وقرونة من أودغست^(١٠) . وكان التبر يصل
الى برقة والمغرب من مدينة تكررور وغانة ونقارة^(١١) ومن أودغست^(١٢) .
ويشتري أكثر التبر أهل ورجلان ، كذلك كان يرد من كوار وأنكلاس
وأبرز ونلسة من بلاد كوار وكوكو الشب الكواري المشهور^(١٣) ، ومن

(١) الادريسي ، ص ١٠٩

(٢) البكري ، ص ٢٠ - ابن حوقل ، ص ٧٢

(٣) البكري ، ص ٢٠

(٤) نفسه ، ص ٤٧

(٥) الادريسي ، ص ٩٨

(٦) الادريسي ، ص ١٢٥ - التجاني ، ص ٢٠٦

(٧) البكري ص ١٧ - الادريسي ، ص ١٠٦

(٨) الادريسي ، ص ٦٦

(٩) نفس المصدر ، ص ١٢١

(١٠) البكري ص ١٧١ ، ١٥٨

(١١) الادريسي ، ص ٢ ، ٧

(١٢) البكري ص ١٥٩

(١٣) الادريسي ، ص ٢٨ ، ٤٠

داهي وتادلا النحاس الخالص ، وكان الصمغ يصدر من أودغست بالمغرب
الأمي الى الاندلس ليستخدم في صنع الديباج ^(١) ، ومن تونس
الفسار والخزف ^(٢) ، ومن فاس الورق ^(٣) ، ومن قصر طلميثة بليبيا يصدر
الى مصر الكتان والعسل والقطران والسمن ^(٤) .

ومن اثبيلية كان الزيت يحمل في السفن الى سلا ^(٥) ، والى
الاسكندرية ^(٦) والمشرق ^(٧) . ومن يياسة وجيان كان يحمل الزعفران ^(٨) ،
ومن شنترين وشذونة العنبر ^(٩) ، ومن قرطبة معدن الزئبق ^(١٠) ، ومن
مرقسطة جلود الخز والوبر والسمور ^(١١) ، ومن المرية الوشي ^(١٢) ،
ومن مرسية البسط التنتلية ^(١٣) ، ومن مرسية والمرية ومالقة الزجاج
والفخار المزجج والزليجي ^(١٤) ، ومن شاطبة الورق ^(١٥) ، ومن بطرنة

(١) البكري ، ص ١٥٨

(٢) ابن حوقل ، ص ٧٥

(٣) الجزنائي ، ص ٢٢

(٤) الادريسي ، ص ١٣٦

(٥) الادريسي ص ١٧٨

(٦) المقرئ ، ج ١ ص ١٢٩

(٧) العلدي ، ص ٩٥ - الحميري ، ص ١٩

(٨) المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٤

(٩) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٢٩

(١٠) الادريسي ، ص ٢١٣

(١١) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٨٤ - العلدي ، ص ٢٢

(١٢) الصبي ، ص ٤٦٨ - المقرئ ج ٤ ص ٢٠٧

(١٣) المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٧

(١٤) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٨٧ ، ص ١٤٥

(١٥) الادريسي ، ص ١٩٢ - المقرئ ، ج ١ ص ١٥٦

معدن التوتيا (١) ، ومن مالقة التين الذي كان يباع في بغداد (٢) ،
ومن البحر المحيط العنبر (٣) .

ومن صقلية كان يجلب الجوز والقسطل والمرجان الى بلاد افريقية (٤) ،
والزئبق والحديد والرصاص والأصباغ والديباغ الى سائر الأقطار .

(١) الإدريسي ، ص ١٩٩

(٢) المقرئ ، ج ٤ ص ٢٠٥

(٣) المقدسي ، ص ٢٢٩

(٤) أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزهري ، كتاب الجغرافية (المكتبة الصقلية) ص ١٥٩

الفصل الثالث

فتح المسلمين في المغرب والاندلس لجزر البحر المتوسط الاوسط والغربي

أولاً - فتح اقريطش

- ١ - فاتحو اقريطش
- ٢ - البحريون الاندلسيون يستولون على الاسكندرية
- ٣ - الاندلسيون يستولون على اقريطش
- ٤ - اقريطش في العصر الاسلامي (٢١٢ - ٣٥٠ هـ)
- ٥ - استرجاع البيزنطيين لاقريطش

ثانياً - فتح صقلية

- ١ - التمهيد لفتح صقلية في زمن الاغالبة
- ٢ - أسباب فتح المسلمين لصقلية
- ٣ - فتح صقلية
- ٤ - وصول البحرينيين الاندلسيين الى صقلية ومشاركتهم في فتحها
- ٥ - استكمال فتح صقلية زمن الاغالبة

ثالثاً - فتح جزر البحر المتوسط الغربي الاخرى •

- ١ - فتح مالطة
- ٢ - فتح سردينيا
- ٣ - فتح جزر البليار

الفصل الثالث

فتح المسلمين في المغرب والاندلس لجزر البحر المتوسط الاوسط والغربي

في الوقت الذي انصرفت فيه الدولة العباسية لمشاكلها الاقليمية الداخلية والمشاكل الخارجية ، والدولة البيزنطية للفتن الداخلية ، افضحت نوايا المسلمين في غرب العالم الاسلامي للسيطرة البحرية على جزر البحر المتوسط الاوسط والغربي . ففي سنة ٢١٢ هـ تمكن الاندلسيون من الاستيلاء على جزيرة اقريطش ، ونجح الاغالبية في ضم جزيرة صقلية ، وفي سنة ٢٣٤ هـ استولى الأمير الأموي عبد الرحمن الاوسط على جزيرة ميورقة ، وفي سنة ٢٥٥ هـ افتتحت مالطة في امارة أبي الفرائق محمد بن أحمد بن الأغلب . وهكذا أصبح المسلمون في غرب العالم الاسلامي في هذا القرن الثالث الهجري السادة الحقيقيين للبحر المتوسط ، وورثة البيزنطيين في السيطرة على الملاحة فيه .

اولاً - فتح اقريطش :

١ - فاتحو اقريطش :

من الشائع المتعارف عليه أن الذين تولوا فتح اقريطش منذ سنة ٢١٢ هـ جماعة من أهل الرض القبلي من قرطبة يعرفون بالربضيين ، كان الأمير الحكم بن هشام الأموي (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) قد تفاهم خارج البلاد بسبب ثورتهم عليه . ويعتقد المستشرق الاسباني الاستاذ ايسيدرو دي لاس كاخيغاس أن هؤلاء الربضيين الذين رحل بعضهم الى المغرب وأسسوا في مدينة فاس محلة الأندلسيين ، والبعض الآخر الى الاسكندرية فأسسوا فيها دولة أندلسية ، ثم غادروها أخيراً الى اقريطش حيث أقاموا

دولة عمرت الى سنة ٣٥٠ هـ ، كان معظمهم مولدين أي من أصل اسباني ، ويستنتج من هذا القول أنهم كانوا يحتفظون في اقريطش ببعض مقومات الحضارة اللاتينية البيطية (أي القرطبية) ^(١) . ولا ندري على أي أساس يستند الأستاذ ايسيدرو في هذا الرأي ، فلم تكن قرطبة من مدن الأندلس التي عرفت بسكانها المولدين ، ومن المعروف أن المولدين كانت لهم الغلبة السكانية في طليطلة واشبيلية وماردة . ويعتقد نفس المستشرق أن ثورة الربضيين على الأمير الحكم كان مركزها الربض القبلي المعروف بمنية عجب ، وأن هذه المنية انما سميت «بمنية عجب» بمعنى مذبغة المفاجأة بسبب مفاجأة الحكم لهم ^(٢) ، وهو أمر لا نوافقه عليه لسببين : الأول ، أن منية عجب وردت بهذا الاسم كحي من أحياء الربض القبلي لقرطبة المعروف بشقندة ، وهي منية بمعنى ضيعة ذات قصر كانت تستلكه إحدى جاريات الامير الحكم ^(٣) شأنها في ذلك شأن منية المغيرة ومنية نصر ومنية عبدالله . والثاني أن ترجمة الأستاذ ايسيدرو لمنية عجب أو منية عجب حسب ما يزعمه بمعنى مذبغة المفاجأة ترجمة خاطئة لا معنى لها ، ولو افترضنا جدلا أنه يقصد بمنية المنية أو المنون فانها حتى بهذا التفسير لا تؤدي المعنى الذي يشير اليه لأن عجب اسم علم .

وسبب ثورة الربض أن الامير هشام والد الامير الحكم كان قد أحاط نفسه بالفقهاء ، واستسلم لهم ، وعظم بذلك شأنهم ، حتى تجاوزوا حدودهم ، فلما تولى الحكم الامارة بقرطبة حاول أن ينتزع منهم سلطانهم ، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به في عهد أبيه من نفوذ ، وكيف أيديهم عن التدخل

Isidro de las Cagigas, Andaluces en Africa, Boletín de la Real Academia ^(١)
de Ciencias, Bellas Letras y nobles artes de Córdoba, año VIII, 1929 No 25, p. 105

Ibid. p. 113 (٢)

(٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١٢٦

في فلول دولته ، فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحي في إثارة الناس عليه ، وحاول بعض الفقهاء أن يهدروا به في سنة ١٨٩ هـ بحجة أنه تظاهر بشرب الخمر وانهمك في الملذات ، فامتنع منهم ، لم تلق الفقهاء ووجوه قرطبة مع محمد بن القاسم القرشي المرواني المعروف بابن الشساس على مبايعته بالامارة ، فخذلهم ، وأفشى سرهم ، وأبلغ الأمير الحكم بتدبيرهم خلعه ، وأعطاه بيانا بأسائهم ، فأمر الحكم بالقبض عليهم وصلبهم عند قصره ، وكان عددهم ٧٢ رجلا^(١) ، من بينهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسي ، وكان قدوة في الدين والورع ، وأبو كعب بن عبد البر ، وموسى بن سالم الخولاني وولده ، ولغيرهم^(٢) . وامتلا جو قرطبة بالسخط على الحكم بعد مقتل الثوار ، والكر الناس عليه اطلاقه يد ربيع القومس متولي المعاهدين بالاندلس من النصارى ، وكان حظيا في رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين^(٣) ، وفي هذا الجو المتوتر حدث حادث بسيط أشعل نار الثورة بين سكان الرض القبلي بقرطبة ، فقد قتل أحد ممالك الأمير غلاما ، فعلت مراجل لحسبهم وانفجرت براكين أحقادهم على الأمير ، وكأنما كانوا يرتقبون هذا الحادث ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على المملوك وقتلوه ، وخرجوا ينادون بخلع الأمير . وأول من شهر السلاح ضده أهل الرض بعدوة النهر ، ثم انضم اليهم أهل المدينة والأرباض الأخرى ، فتحصن الحكم في قصره ، وأوكل بحراسته والدفاع عنه كتائب من الجند والعبيد ، واشتبك الثوار مع الجند في قتال شديد كاد يتغلب فيه الثوار لولا أن لجأ الحكم الى

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٦ - النويري ، ج ٢٢ ، ص ١٥ - عبد العزيز سالم ،

لاريم المسلمين في الاندلس ، ص ٢٢٢

(٢) ابن القوطية ، ص ٥٠ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٦ - القرني ، ج ١ ص ٢٢٢

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ، ص ١٥

عبيدالله البلنسي واسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان الى الرض ، فأشعلوا النار في مساكن الثوار ، فلما شاهد الثوار النار تشتعل في بيوتهم بادروا بالعودة لانقاذ أولادهم ونسائهم ، فأخذتهم السيوف من أمامهم ، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم وقتلوا منهم خلال ثلاثة أيام عددا كبيرا تجاوز عشرة آلاف رجل ، وفر من قرطبة أضعاف ذلك ^(١) .

وانتقم الحكم من الثوار ، فأمر بصلب ثلثمائة ممن قبض عليهم صفا على ضفة النهر من باب القنطرة حتى نهاية المصارة ، وأمر بهدم الرض القبلي مصدر الفتنة ، فأعيد بطحاء مزرعة . ولما مضت ثلاثة أيام من القتل والسفك أمر برفع السيف وتأمين الفلول على أن يخرجوا من الأندلس ، فخرج كثير منهم الى سواحل بلاد البربر ، فنزل بعضهم في مدينة فاس التي أسسها ادريس بن عبدالله بن حسن في سنة ١٧٢ هـ ^(٢) ، وأطلق على المحلة التي نزلوها اسم رض الاندلسيين . ونزل بأوزفور من أغمات بالمغرب الاقصى جماعة من رضىة قرطبة ، فحاربهم جيرانهم البربر ، فانهمزم الأندلسيون ، وتفرقوا ببلاد أغمات ، وبنوا مدينة كزناية ، ولكن البربر أجلوهم عنها الى ويلي ^(٣) . أما جمهورهم الاعظم وعددهم فيما يقال ١٥ ألفا فقد ركبوا سفنا في البحر ذكر الكندي أن عددها أربعون مركبا ^(٤) ، واتجهوا شرقا حتى انتهوا الى الاسكندرية ، وذلك في أول خلافة عبدالله المأمون ابن الرشيد (١٩٨ — ٢١٨ هـ) .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذه الثورة : فأبو المحاسن ابن تغرى بردى يجعلها في رمضان سنة ١٩٨ هـ ^(٥) (مايو سنة ٨١٤ م) ،

(١) المصدر السابق ، ص ١٦

(٢) المغرب الكبير ، ص ٨٧ وما يليها

(٣) البكري ، ص ١٥٥

(٤) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٦٤

(٥) ابو المحاسن ، ج ١ ص ١٥٨

وابن الاثير والنويري يذكران أنها حدثت في سنة ١٩٨ هـ ^(١)، دون أن يحدد أحدهما الشهر الذي وقعت فيه . أما ابن الأبار فقد حدد تاريخها في يوم الاربعاء ١٣ من رمضان سنة ٢٠٢ هـ ^(٢) (٢٥ مارس سنة ٨١٨ م)، وحددها ابن عذاري في سنة ٢٠٢ هـ ^(٣) ، ويوافق رودريجو الطليطلي على هذا التاريخ ^(٤) . وقد دحض دوزي ^(٥) القول بتاريخ سنة ٢٠٢ هـ ، لأنه ثبت أن الثوار نزلوا في مياه الاسكندرية قبل ذلك التاريخ بأربعة سنين استنادا على ما رواه ابن القوطية الذي يؤكد أنهم « ملكوها في أول ولاية الرشيد » ^(٦) ، وصحتها المأمون الذي بدأ خلافته في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ هـ ، وما رواه المقرئ اذ يقول نقلا عن الكندي : « وفي سنة تسع وتسعين ومائة عظمت الحروب بديار مصر بين المطب بن عبدالله الطراعي أمير مصر وبين عبد العزيز الجروي الثائر بتئيس ٥٥٠ وكانت بالاسكندرية مراكب الاندلسيين قد قفلوا من غزوهم » ^(٧) . ولكن الأستاذ ليفي بروفنسال يؤكد ^(٨) استنادا على مخطوطة لكتاب المقتبس لابن حيان ورد فيها تاريخ سنة ٢٠٢ هـ كتاريخ ثابت للثورة حدده ابن حيان معتمدا على نص المنشور الذي أصدره الحكم الرضي بعد قضائه على الهيج وبعثه الى ولاية الاندلس، وفيه بيان بيوم الثورة في ١٣ رمضان، وكذلك استنادا على ما أورده ابن حزم في الجمهرة ^(٩) وما جاء في

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٧٢ - النويري ج ٢٢ ص ١٧

(٢) ابن الأبار ، الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٤

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١١٢

(٤) de Las Cagigas, op. cit. p. 108

(٥) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. I., Leyde, 1932, p. 296

(٦) ابن القوطية ، ص ٥١

(٧) الكندي ، ص ١٥٨ - المقرئ ، الخطط ، ج ١ ص ٢١٢

(٨) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 165, Note 1

(٩) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٨٨

« المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد الذي حدد يوم الاربعاء ١٣ من رمضان تاريخا لثورة الربيعيين ، وذكر أن الحكم أمر بهدم الربض القبلي في اليوم التالي حتى صار مزرعة ، وتبع دور الثوار بالهدم والاحراق ^(١) وتولى هذا العمل ربيع القومس ^(٢) .

ويذهب الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الى القول بأن الاندلسيين الذين وفدوا في سفنهم الى الاسكندرية في عام ١٩٢ هـ ليسوا من ثوار الربض لان ثورة الربض حدثت في سنة ٢٠١ هـ بينما شارك الاندلسيون في أحداث الاسكندرية في سنة ١٩٩ هـ ^(٣) ، وهذا يعني في رأيه أن هؤلاء الأندلسيين كانوا غزاة بحريين ، وأن الغزو كان صناعتهم .

ونحن نؤيد الدكتور سعد زغلول فيما ذهب اليه ، كما نؤيد الاستاذ ليفي بروفنسال في أن تاريخ ثورة الربض يوافق التاريخ الذي حدده كل من ابن حيان وابن الأبار وابن عذارى وابن حزم وابن سعيد ، أي في سنة ٢٠٢ هـ ، وإن كنا نضيف على أدلة دوزي التي استند عليها في مناقشته التي عقدها لاثبات أن ثورة الربض حدثت في سنة ١٩٨ هـ ، مع عدم موافقتنا على رأيه ، دليلين آخرين نسي أن يذكرهما بين أسانيدہ: الاول، ما ذكره الكندي أثناء سرده لاحداث الاسكندرية في سنين ١٩٩ هـ الى ٢١١ هـ ^(٤) ، والثاني أن بعض ثوار الاندلس وفقا لما ذكره ابن الأبار وابن سعيد المغربي لحقوا بطليطلة وذلك لمخالفة اهلها للحكم ^(٥) ، وكانت طليطلة وفقا لرواية ابن سعيد وابن عذارى في ذلك الوقت تائرة على الحكم،

(١) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ،

ج ١ ص ٤٢

(٢) ابن حزم ، المصدر السابق ص ٨٨

(٣) سعد زغلول ، الاسكندرية الاسلامية ، من كتاب محافظة الاسكندرية ، ص ٢٦٧

(٤) الكندي ص ١٥٨ - ١٧٢

(٥) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ص ٤٥ - ابن سعيد ، المغرب ، ص ٤٢

لفراهم في سنة ١٩٩ هـ ، وعاث فيهم أشد العيث . ونقل وجوه أهلها الى
 لرجلة (١) .

ونعتقد بعد هذا العرض السابق ان الأندلسيين الذين قدموا في
 سفنهم الى الاسكندرية في أربعين سفينة (٢) أو ٤٢ سفينة في قول
 آخر (٣) كانوا لا يزيدون على ٥٠٠٠ شخص ، مع أن اليعقوبي يؤكد
 أنهم كانوا زهاء ثلاثة آلاف (٤) ، وأنهم على حد قول الدكتور سعد
 رغلول غزاة بحريين ، وأهل سواحل الأندلس بحكم طبيعة بلادهم
 واتصالها بدول اوربا كانوا رجال بحر وأهل غزو وأنهم بخلاف ما يشير
 اليهم المؤرخون كانوا ملاحين مهرة ، وكانوا ينزلون في فصل الشتاء
 بالقرب من تنس الحديثة قبل أن يتولوا تأسيسها في سنة ٢٦٢ هـ (٥) ،
 فهم اذن كانوا يترددون بين سواحل الأندلس الشرقية والمغرب ، أو هم
 على حد تعبير ابي المحاسن مغاربة اندلسيون (٦) . وسراهم يفزون
 صقلية لحسابهم الخاص بعد نزول جيش الاغلبة بسازر تحت قيادة
 القاضي أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ ، وكان يقودهم رجل يسمى اصبح
 ابن وكيل المعروف بفرغلوش ، وقد اقاموا يفتحون مدن صقلية من سنة
 ٢١٣ هـ الى سنة ٢١٩ هـ (٧) . ونلاحظ أيضا ان جماعة من البحرين
 الاندلسيين قاموا بغزو قرشقة وسردانية في سنة ١٩٤ هـ (٨٠٩ م) (٨) ،

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١١ - ابن سعيد ، ص ٤١

(٢) الكندي ، ص ١٦٤

(٣) ذكر اليعقوبي خطأ أنهم قدموا في اربعة الاف مركب والظاهر انه التبس عليه الام
 فلرا من المصدر اربعة الاف وصحتها اربعين مركبا . (راجع اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ،
 طبعه النجف ، ١٣٥٨ هـ ، ج ٢ ص ١٧٤)

(٤) اليعقوبي ، نفس المصدر ، ص ١٧٤

(٥) البكري ، ص ٦٢

(٦) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ١٩٢

(٧) المغرب الكبير ، ص ٣٦٠

(٨) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٩٢

وتم فتح سردانية على أيديهم في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم (١) .

ونستند في رأينا على ما يشير اليه الكندي عند ذكره خبر نزولهم فيقول : « قد قفلوا من غزوهم فنزلوا الاسكندرية ليلتاعوا ما يصلحهم وكذلك كانوا على الزمان ، وكان الامراء لا تمكنهم دخول الاسكندرية وانما كان الناس يخرجون اليهم فيباعدونهم » (٢) . ونستنتج من هذا النص أن نزول الاندلسيين بالاسكندرية تم اثر غزوة قاموا بها ، أي أنهم غزاة بحر ، كما نستنتج ان نزولهم بمياه الاسكندرية لم يكن حدثا جديدا ، وانهم كانوا يلجئون الى مياه الاسكندرية ويرسون في منطقة الرمل (٣) بعد كل غزو يقومون به ، وانهم كانوا يتارون منها ما يحتاجون اليه اثناء غزوهم في البحر . فهم على هذا الاساس غزاة يعتمدون في حياتهم ومعاشهم على ما يغمونه في غزواتهم لسواحل أوربا الجنوبية وجزر البحر المتوسط . والمسألة ان المؤرخين اختلط عليهم الامر بعد ثورة اهل الربض ، فخلطوا بين البحرين الاندلسيين الذين أرسوا بسفنهم في مياه الاسكندرية في سنة ١٩٨ هـ ، وبين الربضيين الاندلسيين . ومن المعروف ان أهل الربض تفرقوا في البلاد الاندلسية (٤) ، وبعضهم نزل الى بر العدو أقرب السواحل الى الأندلس ، خوفا من بطش الأمير الحكم بهم ، فاحتلوا عدوة فاس وصيروها مدينة . ومن المعروف أيضا ان الحكم عفا عنهم ، وكتب امانا على الأنفس والاموال ، « وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته حاشا قرطبة أو ما

(١) الروض المطار ، ص ١٧٧

(٢) الكندي ، ص ١٥٨

(٣) يعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٤

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١١٥

لرب منها» (١) ، فهو اذن لم يأمر بنفيهم أو اخراجهم من الاندلس ، ولكنه نفاهم من قرطبة فقط . يضاف الى ما سبق أنه لو أن عدد الأندلسيين كان يقرب من ١٥ ألفا كما ورد في المصادر العربية لتعسر عليهم الإبحار في أربعين سفينة وللزم الامر استخدام أسطول لا يقل عدد سفنه عن مائة سفينة ، ولو أن عددهم كان يصل الى هذا الرقم لكان من الصعب على عبدالله بن طاهر أن يخرجهم بدون قيد او شرط من الاسكندرية . ولخرج من كل ذلك بأنه لا علاقة لثورة الرض بغزة الاسكندرية ثم الریطش (٢) .

٢ — البحريون الأندلسيون يستولون على الاسكندرية :

استغل طائفة البحرين الأندلسيين حالة الفوضى في مصر واضطراب العرب المقيمين بالاسكندرية وما حولها من اللخميين وبنى مدلج ، ودخلوا طرقا في هذا النزاع . وتفصيل الموضوع أن والي مصر المطلب بن عبدالله الغزاعي أراد ان يضع حدا للصراع القائم بين لخم وجذام عن طريق اسناد ولايتها الى شخص يرتضيه الطرفان ، ولكن محاولته باءت بالفشل ، فالحذ يغير ولاية الاسكندرية فلا يكاد يقيم واليا عليها حتى يعزله بعد أمد قصير ، فلما عزل عمر بن هلال بن حديج وولى عليها الفضل بن عبدالله الغزاعي حقد عمر بن هلال على المطلب ، وتحالف مع تائر آخر في ثغر

(١) المصدر السابق

(٢) يستند بعض الباحثين في اثبات الرأي القائل بأن أهل الرض هم الذين افتتحو الریطش على أن زعيم الأندلسيين الغزاة وهو أبو حفص عمر بن شعيب البلوطي من موضع قريب من قرطبة يقال له فحس البلوط وأن لهذه النسبة علاقة بريف قرطبة، ولكن ليس من الضروري أن يكون المنسوب الى فحس البلوط من سكان الرض ، ونعتقد ان زعيم غزاة الریطش لا بد أن يكون بحريا له خبرة بركوب السفن، وأن انتسابه في إحدى الروايات الى فحس البلوط لا يدل على أنه قرطبي . ثم ان اسم هذا الزعيم ما زال موضع خلاف بين المصادر العربية على النحو الذي سنشير اليه فيما بعد .

تنيس هو عبد العزيز الجروي ، كان ظامعا في امارة مصر ، فكتب اليه الجروي يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها ، وان يخرج الفضل بن عبدالله منها ^(١) . ولم يكن في امكان ابن هلال وحده أن يقوم بهذا العمل الجريء ، فرأى ان يستعين بالأندلسيين الذين كانوا يقضون الشتاء في مراكبهم بمياه رمل الاسكندرية ، ولم يتردد الأندلسيون في مساعدة ابن هلال ، وبفضل هذه المساعدة نجح في اخراج الفضل منها والدعوة للجروي . غير أن أهل الاسكندرية استاءوا من تدخل الاندلسيين في شؤونهم الداخلية ، فهاجوا عليهم ، واشتبكوا معهم في معركة انتهت بهزيمة الأندلسيين الذين عادوا الى مراكبهم ، وقتل في هذه المعركة نفر من الاندلسيين . وهكذا انتصر السكندريون واعادوا واليهم الشرعي . ولكن المطلب لم يلبث ان عزل أخاه الفضل وأسند ولاية الثغر الى اسحق بن أبرهة بن الصباح ، وهنا تحركت مطامع ابن هلال من جديد ، فخرج لمقاتلته في شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، وتجنباً لهذه الحرب عزل المطلب اسحق بن أبرهة وأسند الولاية لشخص آخر هو ابو بكر بن جنادة ابن عيسى المعافري .

وفي نفس الوقت نجح الجروي بالاتفاق مع السري بن الحكم القائد في التغلب على المطلب وأرغمه على الخروج من مصر ، وتولى السري بن الحكم ولاية مصر باجماع الجند في مستهل رمضان سنة ٢٠٠ هـ ^(٢) . وعندئذ سنحت الفرصة لابن هلال للتغلب على الاسكندرية ، فهاجم ابن هلال واليها أبا بكر بن جنادة المعافري وأخرجته منها ، ودعا للجروي فيها . وتهيأ للأندلسيين المجال للنزول في الاسكندرية والاقامة في أرضها بدلا من البقاء في سفنهم ، ولكن الأندلسيين بحكم طبيعتهم القاسية كرجال بحر

(١) الكندي ، ص ١٥٨

(٢) الكندي ، ص ١٦١

وهم لا احسبوا باهل الاسكندرية وأفسدوا فيها . وكان ابن هلال يسمى
الظرب الى اهل الاسكندرية ابقاء على ولايته فيها ، فأمر باخراج
الاندلسيين من بر الاسكندرية والحاقهم بسفنهم ، فحقنوا عليه لذلك (١) ،
ورسخوا اطلبه انتظارا لفرصة موالية ينقلبون فيها عليه . وحدث في هذه
الاولى المضطربة من تاريخ الاسكندرية أن ظهر بها طائفة يدعون الى
المعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الوالي ، سمو أنفسهم بالصوفية ،
فولى الزعامة عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . وكان
من الطبيعي ان يتحالف هؤلاء الصوفية مع الأندلسيين بسبب اشتراكهم
معهم في معاداة الوالي ، واجتذب الصوفية اليهم قبائل لخم ، واعتضدوا
بهم . وكان اللخميون اذ ذاك قوة هائلة لها وزنها في ناحية الاسكندرية ،
وكالت لهم اطماعهم الخاصة ، فعزم المتحالفون على ازاحة ابن هلال ،
فاجتمعت حشودهم حتى بلغت بما في ذلك الاندلسيين والصوفية زهاء
عشرة آلاف ، فحاصروا ابن هلال في قصره ، وأرغموه على أن يسلم
للمه هو واخوه محمد ، وابنا عمه أبو هبيرة وحديج ، فتلقفتهم سيوف
المتحالفين وقتلوه في ذي القعدة سنة ٢٠٠ هـ .

ثم تنازع اللخميون بعد قتل ابن هلال مع الأندلسيين نزاعا ادى
الى الحرب ، واشتبك اللخميون بقيادة زعيمهم رباح بن قره مع
الاندلسيين ، فانهزم اللخميون ، ودخل الأندلسيون الاسكندرية عنوة في
ذي الحجة سنة ٢٠٠ هـ ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفي ، فساد
الفساد في عهده ، وكثر القتل والنهب ، واضطر الأندلسيون الى خلع

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٢

وولوا رجلا منهم يعرف بالكثاني^(١) ، وعندئذ تدخل بنو مدلج ، وكانوا يقيمون بظاهر الاسكندرية ، اذ خافوا ان يستقل الاندلسيون بها ، فهاجموا الأندلسيين في الاسكندرية ، ولكنهم منوا بهزيمة نكراء تتج عنها أن أصبح الاندلسيون يتحكمون في مصير المدينة ، فنفوا بني مدلج عنها وانفردوا بحكمها ، ولم يجد السري بن الحكم والي القسطنطينية بدا من قبول الامر الواقع ، وحمد له الأندلسيون موقفه المتخاذل ، فعندما توسط لارجاع بني مدلج الى منازلهم قبلوا وساطته واذنوا لهم بالعودة .

وبلغ الجروي ما اجترمه الاندلسيون من قتل صاحبه ابن هلال واستبدادهم بالاسكندرية وتقاربهم مع السري بن الحكم الذي سبقه في الظفر بالامارة في القسطنطينية ، فعزم على السير الى الاسكندرية وانتزاعها من الاندلسيين ، وجهد لهذا الغرض جيشا عدته خمسون ألفا ، ونزل على حصن الاسكندرية في المحرم سنة ٢٠١ هـ ، ولعله حصنها المعروف بحصن فارس احد عجائبها المشهورة^(٢) ، وكان يقع بجوار دار الامارة التي بناها عتبة بن ابي سفيان في سنة ٤٤ هـ^(٣) . وواصل الجروي حصاره للحصن حتى كاد ان يفتتحه ، وعندئذ خاف السري بن الحكم ان يتغلب عليها فتضاعف قوته ثم ينقلب عليه ، فأرسل قوة بقيادة عمرو بن وهب

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٤ . ولعل الكثاني هذا من ابناء الرماحس بن عبد العزيز الكثاني الذي لعب دورا هاما في الانتزاع بمصر في آخر الدولة الاموية ، ولكنه انهزم في الحوف الشرقي ونفي من مصر (الكندي ص ٩٤) ثم مضى الى الاندلس واشترك في الصراع بين المصبيتين اليمنية والمصرية ، وكان من مؤيدي عبد الرحمن الداخل ثم انقلب عليه ، فتآمر مع بعض الثوار في سنة ١٦٤ ضد الامير ، واضطر اخيرا الى الفرار الى المشرق . ويبدو ان اولاده ظلوا في الاندلس ولعل محمد بن الرماحس ، قائد اساطيل الاندلس زمن عبد الرحمن الناصر كان واحدا منهم ، فهي اسرة عرفت بالمغامرات .

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص ٤٥

(٣) الكندي ، ص ٢٦

الغرامى الى تنيس لفتحها ، فيرغم الجروي على فك الحصار والعودة الى بلده ، ولجحت خطة السري ، وبادر الجروي الى العودة الى تنيس في نفس شهر المحرم سنة ٢٠١ هـ .

وفي هذه الاثناء حدث انقلاب عسكري في القسطاط ، اذ انقلب **الهند** **الخراسانيون** على السري في ربيع الاول سنة ٢٠١ هـ وأرغموه على **الانسحاب** الى الصعيد ، ولكنه لم يلبث أن عاد الى الولاية بتقليد وصله **من المامون** . وزحف الجروي الى الاسكندرية للمرة الثانية ، واتفق مع **الاندلسيين** على دخول حصنها ، فدخلها قائده سلامة الطحاوي وابنه علي **ابن عبد العزيز الجروي** ودعوا فيها للجروي ، وأقام الجروي على ولايتها **وجلا من بني حديج** هو معاوية بن عبد الواحد بن محمد ، ومضى الجروي **بكل قواته** لمواجهة قوات السري ، فاتهز **الاندلسيون** هذه الفرصة ووثبوا على **عادل الجروي** على الاسكندرية وخلعوه ، ثم طردوه منها ، كما خلعوا **ولاهم للجروي** ودعوا للسري . ولما بلغت هذه الأنباء الجروي زحف الى الاسكندرية للمرة الثالثة في شهر رمضان سنة ٢٠٣ هـ ، وكان أهالي هذه النواحي يتعرضون لأضرار جسيمة في كل مرة يخرج فيها جيشه **لحم الاسكندرية** ، فعارضه القبط في سخا ، وانضم اليهم بنو مدلج في **لماين ألفا** ، واشتبك الجروي مع هذه القوة الجديدة ، ونجح في ايقاع **الهرية بهم** ، ثم سير جيوشه على أثر ذلك الى الاسكندرية لمحاصرتها ، **ولدم اليها** بنفسه للمرة الرابعة « فأغلق **الاندلسيون** حصنها ، فحاصروهم الجروي حصارا شديدا ، ونصب عليهم المنجنيقات ، وأقام على ذلك سبعة **أشهر** من مستهل شعبان سنة ٣٠٤ هـ الى سلخ صفر سنة ٢٠٥ هـ » (١) . **وبينما** كان جيشه يضرب جدران الحصن بقذائف المنجنيق أصيب بقلقة **من حجر منجنيق** ، فمات ، وبموته انتهت حركته وانسحب جنده الى

تنيس • ولم يطل العمر بالسري بن الحكم ، فتوفي هو الآخر في جمادي الأولى سنة ٢٠٥ هـ ، وخلفه على الامارة ابنه أبو النصر • وهكذا انفرد الاندلسيون بحكم الاسكندرية بعد أن توفي المتنافسان ، في الوقت الذي شغل فيه ابناء السري والجروي عنهم بحروب ثائرة •

٣ — الاندلسيون يستولون على اقريطش :

رأى المأمون ان يضع حدا للاضطرابات الداخلية في مصر ، فأسند هذه المهمة الى قائده عبدالله بن طاهر بن الحسين ، وأدرك ابن طاهر أنه لن يستطيع القضاء على جميع هذه القتن الا اذا استخدم الجيش والاسطول في آن واحد ، فسير جيشا الى مصر من الخراسانيين ، وأقبل الى مصر في سنة ٢١٠ ، فتلقاء على بن الجروي بالاموال والائزال ، وانضم اليه ، وبعث ابن طاهر في طلب بعض السفن من القاعدة الشامية للأساطيل العباسية الى تنيس ، أسند قيادتها الى علي بن الجروي لمعرفته بالحرب في البحر ^(١) • ونجح عبدالله بن طاهر أخيرا في اخضاع عيون السري ، وآلت اليه ولاية مصر في ٢ ربيع الأول سنة ٢١١ هـ • وما ان تم له ذلك حتى عزم على المسير الى الاسكندرية لاستئصال الاندلسيين ، وابعادهم عن البلاد ، فبعث اليها جيشا جعل على مقدمته العباس وهاشم من قواد خراسان ، في مستهل صفر سنة ٢١٢ هـ ، ثم أقبل اليها عبدالله بن طاهر بنفسه في ربيع الاول ، فنزل على حصنها ، وحاصر الاسكندرية قرابة أسبوعين ، فاستسلمت المدينة ، وخرج اليه أهلها بالامان ، ولم يجد

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٠

الاندلسيون بدا من مصالحته ، فصالحهم على أن يجلبهم من الاسكندرية الى حيث أرادوا (١) بشرط الا يأخذوا في مراكبهم أحدا من الاهالي ولا هذا ولا ابقا ، فاذا خالفوا هذا الشرط حلت دماؤهم . وهكذا أبحر الاندلسيون من الاسكندرية في أوائل سنة ٢١٢ هـ (٢) ، يقودهم أحد رعاياهم هو ابو حفص عسر بن شعيب البلوطي المعروف بابن الغليظ او الغليظ من اهل قرية بطروج من عمل فحوص البلوط المجاور لقربطبة (٣) . واختار أبو حفص جزيرة اقريطش موطننا لقومه ، وكانت من أخصب أراضي البيزنطيين ، وتتميز بموقعها الاستراتيجي الممتاز في وسط البحر المتوسط (٤) . ويبدو أن الاندلسيين كانوا يعرفون هذه الجزيرة معرفة لامة . فان فازيليف استنادا على ما رواه جنيزيوس يذكر انهم أغاروا مرات على اقريطش وعلى جزر يونانية اخرى قبل أن يخرجوا من مصر في سنة ٢١٢ هـ ، ففي عام ٢١١ هـ « بعث العرب على كريت عشر سفن او عشرين طابت بكثير من الاسرى والغنائم بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة » (٥) . وما يؤكد ذلك أن أبا المحاسن يذكر أن الاندلسيين نزحوا من الاسكندرية ليل وصول عبدالله بن طاهر خوفا منه . وتوجهوا الى جزيرة اقريطش (٦) .

(١) ذكر الطبري وابن الاثير ان الاندلسيين سألوا ابن طاهر ان يرتحلوا عنها الى بعض اطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام ، فاعطاهم الامان على ذلك ، فرحلوا عنها ونزلوا بجزيرة اقريطش (الطبري ، ج ٢ ص ١٠٩٢ - ابن الاثير ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر ابن الاثير ان عبدالله بن طاهر صالح الاندلسيين على التخلي عنها مقابل مال بذله لهم وخبرهم في الطرول بحيث شاءوا من جزائر البحر فاخترأوا جزيرة اقريطش (ابن الاثير ، الحلة السراء ، ص ١٥) ونستنتج من ذلك كله ان الاندلسيين كانت لهم معرفة سابقة بجزيرة اقريطش ، وكانت بومئذ خالية من الروم .

(٢) ذكر الطبري وابن الاثير خروج الاندلسيين من الاسكندرية في حوادث سنة ٢١٠ هـ (الطبري ج ٢ ص ١٠٩ - ابن الاثير ج ٤ ص ٢١١ - ٢١٢)

(٣) الفبي ، ص ٣٩٤ - المقرئ ، ج ٤ ص ١٥٧

(٤) ابراهيم العدوي ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، اكتوبر ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، ص ٥٥

(٥) العرب والروم ، ص ٥٥

(٦) ابو المحاسن ، ج ٢ ص ١٩٢

البحرية الاسلامية (٦)

خرج الأندلسيون في أربعين سفينة بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب البلوطي ، وذكره البلاذري أبا حفص عمر بن عيسى الأندلسي ^(١) ، وقيل شعيب بن عمر بن عيسى ^(٢) ، واتجهوا شمالا الى اقريطش حيث نزلوا في خليج سودا سنة ٢١٢ هـ . وذكر البلاذري أنهم فتحوا من اقريطش حصنا واحدا ونزله أبو حفص ، ولم يزل يفتح شيئا بعد شيء « حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، واخرب حصونهم » ^(٣) . ونستنتج من هذا النص ان الأندلسيين لم يلقوا مقاومة كبيرة عند نزولهم ، وانهم قنعوا بحصن واحد من حصونها العديدة ثم توسعوا في الفتح بعد أن حصنوه . والظاهر أن الأندلسيين كانوا يخشون من قيام أهل اقريطش بحاربتهم في ذلك الحصن ، فأقاموا به تحصينات منيعة لكي يستنعوا فيها اذا ما غزاهم البيزنطيون ، وحفروا حول هذه التحصينات خندقا فعرف ، الحصن لذلك بالخندق ، وتحول الحصن بسرور الزمن الى مدينة كبيرة ، وصل اسمها الينا اليوم محرفا من الخندق ، فهي تعرف باسم قندية Candia . وما أن اطمأن المسلمون الى حصانة قاعدتهم حتى أخذوا يفتتحون المدن والحصون ، فأتوا فتح الجزيرة فيما يقرب من سنة ٢٣٠ هـ أي بعد مضي ١٨ سنة من نزولهم بها ^(٤) ، وقيل افتتحت بعد ٢٣٠ هـ في قول ابن حزم ، وبعد ٢٢٠ هـ في قول أبي سعيد بن يونس ^(٥) .

٤ — اقريطش في العصر الاسلامي (٢١٢ — ٣٥٠ هـ) :

نجح الأندلسيون في الاستيلاء على مدن جزيرة اقريطش كلها في الفترة ما بين نزولهم على أرضها في سنة ٢١٢ هـ حتى سنة ٢٣٠ هـ التي تم

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٧٩

(٢) الحميدي ، ص ٢٨٣ — الضبي ، ص ٢٩٤

(٣) البلاذري ، نفس المصدر .

(٤) أبو المحاسن ، ج ٣ ص ٣٢٧

(٥) الحميدي ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ — الضبي ، ص ٢٩٤

لها سيطرتهم على جميع أنحائها ، مستغلين في ذلك حالة الوهن التي طرأت على الدولة البيزنطية بعدما استنفذته ثورة توماس من قواها . وذكر لارييف ان المسلمين استولوا على تسع وعشرين مدينة لم تحفظ لنا أسماؤها . وأقبل المسلمون على مصاهرة أهل اقريطش والتزوج من نسائهم وبذلك تحول الفتح الى فتح عسكري ومعنوي في آن واحد ، فمن طريق المصاهرة نشأ جيل من المولدين المسلمين من أمهات اقريطشيات وآباء مسلمين . وعن طريق انتشار الاسلام ثبتت اقدام المسلمين في هذه الجزيرة . وكان من الطبيعي ان تلتبس العناصر الاسلامية في اقريطش الامان مثلاً في سلطة اسلامية تظللها بحمايتها ، ولم يكن هناك مفر من الدخول في فلك الخلافة العباسية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى الاسلامي كله بسا فيه مصر وافريقية (١) . وما لبثت اقريطش أن أصبحت في التقسيم الاداري للدولة العباسية اقلياً تابعاً لمصر (٢) ، وظلت اقريطش تابعة لمصر في زمن الطولونيين والاخشيديين ، « وكانت مراكب أهل القريطش تسير أهل مصر بخيرات جزيرتهم وأطعمتهم ، وكانت هداياهم تصل الى عمال مصر » (٣) .

وشرع الاندلسيون في اقريطش ، بحكم ممارستهم الغزو البحري ،

(١) اشار الامر عبد الرحمن الاوسط الى ذلك في رسالته الى الامبراطور تيوفيل ، فقال : « واما ما ذكرت من امر أبي حفص الاندلسي ومن صار معه من أهل بلدنا في خضوعهم لابن ماردة (المتعصم السياسي) ودخولهم في طاعته ، وما سالت من النظر في امورهم والانكار لهم ، فانه لم ينزع اليه منهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم ، وليسوا في بلدنا ولا يرتبنا فلهم عليهم ، وتكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا الى الدخول في طاعة ابن ماردة لانهم من بلادهم ، ودنو ناحيتهم من ناحيته » (ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١١٥ - ١١٨)

(٢) العدوي ، اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين ، ص ٥٩

(٣) القاضي النعمان (ابو حنيفة بن محمد الفقيه الاسماعيلي) قضية اقريطش في عهد الملوك لدين الله ، تحقيق فرحات الدشراوي ، حويلات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ١٩٩٥ ، ص ٢٢ .

يستغلون الموارد الطبيعية في الجزيرة ، وخاصة الاخشاب ، لانشاء قطع بحرية جديدة ، تدعم أسطولهم ، وتعينهم على مواصلة الغزو ، وسرعان ما أصبح لديهم أسطول قوي أخذوا يهاجسون به جزر بحر الارخبيل . واخذت السيطرة والسيادة في البحر المتوسط الاوسط تنتقل الى المسلمين . وأدركت الدولة البيزنطية مدى الخسارة الكبيرة التي أصابها بفقد اقريطش ، وبدأ الامبراطور ميشيل الثاني يعمل على استردادها منذ أن قضى على فتنة توماس ، فعهد الى الاسباطير الاول فوتينوس ، الجد الثالث للامبراطورة زوي ام قسطنطين البورفيري ، بمهمة استرجاعها (١) في سنة ٢١٣ هـ ، اي بعد مضي عام واحد من نزول الأندلسيين بالجزيرة . ولكن فوتينوس ما كاد يصل الى الجزيرة حتى ادرك صعوبة افتتاحها بقواته القليلة ، فأرسل الى الامبراطور يطلب أن يمدّه بقوات كافية لتحقيق هذا الهدف ، فأمدّه بجيش كبير بقيادة القائد الفارس داميان ، واشتبك البيزنطيون مع المسلمين في معركة ضارية انتهت بهزيمة البيزنطيين وأسر قائدهم داميان ، في حين فر فوتينوس في قارب صغير لجأ به الى جزيرة ديا الواقعة الى الشمال من الخندق ، ومن هناك تمكن من العودة الى القسطنطينية يحل معه أنباء الهزيمة القاسية التي تلقاها الروم على أيدي المسلمين (٢) . وعلى الرغم من هذه الهزيمة القاسية ، فإن الامبراطور البيزنطي لم يفقد الأمل بعد في استرجاع الجزيرة ، فلم يلبث في نفس هذا العام ان سير امير البحر كراتير ، قائد بند سييريوت الواقع جنوبي آسيا الصغرى ، في اسطول ضخّم عدته سبعون سفينة لافتتاح الجزيرة ، ودارت بالقرب من الخندق معركة بحرية عنيفة دامت حتى الغروب ، استبسل فيها المسلمون ، وابدوا كثيرا من ضروب الشجاعة

(١) فازيليف ، ص ٦٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٠ - العدوي ، اقريطش ص ٦١

والإلدام . ثم انهزموا في النهاية ، وانسحبوا عند المساء الى مدينتهم
لاركن للبيزنطيين أسلحتهم وعددا كبيرا من جنودهم وقمعوا أسرى في
أيدي البيزنطيين ، وقنع هؤلاء بسا أصابوه من غنائم وأسرى مرجئين
الاستمرار في المعركة الى اليوم التالي اعتقادا منهم بأن المسلمين قد
استلزموا قوتهم وأنهم لن يقووا بعد ذلك على مواصلة القتل ، واسكرهم
هذا النصر ، فأهملوا حراسة معسكرهم ، وعندئذ هاجبهم المسلمون في
الليلة منهم ، فأعللوا فيهم سيوفهم ، وحولوا الهزيمة الى نصر مبين ، وفر
كثير على احدى السفن التجارية، وفطن المسلمون الى فراره، فطارده
في البحر ، وادركوه عند جزيرة كوس حيث قبضوا عليه وقتلوه (١) .

ومنذ تلك الهزيمة الثانية ، فقد الامبراطور ميشيل الامل نهائيا في
استرجاع الجزيرة وان كان لم يفقد الامل في استرداد بعض الجزر
الصغيرة المتناثرة الى الشرق والشمال الشرقي من اقريطش والتي كان
لله استولى عليها الاندلسيون . فأعد لهذا الغرض أسطولا قويا بقيادة
أوريفوس ، وتشجعا لجنده على التفاني في القتال ، منح كل واحد منهم
أربعين قطعة ذهبية . وعلى الرغم من نجاح أوريفوس في استرداد بعض
الجزر ، فانه لم يستطع أن يفعل شيئا فيما يخص بجزيرة اقريطش .
وأدى الفشل المتلاحق الذي منيت به حملات البيزنطيين على تلك الجزيرة
الى تخلي الامبراطور نهائيا عن فكرة استردادها ، وقنع في نهاية الامر
بتركيز كل قواه للدفاع عن صقلية التي تعرضت هي الأخرى لغزو بحري
واسع النطاق قام به المسلمون في افريقية وبعض المغامرين الاندلسيين .
ولجأت الدولة البيزنطية في اعاقه الاغالبية عن فتح صقلية كلها وفي وضع

(١) فازيليف ، العرب والروم ، ص ٦١

العقبان أمام الفاتحين حتى سنة ٢٨٩ هـ ، والابقاء على سيطرتها على مناطق هامة من جنوبي ايطاليا والبحر الادرياتي (١) .

وعندئذ انفرد المسلمون في اقريطش بالعسل بعد ان انقطعت حملات البيزنطيين عن قصد جزيرتهم في عهد تيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢) ، وانفسح لهم المجال بعد انتقال النشاط البحري البيزنطي الى صقلية وأحرزوا انتصارا حاسما على الاسطول البيزنطي في سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) بالقرب من جزيرة ثاسوس ، وأخذوا يوجهون غاراتهم على سواحل آسيا الصغرى ، فهاجموا كاريا وايونيا ، وخربوا جزر السيكلاد والأتوس . وفي عهد الامبراطور ميشيل الثالث عزم انصار الأيقونات على مهاجمة مسلمي اقريطش ، فخرج تيوكيتيست في أسطول كبير في ١٨ مارس سنة ٨٤٣ هـ (٢٢٩ هـ) ، وأرسى بأسطوله على ساحل اقريطش ، ونجح في التغلب على المسلمين ، فعبد هؤلاء الى اصطناع الحيلة ، فأشاعوا في عسكر تيوكيتيست أن بعض المتآمرين في القسطنطينية يقومون بخلع الامبراطور . ولم يتردد تيوكيتيست في المبادرة بالعودة الى القسطنطينية عندما وصلته هذه الأنباء ، تاركا على الساحل الاقريطشي عددا كبيرا من جنده ، تحت رحمة المسلمين . وهكذا منيت هذه الحملة بالفشل ، وعادت أساطيل المسلمين باقريطش تهدد من جديد سواحل القسطنطينية نفسها (٢) .

وفطن البيزنطيون الى ان مصر هي مصدر قوة الاسطول الاسلامي باقريطش ، فهي التي تقوم بانتاج السفن اللازمة لمسلمي هذه الجزيرة . وتزويدهم بكل ما يلزمهم من سلاح وعدد وامتعة ، فعملوا على مهاجمة دمياط التي كانت تخرج منها المؤن والعدد الى جزيرة اقريطش ، وفي

(١) فتحى عثمان ، ج ٢ ص ٢٥٠

(٢) Vasiliev, op. cit. p. 194 والترجمة العربية ص ١٧٢ - المدوي، اقريطش، ص ٦٢

— فتحى عثمان ج ٢ ص ١٨٧

سنة ٢٣٨ هـ اقبل البيزنطيون في يوم عرفة على دمياط في ثلاثائة سفينة بقيادة رؤساء البحر عرفا (لعله اوريفوس) وابن قطونا وامردنافه ، كل منهم يقود مائة سفينة ، فهاجم ابن قطونة دمياط بمائة من الشلنديات ، ودخلوا المدينة في غيبة حاميتها وقتلوا عددا كبيرا من سكانها ، وسبوا من نساها نحو ١٦٠٠ امرأة منهن ١٢٥ مسلمة ، وساعدهم على تحقيق هدفهم اشتراك حامية دمياط ومن كان بها من الجند والجرحية والزرايين في حفل اقامه غنبة بن اسحق الضبي والى مصر بمناسبة اعدار ولديه يوم العيد بمدينة القسطاط ^(١) . ونهب البيزنطيون ما وجدوه بدمياط من اسلحة كانت موجهة الى ابي حفص صاحب اقريطش وعدتها الف قناة وآلتها ، فأحرقوا خزانة القلوع وهي شرع السفن ^(٢) ، وأحرقوا جامع دمياط وكنائس ، وأخذوا من الامتعة والاسلحة شيئا كثيرا ^(٣) . وكان غنبة قد سجن مقدما من أهل دمياط يقال له أبو جعفر بن الأكشف في بعض الابراج ، فلما هاجم البيزنطيون دمياط ولم يمنعهم عنها مانع ، مضى اليه بعض أعوانه ، وكسروا قيده وأخرجوه ، واجتمع اليه جماعة من أهل المدينة ، فحارب بهم الروم حتى هزمهم وأخرجهم من دمياط ^(٤) . ولما علم غنبة بهذه الغزوة اقبل بجند مصر ، ولكنه وصلها بعد فوات الاوان ، اذ كان البيزنطيون قد خرجوا من دمياط الى أشتوم تنيس ، فأقاموا بأشتومها ، فلم يتبعهم غنبة وتقايس عن لقاءهم ، وفي ذلك يسخر منه الشاعر يحيى بن الفضل موجهها الأبيات للمتوكل :

أترضي بأن توطأ حريبك عنوة وأن يستباح المسلمون ويحربوا
حصار أتى دمياط والروم وثب بتنيس منه رأى عين وأقرب

(١) الشيال ، الجمل في تاريخ دمياط ، الاسكندرية ١٩٤٩ ص ١٠

(٢) الطبرى ، حوادث سنة ٢٢٨ هـ ، ج ٢ ص ١٤١٧

(٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٦٥

(٤) الطبرى ، ج ٢ ص ١٤١٨ - ابن نغرى بردى ، ج ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

يقيمون بالأشتوم ييغون مثل ما أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فلا تنسنا أنا بدار مضية بصر وأن الدين قد كاد يذهب (١)

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط ، فشرع عنبسة في بنائه في ٣
رمضان سنة ٢٣٩ ، وازداد الاهتمام منذ ذلك الحين بأمر الأسطول ،
وجعلت الارزاق لغزاة البحر (٢) .

ثم هاجم الروم أشتوم تنيس عند مرسى يقع على بعد اربعة فراسخ
من تنيس ، وله سور وباب حديد كان المعتصم قد أمر بعسله ، فحربوا
عامته وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات وأخذوا بآية الحديد ،
فحسبوا ، ثم توجهوا الى بلادهم ، دون أن يتعرض لهم أحد (٣) .

ولم تؤثر غارة البيزنطيين على دمياط في الحد من نشاط أهل
اقريطش البحري ضد البيزنطيين ، فقد وصلوا شن غاراتهم البحرية المدمرة
على الجزر البيزنطية ، ففي سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) هاجموا جزيرة ميتيلين
وأتوس ، ودخلوا في دير فاتويدي في هذه الجزيرة ، وأسروا جماعة من
رهبانه ، وأحرقوا كنيستهم ، ثم عاودوا الكرة على أتوس مرة أخرى ،
فاضطر سكانها الى اخلائها . وفي سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) أغار المسلمون
على جزيرة نيون ، وهي جزيرة صغيرة تقع بالقرب من أتوس (٤) ،
واتخذوا فيها قاعدة شبه دائسة لهم (٥) . ولم تفلح جهود البيزنطيين في
ايقاف هذا السيل المدمر من غارات المسلمين الذين أصبحت لهم السيادة
في منطقة شرق البحر المتوسط .

(١) الكندي ، ص ٢٠١ - المترزي ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٧

(٢) المترزي ، الخطط ، ج ١ ص ٢٧٨

(٣) الطبري ، ج ٢ ص ١٤١٨

(٤) فازيليف ، ص ٢٢٦ - العنوي ، اقريطش ، ص ٦٥

(٥) ارشبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٢٢

٥ - استرجاع البيزنطيين لاقريطش :

ظل المسلمون في اقريطش يشكلون خطرا جديا على الدولة البيزنطية ، فغزوا جميع ما حول جزيرتهم من جزائر صغيرة ، وفتحوا معظمها ، وغنموا وسبوا ، ولم يكن للامبراطور البيزنطي قدرة على دفعهم او وضع حد لغزواتهم . ومنذ عهد بسيل الاول أصابت البحرية البيزنطية انتعاشا وضح أثره في مياه بحر ايجة ، ففي سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩ م) تسكن أسطول بيزنطي قوي بقيادة أمير البحر نيكتاس اريفا من تحطيم اسطول من اساطيل المسلمين باقريطش في خليج كورنث . وقد كان لذلك أعظم الأثر في إيقاف النشاط البحري الاسلامي هناك لمدة عشرين سنة ، عاود بعدها المسلمون غزو السيكلاد ، ونجحت بعض قطع من هذا الأسطول الاسلامي في الوصول الى مياه بحر مرمره . ويرجع لاربع أقوى الضربات التي وجهها مسلمو اقريطش الى البيزنطيين الى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) ، وذلك عندما أسهموا بأسطولهم في الهجوم الذي شنه ليو الطرابلسي ^(١) على سالونيك ، وحققوا في هذه الغزوة نجاحا تجاوز كل تقدير في الحساب ، وبلغ عدد الاسرى من سكان هذه المدينة نحو ٢٢ ألف شخص ^(٢) .

وأثارت هذه الغارات ثائرة العاصمة البيزنطية ، وحركتها الى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لهذه الغارات ، ففي سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م) تحركت بعض وحدات من الاسطول البيزنطي للاغارة على اقريطش ،

(١) من أشهر امراء البحر المسلمين ، وينسب الى مدينة طرابلس الشام التي ولد فيها ، ولقد اشترك في كثير من الحملات والغزوات التي كان يقوم بها المجاهدون المسلمون في الأندلس وفنود وجزره ، ثم انتقل الى طرطوس واتخذها قاعدة لعملياته البحرية ضد البيزنطيين (محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٩٨)

(٢) ارشبالد لويس ، ص ٢٢٤ - عبدالله عنان ، ص ٩٨ وما يليها

ولكنها لقيت نفس مصير الحملات البحرية السابقة ، وظل اسطول اقريطش بالتعاون مع أساطيل سورية ومصر يشكل خطرا جسيما على الدولة البيزنطية الى ان تسكن رومانوس ايكابنيوس (٩١٩ - ٩٤٤ م) من الانتصار على أسطول ليو الطرابلسي في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) بالقرب من جزيرة لمنوس ^(١) ، وتحرير منطقة بحر ايجة من هجمات المسلمين فترة تزيد على عشرين سنة ^(٢) .

وبعث هذا الانتصار روح النضال عند البيزنطيين ، فزاد اهتمامهم بالبحرية ، واستقر عزمهم على استرجاع اقريطش مصدر البلاء بالنسبة اليهم . ففي سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) خرجت حملة بيزنطية كبيرة نحو اقريطش . ولكنها لم تحقق اي نجاح ، ولم ينهم ذلك عن المحاولة من جديد . وأخذوا يركزون هجماتهم على الجزيرة في عهد الامبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ - ٩٦٣ م) الذي نجح في تكوين اسطول ضخم اخذ يوجه به الضربات المتواصلة على مصر و اقريطش .

ثم عند الامبراطور الى حشد كل طاقاته البحرية وتسخيرها دفعة واحدة لاسترداد اقريطش ، فأعد لهذا الغرض قوة بحرية هائلة لم يشهد لها البحر المتوسط مثيلا من قبل ، تتألف من ٢٠٠٠ سفينة حربية ، و ١٣٦٠ سفينة للمؤن والامدادات ، وكان أحجام بعض السفن الحربية كبيرا للغاية ، ومنها ما كان مزودا بعدد كبير من المجاذيف يصل في السفينة الواحدة الى ٢٥٠ مجذافا موزعة على أربعة صفوف ، ومنها ما كان مصنوعا بطريقة خاصة تجعلها صالحة لانزال الجنود على الساحل . وما ان تهيأ للامبراطور اعداد الحملة البحرية حتى جعل على قيادتها

(١) Diehl, op. cit. p. 458 - ارشيبالد لويس ، ص ٢٢٤

(٢) ارشيبالد لويس ، ص ٢٢٢

اللائد العظيم نقفور فوقاس (١) . و يروى النويري قصة استيلاء
البيزنطيين على الجزيرة في عهد « أرمانوس (٢) » اي رومانوس ،
براسطة قائده « نجفور الدمستق » وأنجاد رجاله في غرة المحرم سنة
٣٥٥ هـ ، فيذكر أنهم دخلوها بخدعة ، ففاجأوا أهل الجزيرة على غرة ،
وملكوا الجزيرة وقتلوا أميرها ومن معه من الجند (٣) .

وعندما رأى عبد العزيز بن شعيب أمير اقريطش (٤) هذه الحشود
الهائلة من البيزنطيين استصرخ ملوك الاسلام المجاورين له ، فاستمد أبا
الحسن على بن الاخشيد صاحب مصر الذي تجمعه معه دعوة بني
العباس ، ولكن ابن الاخشيد كان مغلوبا على أمره بسبب استبداد
كاملور بشؤون الحكم ، فأبدى عجزه عن نصرته ، وعهد الى بعض دعاة
الفاطميين في مصر بالكتابة الى المعز لدين الله الفاطمي في افرقية لاغاثة
المسلمين في اقريطش ، وبعث الى المعز وفدا من أهل اقريطش كانوا قد قدموا
هذه ، وتظاهر على بن الاخشيد بأنه ينوى نصرته مسلمي اقريطش ،
وذلك عندما بلغه انكار العامة لموقفه المتخاذل وتقااعه عن مساعدة أهل
الاقريطش ، فأمر بعض مراكبه أن يسير في البحر للتصويه على الناس
وتفليطهم (٥) .

وبذكر القاضي النعمان أن رومانوس الثاني كان قد بعث الى المعز
يطلب منه أن يسد المواقعة بينهما ، فوادعه على خمس سنين ، وقبل أن
ينتهي أجل هذه المواقعة ، « أرسل الدمستق الذي هو أقرب رجاله

(١) Diehl, p. 462 - ارشبالد لويس ، ص ٢٩٦

(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٢ ص ٢٤١ . ويذكرونه في بعض المصادر باسم
ارمانوس بن قسطنطين .

(٣) نفس المصدر

(٤) الحميدي ، ص ٢٨٢ - الضبي ، ص ٢٩٤

(٥) القاضي النعمان ، ص ٢٣

درجة اليه وأخصهم به في عدة من السفن كثيرة وجيوش ثقيلة ، حتى أناخ بها على جزيرة اقريطش ، وهم في دعوة بني العباس ، فلما حل بهم من ذلك مالا قبل لهم به ، وعلّسوا أنه ليس عند بني العباس نهضة ولا لديه نصرة ، أرسلوا مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم الى أمير المؤمنين المعز لدين الله يستغيثون به ويسألونه استنقاذهم واغاثتهم ^(١)

ورأى المعز أن يستفيد من الموقف الى أقصى حد ممكن ، فيتخذ من بدخله في شؤون اقريطش ذريعة للتدخل في شؤون مصر ، ورسم خطة للتعاون بينه وبين الاخشيديين لنصرة أهل اقريطش . فكتب الى ابن الاخشيد رسالة يحثه فيها على الجهاد وامداد أهل اقريطش بالمراكب لقربهم منه واتصالهم به وجيرتهم له ، وحاول أن يبدد شكوكه في نياته من ارسال الأساطيل ، ويزيل مخاوفه منه على سفنه ، فأعطاه الموائيق والعهود بأنه يرعى جنده ويعتبرهم كأجناده ، ويشركهم في الفىء . ثم أبدى له رغبته في أن يتم تجمع الأساطيل في مرسى طنبة من أرض برقة لقربه من جزيرة اقريطش في أول ربيع الآخر سنة ٣٥٠ هـ . واختتم رسالته بقوله : « ونحن بحول الله وقوته وتأييده ونصره وعونه مستغنون عنك وعن غيرك وعلى عزم وبصيرة في انفاذ أساطيلنا ورجالنا وعدتنا وما خولنا الله اياه واقدردنا عليه مما نرى بحوله وقوته نبلغ به ما نؤم اليه بذلك ونصمد نحوه » ^(٢) . ثم كتب رسالة الى رومانوس الثاني بين له فيها أنه (أي رومانوس) بحملته على اقريطش يكون قد نكث بعهده ، ثم هددته بأنه اذا تمادى على حرب أهل اقريطش فانه سيناجزه الحرب ^(٣) ثم أن المعز ذكر لوفد اقريطش أنه قد أمر بتجهيز الأساطيل لنجدة

(١) القاضي النعمان ، ص ٣١

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢

هل اقريطش بدون عرض له سوى الجهاد (١) . ويذكر ابن الأثير أن
الأمر أرسل الى أهل جزيرة اقريطش نجدة ، فقاتلوا الروم واتصر
أسلمون وأسروا من كان بالجزيرة من الروم (٢) . ولكن هذا القول غير
صحيح لأن المصادر العربية واللاتينية تجمع على أن البيزنطيين استولوا
على جزيرة اقريطش في سنة ٣٥٠ هـ . ونعتقد أن المعز استهان بقوة
البيزنطيين فلم يرسل من أسطوله الا عددا محدودا من السفن ، لا يتناسب
مع ضخامة أساطيل البيزنطيين ، ويبدو أيضا أنه اعتمد على المعونة البحرية
التي قد تقدمها مصر ، ولكن مصر كانت في شغل شاغل عن الاستجابة
للداء أهل اقريطش ، فقد كانت البلاد تعاني من المجاعات ، وكانت مدينة
للحس قد تعرضت لغارة قام بها البيزنطيون بسفن قادمة من صقلية في
سنة ٣٤٨ هـ فنهبوا المدينة (٣) . وهكذا لم تكن مصر في حالة تسمح لها
بالدخول في حرب بحرية مع البيزنطيين ، ووجدت سفن الفاطميين
المسما وحيدة أمام أساطيل بيزنطية ضخمة لم تحسب لها حسابا ، ولذلك
بادت حملة المعز بالفشل ازاء ضخامة حشود الروم ، ويبدو أن سفنهم
لم تحتل الدخول في معركة مع أساطيل الروم، ولعلها انسحبت سريعا تاركة
الجزيرة لمصيرها التعس ، ونرجح أنه لم يحدث صدام بينها وبين سفن
البيزنطيين التي كانت تطوق كل سواحل الجزيرة المنكوبة .

وقاتل أهل اقريطش الروم بقدر ما استطاعوا ، واستبسلا في الدفاع
من جزيرتهم طوال فصل الشتاء ، ولم ينجح تقفور فوقاس في اقتحام
الخدق الا في ٧ مارس سنة ٩٦١ م بعد هجوم شامل عنيف سالت فيه

(١) نفس المصدر ، ص ٢٥

(٢) ابن الأثير ، حوادث ٢٥١ . وابن الأثير هو الوحيد من بين مؤرخي العرب الذي
يحدد سنة ٢٥١ للحملة البيزنطية ، وهو أيضا الوحيد من بينهم الذي يؤكد انتصار المسلمين .

(٣) المقرئ ، الخطط ، مجلد ١ ص ٢١٥

دماء الفريقين ، و انتهى بسقوط الخندق معقل المسلمين الأيمن في أيدي
الغزاة (١) ، وتساقطت بعده بقية معقلها الأخرى . وأحدث سقوط
أقريطش في أيدي البيزنطيين ، وتخریب مساجدها وسبي كثير من نساءها
دويا هائلا في العالم الإسلامي ، فثار العامة في مصر ، وخرّبوا إحدى
الكنائس في مصر القديمة (٢) . وبسقوط أقريطش تم للبيزنطيين السيطرة
على النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط .



(١) Diehl, op. cit. p. 462

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى التاريخ المجموع
على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ ص ١١٧

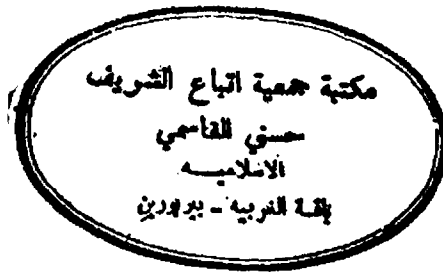
ثالثا - فتح صقلية :

١ - التمهيد لفتح صقلية في زمن الأغالبة :

يعتبر فتح الأغالبة لصقلية في سنة ٢١٢ هـ من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الاسلامية ، اذ ترتب على فتحها على أيدي المسلمين انتقال سيادة في البحر المتوسط الغربي الى المغرب الاسلامي ، اذ أن صقلية من أكبر جزر البحر المتوسط مساحة ، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية ، وأفضلها موقعا ، بحكم أنها بوقوعها في البحر بين ساحل إيطاليا الجنوبية وساحل افريقية تقسم البحر المتوسط الى قسمين : شرقي وغربي ، ثم بحكم قربها الشديد لاقليم ريو وقلورية بجنوبي إيطاليا من جهة الشمالية الشرقية بحيث لا يفصلها عنه من هذه الجهة سوى مضيق ميسيني ، وقربها أيضا من السواحل الافريقية وجزيرة قوصرة من الجهة الجنوبية الغربية ، وهو موقع يفسر لنا كثيرا من الأحداث التاريخية التي ارتت بها البلاد التونسية ، كنزول البيزنطيين على سواحل افريقية في مرحلة الغزوات العربية الأولى على فترات متقطعة مما سبب امتداد حركة الفتح العربي زمنيا ، ومثل تعرض افريقية للغزو النورماني من جهة ، وقيام الأغالبة ثم الفاطميين من بعدهم فالزيريين بغزو جنوب إيطاليا وسواحل البحر الادرياتي من قاعدتهم بصقلية ، يضاف الى ذلك التواصل بين الحضارتين اللاتينية والاسلامية ، وتواصل التقاليد الاسلامية في صقلية وجنوبي إيطاليا زمنا طويلا حتى بعد سقوط صقلية في أيدي النورمان .

وقد تنبه العرب منذ حملة عبدالله بن سعد الى الأهمية الاستراتيجية لصقلية ، وأدركوا ضرورة فتحها لتأمين فتوحهم في افريقية ، وتعرضت هذه الجزيرة منذ حملة معاوية بن حديج لغارات المسلمين البحرية ، فغزاها عبدالله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج من افريقية في

دماء الفريقين ، و انتهى بسقوط الخندق معقل المسلمين الأيمن في أيدي
الغزاة (١) ، وتساقطت بعده بقية معقلها الأخرى . وأحدث سقوط
أريطش في أيدي البيزنطيين ، وتخريب مساجدها وسبي كثير من نساءها
دويا هائلا في العالم الإسلامي ، فثار العامة في مصر ، وخربوا إحدى
الكنائس في مصر القديمة (٢) . وبسقوط أريطش تم للبيزنطيين السيطرة
على النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط .



(١) Diehl, op. cit. p. 462

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى التاريخ المجموع
على التحفيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٥ ص ١١٧

ثانيا - فتح صقلية :

١ - التمهد لفتح صقلية في زمن الأغالة :

يعتبر فتح الأغالة لصقلية في سنة ٢١٢ هـ من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الاسلامية ، اذ ترتب على فتحها على أيدي المسلمين انتقال السيادة في البحر المتوسط الغربي الى المغرب الاسلامي ، اذ أن صقلية بعد اكبر جزر البحر المتوسط مساحة ، وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية ، وأفضلها موقعا ، بحكم أنها بوقوعها في البحر بين ساحل إيطاليا الجنوبية وساحل افريقية تقسم البحر المتوسط الى قسمين : شرقي وغربي ، ثم بحكم قربها الشديد لاقليم ريو وقلورية بجنوبي إيطاليا من الجهة الشمالية الشرقية بحيث لا يفصلها عنه من هذه الجهة سوى مضيق صقلي ، وقربها أيضا من السواحل الافريقية وجزيرة قوصرة من الجهة الجنوبية الغربية ، وهو موقع يفسر لنا كثيرا من الأحداث التاريخية التي احدثت بها البلاد التونسية ، كنزول البيزنطيين على سواحل افريقية في مرحلة الغزوات العربية الأولى على فترات متقطعة مما سبب امتداد حركة الفتح العربي زمنيا ، ومثل تعرض افريقية للغزو النورماني من جهة ، وقيام الأغالة ثم الفاطميين من بعدهم فالزيريين بغزو جنوب إيطاليا وسواحل البحر الادرياتي من قاعدتهم بصقلية ، يضاف الى ذلك التواصل بين الحضارتين اللاتينية والاسلامية ، وتأصل التقاليد الاسلامية في صقلية وجنوبي إيطاليا زمنا طويلا حتى بعد سقوط صقلية في أيدي النورمان .

وقد تنبه العرب منذ حملة عبدالله بن سعد الى الأهمية الاستراتيجية لصقلية ، وأدركوا ضرورة فتحها لتأمين فتوحهم في افريقية ، وتعرضت هذه الجزيرة منذ حملة معاوية بن حديج لغارات المسلمين البحرية ، فغزاها عبدالله بن قيس الفزاري من قبل معاوية بن حديج من افريقية في

خلافة معاوية بن أبي سفيان ^(١) سنة ٤٦ هـ ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة من بينها أصنام من الذهب والفضة مكللة بالجواهر ، ثم غزاها عقبة ابن نافع في البحر بأهل مصر في سنة ٤٩ ^(٢) هـ ، ثم غزاها عطاء بن رافع الهذلي أيضا في مراكب أهل مصر في سنة ٨٣ هـ ^(٣) . وغزاها عياش ابن أخيل في ولاية موسى بن نصير في أسطول المغرب ، وهاجم سرقوسة . وغنم منها غنائم كثيرة ^(٤) . وتوالت عليها غزوات المسلمين بعد ذلك . فغزيت في سنة ١٠٢ هـ ^(٥) في ولاية يزيد بن أبي مسلم . وفي سنة ١٠٩ هـ غزاها بشر بن صفوان بنفسه ^(٦) في خلافة هشام بن عبد الملك ، ثم غزاها المستنير بن الحارث الحريشي في سنة ١١٣ هـ ^(٧) . وغزاها حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع في سنة ١١٦ هـ ^(٨) ، ثم غزاها في العام التالي ^(٩) . ثم غزاها للمرة الثالثة في سنة ١٢٢ هـ مع ابنه عبد الرحمن بن حبيب ^(١٠) . وغزاها عبد الرحمن بن حبيب في سنة ١٣٥ هـ أيام أمارته على إفريقية ^(١١) .

وتبع هذه الغزوة الأخيرة فترة من الخمول والركود لم يزاوِل فيها المسلمون أي نشاط بحري ، بسبب اشتغال ولاية إفريقية بالفتن مع

- (١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٧٨ - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢ - النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
 (٢) أبو المحاسن ، ج ١ ص ١٢٨ .
 (٣) الذهبي ، المعبر في خبر من غير ، ج ٢ ص ٢٢٣ . ويسميه الذهبي عطاء بن أبي نافع .
 (٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ٧٥ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦ .
 (٥) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٨٢ .
 (٦) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٠١ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٨ - النويري ، ج ٢٢ ص ٨٤ .
 (٧) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٢ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١٥ - ابن أبي دینسار القبرواني ، ص ٢٥ .
 (٨) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١٩ .
 (٩) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٢٢ .
 (١٠) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٢٢ - النويري ، ص ٢٢٦ .
 (١١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٧٩ .

البربر ، فاستغل البيزنطيون هذه الفرصة ، وأخذوا يحصنون بلادهم وسواحلهم ويعسرونها بالمعاقل والحصون ، ولم يتركوا جبلا الا أقاموا عليه حصنا ، وكانت وحداتهم البحرية تطوف بسواحل الجزيرة للذب عنها ، وكثيرا ما طارقوا تجارا من المسلمين فأسروهم^(١) ، وتجرات سفنهم على مهاجمة السواحل الافريقية ، ولعل ذلك كان السبب في اهتمام هرثة بن أعين ببناء القصر الكبير بالمنستير في سنة ١٨٠ هـ ، وبناء سور مدينة طرابلس . وظل الروم يواصلون توجيه غاراتهم البحرية على الساحل التونسي حتى قامت أسرة الأغالبة ، واضطر الأمير ابراهيم بن الأغلب الى أن يعقد مع البطريق قسطنطين صاحب صقلية هدنة لمدة عشر سنوات ، ولكن هذه المعاهدة لم تصبح سارية المفعول الا فترة قصيرة من الوقت ، بسبب الغزوات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين ، فقد أغار المسلمون على بعض جزر صقلية ، فسير الامبراطور ميشيل الأول أسطولا بقيادة جريجوري لمحاربة المسلمين ، غير أن هؤلاء تمكنوا من الاستيلاء على بعض سفن البيزنطيين قرب جزيرة لندوشة ، وقتلوا من كان بها ، فاضطر الروم الى المبادرة بالهجوم ، وتغلبوا في هذه المرة على المسلمين .

وأدت هذه الاعتداءات المتبادلة الى معاودة النظر في تجديد الهدنة مدة عشر سنوات تبدأ من سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) ، في امارة أبي العباس بن ابراهيم الأغلبي ، وقد اتفق الطرفان على ضمان الأمن للتجار المسلمين في صقلية وللروم في افريقية^(٢) .

(١) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٤٥ - التوبري ، ج ٢٢ ص ٢٢٦
 (٢) المالكى ، ص ١٨٦ - Marçais, La Berbérie musulmane, p. 65 -
 فانزلييف ، ص ٦٤ - طرخان ، المسلمون في اوربا ، ص ٩١

ولا شك أن الغارات المتواصلة التي تعرضت لها صقلية من سنة ٤٦ هـ حتى سنة ١٣٥ هـ كانت تجارب مفيدة للمسلمين ، اذ بفضلها تمكنوا من دراسة هذه الجزيرة ومعرفتها معرفة تامة . ثم كان لاستيلاء المسلمين على قوصرة الواقعة في منتصف المسافة بين صقلية وساحل افريقية فيما قرب من سنة ١٣٠ هـ على يد عبد الرحمن بن حبيب الفهري بعد محاولتين سابقتين ، احدهما في سنة ٨٨ هـ على يدي عبد الملك بن قطن ، والثانية في سنة ١١٨ هـ على يدي حبيب بن أبي عبدة ^(١) ، أعظم الاثر في اتخاذها قاعدة أمامية للدفاع عن ساحل تونس ، وتوجيه الغارات على صقلية وسردانية وغيرها ^(٢) .

٢ - أسباب فتح المسلمين لصقلية :

يرجع فتح المسلمين لجزيرة صقلية الى عدة عوامل نلخصها فيما يلي :

١ - **اتجاه الأغلبة الى اصطناع سياسة بحرية :** شهد المغرب الاسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه ، أهمها وأشهرها دولة الأغلبة التي قامت في افريقية ، وكانت تتمتع باستقلال جزئي عن الخلافة العباسية ، لتكون حاجزا بين البلاد التابعة للعباسيين في شرق تونس وبين بلاد الرستمين والادارسة .

وأسرة الأغلبة أسرة مستنيرة ، اهتمت في آن واحد بالتعمير السلمي والبناء الحربي ، فقد أدرك ابراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الاسرة منذ أن أقر الخليفة العباسي الرشيد امارته على افريقية أن امتداد امارته من طرابلس شرقا حتى بجاية غربا يستلزم أسطولا يستطيع بواسطته حماية

(١) حسن حسني عبد الوهاب ، جزيرة قوصرة ، ص ٥٩

(٢) فازيليف ، ص ٦٣

هذه السواحل من غزوات الروم ، وفي نفس الوقت يعينه على العودة بالسياسة الاسلامية الافريقية الى توجيه الغارات على بلاد الروم ، ثم انه كان يرمي أيضا الى استخدام هذا الأسطول لاختداد الثورات التي كثيرا ما كانت تحدث في اطرابلس مركز الاباضية . وحرص ابراهيم بن الأغلب على الافادة من قدرات سكان افريقية البحرية ، وخاصة الأفارقة ، مثله في ميولهم البحرية الواضحة عند سكان السواحل ، وفي توافر المواد اللازمة لصناعة الأساطيل ، لتكوين قوة بحرية عظيمة ^(١) ، وقدر لهذا الأسطول أن ينمو وتزيد قوته في زمن زيادة الله ، وأصبح من الضروري أن يقوم هذا الاسطول بتحقيق آمال المسلمين القديمة فيساهم في عهود من أعقب زيادة الله من أمراء بني الأغلب في افتتاح جزيرة صقلية كلها وجزيرة مالطة ، وسواحل ايطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية وجزيرة سردينيا . وجاء فتح صقلية متمما لسيادة العرب في النصف الغربي من البحر المتوسط .

ب - أهمية صقلية من الناحيتين الاقتصادية والحربية : كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا خصبة كثيرة الخيرات ، غنية بمواردها الطبيعية وثرواتها المعدنية ^(٢) . وكانت بالاضافة الى ذلك كله تمثل بلادا جديدة يسكن فتحها واستغلالها في زيادة مصادر الثروة الاقتصادية لدولة الأغالبة ، خاصة وأن افريقية كانت قد أفقرت من هذه الموارد بسبب ما تعرضت له من فتن مدمرة وحروب دامية ، زد على ذلك أن

(١) عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٢٧٤

(٢) ذكر البكري انها كثيرة الزرع والضرع والفواكه (البكري ، ص ٢١٣) ، وذكر الادريسي أن المياه بجميع جزيرة صقلية مخترفة ، وعيونها جارية متدفقة ، وفواكهها ومبانيها ومنزهاتها حسنة رائحة (الادريسي ص ٢٣ - الحميري ، ص ١٤٧) . وذكر ياقوت انها جزيرة خصبة تشبه البلدان والقرى والامصار ، وبها عيون غزيرة وانهار جارية ونزه عجيبة ، وفيها معدن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وجميع الفواكه على اختلافها (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١٦)

الأغلبية كانوا يدركون أهمية موقع صقلية الجغرافي بالنسبة لدولتهم .
فهي بتحكمها في النصفين الشرقي والغربي من حوض البحر المتوسط
يمكن لمن يستولي عليها أن يفرض سلطانه على السواحل المجاورة لها
والجزر القريبة منها .

ج - الجهاد في سبيل الله : كان من أثر الفتن العنيفة التي اتخذت
من أرض افريقية وطرابلس مسرحا داميا لها فيما يقرب من منتصف القرن
الثاني الهجري أن ساد البلاد نزعة شديدة الى التفقه في الدين ، ولم تلبث
افريقية أن تحولت الى بلد اسلامي تغلب عليه الروح الدينية ويسود فيه
المذهب المالكي ^(١) الذي يتلاءم مع الروح السائدة عند سكان هذا الاقليم
من حيث الاستسكان بالكتاب والسنة والنفور من التأويل والتخريج .
وظهرت في البلاد التونسية طبقة من العلماء المالكية المتفقهين المتعبدين
الزاهدين من اعلامها البهلول بن راشد مؤلف الديوان في الفقه على مذهب
مالك ^(٢) ، وعبدالله بن عمر بن غانم الرعيني ^(٣) ، وصقلاب بن زياد
الهمداني ^(٤) ، وأسد بن القرات ^(٥) ، وأبو محرز محمد بن عبدالله بن
قيس ^(٦) ، وسحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ^(٧) . وكان
لهؤلاء العلماء المالكية أعظم الأثر في غلبة الروح
الدينية والاتجاه الى الزهد والرغبة في المراقبة بالثغور بقصد الجهاد في
سبيل الله ، بسبب تعرض السواحل الافريقية لغارات الروم البحرية ،
واعتبر الرباط في هذه الثغور جهادا في سبيل الله وقربة اليه ^(٨) ، فنشأت

(١) حسين مؤنس ، مقدمة كتاب رياض النفوس للمالكي ، ص ٧

(٢) المالكي ، ص ١٢٢

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤٢

(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٥

(٥) نفسه ، ص ١٧٢

(٦) نفسه ، ص ١٨٩

(٧) نفسه ، ص ٢٤٩

(٨) مؤنس ، مقدمة كتاب رياض النفوس ، ص ٢٥

الرباطات والقصور على سواحل افريقية : في قابس وسوسة ولمطة وتونس والمنستير ، وفي هذه الأربطة كان يقيم المتعبدون والمجاهدون بقصد حراسة المسلمين والتعبد لله في آن واحد . وكان الخروج لغزو الروم في صقلية لهاية ما يتسناه هؤلاء الصالحون . ولا شك أن الأمير زيادة الله بن الأغلب قد نجح في استثارة هذا الشعور الديني السائد باختيار أسد ابن الفرات القاضي قائدا للحملة الى صقلية ، والشعور الديني طاقة كبيرة لها وزنها وأهميتها في الفتوحات الاسلامية ، وهو في نفس الوقت يخفي الاغراض الحقيقية لزيادة الله من وراء هذه الحملة . ومما لا شك فيه أن زيادة الله بغزو صقلية نكث بعهد الصلح الذي كان قد عقده أبو العباس مع البيزنطيين ، وكان يعلم أن علماء افريقية لا يقرونه على البدء بنقض العهد مع الروم لأنه لم يثبت عند المسلمين أن الروم نقضوا العهد ^(١) ، ولذلك اختار أسدا لهذه المهمة حتى يكسب الحملة نوعا من الشرعية ، فولاه قائدا على الجيش «وأقره على القضاء مع القيادة ، فخرج معه اشراف افريقية من العرب والجند والبربر والأندلسيين وأهل العلم والبصر» ^(٢) .

د - التلخص من العناصر الثائرة في البلاد : عانى زيادة الله كثيرا من الثورات التي قام بها جنده عليه ، وفتنهم المتعددة التي كادت تطيح بملك بني الأغلب ، مثل ثورة عمر بن معاوية القيسي في القصرين سنة ٢٠٨ هـ ، وثورة منصور الطنبذي بتونس في سنة ٢٠٩ هـ الذي التفحوله الجند والقواد وتواثبوا على الأمير ^(٣) ، وثورة عامر بن نافع الازرق

(١) المالكي ، ص ١٨٧

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢

(٣) كانت ثورة منصور اخطر هذه الثورات لان القواد انتزوا على اعمال افريقية ، كل قائد على بلدة يضبطها ويمتنع فيها من عقوبة زيادة الله التي توعدهم بها ، واضطربت افريقية نارا ، ورمى الجند كلهم الى منصور الطنبذي ازمة امورهم ، وولوه على انفسهم " ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٨

بسببه في سنة ٢١٠ هـ (١) . ويرجع سبب قيام الجند بالثورة على زيادة الله الى استخفافه بهم ، وامعانه في سفك دمائهم لسوء ظنه بهم ، وقد ساء مركز زيادة الله بسبب هذه الثورات الى حد أن الجند كتبوا اليه بأن يرحل عن افريقية (٢) . وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه وفاة عامر في سنة ٢١٣ هـ بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها » (٣) . كذلك حرص زيادة الله على اشراك البربر في حملته التي أعدها لغزو صقلية حتى يشغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير في القيام عليه (٤) ، ويضع حدا للاضطرابات التي كانت تحدث بين السودان والعرب والبربر (٥) .

هـ - استنصار فيمي Euphemius قائد الاسطول البيزنطي في صقلية
بزيادة الله :

ذكر ابن الأثير أن الامبراطور البيزنطي ميشيل الثاني ولي في سنة ٢١١ هـ (٨٢٦م) على صقلية بطريقا يقال له قسطنطين ويلقب بسودة ، « فعمر أسطولا وسيره الى بر افريقية وولي عليه فيمي الرومي ، وكان مقدما من بطارقه ، فاخطف من بعض سواحلها تجارا وبقي مدة » (٦) . واتفق أن غضب الامبراطور على فيمي ، وأمر واليه على صقلية بالقبض عليه وتعذيبه ، بسبب اكراهه - كما تزعم المصادر اللاتينية - راهبة يقال

(١) المغرب الكبير ، ص ١٧

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٠

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٢

(٤) المغرب الكبير ، ص ١٨

(٥) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٩٠

(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢١٢ - ياقوت ، ج ٢ ص ١٧ - النويري ، ص ٢٢٦ . ويتفق

ابن الأثير وياقوت والنويري في اسم صاحب صقلية البطريق .

لها هو مونيزا على الزواج منه ^(١) . والحقيقة أنه ثار مقتنما فرصة قيام
ثورماس بالثورة على الامبراطور وانتصار المسلمين في اقريطش ^(٢) . فلما
علم فيمي بذلك ، وأدرك مدى ما يهدده من أخطار، جمع أنصاره، واعتزى
بأسطوله، وشق عصا الطاعة على الامبراطور، وزحف الى مدينة سرقوسة،
ويمكن من التغلب عليها . فتصدى له قسطنطين واشتبك الفريقان فسي
قتال عنيف انتهى بهزيمة قسطنطين وفراره الى قطنانية حيث تسكن فيمي
من أسره ثم قتله . وأعلن فيمي نفسه امبراطورا «وخوطف فيمي بالملك»،
وقلّد أصحابه وأنصاره على أقاليم صقلية ومدنها ، ومن بينهم رجل أرمنى
يُقال له بلاطه ، فقدّمه وولاه على ناحية من الجزيرة . ولكن بلاطه لم
يلبث أن انقلب عليه وانضم الى الفريق الامبراطوري وأيده في ذلك
ابن عم له يقال له ميخائيل ، كان يتولى بلرم ^(٣) ، فقادا جيشا حاربا به
فيمي وهزماء ، وقتلا من أصحابه نحو من ألف رجل ، وتسكن بلاطه من
الاستيلاء على سرقوسة . أما فيمي فلم يجد من ينصره في الجزيرة ، فركب
ومن معه سفينة وتوجه الى افريقية ، حيث التمس من أميرها زيادة الله
ابن ابراهيم أن ينصره على خصومه في الجزيرة ، وأن يساعده بجيشه في
التغلب على بلاطه ، ووعدّه في مقابل ذلك بأن يسلك جزيرة صقلية ^(٤) .

وكان زيادة الله مرتبطا مع الروم بهدنة من بنودها أن من دخل الى
الروم من المسلمين وأراد أن يردوه الى بلده ردوه ^(٥)، ولهذا السبب عقد مجلسا من
الفقهاء لاستفتائهم في هذه القضية ودراسة ما عرضه عليه فيمي بشأن فتح

(١) فازيليف ص ٦٨

(٢) نفسه ، ص ٧٠

(٣) ابن الاثير (المكتبة الصقلية) ص ٢٢٢

(٤) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٨٧ - النويري ، ص ٢٢٦ - احسان عباس ، ص ٢٢

(٥) المالكي ، ص ١٨٦

صقلية • وكان من كبار الفقهاء القاضيان أبو محرز وأسد ، فسألهما عن رأيهما ، فقال أبو محرز : « نستأني في هذا الأمر حتى تتبين » ، وأما أسد فقال : « نسأل رسلهم عن ذلك » ، فقال أبو محرز : « وكيف نقبل قبول الرسل عليهم أو دفعهم عنهم ؟ فقال أسد : بالرسل هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين ، قال الله عز وجل (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون) ، فكذلك لا تماسك به ، ونحن الأعلون • قال فسأل زيادة الله عند ذلك الرسل ، فقالوا : نعم حبسوهم لأنهم في دينهم لا يحل لهم ردهم • قال وكان في الرسل مسلم » ^(١) • وقال بعض الفقهاء : « نغزوها ولا نسكنها ولا نتخذها وطننا » ^(٢) • وكره بعض علماء افريقية غزوها متمسكين بالعهد الذي كان قائما بين المسلمين والروم ، ما دام لم يثبت بعد أن الروم نكثوا هذا العهد ^(٣) • على أن النويري يؤكد أن معظم الفقهاء أفتوا بغزوها ، ورغبوا في ذلك ، وسارعوا اليه ، وعند ذلك استقر عزم زيادة الله على الغزو ^(٤) بعد أن هون عليه فيمي أمر غزوها وأغراه بها ^(٥) •

٣ - فتح صقلية :

يشبه فتح المسلمين لصقلية فتحهم للأندلس ، فكما أن استنجد فيمي بزيادة الله كان سيبا مباشرا في اغراء زيادة الله على فتح صقلية كان استنجد وقلة ويليان بموسى بن نصير سيبا مباشرا في جواز قائدده

(١) نفسه ، ص ١٨٧

(٢) النويري ، ص ٢٢٧

(٣) المالكي ، ص ١٨٧

(٤) النويري ص ٢٢٧

(٥) معجم البلدان (الكتبة الصقلية) ص ١١٧

طارق بن زياد الى الأندلس ^(١) . ويبدو أن زيادة الله كان يسعى الى
ترغيب الناس في غزو صقلية ، واكساب الحملة طابعا من الجهاد في سبيل
الله ، فعندما بلغه أن أسد بن الفرات أبدى رغبته في الخروج في هذه
الغزوة كواحد من المسلمين ، ولاء امرة الجيش مع الاحتفاظ بالقضاء
فأصبح أسد بن الفرات قاضيا أميرا ، ولم تجتمع الامارة والقضاء من
قبل لأحد في افريقية الا لأسد وحده ^(٢) . وأصدر زيادة الله امره الى
فيمي ، وكان قد قصده بالقيروان ^(٣) ، بالتوجه الى مرسى سوسة ،
والاقامة هناك في انتظار تجمع قطع الأسطول الاسلامي ^(٤) .

خرج أسد بن الفرات من القيروان في حشود قوامها عشرة آلاف من
المرجالة وسبعمئة من الفرسان ^(٥) بأفراسهم ، متوجها الى سوسة ليركب
منها الى صقلية ، وخرج معه وجوه أهل العلم وعدد كبير من الأهالي
لتوديعه ، واحتفل زيادة الله بذلك اليوم ، فأمر الا يبقى أحد من رجاله
الا شيعه ، فركب أسد في جمع عظيم بين صهيل الخيول وقرع الطبول
وارتفاع البنود ^(٦) .

وأقلع الاسطول الاسلامي من مدينة سوسة في يوم السبت ١٥ من
شهر ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ (١٤ يونيو سنة ٨٢٧ م) وكان يتكون من
سبعين مركبا ^(٧) ، وقيل مائة مركب ، بالاضافة الى مراكب فيمي ^(٨) .

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٦٧ - المغرب الكبير ، ص ٢٨٧

(٢) المالكي ، ص ١٨٧

(٣) معجم البلدان (المكتبة الصقلية) ص ١١٧

(٤) النويري ، ص ٢٢٧

(٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ١١٢ - النويري ، ص ٢٢٧ - اتحاف اهل الزمان ، ص ١٠٦

(٦) المالكي ، ص ١٨٨

(٧) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٢ - الحميري ، ص ١٥٧

(٨) النويري ، ص ٢٢٧

فوصلت الأساطيل الى بلدة مازر Mazara في يوم الثلاثاء، أي بعد ثلاثة أيام من الابحار من سوسة ، ومازر هي أقرب مدن صقلية الى سوسة ، وكان لقيمي بها أنصار عديدون ^(١) ، فأمر أسد بالخيـل والجند بالخروج من المراكب ، وأقام بـمازر ثلاثة أيام . وذكر المالكي أنه حدث اختلاف بين أسد بن الفرات وبين أحد قواده وهو ابن قادم ، سببه أنه لما نزل المسلمون بصقلية أضر بهم الجوع حتى أكلوا لحوم الخيل ، ففوض الجند الى ابن قادم أن يحدث أسدا عنهم في اعادتهم الى افريقية ، فرفض أسد ، وأراد حرق المراكب ، ثم انه عاقب ابن قادم فضربه بالسوط ^(٢) .

لم يشتبك جيش أسد أثناء مقامه في مازر مع الروم ، فلم يخرج للقاءه الا سرية واحدة تمكن من أسرها فاذا هي من أنصار فيمي ، وعندئذ أمر أسد بفصل جيش فيمي عن المسلمين ، وقرر الاستقلال بعملياته اذ لم يكن يثق بصدق معوته ^(٣) . وذكر المالكي أنه قال لقيمه أو فيمي : «اعتزلنا ، فلا حاجة لنا بأن تعينونا» . وقال : «اجعلوا على رؤوسكم سيما تعرفون بها لئلا يتوهم واحد منا أنكم من هؤلاء المواقين لنا فيصيبكم بمكروه . فجعلوا على رؤوسهم الحشيش ، فكانت تلك سيماهم » ^(٤) . ويبدو أنهم وضعوا غصنا نباتيا حول رؤوسهم تمييزا لهم عن بقية الروم . ثم سار جيش المسلمين نحو سهل بلاطة مارا بقلعة بلوط ثم قرى الرفش وقلعة الدب وقلعة الطواويس ، ثم الى أرض المعركة التي سميت باسم بلاطه نسبة الى صاحب صقلية ^(٥) . وأقبل بلاطة في

(١) فازيليف ص ٧٢

(٢) المالكي ، ص ١٨٩

(٣) ياقوت ، المكتبة الصقلية ، ص ١١٧ - النوبري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧

(٤) المالكي ، ص ١٨٨

(٥) الحميري ، مقتبسات من الروض المطار ، ص ١٥٧

جيش عدته ١٥٠ ألف مقاتل ، فخطب أسد في الناس وهو يحمل اللواء وقال : « هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم ، لا تهابوهم » (١) . ثم كبر المسلمون وحملوا مع قائددهم ، وتمادت غزائم المسلمين حتى هزموا بلاطه وأصحابه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا ما معهم ، وانسحب بلاطه الى قصر يانة Castrogiovanni ، ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين ، ففر من صقلية الى قلورية Calabria بجنوبي ايطاليا ، فقتل بها (٢) .

بعد هذا الانتصار الحاسم ، استعمل أسد على مازر أبا زاكي الكناني ، ثم زحف الى موضع على البحر يقال له كنيسة ايفمية . ويذكر أماري أنها فينياس القديمة ، ثم سار الى كنيسة المسلقين . وهناك أقبل اليه طائفة من بطارقة سرقوسة Siracuse ، فسألوه أن يمنحهم الأمان خديعة ومكرا ، وبذلوا له الجزية ، واشترطوا عليه أن يبقى في موضعه ، فوافقهم ، وأقام في موضعه أياما لتنظيم صفوفه قبل المعركة المقبلة ، وانتظارا لقدم أسطوله لتشديد الحصار على سرقوسة . وفي هذه الأثناء تجمعت فلول الروم بقلعة الكراث التي يعتقد أنها قصر اكريدي ، ووضعوا فيها كل أموال جزيرتهم ، ومكر به أهل سرقوسة إذ استغلوا فترة توقفه عن الزحف وأصلحوا حصنهم ، وأدخلوا فيه جميع ما كان في الربض وفي الكنائس من ذهب وفضة وميرة ، وفي نفس الوقت انقلب فيمي عليه ، وانضم الى بني جلدته ، وبعث الى أهل سرقوسة يحثهم على الثبات والاستبسال . وما ان استكمل أسد تنظيم صفوفه ، وجاءه الاسطول من مازر ، حتى واصل زحفه نحو سرقوسة ، وناصب أهلها القتال ، فتحصنوا داخل أسوار مدينتهم ، فبث السرايا في كل ناحية ، وغنم غنائم

(١) المالكي ، ص ١٨٩

(٢) النويري ، ص ٢٢٧

هائلة ، وافتتح غيرانا كثيرة حول سرقوسة (١) . ثم حاصر سرقوسة نفسها من البر والبحر ، وجاءته الأساطيل من افريقية تحمل اليه الامدادات . وعند ذاك زحف والي بلرم في جيش كثيف نحو المسلمين ، فخندق المسلمون حول انفسهم ، وحفروا خارج الخندق حفرا كثيرة . فلما حمل الروم على المسلمين ، كبت الخيل وسقط كثير منها في الحفر ، وقتل المسلمون أعدادا كبيرة من الروم ، وضيق القاضي أسد الحصار على سرقوسة وأحرق أسطول البيزنطيين ، فسألوه الامان ، ولكن المسلمين رفضوا أن يجيئهم عليه بسبب غدرهم بالمسلمين ، وفي هذه الآونة حل بالمسلمين وباء شديد هلك بسببه عدد كبير منهم ، من جملتهم القاضي أسد بن الفرات (٢) الذي توفي في شعبان (٣) سنة ٢١٣ ، وقيل في رجب (٤) ، وقيل في ربيع الآخر (٥) ، فدفنه المسلمون في الموضع الذي كان يحاصر منه سرقوسة (٦) ، وقيل بين قطانية Catania وقصريانة (٧) وهو أمر نستبعده . وتشير بعض الروايات الى أنه مات متأثرا ببعض الجراحات (٨) .

وهكذا توفي القاضي أسد بن الفرات في الوقت الذي رجحت فيه كفة البيزنطيين ، فقد كان المسلمون يعانون من وقوع الموتان في معسكرهم ، وسفن القسطنطينية والبندقية تتعاون فيما بينها للقضاء على المسلمين ،

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٢ . ويقصد بالفران الحاجر الشهيرة المنتثرة حول سرقوسة .

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٢ - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٤ . الحميري ، ص ١٥٧ - النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٧

(٣) النويري ، ص ٢٢٧

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٤

(٥) المالكي ، ص ١٧٢

(٦) نفسه ، ص ١٧٢

(٧) الحميري ، ص ١٥٤

(٨) المالكي ، ص ١٧٢ - اتحاف اهل الزمان ، ص ١٠٦

والمؤمن والاقوات تكاد تكون معدومة في المعسكر الاسلامي . ومع ذلك
 فقد عزم المسلمون على مواجهة هذه الأخطار والتغلب عليها ، فبدأوا
 بالاختيار واحد منهم قائدا عليهم ، فولوا على أنفسهم محمد بن أبي
 الجوارى الذي وضعوا فيه كل أملهم لتخليصهم ومعالجة الموقف
 المتحرج الذي وصلوا اليه ، تهييدا للعودة الى بلادهم . وكانت أنباء
 وصول الاسطول البيزنطي والحشود الرومية قد وصلت الى مسامع
 المسلمين ، فعزموا على ركوب مراكبهم والعودة الى افريقية ، فرفعوا
 الحصار عن سرقوسة ، وأصلحوا سفنهم وركبوها وشرعوا في الاقلاع ،
 لكن مراكب البيزنطيين والبنادقة تصدت لهم على باب المرسى الكبير ،
 ومنعته من الخروج ^(١) ، ورأى المسلمون أن اقتحامهم لهذا الحصار
 البحري يعتبر ضربا من التهور الذي يصل الى حد التهلكة ، فراجعوا
 بسفنهم الى المرسى ، وأحرقوا هذه السفن حتى لا يظفر بها البيزنطيون ،
 واستقر عزمهم على القتال . وحرق المراكب في هذه الحالة
 له مدلول هام ، اذ يعني انهم قد وطنوا انفسهم على القتال حتى الموت
 معتمدين فى ذلك على سيوفهم فحسب . ثم رحل المسلمون الى حصن
 ميناو بعد ثلاثة أيام فقط من بدء محاصرتهم لها . ثم اتجه فريق من
 المسلمين الى حصن جرجنت Girgenti الواقع على ساحل البحر جنوب
 غربي صقلية ، ونجحوا في الاستيلاء عليه . ورفع هذان الفتحتان من
 روح المسلمين ، فأشرقت نفوسهم بالآمال بعد القنوط واليأس ، وبدأوا
 يتطلعون الى المزيد من الانتصارات . ثم خرج فيمى مع فرقة من المسلمين
 الى مدينة قصريانة الواقعة الى الشمال الغربي من صقلية لاقتاحتها ،

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٢ - النويري ، ص ٢٢٩

فخرج أهلها اليه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، ، وبذلوا له الطاعة (١) وهم يضررون له الكيد ، وقالوا له : « نكون نحن وأنت والمسلمون على كلمة واحدة ، ونخلع طاعة الملك » . وسألوه ان يرجع عنهم في ذلك اليوم لينظروا فيما يصلحون عليه ، فاستجاب لرغبتهم ، ثم قدم اليهم في اليوم التالي في نفر يسير من أصحابه ، فخرجوا يقبلون الأرض بين يديه ، وكانوا قد دفنوا سلاحا في تلك البقعة ، فلما اقترب منهم أخرجوا السلاح ، ووثبوا عليه فقتلوه (٢) .

وأرسلت الحكومة البيزنطية في تلك الآونة مددا جديدا الى الجزيرة بقيادة البطريق تودط ، الذي زحف في جموع كثيفة من الأرمن وغيرهم ، نحو قصر يانة ، واصطدم مع المسلمين تحت أسوار قصر يانة ، في قتال عنيف انتهى بانهزامه على ايدي المسلمين ، وقتل من عسكره اعداد كبيرة ، وأسر من قواده سبعون بطريقا ، وفر تودط الى داخل المدينة . واستمر حصار المسلمين لها وقد شد النصر من عزيمتهم الى ان توفي قائدهم محمد بن أبي الجوارى في آخر سنة ٢١٣ هـ (٣) ، فولوا على أنفسهم قائدا من قوادهم هو زهير بن غوث (٤) ، وقيل زهير بن برغوث (٥) . ونشبت بين هذا الوالي الجديد وبين تودط معارك عنيفة انهزم فيها المسلمون ، وقتل منهم نحو ألف رجل ، فعاد المسلمون الى معسكرهم ، وخذقوا على أنفسهم ، فحاصرهم البيزنطيون من داخل

(١) النويري ، ص ٢٢٨

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ص ٢٢٢ - النويري ص ٢٢٨

(٣) ذكر النويري ان ابن ابي الجوارى توفي في اول سنة ٢١٤ هـ ، ولكنه عاد بعد ذلك فذكر ان المسلمين في مازر وميناو بقيادة الوالي الجديد كانوا في موقف لا يحسد عليه حتى دخلت سنة ٢١٤ هـ ، ولذلك فاننا نأخذ بتأريخ سنة ٢١٣ هـ الذي أورده ابن الاثير

(٤) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٣

(٥) النويري ، ص ٢٢٨

المدينة ومن خارجها ، واشتد القتال بين الطرفين ، وأدرك المسلمون تخرج موقفهم فغزموا على التسلسل من معسكرهم ، وكان البيزنطيون يتوقعون منهم ذلك ، فأخلوا خيامهم ، وترصدوا للمسلمين بالقرب منها ، فلما خرج المسلمون لم يروا أحدا ، فأقبل عليهم البيزنطيون من كل ناحية ، فانحطوا عليهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وفر الناجون الى ميناو فدخلوها ، واكن البيزنطيين حاصروهم هناك ، وقتلت قوات المسلمين ، وانقطعت عنهم المؤن حتى اضطروا الى أكل الدواب والكلاب (١) . وحاول مسلمو هرجنت أن يساعدوا اخوانهم في ميناو ، فخربوا جرجنت قبل أن يتخلوا عنها ، وساروا الى مازر وحاولوا من هناك نصرة اخوانهم المحصورين ، فتعذر عليهم الأمر ، وأشرف المسلمون في ميناو على الهلاك .

٤- وصول البحريين الأندلسيين الى صقلية ومشاركتهم في فتحها:

في تلك اللحظات الحرجة التي يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين، حدث امر لم يكن في الحسبان ، اذ وصل الى مياه صقلية في سنة ٢١٤ هـ أسطول أندلسي يتألف من قطع كثيرة العدد ، تحمل أعدادا كبيرة من غزاة البحر الاندلسيين قدموا بقصد الغزو البحري والجهاد ، وفي نفس الوقت أقبلت مراكب عديدة من افريقية لامداد المسلمين ، فبلغ عدة السفن الأندلسية والافريقية ثلاثمائة مركب (٢) . ولكن ابن عذاري يؤكد ان السفن التي قدمت الى صقلية كانت أندلسية ، فيقول : « (في سنة ٢١٤ هـ) وصل من الأندلس الى صقلية نحو ثلاثمائة مركب فيها أصبغ بن وكيل الهواري المعروف بفرغلوش » (٣) . أما النويري فيشير الى أن السفن القادمة كان مصدرها الاندلس ، وأن قسما من هذه

(١) ابن الاثير ، ص ٢٢٤ - النويري ، ص ٢٢٨

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٤

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٤

السفن الاندلسية التي قدمت برسم الغزو كان يقودها اصبح بن وكيل الهوارى . والفريق الآخر كان يقوده سليمان بن عافية الطرطوشي (١) . ولا يشير الحيري الى وصول سفن من افريقية ، ولكنه يذكر انه وصل من الاندلس « مراكب كثيرة » وأمير الاندلس اذ ذاك عبد الرحمن ابن الحكم . وكانوا فصلوا من طرطوشة يريدون بلاد الروم ، فأخرجتهم الريح الى صقلية ، فنزلوا جزيرة طرابنش من صقلية (٢) . ونعتقد استنادا الى ما اقتبسناه من أقوال هؤلاء المؤرخين أن السفن التي قدمت الى صقلية كانت كلها أندلسية ، اذ ليس من اليسير أن يتفق وصول أسطول افريقي الى صقلية في نفس الوقت الذي يصل فيه أسطول أندلسي قادم من طرطوشة يحمل جماعة من الغزاة او المغامرين ، فتدفعهم الريح بدون قصد الى صقلية ، ومن المعروف أن مسلمي صقلية كانوا قد أحرقوا سفنهم في سرقوسة .

ما كادت الأنباء بوصول الأندلسيين تبلغ مسامع المحصورين في ميناو حتى أسرع هؤلاء فأرسلوا اليهم رسلا يسألونهم النصرة والنجدة ، ولم يتردد الأندلسيون الذين كرسوا حياتهم للجهاد البحري في انجادهم تضامنا مع اخوان لهم ، ففي ذلك تحقيق لأهدافهم ومبادئهم ، ولكنهم اشترطوا عليهم ان تكون القيادة لفرغلوش . ويبدو أن المسلمين المحصورين في ميناو وافقوا الأندلسيين على شرطهم ، فأقبل الأندلسيون لفك الحصار عنهم ، واستولوا في طريقهم الى ميناو على ما قابلهم من قلاع وحصون حتى انتهوا الى ميناو ، واشبكوا مع تودط في جمادي الآخر سنة ٢١٥ هـ ، فانهزم هزيمة نكراء (٣) ، وتراجع الى قصر يانة ،

(١) النويري ، ص ٢٢٨

(٢) الحميري ، ص ١٦٨

(٣) ابن عذارى ، ص ١٢٥ - الحميري ، ص ١٦٨

وبذلك ارتفع حصار البيزنطيين عن المسلمين ، وتنفس هؤلاء الصعداء ،
 لم أحرقوا المدينة وخربوها . وزحفوا الى بلرم ، وضربوا حولها الحصار .
 فاستسلم صاحبها البيزنطي على الأمان ودخلها المسلمون . ثم واصل
 المسلمون الزحف الى غلالية أو غليانة Gagliano ، وشددوا عليها
 الحصار ، وتغلبوا على ربضها ، وغنموا ما فيه . وهناك تقشى في جيش
 المسلمين وباء مات بسببه عدد كبير من المسلمين من بينهم فرغلوش
 وجساعة من القواد . وانتهر البيزنطيون تلك الفرصة ، فتنقوا على
 المسلمين ، وأرغسوه على الخروج عنها . ولم يتركوهم يرحلون في أمان ،
 ولكنهم تعقبوهم متتهزين فيهم الفرصة لكثرة المرضى والضعفاء في صفوف
 المسلمين ، فقتلوا منهم اعدادا كبيرة ، ووجد المسلمين أنفسهم مرغمين على
 مقاتلتهم ، واشتبكوا معهم في موقعة عنيفة دارت فيها الدائرة على
 البيزنطيين ، وقتل فيها تودط القائد البيزنطي ، وغنم المسلمون غنائم
 هائلة (١) .

ويبدو أن نزاعا حدث بعد ذلك بين القائد الأندلسي والقائد الأغلب
 بسبب القيادة العامة للجيش الإسلامية ، وانقسم المسلمون الى طائفتين ،
 وهدد الأندلسيون بترك صقلية وأخذوا يتأهبون للرحيل عنها ، وبدأوا
 باصلاح مراكزهم (٢) . ثم تداعى الفريقان الى الصلح ، واتفقا على تولية
 القيادة الى عثمان بن قره ب ، ثم اتجهوا الى بلرم العاصمة ، وكانت ميناء
 بحرية على الساحل الشمالي لصقلية ، وكانت السفن تصل اليها بسهولة

(١) الحميري ، ص ١٦٩ . وذكر فازيليف ان تودط كان قد قتل قبل ذلك بعد أن انهزم
 على الأندلسيين بقيادة فرغلوش وهو يحاول الفرار الى قسريانة (فازيليف ، العرب
 والروم . ص ١١٦)

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ١٢٥ . ويجعل ابن الأثير النزاع بينهما بعد سقوط بلرم .

من موانئ افريقية ، وشدد المسلمون الحصار عليها . فاستسلم صاحبها على الأمان للسرة الثانية ، ودخلها المسلمون في رجب سنة ٢١٦ هـ (١) .

ولا ندري بعد ذلك ما آل اليه مصير الأندلسيين في صقلية ، فبينما يؤكد ابن عذاري أنهم قفلوا الى الأندلس في سنة ٢١٥ هـ (٢) نجد أن ابن الأثير والحصري يشيران الى أنهم صالحوا الافريقين ، في حين يمسك النويري عن الحديث عنهم . وأعتقد ان فريقا من الأندلسيين آثر أن يرحل من صقلية الى الاندلس عقب افتتاح بلرم في سنة ٢١٦ هـ ، وأن الفريق الآخر رضي بولاية أبي فهر محمد بن عبدالله بن الأغلب التميمي الذي ولي صقلية في سنة ٢١٧ هـ . ولا شك أن الأندلسيين لعبوا دورا خطيرا في فتح صقلية ، شأنهم في ذلك شأن اخوانهم الذين فتحوا اقريطش . وكان وصول الأندلسيين الى صقلية بأسطولهم الكبير في الحق نجدة لـأخوانهم الافريقين ، ولولاهم لما نجح هؤلاء في تثبيت أقدامهم في جزيرة صقلية .

٥ - استكمال فتح صقلية زمن الأغالبة :

اتخذ أبو فهر مدينة بلرم مقرا له لسهولة اتصالها البحري بافريقية من جهة ، ولقربها من مسيني وجنوبي ايطاليا حيث يتها للمسلمين توجيه الغارات منها على البيزنطيين من جهة ثانية . ومن بلرم أخذ أبو فهر يشن الغارات على قصرية في سبتي ٢١٩ ، ٢٢٠ هـ ، ثم سير عسكريا بقيادة محمد بن سالم الى مدينة طبرمين Taormina الواقعة في شرق الجزيرة ، فغنم غنائم كثيرة . ولكن جماعة من جند أبي فهر تمردوا على ابن سالم وقتلوه ، فولى زيادة الله مكانه الفضل بن يعقوب ، وأحرز

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢٤ - الحميري ، ص ١٦٩ . ويذكر النويري

أن بلرم افتتحت في سنة ٢٢٠ هـ

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٢٥

المسلمون تحت قيادته انتصارات متوالية على البيزنطيين في سرقوسة، كما
تسلت فرقة من المسلمين من هزيمة البيزنطيين، وطعن بطريق صقلية (١).

ويبدو أن زيادة الله الأغلب احتاج لمساعدة أبي فهر في قمع بعض
الثورات في المغرب، فنحاه عن ولاية صقلية، وسيّر مكانه أخاه أبا
الأغلب إبراهيم واليا عليها، فوصلها في أسطوله في منتصف رمضان
سنة ٢٢٠ هـ، ونجحت حراقته في مطاردة حراقات البيزنطيين، وأحرز بعد
وصوله الى صقلية انتصارات بحرية عديدة، فظفر بعدد من سفن الروم
وغنم ما فيها وأمر بضرب رقاب بحارتها من البيزنطيين. ثم بعث أبو
الأغلب أسطوله الى قوصرة فظفر فيها بحراقة بيزنطية، ووجه في سنة
٢٢١ هـ سرية الى ميسيني Messina، فغزاها وغنم المسلمون غنائم
لا حصر لها. ثم غزا أسطول الأغلبة بقيادة الفضل بن يعقوب الجزر
الايولية المجاورة، فاستولى على عدد من الحصون من بينها حصن تندارو
الواقع على الساحل الشمالي من صقلية (٢). وظل أبو الأغلب يبعث
بسراياه للاغارة على مدن صقلية، وفي كل مرة كان المسلمون يعودون
مظفرين غانمين، وقد تسكن المسلمون في إحدى غاراتهم على قصر يانة من
الاستيلاء عليها (٣). وفي سنة ٢٢٢ هـ أغار الفضل بن يعقوب على
حصن مدنار، واستولى عليه وعلى معقل أخرى كثيرة. وفي العام التالي
وصلت الى البيزنطيين بصقلية امدادات بحرية، وكان المسلمون يحاصرون
جلفوذي Cefalu وقد طال حصارهم لها، فاضطروا الى رفع الحصار
عنها واشتبكوا مع البيزنطيين القادمين في عدة وقائع. وبينما كانت
المعارك قائمة، وصلت الابناء بوفاة الامير الاغلب زيادة الله في ١٤ رجب

(١) ابن الاثير، المكتبة الصقلية، ص ٢٢٥

(٢) Vasiliev p. 134 والترجمة، ص ١٢١

(٣) ابن الاثير، المكتبة الصقلية، ص ٢٢٦

سنة ٢٢٣ هـ . فذب الوهن في نفوس المسلمين . ولكنهم تسالكوا أنفسهم
واستعادوا حساسهم في قتال الروم .

ثم تابع المسلمون في ولاية ابراهيم بن الاغلب انتصاراتهم على أهل صقلية
وفتوحاتهم في تلك الجزيرة ، فاستولوا في سنة ٢٢٥ هـ على عدد كبير
من حصونها ، من بينها حصن البلوط Caltabellotta . وحصن أبلاتنو
Platani ، وقرلون Corleone ، ومارو Marineo . وافتتح
الاسطول الاسلامي اقليم قلورية Calabria بعد أن تغلب على
أسطول البيزنطيين (١) . وواصل المسلمون منذ سنة ٢٢٨ هـ انتصاراتهم
على البيزنطيين في أقصى الشمال الشرقي لصقلية ، فافتتحوا بقيادة الفضل
ابن جعفر الهداني مدنا كثيرة بمساعدة أهل نابل ، من بينها مدينة
مسيني (٢) ومسكان (٣) . وفي سنة ٢٣٢ هـ حاصر الفضل بن يعقوب
مدينة لتيني واستولى عليها ، كما افتتح المسلمون في هذه السنة طارنت
المواقعة على خليج طارنت بجنوبي ايطاليا . وفي سنة ٢٣٤ هـ استولى
المسلمون ايضا على حصن رغوس وهدموه .

ولما توفي أبو الأغلب ابراهيم بن عبدالله والي صقلية ، اجتمع
المسلمون على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب في رجب سنة ٢٣٦ هـ ،
وأقرهم الامير الاغلبى أبو العباس محمد بن الاغلب بن ابراهيم على
ذلك . وتعتبر ولاية العباس بن الفضل فاتحة عهد جديد في تاريخ الفتح
الاسلامي لصقلية ، كما تعتبر فترة ولايته من أعظم الفترات التي وضحت
فيها السيطرة الاسلامية على البحر المتوسط ، فكان يرسل أساطيله في

(١) ابن الاثير ، المكتبة الاندلسية ، ص ٢٢٨

(٢) تقع في الركن الشمالي الشرقي من جزيرة صقلية ، وكانت دار الانشاء ، ومنها كان

يجاز الى قلورية (الحميري ، ص ١٧٨)

(٣) ابن الاثير ، ص ٢٢٩

المحرر للغزو واقتناص السفن البيزنطية • وذكر ابن عذاري أنه سير في سنة ٢٤٤ هـ أخاد عليا في المراكب الحربية ، فاشتبك بالقرب من اقريطش مع أربعين شلنديا تابعة لمسلمي هذه الجزيرة ، فهزمها واستولى على عشر شلنديات برجالها (١) • وفي أيام العباس بن الفضل افتتح المسلمون قلعة أبي ثور Caltavuturo في أول ولايته ، وأغاروا على قصر يانة وخربوا قطانية وسرقوسة ونوطس ورغوس ، وافتتحوا بشيرة في سنة ٢٣٨ هـ • وفي سنة ٢٤٣ هـ نجح المسلمون بقيادته في افتتاح قصر يانة (٢) • وعلى أثر ذلك سير البيزنطيون أسطولا من ٣٠٠ شلندي الى سرقوسة تحت قيادة البطريق قنسطنطين كندوميتس ، فقاتلهم عسكر العباس وهزموهم وغنوا منهم مائة شلندي (٣) • وظل العباس يجاهد الروم شتاء وصيفا ، ووصلت سراياه الى قلورية وانكبرذة Langobardi الى أن توفي في سنة ٢٤٧ هـ •

وتوالى على صقلية عدد من الولاة من قبل امراء بني الأغلب ، نخص بالذكر منهم خفاجة بن سفيان (ت ٢٥٥) ، ومحمد بن خفاجة (ت ٢٥٧) ، ورياح بن يعقوب (ت ٢٥٨) ، والحسين بن رياح بن يعقوب ، ثم جعفر بن محمد (ت ٢٦٤) ، والحسين بن رياح ، والحسن بن العباس ، ومحمد بن الفضل ، والحسين بن أحمد (ت ٢٧١) ، وسواده بن محمد بن خفاجة ، ومحمد بن الفضل ، وأبو العباس بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب • وفي خلال هذه الفترة استولى المسلمون في أيام خفاجة بن سفيان على قلعة الارمنين وقلعة المشارعة في سنة ٢٤٧ هـ ، كما استولوا على نوطس Noto وشكلية Scicli الواقعة في جنوب شرق صقلية وذلك في سنة ٢٥٠ هـ •

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ - النويري ، ص ٢٢٩

(٢) ابن الاثير ، المكتبة المصغرة ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ - النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٢ - فازيليف ص ١٩٤

ونجح المسلمون في سنة ٢٦٤ في الاستيلاء على سرقوسة بعد حصار طويل ، هزم فيه جعفر بن محمد أسطولا بيزنطيا كان قد قدم لنصرة أهلها . وحاول البيزنطيون استرجاعها ، فأرسلوا لهذا الغرض أسطولا ، تغلب عليه المسلمون وظفروا بأربع قطع منه .

وفي ٢٨٨ هـ عمر أبو العباس بن ابراهيم بن أحمد أسطوله وأعدده للغزو ، ونزل به على دمنش ، ونصب عليها المجانيق وأقام على حصارها أياما ، ثم مضى الى مسيني ، وجاز في حرياته ، وهي سفن خاصة للقتال الى ريو Reggio وقد تجمع بها حشد كبير من البيزنطيين ، فقاتلهم على بابها وهزمهم ، واستولى على ريو بالسيف « وغنم من الذهب والفضة ما لا يحصى وشحن المراكب بالدقيق والامتعة » ، ثم عاد الى مسيني ، فوجد بها سفنا بيزنطية قد وصلت من القسطنطينية ، فاستولى منها على ثلاثين مركبا ^(١) ، ثم قدم الامير الاغلي ابراهيم بن أحمد بأسطوله الى صقلية للجهاد في ١٧ من ربيع الاول سنة ٢٨٩ هـ ، فافتتح مدينة طبرمين وميش ^(٢) Miques ورمطة ولياج ^(٣) . ثم أمر الناس بالتجمع في مسيني بغية العبور الى قلورية في ٢٦ من رمضان ، وهاجم كستنة Cosenza الواقعة بالقرب من خليج طارنت ، ونصب عليها المجانيق ، ولكنه توفي وهو يقوم بحصارها في ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ ^(٤) . ولم يبق لاستكمال فتح صقلية سوى مدينة طبرمين ، وقد سقطت بدورها في نهاية عصر الأغالبة في سنة ٢٩٦ هـ . وهكذا افتتح المسلمون جميع مدن وقلاع

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤٧

(٢) حصن بصقلية منع يقع قريبا من مسيني ويطل على البحر

(٣) ابن الاثير ، ص ٢٤٢ . ولياج مدينة تقع بالقرب من بركان انا وقطانية (الحميري ،

ص ١٤١)

(٤) بن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ص ١٢٥ - النوبري ، ص ١٢٢ - الحميري ،

ص ١٦٦

صقلية ، بعد حروب دامت نحو ١٣٨ سنة .

٦ — صقلية في زمن الفاطميين والكلبيين :

ثم دخلت صقلية في فلك الدولة الفاطمية ، وتولى عليها ولاية من قبل الخليفة الفاطمي في المهديّة ، وقد اتسم عهدهم بالهدوء الا في اوقات كان يثور فيها أهل صقلية عليهم للتخلص من تبعيتهم للمسلمين . وأهم تلك الثورات ثورة قام بها أهل جرجنت وطرابنش في خلافة المهدي في سنة ٣١٣ هـ ، وثورة أهل جرجنت أيضا على واليهم سالم بن راشد في سنة ٣٢٥ هـ ، وقد دامت هذه الثورة فترة طويلة خرجت فيها جرجنت عن طاعة المسلمين حتى تمكن سالم من استرجاعها في سنة ٣٢٩ هـ ^(١) . وأخطر هذه الثورات جميعا ثورة قام بها أهل طبرمين في سنة ٣٥١ هـ ، ومجّج والي صقلية أبو الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين الكلبي الذي تولى على صقلية من سنة ٣٤٣ هـ في اخمادها في ذي القعدة سنة ٣٥١ هـ ، بعد أن حاصرها ما يقرب من سبعة أشهر ونصف ، فأمر المعز الفاطمي بتسميتها بالمعزية ^(٢) ، وثورة قام بها أهل رمطة « واستنصروا بالدمستق ملك القسطنطينية » ^(٣) ، فجاءها مدد عدته أربعون ألف مقاتل ^(٤) . فأمر المعز أحمد بن الحسين بتسيير القائد الحسين بن عمار لحصار رمطة ومحاربة الثوار ، فأعد أحمد الاسطول الاسلامي ، وجمع المقاتلة في البر والبحر ، وحاصرها في آخر رجب سنة ٣٥٢ هـ ، ونصب عليها المجانيق والعرادات ، ودام القتال فترة طويلة شيد ابن عمار خلالها قصرا له ، وبنى المسلمون البيوت حوله . فلما علم الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس (الدمستق)

(١) ابن خلدون (المكتبة الصقلية) ص ٧٩

(٢) ابن الاثير ، (المكتبة الصقلية) ، ص ٢٦٣ — النويري ، ص ٢٢٢ — ابن ابي دينار ،

ص ٨٠

(٣) النويري ، ص ٢٢٢ . والمقصود بالدمستق الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس

(٤) ابن الاثير ، (المكتبة الصقلية) ، ص ٢٦٤ — ابن خلدون ، (المكتبة الصقلية) ، ص ٨١

، امر بتعبئة عسكره ، وجهاز جيشا بقيادة مانويل وجهه الى صقلية ،
فكان مانويل في منتصف شوال سنة ٣٥٣ هـ بجيعة عسكره في جموع
خل صقلية مثلها قط ، فتأهب بن عمار لتلقيهم ، واشتبك المسلمون
ببزنطيين في معركة عنيفة في أول سنة ٣٥٤ هـ ، استمرت فيها المسلمون
دائمة الببزنطيين ، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للببزنطيين ، وقتل
١٠٠٠ منهم نحو عشرة آلاف من بينهم القائد مانويل نفسه وجماعة من
العلماء . واقتحم المسلمون رمطة ، ففر فل الببزنطيين من صقلية وجزيرة
الاسطول ناجين بأنفسهم ، فأتبعهم الامير احمد في الاسطول الاغلبى
هم في البحر قتالا شديدا ، وألقي جماعة من المسلمين أنفسهم في البحر ،
نوا كثيرا من مراكب الببزنطيين ، وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وتعرف
الوقعة البحرية بوقعة المجاز (١) . ثم انتقضت طبرمين مرة ثانية على
بن في سنة ٣٧١ هـ عندما قدم الببزنطيون بأساطيلهم بقيادة بردويل ،
روا القلعة ، واستولوا عليها ، فقاتلهم المسلمون وهزموهم .

ثالثاً - فتح جزر البحر المتوسط الغربي الأخرى :

١ - فتح مالطة :

تعتبر مالطة أهم جزر الارخبيل المالطي مثل جزيرة غودش وكمونة ونوشة ، باعتبارها أكبر هذه الجزر ، بالإضافة الى كونها جزيرة عامرة كثيرة الخيرات حسنة الموقع ، حتى انها اعتبرت هي وصقلية من المعالم الهامة في التاريخ البحري الاسلامي ومفتاح حوض البحر المتوسط الاوسط والغربي ^(١) . وقد عرف المسلمون ، بفضل افتتاحهم لهاتين الجزيرتين ، كيف يهددون ايطاليا كلها ، ويسودون البحر التيراني ، ويفتحون اجزاء هامة من ايطاليا ^(٢) .

وتم افتتاح الأغالبة لمالطة في سنة ٢٥٥ هـ في امارة ابي الغرائق محمد ابن ابي ابراهيم أحمد ، ^(٣) وفتحها تأكدت سيطرة المسلمين الكاملة على المضائق الواقعة بين صقلية وافريقية ^(٤) . ويبدو أن البيزنطيين حاولوا استردادها في العام التالي ، فحاصروها بأساطيلهم ، ويذكر ابن الاثير ان محمد بن خفاجة بن سفيان والي صقلية سير لفتحها جيشا في سنة ٢٥٦ هـ ، وكان البيزنطيون يحاصرونها ، فلما بلغهم اقبال المسلمين رحلوا عنها ^(٥) ، وأنشأ فيها الأغالبة دارا لصناعة السفن من أشجار الصنوبر التي تكثر بها ^(٦) ، وأصبحت على هذا النحو قاعدة بحرية هامة للأغالبة في البحر المتوسط .

Scott, History of the moorish empire in Europe, vol, II, (١)
London, 1954, P. 76.

(٢) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٩٢

(٣) ابن عداري ، ج ١ ص ١٢٤ - الذهبي ، تاريخ الاسلام ، (المكتبة الصغرى) ،

٤٥٩ - النويري ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧

(٤) أرشيبالد لويس ، ص ٢١٧

(٥) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٣٧

(٦) البكري ، ص ٢٢٥

ثم حاول البيزنطيون استرجاع مالطة بعد سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ،
 لكن المسلمين قاتلوهم وتغلبوا عليهم ^(١) . وظلت مالطة جزيرة اسلامية
 لبني يزري أصحاب افريقية الى أن غزاها النورمان في سنة ٤٨٣ هـ
 (١٠٩٠ م) في عهد روجار ^(٢) ، ، ولكن خضوع هذه الجزيرة للنورمان لم
 يعل على طابعها العربي الاسلامي الذي تأصل ورسخت قواعده منذ ان
 حها الأغالبة ، وما زالت لغة أهل مالطة في الوقت الحاضر تحتفظ
 بولها العربية ، كما أن لهجتهم يمكن ان تندرج في عداد اللهجات
 ربية ^(٣) . والاثر العربي واضح فيسا تبقى من أسماء مواضع ، منها
 اماكن يتسمى كل منها باسم رباط مما يدل دلالة واضحة على تعدد
 الروابط في هذه الجزيرة وهو نظام دفاعي انتقل اليها من سواحل
 قية في عصر الأغالبة .

٢ - فتح سردانية :

اما سردانية فجزيرة كبيرة المساحة كثيرة الجبال قليلة
 ، تقع في منتصف البحر المتوسط الغربي بين شبه جزيرة ايطاليا
 و جزيرة أيبيريا من جهة ، وبين ساحل فرنسا الجنوبية وسواحل المغرب
 لامي من جهة ثانية ، ويذكر الشريف الادريسي أن لها مدن ثلاث
 هي القيطنة في الجنوب وقالمرة وقشتالة ^(٤) . وقد شرع المسلمون
 زوها في سنة ٩٢ هـ في ولاية موسى بن نصير ^(٥) ، ثم غزاها عبيدالله

(١) الفزوني ، آثار العباد ، المكتبة الصقلية ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٢) ارشيبالد لويس ، ص ٣٧٦

(٣) لولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٨٥ - ٨٩

(٤) الادريسي ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١

(٥) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢١٧ - النهدي ، العبر في خبر من غير ، ج ٢ ،

٣١ - معجم البلدان ، المكتبة الصقلية ، ص ١١٢

ابن الجحباب في سنة ١١٧ هـ ، وعاود المسلمون غزوها في أيام عبد الرحمن ابن حبيب الفهري في سنة ١٣٥ هـ ، وصالحوا أهلها على الجزية • وظلت بعد ذلك آمنة من الغزو الاسلامي فترة طويلة دامت حتى سنة ٢٠١ هـ • فعمرها البيزنطيون ^(١) في تلك الاثناء ، وحصنوها بالقللاع • فلما كانت امارة زيادة الله بن الاغلب نشطت حركة الغزو البحري والجهاد نشاطا يذكرنا بالصوائف المتواصلة التي كان يبعثها ولاة بني أمية على افريقية منذ طليعة القرن الثاني للهجرة ، فغزاها الاغالبة في سنة ٢٠١ هـ ، وغنموا من أهلها غنائم كثيرة ^(٢) ، وشجعهم ذلك على معاودة غزوها في سنة ٢٠٦ هـ ، فغزاها محمد بن عبدالله التميمي ^(٣) في تلك السنة ، ولكنه لم يفتتحها •

وفي سنة ٣٢٣ هـ ، في خلافة المنصور بن القائم الفاطمي ، تعرضت سردانية لغزوة بحرية جريئة تمكن فيها أسطول المهديّة من فتحها ، وسبى المسلمون كثيرا من أهلها ، وأحرقوا عددا من مراكبها ^(٤) •

ولم تفتح جزيرة سردانية الا في ربيع الاول سنة ٤٠٦ هـ (سبتمبر ١٠١٥ م) عندما غزاها ابو الجيش الموفق مجاهد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية ، في ١٢٠ مركبا بين كبير وصغير ، حمل فيها ثمانية آلاف فارس يقودهم أبو خروب كبير البحرين ^(٥) ، وصحبته في هذه الغزوة زوجته المسيحية جود وابنه علي وبعض حريمه وبناته •

(١) ابن عداري ، ج ١ ، ص ٢٧ - ابن الاثير ص ٢١٧

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٢١

(٣) ابن عداري ، ج ١ ص ١٢٤ - الذهبي ، تاريخ الاسلام (المكتبة الصقلية) ص ٥٩ - النويري (المكتبة الصقلية) ص ٤٣٧

(٤) ابن الاثير ، ص ٢١٨ ، ٢٥٤

(٥) الحميدي ، ص ٣٢١ - الضبي ، ص ٥٨

وقد نزل المسلمون في هذه الجزيرة عند مدينة كاليارى ^(١) ، ومن هناك تسكنوا من التغلب على أكثرها ، وافتتحوا معاقلها ، واختط بها مجاهد مدينة شرع في بنائها ، وانتقل إليها بأهله وولده ^(٢) . ومن جزيرة سرديانية شن مجاهد غاراته على سواحل غرب إيطاليا ، وغزا مدينة لوني الإيطالية الواقعة على خليج سبتزيا في شمال نهر ماجرا واستولى عليها ، واتخذها مركزا لتحركاته في شمال غربي إيطاليا ، وقاعدة لمهاجمة يشه وجنوة وغيرها من الموانئ الهامة المطلة على خليج جنوة بأقصى شمال البحر التيراني . ومن المعروف أنه هاجم مدينة يشه واستولى على حي من أحيائها ، وأضرم فيه النيران ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء على المدينة كلها ^(٣) . وقد أثارت غاراته غضب سكان هذه البلاد كما أثارت مخاوف سكان فرنسا ، فتعاون الجنويون والبيشيون والفرنجة على اعداد أسطول ضخم يهاجمون به سرديانية ، وقدمت الى الجزيرة أساطيل المتحالفين ، فحاول مجاهد العودة الى بلاده بعد أن بلغه خبر مجيئهم . وبين له عدم قدرته على مواجهتهم ، ولكن المتحالفين سبقوه الى قصده ، تغلبوا على أكثر سفنه ، وساعدتهم الطبيعة في ايقاع الهزيمة بأسطوله ، اذ مرضت سفنه لعاصفة عاتية هبت على المرسى ، فجعلت الرياح تقذف بسفنه ، الروم وقوف لا شغل لهم الا الاسر والقتل في المسلمين ، فكلما سقط ركب بين أيديهم بكى مجاهد بأعلى صوته ^(٤) . وقتل من عسكره لم لا يحصى ، واستولى الاعداء على معظم قطع أسطوله ، وأسروا ربه وبناته وولده علي وأمه جود النصرانية ، فافتدى بعضهم سريعا ،

(١) كليخا سار نللى ، مجاهد العامري ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، ج ٣ ص ٢١٩

(٣) كليخا ، ص ١٩٩

(٤) الحميدي ، ص ٢٢٠

وأبت جود أن تعود إليه . أما بالنسبة لولده علي فقد وقع أسيرا في قبضة الألمان . ولذا تأخر في اقتدائه . ولم يتم فك أسره الا في سنة ٤٢٣ هـ . وخسر مجاهد معظم قطع أسطوله ، ولم تسلم له من كل هذا الاسطول الا خمسة مراكب وأربعة قوارب (١) .

٣ - جزر البليار :

أما جزر البليار أو الجزر الشرقية فتلاث تتدرج في المساحة ، وتقع شرقي مدينة بلنسية ، وأكبر هذه الجزر جزيرة ميورقة وأوسطها جزيرة منورقة وأصغرها يابسة ، والمسافة بين جزيرة ميورقة ومنورقة في البحر لا تتجاوز خمسين ميلا .

وأول من غزا جزر البليار عبدالله بن موسى بن نصير في سنة ٨٩ هـ ، وعرفت تلك الغزوة بغزوة الاشراف (٢) ، ثم غزاها الامير عبد الرحمن الاوسط في سنة ٢٣٤ هـ بسبب نقض أهلها العهد بينهم وبين المسلمين ، واضرارهم بن يسر اليهم من مراكب المسلمين ، فأغزي أسطولا من ٣٠٠ مركب وفتح جزائرها (٣) ، واضطر أهل ميورقة ومنورقة الى استرضاء الامير . فكتبوا اليه كتابا في سنة ٢٣٥ هـ يستقبلون فيه لعثراتهم لديه راغبين في صفحه ، فأعطاهم ذمته ، وجدد لهم عهده (٤) . وفي سنة ٢٩٠ هـ تسكن عصام الخولاني من اعادة فتح هذه الجزر في

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٠

(٢) الذهبي ، المعبر ، ج ٣ ص ٢٢٩

(٣) ابن حيان ، قطعة من المقتبس خاصة بحياة الامير عبد الرحمن الاوسط ، نشرها

الدكتور محمود علي مكي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢٢ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٢٢ - ابن

سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٩

(٤) نفس المصدر ، ص ٤

امارة عبد الله الذي قلده على ولايتها (١) عشر سنين ، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات ، ولما توفي قدم أهل الجزيرة عليهم ابنه عبدالله ، وأقرهم الامير عبدالله على ولايته . ثم زهد ابن عصام في الولاية وأقبل على التبعيد ، وأبحر الى المشرق للحج ، فبعث الخليفة عبد الرحمن الناصر اليها الموفق من فتيانه ، « فأنشأ الاساطيل وغزا بلاد الافرنج » (٢) . ثم تولاها من بعده كوثر الفتى في سنة ٣٥٩ هـ ، فجرى على سنن الموفق في الجهاد البحري ، فلما توفي كوثر في سنة ٣٨٩ هـ في حجابة المنصور محمد بن أبي عامر وليها مقاتل الفتى ، وكان كثير الجهاد والغزو ، وكان المنصور والخليفة المؤيد يمدانه في جهاده ، وتوفي في سنة ٤٠٣ هـ في زمن الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة الاموية بقرطبة .

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦٤ - كلييا ، ص ٢٨٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦٤

الفصل الرابع

تفوق المسلمين البحري في غرب البحر المتوسط وتهديدهم لسواحل
إيطاليا وفرنسا الجنوبية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

١ - في القرن الثالث الهجري

٢ - في القرن الرابع الهجري

الفصل الرابع

تفوق المسلمين البحري في غرب البحر المتوسط وتهديدهم لسواحل إيطاليا
وفرنسا الجنوبية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

سجل المسلمون بفتوحهم في صقلية واقريطش ومالطة وقوصرة وجزر
البليار وسردانية سيطرتهم البحرية في حوض البحر المتوسط الاوسط
والغربي ، فقد أتاح لهم فتح هذه الجزر تأسيس دور لصناعة السفن في
الخالصة (١) وبلرم (٢) وشتت ماركو (٣) ومسيني (٤) وفي قوصرة
ومالطة ، واقامة قواعد بحرية في تلك الجزر لشن غاراتهم المتواصلة على
سواحل إيطاليا الجنوبية والغربية والشالية الغربية والشالية الشرقية ،
وعلى سواحل فرنسا الجنوبية . وتسكن المسلمون في بعض الفترات من
الاستيلاء على أجزاء هامة من شبه جزيرة إيطاليا ، وهاجموا رومة نفسها ،
وأرغموا البابا يوحنا الثامن على دفع جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون
ألف مثقال من الذهب (٥) . وبذلك أصبحت للمسلمين في القرنين الثالث
والرابع الغلبة على غيرهم من القوى البحرية في هذا القسم الغربي من
حوض البحر المتوسط ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « والمسلمون خلال
ذلك كله ، قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٢ - ابن حوقل ، ص ١١٤ - الإدريسي ،
(المكتبة الصقلية) ، ص ٢٩ - ابن أبي دينار ، ص ٨٢

(٢) ابن فضل الله العمري (المكتبة الصقلية) ، ص ١٥٦

(٣) الإدريسي (المكتبة الصقلية) ، ص ٣٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٣

(٥) عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٢٩ ص ١٠٦

البحرية الإسلامية (٩)

فيه جائية وذاهبة . والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية ، فتوقع بسلوك الافرنج ، وتسخن في مسالكهم ، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائسين فيها بدعوة العبيدين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، واساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا ، واختلفت في طرقه سلسا وحربا ، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح » (١) .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٠

(١)

في القرن الثالث الهجري

كانت معظم إيطاليا الجنوبية خاضعة لامراء بنفنت اللومباردين . في حين قامت في جزء منها جمهوريات ايطالية صغيرة هي نابل وجاينا وسورتتو وملف ^(١) (أماقي) . وكانت هذه الجمهوريات تابعة اسيا للدولة البيزنطية ، ولكنها كانت بالفعل مستقلة عنها ، ولذلك كانت تسعى الى المحافظة على استقلالها أمام مطامع أمراء بنفنت . ولما كانت هذه الجمهوريات الصغيرة لا تتوقع أن تقدم لها الدول المسيحية أي مساعدة فقد عمدت الى التحالف مع المسلمين في صقلية ، وكانت نابل أول جمهورية ايطالية تتحالف مع مسلمي صقلية في عام ٢١٥ (٨٣٠ م) أو ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) ، ودام هذا التحالف ما يقرب من خمسين عاما ، على الرغم من لعنات الكنيسة واحتجاجاتها ^(٢) . وقد لبى الامير أبو الاغلب ابراهيم بن عبدالله والى صقلية نداء أهل نابل ، فأرسل اليهم أسطولا لمساعدتهم عندما حاصروهم أمير بنفنت اللومباردي سيكاردوس Sicardus ، وكانت هذه المساعدة ذات فائدة للنابليين ، اذ أتاحت لهم الفرصة لاسترداد أسراهم بدون فدية ^(٣) ، كما كانت ذات أثر فعال بالنسبة لمسلمي صقلية ، لأنها أضعفت قوة أسطول بيزنطة وفعالته في البحر التيراني ^(٤) . ومن صقلية اجتاحت قوات المسلمين في الفترة ما بين ٢٢٢ هـ ، ٢٢٧ هـ ، عبر مضيق مسيني ، ولاية ماجنا جراتسيا

Scott, t. II, p. 26 (١)

Ibid. p. 29 (٢)

Scott, op. cit p. 26 (٣) - فازيليف ، ص ١٦.

(٤) أرشيبالد لويس ، ص ٢١٢

القديسة . وشملت غاراتهم البحرين التيراني والادرياتي . فتغلبوا على ولايتي أبوليا وقلورية (كالابريا) . وخربوا دوقية سبوليتو ، وباغتوا انكونا الواقعة على البحر الادرياتي بالهجوم واستولوا عليها . كما استولوا بالاشتراك مع مسلي اقریطش على بنفت وبرنديزي وطارنت الواقعة على مدخل البحر الادرياتي ، وبارة في ولاية قلورية (١) ، وبلغت غزواتهم حتى ساحل دلماشيا (٢) . ولم يستطع البنادقة ، الذين حرصوا على تأمين تجارتهم ، أن يتصدوا لهذا السيل المدمر من الغارات البحرية الاسلامية ، وعندما حاولوا ذلك تعرض أسطولهم في سنة ٢٢٤ هـ لهزيمة فاسية على أيدي البحرين الاغالبية ، فتحطمت قطعه قرب كروتونى على خليج طارنت (٣) . كما منى أسطول آخر للبنادقة في سنة ٢٢٧ هـ بهزيمة نكراء في مياه خليج كوارنيرو (٤) .

ولكن نابل لم تلبث أن تخلت عن تحالفها مع المسلمين ، ويرجع هذا التحول في سياسة دوق نابل فيما يظهر الى اتخاذ المسلمين قواعد بحرية على سواحلها هددت أمنها وأثرت على تجارتها . ولم تلبث نابل أن عقدت حلفا مع المدن البحرية المجاورة وهي أمالفى وجايتا وسورتو ، ونجح هذا

(١) ذكر البلاذري ان بارة افتتحت على يد خلفون البربري في اول خلافة المتوكل على الله العباسي (سنة ٢٢٢ هـ) ، ونولى بعده المفرج بن سلام الذي افتتح اربعة وعشرين حصنا واستولى عليها ، وبنى مسجدا جامعاً فيها ، وخلفه سوران . (البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٧) .
وببدو ان المفرج بن سلام وخلفون وسوران كانوا من بربر افريقية ، وأنهم ارادوا الاستئثار بحكم بارة دون ان يشعروا الاغالبية ، وانما بعهد من الخليفة المتوكل بخلاف ما أشار اليه الدكتور طرخان اذ يستنتج انهم من اهل اقریطش (طرخان ، المسلمون في اوربا ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢١٦)

(٢) Scott, p. 35 . نزل المسلمون في ٢٢٧ هـ على مدينة اوزيرو واحرقوها (فازيليف ، ص ١٦٢) ، كذلك شنت الاساطيل الاسلامية الغارات على بلاد البنادقة ، نزلت قوات المسلمين على مصب نهر البو ، وبثت الغارات حتى حدود استريا (Scott, p. 36)
(٣) أرشيبالد ، ص ٢١٤

(٤) نفسه ، ص ٢١٥ - فازيليف ، ص ١٦٢

فيها الاغالبية بصراعهم البحري مع مسلمي اقريطش ^(١) الذين كانوا ينافسونهم في الميدان الغربي من البحر المتوسط . ولم يستأنف المسلمون هجبتهم على ايطاليا الجنوبية من جديد الا عندما قرر لويس الثاني الكارولنجي ، حاكم ايطاليا ، أن يقوم بحاربة المسلمين في بارة الذين كانوا يجتاحون بغاراتهم وسط ايطاليا وجنوبها ، فحاصرها لويس فترة طويلة ، ولكنه أخفق في افتتاحها بسبب سيطرة المسلمين على المسالك البحرية ^(٢) ، ثم تعاون بسيل الاول البيزنطي والبنادقة مع الملك الكارولنجي في افتتاح بارة التي سقطت أخيرا في سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) . وأحدث سقوط بارة في أيدي البيزنطيين والبنادقة دويا هائلا ورد فعل شديد عند المسلمين ، فأبحر الاسطول الاسلامي من طارنت ، وهاجم ميناء كوماتشو الواقع على مصب نهر البو ، وأحرق الميناء . وكانت هذه الغزوة آخر غزوات المسلمين على مدن شمال الادرياتي ^(٣) .

وبينا كان المسلمون يفقدون سلطانهم على الشاطئ الشرقي لشبه جزيرة ايطاليا نتيجة لتدخل البنادقة ، كان الساحل الغربي يتعرض لهجمات متواصلة يشنها المسلمون منذ سنة ٢٥٦ هـ ، فقد هاجبوا رومة في تلك السنة . واضطر البابا حنا الثامن الى مفاوضة المسلمين في الصلح والجلء ، في مقابل جزية سنوية ^(٤) يدفعها لهم ، وذلك بعد أن فشلت مساعيه للظفر بسعونة بيزنطة وأمالقى وجايتا ونابل وشارل الجصور ^(٥) . ولم يخف الضغط الاسلامي على سواحل ايطاليا الجنوبية الغربية الا منذ سنة

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ - التوري ، ج ٢٢ ، ص ٢٢٩

(٢) ارشيبالد لويس ، ص ٢١٨

(٣) نفسه ص ٢١٩

(٤) ابراهيم طرخان ، ص ٢١٧

(٥) ارشيبالد ، ص ٢١٩

٢٦٦ هـ (٨٨٠ م) عندما رابط أسطول بيزنطي في مياه صقلية بالقرب من
ثرمة Termini الواقعة شرقي بلرم ^(١) ، فقد أدى وجود هذا
الاسطول في مياه صقلية الى عودة نابل الى ولائها القديم للبيزنطيين .
ومع ذلك فقد نجح المسلمون في انشاء امارة اسلامية في سنة ٢٦٩ هـ
(٨٨٢ م) أو ما يليها عند منت جارليانو Garliano ، وهي امارة كانت
تشكل خطرا كبيرا على الاملاك البابوية ^(٢) . ثم غزا المسلمون أرض
قلورية في سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) ، واشتبك الاسطول الاسلامي مع
البيزنطي بالقرب من ميلازو في موقعة بحرية انتهت بهزيمة الاسطول
البيزنطي وتحطيم معظم سفنه ^(٣) . ووصلت سرايا المسلمين الى الارض
الكبيرة ^(٤) ، وأعاد المسلمون الكرة مرة أخرى في سنة ٢٩٠ هـ عندما
أغاروا على قلورية ، غير أن وفاة الامير ابراهيم بن احمد في كسنة ^(٥)
أنقذت ايطاليا الجنوبية حتما من غزو وشيك كان الامير الاغلبى قد شرع
فيه .

(١) الحميري ، ص ١٤٩

(٢) Scott, p. 36 - أرشبالد ، ص ٢٢.

(٣) أرشبالد ، ص ٢٢.

(٤) ابن عداري ، ج ١ ص ١٦.

(٥) النوري ، ج ٢٢ ص ١٢٢

(٢)

في القرن الرابع الهجري

لم يكن الفاطميون الذين أسسوا دولتهم في المغرب الاسلامي منذ سنة ٢٩٦ هـ أقل اهتماما بشئون البحر من الاغالبه بل اتنا لا تتجاوز قط الصواب اذا قلنا أنهم فاقوا الاغالبه في شدة العناية بالاساطيل ، والاعتماد على هذه الاساطيل في تدعيم نفوذهم وتمكينه في بلاد المغرب وفي جزر البحر المتوسط الغربي . ويسجل انشاء مدينة المهديّة في سنة ٣٠٣ هـ (١) أول اجراء عملي قام به الفاطميون لتطبيق سياسة بحرية، فمما لا شك فيه أن المهديّة كانت تتمتع بسوق استراتيجي هام بين سفاقس والمنستير ، في جزيرة .مسلة بالبر كصورة «كف اتصل بزند» (٢)، وبوجود مرسى منقور في حجر .مسلة يتسع لثلاثين مركبا ، ويقوم على طرفيه برجان تمتد بينهما سلسلة من حديد تحميه من طروق مراكب الروم (٣) ، ودار للصناعة منقورة في الجبل كانت تسع مائة شيني (٤) . وكان لانشاء المهديّة أعظم الاثر في تدعيم أسطول افريقية ، فقد كانت دار صناعة المهديّة أكثر اتجاا للسفن الناطمية من دار الصناعة بتونس ، ويبدو أن المهدي كان حريصا على انشاء أسطول ضخم مزود بالرجال والعتاد لتنفيذ سياسته التوسعية سواء

(١) ذكر البكري ان عبيد الله المهدي شرع في بناء المهديّة في سنة ٢٠٠ هـ واستكمل سورها في سنة ٢٠٥ هـ ، ثم انتقل اليها في شوال سنة ٢٠٨ هـ (البكري ، ص ٢٠) ، كذلك ذكر ابن عداري ان المهدي ابتداء ببناء المهديّة في ٢٠٠ هـ (ابن عداري ج ١ ص ٢٢٤) . والارجح انه شرع في بنائها في سنة ٢٠٠ هـ واستكمل بناءها في سنة ٢٠٢ هـ ، ثم حوطها سور في سنة ٢٠٥ هـ ، ولما استكملت جميع مرافقها في سنة ٢٠٨ هـ ، انتقل اليها وانخذها مقرا لدولته (٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٢٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٩ - القرطبي اعطاء العنفا ، تحقيق الدكتور الشيبان ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧٠ . (٢) البكري ، ص ٢٠ ، ٢٩ - الاستبصار ، تحقيق الدكتور سمد زلحول ، ص ١١٧ ، ١١٨ - النجاشي ، ص ٢٢٢ - ميخائيل عواد ، الماصر في بلاد الروم والاسلام ، بغداد ، ١٩١٨ ، ص ٥٩ (١) القرطبي ، اعطاء العنفا ، ص ٧٠ .

في الاندلس أم في المشرق ، وقد نجح المهدي في ضم صقلية في سنة ٣٠٤ هـ وولى عليها ابا سعيد الضيف ، الذي قدم اليها في الاساطيل واستنزل الثوار . وذكر المقرئ أن المهدي سير الى مصر ، لنجدة ابنه القائم ، ثمانين مركبا أرست بالاسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ، وقد اصطدم هذا الاسطول الفاطمي بالاسطول العباسي بقيادة ثمل الخادم ، القادم من طرسوس وعدته ٢٥ مركبا مزودة بالنفط والعدد عند رشيد في ٢٠ شوال سنة ٣٠٧ هـ ، فانهزم الاسطول الفاطمي ، وأحرق العباسيون كثيرا من سفنه ، وأسر القائدان يعقوب وسليمان ، كما أسر من رؤساء المراكب نحو مائة وسبعة عشر ، فتوفي سليمان في سجنه بمصر ، وحمل يعقوب الى بغداد ، فهرب من هناك وعاد الى افريقية وقاد أساطيلها (١) . ولم تكن هزيمة الفاطميين في مياه رشيد عن ضعف أو تخاذل ، فقد عرف المغاربة بصبرهم على القتال البحري وبراعتهم في قيادة الاساطيل بدليل ما ذكره علي بن موسى بن سعيد المغربي اذ يقول : « وسائر الفقراء في (الفسطاط) لا يتعرضون اليهم بالقبض للاسطول الا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعانة الحرب والبحر ، وقد عم ذلك من يعرف معانة البحر منهم ومن لا يعرف وهم في القدوم عليها بين حالين : اذا كان المغربي غنيا طولب بالزكاة وضيق عليه ، وان كان مجردا فقيرا حمل الى السجن حتى يحين وقت الاسطول » (٢) . لم يهزم الاسطول العباسي السفن الفاطمية في معركة ، وانما هزمتها قوى الطبيعة ، فقد روى الكندي ان أسطول الفاطميين تعرض عند رشيد لعاصفة دفعتها الى البر فتكسرت ، وأخذ العباسيون من كان فيها « أخذا باليد » (٣) .

(١) نفسه ، ص ٧١ - الكندي ، ص ٢٨٦ - ابن الاثير ، ج ٦ ص ١٦١ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٥ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الطبعة الثانية الاسكندرية ، ١٩٦٩ ، ص ١٧٢
(٢) المقرئ ، ج ٣ ص ١١١ ، ١١٢
(٣) الكندي ، ص ٢٧٦

وجاءت هزيمة الاسطول الفاطمي عند رشيد حافزا للمهدي على زيادة عنايته بالاسطول ، ومضت أربع سنوات على هذه الهزيمة ، تقوت خلالها البحرية الفاطمية ، واستعادت هيبتها ، وشرع المهدي نشاطه البحري من جديد بغزو جزيرة جربة ، فهاجمها أسطوله في قوة يقودها علي بن سليمان الداعي ، في سنة ٣١١ هـ واقتحمها (١) . ثم تطلع المهدي بعد ذلك الى غزو ايطاليا من صقلية ، ففي سنة ٣١٠ هـ غزا مسعود الفتى اقليم قلورية في عشرين شينا ، فاستولى على مدينة أغاثي Santa Agata وسباها (٢) . وفي سنة ٣١٣ هـ غزا أبو أحمد جعفر جنوبي ايطاليا من صقلية ، فافتتح مواضع كثيرة منها من بينها مدينة واري Oria ، وغنم غنائم كثيرة (٣) . وفي سنة ٣١٥ هـ غزا صابر الفتى الصقلي بعض السواحل الايطالية في ٤٤ شينا ، فأصاب في هذه الغزوة كثيرا من الغنائم (٤) . وفي العام التالي غزا صابر الفتى من افريقية في ثلاثين حريا أرض قلورية ومعه سالم بن راشد الكناني ، ففتح طارنت عنوة ، ووصل الى أذرنط وحاصرها وخرب دورها ومبانيها (٥) . وذكر ابن عذاري أنه افتتح موضعا يعرف بالغيران وقلعة الحسب ، وواصل غزوه ، فزحف الى سليير (سلرنو) فصالحه أهلها على مال ودياج . ثم زحف الى نابل ، فصالحه أهلها على مال وثياب (٦) . وفي سنة ٣١٧ هـ غزا صابر غزوته الثالثة في أربعة سفن ، فالتقى في البحر بسبع سفن بيزنطية بقيادة السردغوس ، فانهمز البيزنطيون ، ونجح صابر في اقتتاح مدينة ترمولة Termoli ، وسبى فيها سبيا كثيرا (٧) ، ورأت سلرنو ونابل أن من الأفضل لهما الخضوع للمسلمين

(١) الجربي ، مؤنس الاحبة ، ص ٦٠.

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٤

(٣) نفسه ، ص ٢٦٧ - ارشبالد ، ص ٢٢٤

(٤) نفسه ، ص ٢٧٠

(٥) النوبري ، ص ٢٢٢ - المكتبة الصقلية ، ص ٢٥٤ - ارشبالد ، ص ٢٢٤

(٦) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٢

(٧) نفسه ، ص ٢٧٥

ودفع الجزية . ويبدو أن الضغط المتواصل الذي قام به الفاطميون من قواعدهم في صقلية وافريقية كان سببا في عودة ظهور القوة البحرية البيزنطية في البحر التيراني لمواجهة الغزو الفاطمي . وقد رد الفاطميون سريعا على ذلك ، فأرسل القائم بالله ابن المهدي في سنة ٣٢٣ هـ أسطولا كبيرا لتدعيم السلطان الفاطمي في مياه البحر التيراني ، واستطاع هذا الاسطول بقيادة يعقوب بن اسحق أن يهاجم مدينة جنوة ويفتحها . وهاجم سردانية ثم قرشقة ، وأوقع بأهلها وأحرق عددا كبيرا من السفن الراسية بها (١) .

ثم توقف نشاط الفاطميين البحري فترة تستد من ٣٢٣ حتى سنة ٣٣٧ هـ شغلوا خلالها باخماد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى المعروف بصاحب الحمار ، التي استغرقت ١٤ سنة . شغلت عصر القائم بالله كله ، وعامين من عهد ابنه أبي العباس اسماعيل المنصور . وقد سخر اسماعيل المنصور أساطيله بقيادة رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق لمقاتلة ابي يزيد في سوسة وافتتاحها (٢) . وما ان فرغ الفاطميون من اخماد هذه الثورة حتى عادوا من جديد الى مهاجمة سواحل ايطاليا . ففي ولاية الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي على صقلية ، خرج الحسن بن علي في أسطول ضخم من ٧ آلاف فارس و ٣٥٠٠ راجل بخلاف البحرين ، وهاجم هذا الاسطول برا وبحرا ، بلاد قلورية ، وحاصروا جرجة ، وصالحوا أهلها على مال ، ثم زحفوا الى مدينة بارة (باري حاليا) . ونزل الحسن على قلعة قسانة Cassano ، وبث سراياه الى قلورية .

(١) ابن الاثير (المكتبة الصقلية) ص ٢٥٤ - ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩ -
النويري ، ص ٢٢٢ - سارشبالد ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥
(٢) ابن الاثير ، ج ٦ ص ٢٠٨ ، والمكتبة الصقلية ، ص ٢٥٤ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٩٠ -
اتحاف اهل الزمان ص ١٢٤

وأقام عليها شهرا حتى سألها الصلح فصالحهم على مال ، وعاد الحسن الى مسينى ، وقضى الاسطول بها فصل الشتاء ^(١) فأرسل اليه المنصور يأمره بالعودة الى قلورية ، فامثل الحسن لامر الخليفة ، وعبر المجاز الى ريو ثم انتقل الى جراحة • وكان الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع قد سير الى أذرت بقلورية أسطولا ضخما بقيادة أحد بطارقه ، وانضم السردغوس حاكم اقليم قلورية الى هذه القوة البيزنطية لوضع حد لاعمال الفاطميين في جنوب ايطاليا ، واشتبك المسلمون مع البيزنطيين في ٩ ذي الحجة سنة ٣٤٠ هـ فانهمز البيزنطيون هزيمة نكراء ^(٢) ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، وغنموا غنائم هائلة ، وقتل البطريق وحاكم الاقليم • وهكذا عجز البيزنطيون عن مواجهة المسلمين ، واضطر الامبراطور قسطنطين الى طلب الهدنة ، فهادته المسلمون ، وعاد الحسن الى ريو ، وبنى بها مسجدا جامعا ^(٣) •

غير أن التقارب السياسي بين بيزنطة وقرطبة بسبب عدائهما المشترك للدولة الفاطمية قضى على السلام المضطرب الذي كان قائما بين بيزنطة وبلرم ، واستأنف الفاطميون غزوهم لسواحل ايطاليا في نفس الوقت الذي هاجبوا فيه مرسى مدينة المرية قاعدة اساطيل الاندلس ، وأحرقوا جميع ما فيها من السفن • وكانت الامبراطورية البيزنطية منذ أيام رومانوس ليكابينوس قد استرجعت قوتها البحرية في الشرق والغرب ، ونجح تقفور فوقاس قبل اعتلائه العرش في الاستيلاء على جزيرة اقريطش في سنة ٣٥٠ هـ ، وتخليص بحر ايجيه من أعظم خطر كان يواجهها في وسط البحر المتوسط ، كما نجح هذا القائد بعد أن أصبح امبراطورا في سنة

(١) ابن الانر ، المكتبة المصقلية ، ص ٢٦.

(٢) نفسه ، ص ٢٦٠ - ارشيبالد ص ٢٢٥

(٣) نفسه

٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) في انتزاع جزيرة قبرص من أيدي المسلمين . وفي نفس الوقت الذي نشطت فيه البحرية البيزنطية في حوض البحر المتوسط الشرقي ، لم تتوان في ممارسة نشاط بحري واسع النطاق في غرب البحر المتوسط عندما واتها الفرصة ، فقد انتهزت فرصة قيام النصارى في صقلية بالثورة لتتدخل في شؤون الجزيرة ، ونجح البيزنطيون في الاستيلاء على قلعة طبرمين في سنة ٣٥١ هـ (٩٦٣) . غير أن البيزنطيين ، على الرغم من تغلب أساطيلهم على أساطيل المسلمين في الشرق ، عجزوا عن الوقوف أندادا للسليين بحرا في الغرب ^(١) ، فان والي صقلية أبا الحسين أحد ابن الحسن بن علي الكلبى لم يسكت على احتلال البيزنطيين لطبرمين . فبدأ بمحاصرتها زهاء سبعة أشهر ونصف حتى نجح في افتتاحها في عام ٣٥١ هـ ، وأمر المعز الفاطمي بتسميتها المعزية ^(٢) . ولما وصلت هذه الأنباء الى أهل رمطة النصارى شقوا عصا الطاعة على الفاطميين ، واستنصروا بالدمستق (الامبراطور نقفور فوقاس) ملك القسطنطينية . فسير اليهم في البحر جيشا ضخما تزيد عدته على أربعين ألف مقاتل بقيادة منويل ، وعندئذ أرسل الامير أحمد الى المعز لدين الله الفاطمي بأفريقية يستمده ، وشرع هو في اصلاح أسطول له والزيادة فيه ، وحشد الرجال والمقاتلة في البر والبحر ، الى أن جاءت الامدادات من افريقية بقيادة الحسن بن علي ، وبدأ المسلمون يحاصرون رمطة في نفس الوقت الذي رست فيه سفن البيزنطيين في ميسنى ، وزحفت جيوش البيزنطيين نحو رمطة كي يرغموا المسلمين على فك الحصار ، والتحم الجيشان في قتال عنيف انتهى بهزيمة البيزنطيين وواصل المسلمون احكام حصارهم على رمطة حتى اقتحموها عنوة . أما البيزنطيون فقد فر من نجا منهم في السفن الى ريو ، فطاردتهم سفن الاسطول الفاطمي ، وأدركتهم عند المجاز الى

(١) أرشبالد ، ص ٢٩٧

(٢) ابن الانر ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٢ - النوبري ، ج ٢٢ ص ٢٢٢

قلورية ، وألقى جماعة من المسلمين بأنفسهم في الماء ، فأحرقوا كثيرا من سفن البيزنطيين ، ففرق معظمها ، وسميت هذه الواقعة البحرية بوقعة المجاز (١) .

واستغل المسلمون هذا الانتصار فهاجموا المدن الإيطالية ، وغنموا غنائم كثيرة . واضطر البيزنطيون الى طلب الصلح ، فتم عقده في سنة ٣٥٤ هـ نظير جزية يدفعها أهل قلورية للمعز كل سنة يقدمونها الى عامله على صقلية . ثم وصلت في سنة ٣٥٨ هـ هدية من الامبراطور الى المعز من بينها آنية من الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ودياج وحرير وبردون وغير ذلك من نفيس ما لدى البيزنطيين ، وأرسل الامبراطور كتابا الى المعز يطلب منه الكف عن حربه ويسأله المودة ، وبعث بعدد كبير من أسرى المسلمين في المشرق ، كما سأله زيادة مدة الهدنة . فرفض المعز أن يطيلها حتى تنقضي مدتها (٢) .

ثم شغلت بيزنطة في عهد بسيل الثاني بشاكلها الداخلية مثل ثورة برداس اسكليروس في سنة ٩٧٦ م وثورة برداس فوكاس في سنة ٩٨٧ م ، وهما ثورتان خطيرتان انحاز الى الثوار فيهما معظم أجناد الاساطيل البيزنطية ، كما شغلت بسواجة مشاكل البلغار والروس ، عن الاهتمام بانجاد ايطاليا الجنوبية من الغزوات التي كان يقوم بها أمراء صقلية الكلبين من بني الحسين ، كرد فعل لغارات البيزنطيين على الشام . ففي سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) أغارت أساطيل صقلية بقيادة أبي القاسم بن الحسن بن علي على سواحل قلورية ، فأخضعوا كسنثة وقلعة حلوا ،

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٦ - ابو الغدار ، المختصر ، ص ١٢٢ - النويري ، ص ٢٣٥

(٢) القاضي النعمان ، الفية الفريش ، تحقيق فرحات الدشراوي ، ص ٢٨

وبث سراياه في نواحي قلورية وأبوليا . وفي العام التالي عاود أبو القاسم
الغزو ، فنازل قلعة أغاثة ، وأخضعها ، ثم زحف الى طارنت ، ودخلها ،
وأمر بهدمها ، وغزا أذرننت Otranto

ثم توقفت غارات المسلمين بصقلية في الفترة التي حاول فيها
الامبراطور أوتو الثاني اخضاع البندقية وضم المقاطعات البيزنطية في
جنوب ايطاليا الى أملاكه ، اذ تعاونوا مع البيزنطيين في ايقاع الهزيمة
بأوتو عند رأس ستيلو . ولم يلبث المسلمون في افريقية وصقلية أن
استأنفوا من جديد غاراتهم على قلورية وعلى السواحل المطلة على البحر
الادرياتي .

الفصل الخامس

البحرية الاسلامية في الأندلس منذ قيامها

حتى نهاية القرن الرابع الهجري

(١) النشاط البحري للاندلسيين حتى طليعة القرن الرابع الهجري •

أ - افتقار الاندلس الى الاساطيل

ب - غارة النورمان الاولى على الاندلس وأثرها في قيام البحرية الاندلسية •

ج - غارة النورمان الثانية في عصر الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط سنة ٢٤٥ هـ

د - دور البحرين في تصير بجانة في ختام القرن الرابع الهجري

(٢) البحرية الاندلسية في أوج قوتها في القرن الرابع الهجري

أ - عناية عبد الرحمن الناصر بالاساطيل

ب - قيام المرية قاعدة أسطول الاندلس

ج - غارة النورمان الثالثة في عامي ٣٥٥ ، ٣٦٠ هـ وفشلها

د - نشاط أسطول الاندلس في سواحل المغرب وسواحل غرب الاندلس

هـ - مغامرات الاندلسيين في بحر الظلمات في القرن الرابع الهجري

الفصل الخامس

البحرية الاسلامية في الاندلس منذ قيامها حتى نهاية القرن الرابع الهجري

(١)

النشاط البحري للأندلسيين حتى طلعة القرن الرابع الهجري

أ - افتقار الاندلس الى الاساطيل :

لم يكن للمسلمين منذ أن افتتحوا الاندلس أسطول بحري حربي منظم قبل أن يشرع الامير الاموي عبد الرحمن الاوسط في بناء دار الصناعة باشبيلية في سنة ٢٣٠ هـ ، ومن المعروف أن موسى بن نصير اهتم بانشاء عدد كبير من السفن في دار الصناعة بتونس ، نقل بفضلها الاجناد التي أمد بها موسى مولاه طارقا قبل موقعة وادي لكة ^(١) . ومن تونس أيضا كان الولاة والاجناد يعبرون الى سواحل الاندلس ، فأبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي عبر البحر من ساحل تونس الى ساحل غرناطة في سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي جاز البحر من تونس ، واحتل بكورة تدمير في سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) ^(٢) . وعلى الرغم من أن ولاة بني أمية في الاندلس لم يهتموا بالاساطيل ، فإن شهرة الاندلسيين في ركوب السفن وخبرتهم بشؤون البحر ، وقدرتهم على خوضه ، ساعدت على تكوين طوائف بحرية ^(٣)

(١) اخبار مجموعة ، ص ٧

(٢) المعري ، ص ١١ - التوبري ، ص ٧

(٣) Levi - Provençal, Histoire, t. I, p. 348

تسكن السواحل الشرقية من الاندلس وتشتغل بالغزو البحري لحسابها الخاص في جنوبي فرنسا وجزر البحر المتوسط الغربي أو تشتغل بالتجارة ما بين المغرب والاندلس ^(١) . وقد ذكر ابن القوطية القرطبي أن أبا فريفة الذي عبر البحر مع بدر مولى عبد الرحمن الداخل وتسام بن علقمة ، لنقل الامير الاموي عبد الرحمن الى الاندلس ، كان له بصر في ركوب البحر لتصرفه فيه ^(٢) . وكان لبعض الافراد مراكب تجارية أو قوارب من بينها المركب الذي حصل عبد الرحمن الى الاندلس ^(٣) ، والمركبان اللذان أرسلهما زياد بن عسرو اللخمي مشحونين بالميرة الى جند بلج بن بشر القشيري وأصحابه الشاميين المحصورين في سبتة ^(٤) .

ومنذ أن قامت الدولة الاموية في الاندلس ، وأمراء هذه الدولة قد شغلتهم الثورات الداخلية والحروب مع المسالك المسيحية في شمال اسبانيا ، والمؤامرات الخارجية عن العناية بالبحرية أو الاهتمام بإنشاء الاساطيل . زد على ذلك أن سياسة هؤلاء الامراء الخارجية كانت تقوم أساسا على معاداة العباسيين والتقرب الى البيزنطيين ومصادقتهم ، لاشتراك هؤلاء مع الامويين في الاندلس في عداوتها للعباسيين ، ولهذا السبب اطمأن أمراء قرطبة الى جانب البيزنطيين ولم يحسوا بحاجتهم الى أسطول أو قوة بحرية للدفاع عن سواحلهم ، الى أن فوجئوا بالغزوة النورمندية في سنة ٢٢٩ هـ . وتنبهوا وقتئذ الى نقطة الضعف في نظامهم الدفاعي البحري .

(١) كانت الاتصالات بين موانئ الاندلس وميناء نكور ومرسى الفروخ مستمرة في عصر الإمارة القرطبة

(٢) ابن القوطية ، ص ٢٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ، ص ٨

(٤) المقرئ ، ج ٤ ، ص ١٩

غير أن ذلك لم يسع من قيام جبايات من البحرين من أهل الاندلس بالاشتغال بالتجارة فيما تنتجه الاندلس زراعا وصناعيا أو القيام بغزو السواحل الافرنجية وجزر البحر المتوسط ، وقد أشرنا من قبل الى هؤلاء البحرين عند حديثنا عن اقريطش . وكان المركز الرئيسي لهؤلاء البحرين منطقة تقع على الساحل الشمالي الشرقي من الاندلس بين طرطوشة وبلنسية ، وكان يتزعهم أمير سرقسطة ويوجههم الى غزو السواحل الكارولنجية ^(١) ، مستغلين في ذلك تفكك قوى الكارولنجيين البحرية منذ منتصف القرن التاسع الميلادي (النصف الاول من القرن الثالث الهجري) . وقد نجح هؤلاء الغزاة البحرين في تأسيس قواعد ثابتة لهم في فراكسينت على ساحل بروفانس وجزيرة كامرج عند مصب نهر الرون وفي ماجلون ، ومن هذه القواعد وجهوا غاراتهم الى داخل البلاد في اقليم بروفانس ، وانتشروا في جبال الألب ، وتحكوا في المرات الموسمية بين فرنسا وايطاليا فيما بين مونت سني والبحر المتوسط ^(٢) . ويبدو ان هؤلاء الغزاة أغاروا لحسابهم الخاص على جزيرة قرشقة (كورسيكا) في سنة ١٩١ هـ (٨٠٦ م) فأرسل اليهم بين بن شارلمان ملك ايطاليا أسطوله ليرغمهم على الانسحاب ، ونجح فيما ذهب اليه ، وعند عودته المسلمين الى مراكزهم انتهز آدمر كونت جنوة فرصة انسحابهم ، وتعقبهم بأسطوله ، ولما أحس الاندلسيون بذلك حولوا سفنهم الى أسطوله . واشتبك أسطول المسلمين مع الاسطول الجنوبي في موقعة انتهت بهزيمة الجنوبيين ، وأسر المسلمون منهم ٦٠ راهبا ، باعوه في الاندلس ^(٣) . ثم عاود الاندلسيون الغزو البحري بعد عامين ، فأرست سفنهم في سردينيا . ولكن أهل هذه الجزيرة تصدوا لهم وأرغسوهم على الخروج منها .

(١) ارشبالد لويس ، ص ٢٢٩

(٢) نفسه ، ص ٢٢٠

(٣) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٤٠

فهاجم المسلمون قرشقة واشتبكوا مع القائد بورشارد في موقعة دارت فيها الدائرة على المسلمين وخسروا فيها ثلاثة عشر سفينة (١) . ثم عاودوا الكرة على نفس الجزيرة في سنة ١٩٥ هـ (٨٠٩) وفي سنة ١٩٨ هـ . وفي هذه المرة الاخيرة اشتبك معهم اسطول صاحب انبورياش الذي نجح في أسر ثمانية سفن اسلامية بسن عليها من بحريين بلغ عددهم أكثر من خمسمائة ، وقد انتقم المسلمون لذلك ، فأغاروا على سواحل نيقة (نيس Nice و بروفانس وغيرها (٢) .

والى جانب المركز الرئيسي للبحريين الاندلسيين في طرطوشة وما يليها جنوبا حتى بلنسية ، كانت للغزاة البحريين في الاندلس منطقة أخرى تقع على الساحل الجنوبي الشرقي من الاندلس عند الموضع الذي قامت عليه مرية بجانة فيسا بعد ، وكان هؤلاء البحريون ينزلون مرسى أشكوبرس Escombreras الواقع في خليج قرطاجنة الخلفاء ، قبل أن يتخذوا مرية بجانة قاعدة لهم في الجنوب الشرقي من الاندلس (٣) .

ويذكر البكري أن هؤلاء البحريين الاندلسيين ومنهم الكركري وأبو عايشة والصفر وصهيب ، أسسوا مدينة تنس الحديثة بالمغرب الاوسط في سنة ٢٦٢ هـ ، اذ كانوا يشتون هناك اذا ركبوا سفنهم من الاندلس ، فينزلون في مرسى على ساحل البحر ، « فتجمع اليهم بربر ذلك القطر ، ورغبوا في الانتقال الى قلعة تنس ، وسألوهم أن يتخذوها سوقا ، ويجعلوها سكنى ، ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة ، فأجابوهم الى ذلك ، وانتقلوا الى القلعة وخسوا بها ، وانتقل اليهم من

(١) نفسه ، ص ١٤٠

(٢) نفسه ، ص ١٤٠

(٣) البكري ، ص ٨١

جاورهم من اهل الاندلس وغيرهم « (١) ، ولكن معظمهم انتقل عنها بعد ذلك الى مرية بجاية . والى البحرين الاندلسيين أيضا وعلى رأسهم محمد ابن أبي عون ومحمد بن عبدون يرجع الفضل الاعظم في تأسيس مدينة وهران ، بالاشتراك مع نفزة وبنى سفن من أزداجة في سنة ٢٩٠ هـ (٢) (٩٠٢ م) . ويشير البكري الى مرافئ أخرى مغربية كانت تحتلها جاليات أندلسية في زمنه ، أي في القرن الخامس الهجري ، مثل بونة (٣) . ومرسى الخرز (٤) ، وبجاية (٥) ، ومرسى الدجاج (٦) .

وينبغي أن نذكر هنا الدور الذي قام به البحريون الاندلسيون برئاسة اصبح بن وكيل الهواري المعروف بفرغلوش في فتح صقلية . فقد اشتركوا بأسطول يتألف من ثلاثمائة سفينة ، وهو عدد ضخم . في الاستيلاء على مينائي بلرمة وميناو ، والدور الذي قام به جماعة من غزاة البحر الاندلسيين في فتح اقريطش في سنة ٢١٢ هـ على النحو الذي أوضحناه .

ويرجع بداية اشتغال الغزاة البحرين بأعمال الغزو والنهب أو ما يسميه الغربيون بالقرصنة على سواحل ايطاليا وفرنسا الجنوبية وجزر البحر المتوسط مثل صقلية واقريطش الى أيام الامير الحكم الربضي . ولكن ينبغي أن نشير هنا الى أن أعمال هؤلاء الغزاة لم تكن تتم بموافقة رسمية

مكتبة جمعية اتباع الشريف

حسني القاسمي

والى هذه المدينة لا يذهب الغزاة من كل

بلقة الغربية - بيروت

« مرسى مدينة بعلبك »

(١) البكري ، ص ٦١

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٠

(٣) البكري ، ص ٥٥

(٤) نفسه ص ٥٥ . وفي ذلك يقول البكري : « والى هذه المدينة لا يذهب الغزاة من كل بلقة الغربية - بيروت »

(٥) نفس المصدر ، ص ٨٢ . وفي مرسى بجاية يقول البكري : « مرسى مدينة بعلبك »

ازلية أهلة عامرة باهل الاندلس »

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٥

من حكومة قرطبة ^(١) ، وعلى هذا الأساس نستنتج مما سبق أن ذكرناه أن الاندلس كانت تضم قواعد بحرية ينتجها جباة من البحرين الذين كانت لديهم خبرات لا حد لها ودربة متوارثة في شؤون البحر ، وأن معظم هؤلاء كانوا مولدين ونصارى واقلمهم كانوا عربا وبربرا ^(٢) ، وأن هؤلاء البحرين كانوا يشتغلون اما بالتجارة بين المغرب والاندلس أو بالغزو البحري •

ب - غارة النورمان الأولى على الاندلس وأثرها في قيام البحرية الاندلسية :

تسجل سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) أول ظهور للغزاة الشماليين المعروفين في المصادر الاسلامية بالاردمانيين أو المجوس على سواحل الاشبونة (لشبونة الحالية) • والاردمانيون أو المجوس يقصد بهم النورمان ، اذ أن التسمية الاولى محرفة من لفظة النوردمانيين وفقا لعادة الاندلسيين في قلب النون الى هزة ، مثل أربونة ونبونة ^(٣) ، أما الثانية فقد أطلقها المسلمون عليهم لانهم كانوا يشعلون النيران في كل موضع يرون به ، نحسبهم المسلمون مجوسا لهذا السبب ^(٤) • والنورمان جنس آري قديم سكن شبه جزيرة اسكنديناوة وجوتلند وما يجاورها من الجزر منذ أزمان مفرقة في القدم . ومنذ طليعة القرن التاسع الميلادي شرع النورمان في النزوح عن أوطانهم بعد أن تزايدت أعدادهم ، وتضاءلت مواردهم ، فخرجوا في موجتين : شرقية وغربية . فعبر السويديون البلطيق ، ونزلوا عند مصب الدنير ، وتوغلوا في روسيا منحدرين مع نهر الفولجا ،

(١) Lévi - provençal, histoire , t.I , p.244

(٢) Ibid , p.349

(٣) حسين مؤنس ، غارات النورمانيين على الاندلس بين سنتي ٢٢٩ ، ٢٤٥ هـ ، المجلة التاريخية المصرية ، مايو ١٩٤٩ ، عدد ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٤

(٤) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٢٤

وأنشأوا مدينتي نوفجورود وكيف وسط جبال الصقالية . وسيطروا على التجارة من بحر قزوين الى البحر الاسود . وقد أصبحت كلهم روتسي لهذا السبب ، وهو الاسم الذي أطلقه الفنلنديون قديما على جيرانهم السويديين ، تطلق على الصقالية الذين خضعوا لهم . ومن لفظه روتسي اشتقت لفظة روسي التي أصبح يعرف بها صقالية حوض الفولجا والدنيبر ^(١) . وقد اصطدم هؤلاء الروس مع البيزنطيين في البحر الاسود ، وحاصروا القسطنطينية عدة مرات ^(٢) بغية ضمها الى أملاكهم لما كانت تستع به من ثروة اقتصادية وذلك في سنة ٨٦٠ م . إذ هاجبوها بأسطول يتكون من مائتي سفينة في وقت غير مناسب ، فقدت أثناءه بيزنطة معظم أسطولها الرئيسي قرب صقلية على يد الاغالبة ^(٣) ، وتعرضت مدنها وجزرها في بحر ايجة لنشاط الاندلسيين في اقريطش . كذلك أغار الروس على القسطنطينية في سنة ٩٠٧ م بعد أن فقد البيزنطيون طبرمين في صقلية سنة ٩٠٢ م ، وبعد أن نهب ليو الطرابلسي سالونيك في سنة ٩٠٤ م . ولعل ذلك كان السبب الذي حمل اليعقوبي على أن يطلق اسم الروس على النورمان الذين أغاروا على اسبانيا الاسلامية في قوله : « ودخلها (أي اشبيلية) المجوس الذين يقال لهم الروس سنة ٢٢٩ » ^(٤) . كما دعا المسعودي بعد ذلك الى أن يشير الى أن المجوس قدموا من « خليج يعترض من بحر أوقيانوس وليس بالخليج الذي عليه المنارة النحاس . وارى والله أعلم ان هذا الخليج متصل ببحر مانطس أو نيطس (البحر الاسود) وأن هذه الامة هم الروس . إذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر وأقيانوس غيرهم » ^(٥) .

(١) نفس المرجع ، ص ٢٦

(٢) نفسه ، ص ٢٥

(٣) أرشبالد ، ص ٢٢٨

(٤) اليعقوبي ، ص ٣٠٤

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٢

أما الموجة النورمانية الثانية الصادرة من النرويج ، فقد اتجهت غربا الى سواحل انجلترا وايرلندا منذ أوائل القرن السابع الميلادي ، وشددوا هجساتهم على انجلترا في النصف الاول من القرن التاسع حتى اضطر ملوك وسكس الى التخلي لهم عن قسم كبير من جنوب غربي انجلترا ، ظلوا يستوطنونه حتى سنة ٩٠٠ م ، عندما طردهم الفريد الكبير ملك وسكس . أما ايرلندا فقد غزاها النرويجيون والدانيون منذ سنة ٨٤١ م واستقروا بها ، وقد ظن ابن الخطيب لذلك أن النورمان الذين غزوا سواحل اسبانيا قدموا من انجلترا وايرلندا ، اذ سمع أن نصارى قشتالة في زمنه يسونهم الانقليش الذين يستوطنون جزيرتين عظيمتين (١) .

أما نورمانيو الدنرك ، فقد انحدروا من بلادهم ، واقاموا في بلاد افرنجة بعد أن توفي شارلمان في سنة ٨١٤ م ، وعجز الفرنجة عن ردهم . وقد اشتدت غارات النورمان الدانيين على بلاد افرنجة عنفا في عهد ملكهم هارولد ، وأخذ مجال هذه الغارات يتد جنوبا على سواحل دولة الفرنجة شيئا فشيئا . ففي سنة ٨٤٣ م ظهروا عند مصب نهر اللوار ، واستولوا على نانت في ٢٣ يونيو من تلك السنة ، ومن مصب اللوار امتدت غاراتهم الى مصب وادي جرونة (الجارون) ، وبلغت سفنهم مدينة برديل (بورديو) وتوغلت في جرونة حتى طولوشة (٢) ، وأوغل أحد أساطيلهم جنوبا ، فنزل النورمان على ساحل أشتورياس الشمالي بالقرب من خيخون ، ثم واصلوا السير جنوبا بجذاء الساحل حتى جليقية ، ولكن ملك اشتورياس حاربهم وأحرق عددا من سفنهم وردهم على أعقابهم . ومن هناك اتجهوا جنوبا حتى ظهرت سفنهم عند مصب نهر تاجة أمام ميناء

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٠

(٢) Levi - Provençal, Histoire. t. I, p. 219

الاشبونة . في يوم الاربعاء مستهل ذي الحجة سنة ٢٢٩ هـ (١) .

ولم تكد سفن النورمان تظهر عند ساحل هذه المدينة حتى أرسل وهب الله بن حزم عاملها الى الامير عبد الرحمن الاوسط كتابا ذكر له فيه « أنه حل بالساحل قبله اربعة وخمسون مركبا للسجوس ومعها اربعة وخمسون قاربا » (٢) . فلما اطلع الامير على ذلك الخبر ، أصدر أمره الى عمال السواحل بالتحفظ والاحتراس واتخاذ الحيطة لمواجهة الغزو النورمانى . ويؤكد العذري أن النورمان عند ظهورهم بأشبونة أقاموا بها ثلاثة عشر يوما ، وأنه وقعت بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة (٣) ركبوا على أثرها سفنهم متجهين جنوبا بحثا عن مصب واد آخر ينزلون فيه ، الى أن أرست بهم سفنهم عند مصب الوادي الكبير ، وهناك تفرقت سفنهم ، فواصل بعضها السير بحذاء الساحل الاندلسي جنوبا حتى نزلوا عند ساحل اقليم شذونه ، واستولى البعض الآخر على ميناء قادس ، بينما أوغلت معظم وحدات الاسطول النورمانى في النهر (الوادي الكبير) في اتجاه اشبيلية ، واحتلوا جزيرة قبيل Captel (٤) الواقعة الى الشرق من جزيرة اخرى يقال لها الجزيرة الكبرى Isla Mayor في يوم الجمعة ٨ من المحرم سنة ٢٣٠ هـ ، فأقاموا بها ثلاثة أيام ، ثم دخلوا قرية قورة Coria del Rio ، الواقعة على بعد اثنتي عشرة ميلا من اشبيلية في يوم الاثنين ١٢ من المحرم ، بعد أن اشتبكوا مع أهلها بالحصن في معركة دارت فيها الدائرة على المسلمين ، وقتل منهم عدد كبير . وأقام النورمان

(١) ذكر البكري ان المجوس نزلوا بمرسى مدينة اصيلة في المغرب الاقصى قبل غزوهم الاندلس في سنة ٢٢٩ هـ (البكري ، ص ١١١ وما يليها)
(٢) الطبري ، ص ٩٨ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٠
(٣) نفسه ، ص ٩٨ - النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢
(٤) الطبري ، ص ٩٨ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢٠

في قورة بقية يومهم ثم دخلوا في اليوم التالي قرية طلياطة *Tablada* التي تبعد عن اشبيلية بنحو ميلين ، فزولوها ليلا ، وذعر أهل اشبيلية ، فأخلوها الى قرمونة وجبال الشرف (١) ، أما النورمان فقد مضوا براكبهم وقد رفعت الاشربة السوداء حتى نزلوا جوفاً من مدينة اشبيلية ، واشتبكوا مع المسلمين الذين آثروا المقام بها في معركة عنيفة ، انهزم فيها المسلمون غداة الاربعاء ١٤ من المحرم هزيمة نكراء ، واستباح النورمان المدينة سبعة أيام ، لم يرفعوا « السيف عن كل ذي روح ظفروا به من الرجال والنساء والصبيان والدواب والانعام والطيور وكل ما تناولته سيوفهم ورماحهم » (٢) ، فدخلوا حاضرة اشبيلية قسراً ، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً ، وكانت اشبيلية عند دخولهم عورة ، مدينة بلا سور (٣) . وفي اليوم التالي قدم جيش من قرطبة بقيادة عبدالله بن المنذر وعيسى بن شهيد والاسكندراني وعبد الرحمن بن كليب بن ثعلبة ، ونزل الجيش القرطبي بموضع شرقي اشبيلية ، فبادرهم النورمان بالهجوم ، فثبت المسلمون ، وقتلوا منهم نحو سبعين نفراً ، وأرغموهم على ركوب مراكبهم ، واكتفوا بذلك ولم يطاردوهم .

وكان الامير عبد الرحمن قد استنفر المسلمين بقرطبة ، فتوافت الاجناد بقيادة محمد بن سعيد بن رستم ، وانضم اليها موسى بن قسي صاحب الثغر والمطوعة حتى نزلوا باشبيلية ، وقاتلوا النورمان ، ثم تنحى المسلمون الى كورتش *Cuartos* بقلي المدينة ، وعلى أربعة أميال منها ، بينما نزل موسى بن قسي في قرية كنتش معافر *Quintos*

(١) ابن القوطية ، ص ٦٣

(٢) العنزي ، ص ٩٩ - النويري ، ج ٢٢ ص ٢٤

(٣) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٩

الواقعة قبل اشيلية (١) على بعد خمسة أميال منها ، ولما أدرك النورمان عزم المسلمين على قتالهم انسحبوا الى طلياطة . فأتبعهم ابن رستم وحاصرهم في يوم ٢ ربيع الاول ، ونصب عليهم المجانيق ، ثم توافت الامدادات من قرطبة بقيادة نصر الفتى ، وناشبا النورمان القتال . وعند المسلون الى منع النورمان من ركوب مراكبهم ، فحالوا بينهم وبينها . فانهمز النورمان وقتل منهم نحو خساسة ، من بينهم أميرهم وقائد أسطولهم (٢) ، وأصيبت لهم أربعة سفن بسا فيها ، أمر ابن رستم باحراقها (٣) . وأقام النورمان في مواضعهم بين طلياطة وقبيل لا يتسكن المسلون منهم ، وأحجبوا عن الخروج لمواجهة المسلمين ، ثم تسللوا من جهة النهر نحو لبلبة ، ومضوا في منطقة الشرف ، متراجعين الى قرب قوريش ، ثم دخلوا قبيل ، فأصبحوا بين أودية ، فنزل عليهم المسلون من جانبي النهر ومنعواهم من النزول ، وأرسل الأمير عبد الرحمن اليهم خمسة عشر مركبا مشحونة بالمقاتلة والعدة ، فلما علم النورمان بقدمها اليهم تراجعوا الى لبلبة ثم هبطوا الى جزيرة شلطيخ . ومنها الى أكشنة حيث نزلوا على وادي آنه ، ومن هناك رحلوا الى باجة . وانتقلوا بعدها الى مدينة المعدن ، وانتهى بهم الامر الى أشبونة حيث ركبوا سفنهم وعادوا من حيث أتوا (٤) .

ويزعم ابن القوطية أن النورمان بعد انصرفهم عن اشيلية توجهوا

(١) ابن القوطية ، ص ٦٤

(٢) ابن دحية ، المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق الاساذ ابراهيم الابياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور احمد احمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٨
(٣) العنري ، ص ١٠٠ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٢٠ - النويري ، ج ٢٢ ص ٢٤ .
وقد ذكر ابن عذاري ان وقعة طلياطة حدثت في ٢٥ من صفر ، وان المسلمين احرقوا من مراكب النورمان ثلاثين مركبا .

(٤) العنري ، ص ١٠٠ - النويري ، ص ٢٤ - المقري ، ج ١ ص ٢٢٤

الى نكور . وأنهم أسروا بها جد ابن صالح ، فافتداه الامير عبد الرحمن ابن الحكم ، وأنهم هتكوا الساحلين جميعا حتى بلغوا بلد الروم (يقصد ايطاليا) ، وأنهم بلغوا في تلك الغزوة الاسكندرية ^(١) . ولكن ابن القوطية تجاوز الصواب اذ أن غزوة النورمان لنكور تست وفقا للبكري في سنة ٢٤٤ هـ ، ففي هذه السنة تغلبوا عليها مدة سبعة أيام ، وسبوا من فيها الا من أفلت بالفرار ، وكان فيمن سبوه أمة الرحمن وخنزولة ابتنا واقف بن المعتصم بن صالح بن منصور الحميري ، فافتداهما الامام محمد بن عبد الرحمن ^(٢) . أما قول ابن القوطية بغزوهم الاسكندرية فمستبعد أصلا . ويبدو أن ملك النورمان بالدنسرك ، وكان يسمى اريك ، لم يكن يتوقع أن ينهزم رجاله في اشبيلية على النحو الذي رأيناه ، فسعى الى عقد الصلح مع المسلمين في الاندلس . وأرسل وفدا الى الامير عبد الرحمن يلتمس منه أن يقبل الصلح وذلك عقب خروج النورمان من اشبيلية ، فرد الامير على سفارته بسفارة ماثلة ، مثله فيها يحيى بن حكم الغزال ويحيى بن حبيب اللذين ركبا مركبا أنشيء لهما لذلك الغرض ، وأبحر هذا المركب من مدينة أشبونة مع مركب السفير النورماني ، وتعرض المركبان لعاصفة عاتية عند « الطرف الاعظم الداخل في البحر الذي هو حد الاندلس في آخر الغرب ، وهو الجبل المعروف بألوية (الطرف الشمالي الغربي من شبه جزيرة ايبيريا) » ^(٣) ، وكادت السفينة تحطم ولكنها نجت ، ووصلت الى جزيرة من جزر النورمان ، فأقام فيها الغزال وصاحبه أياما أصلحا فيها مركبهما ، ثم تابعا الرحلة الى مستقر ملك النورمان ، وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط ^(٤) . ويعترض الاستاذ ليفى بروفنسال على رواية ابن

(١) ابن القوطية ، ص ٦٥

(٢) البكري ، ص ٩٢

(٣) ابن دحية ، ص ١٣٩ - المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ص ٢٤

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٠

دحية المناخرة . ويعتقد أنها مجرد أسطورة ابتكرت كلها ، وأن رحلة الغزال كانت موجهة الى بيزنطة نفسها استنادا الى ما رواه ابن حيان ^(١) . وأن المسألة لا تعدو خلطا في أذهان الاندلسيين بين حادثين : أحدهما وصول سفارة بيزنطية الى قرطبة ، والثاني غارة النورمان على سواحل الاندلس الجنوبية الغربية ، وانتهى الخلط بين الحادثين الى ابتكار أسطورة مشتركة أخذت تشوه الحقيقة التاريخية شيئا فشيئا مع مضي الزمن ^(٢) . ولكن الدكتور حسين مؤنس يناقش رأي الاستاذ بروفنسال . ويفنده تفنيدا علميا ، ويخرج من هذه المناقشة بترجيح صحة سفارة الغزال الى بلاط النورمان ^(٣) ، وهو ما نبيل الى الاخذ به . ونعتقد أن الغزال قام بسفارتين مختلفتي الوجهة ، أحدهما الى القسطنطينية ردا على سفارة الامبراطور البيزنطي تيوفيل التي وصلت الى قرطبة في سنة ٢٢٥ هـ ^(٤) ، ونعتقد أن رحلة الغزال الى القسطنطينية تمت في العام التالي ، والثانية تمت بعد غزوة النورمان لسواحل الاندلس في سنة ٢٣٠ هـ وفقا لما رواه ابن دحية .

ولم تقض هزيمة النورمان في طلياطة عليهم نهائيا ، فقد اضطر جماعة منهم الى التحصن في جزيرة قبيل ، ولكن القائد ابن رستم أرغمهم على الاستسلام ، فاعتنقوا الاسلام ، واقاموا بأدنى الوادي الكبير ، واشتغلوا هناك بتربية قطعان الماشية وصناعة الالبان ^(٥) .

(١) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ٥٧ - المقري ، ج ٢ ص ٢٤

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. 1, p. 253

(٣) حسين مؤنس ، غارات النورمانين ، ص ٤٢ - ٦٤

(٤) المقري ، ج ١ ص ٢٢٤ - ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ،

ص ٩٧ وما يليها

(٥) Lévi-provençal, t. 1, p. 224

وكان لغارة النورمان آثار هامة على الاندلس ، فقد نهت الامير عبد الرحمن الاوسط ومن تولى بعده الى ضرورة الاهتمام بتحسين السواحل التي يسكن أن يطرقها الغزاة الشماليون من الغرب والجنوب الغربي ، فأمر هذا الامير بتسوير اشبيلية (١) بإشارة وزيره عبد الملك ابن حبيب ، وانشاء مراقب ومجارس على طول الساحل الغربي المطل على المحيط وشحنها بالمراطة (٢) . كذلك حفرت هذه الغارة النورمانية الحكومة الاموية في الاندلس على زيادة الاهتمام بالبحرية عن طريق انشاء دور لصناعة السفن لتزويد البلاد بأعداد وفيرة من السفن اللازمة لمواجهة الغارات البحرية المقبلة ، فأمر الامير عبد الرحمن الاوسط « بإقامة دار صناعة باشبيلية ، وأنشأ المراكب ، واستعد برجال البحر من سواحل الاندلس فألحقهم ، ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط » (٣) . ولم يسجل هذا العمل ميلاد البحرية الاسلامية كما يزعم جمهور كبير من المؤرخين المحدثين ، لان البحرية الاسلامية في الاندلس كانت قد ولدت بالفعل قبل ذلك منذ أيام الامير الحكم الربضي ، ولكنه يسجل تنظيما للبحرية الاسلامية في جزيرة الاندلس ، وحشدا لطاقات هذه الجزيرة لخدمة الاغراض البحرية . وأغلب الظن أن الامير عبد الرحمن دعا الى تضافر جهود البحرين والغزاة لخدمة الدولة في مقابل أرزاق معلومة ، اي أنه

(١) امر الامير عبد الرحمن الاوسط ببنائه بالحجارة في سنة ٢٣٠ هـ ، وتولى اكمال البناء عبدالله بن سنان احد موالي الشاميين (راجع : ابن القوطية ، ص ٦٥ - ابن حيان ، قطعة من المقتبس ، مخطوط فاس ، نشرها الأستاذ ليفي بروفسال تحت عنوان :
Les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan relatives aux agrandissements de la grande mosquée de Cordoue au IXe Siècle, Arabica tome premier, fasc. I, Leiden 1954, p. 90 -

والنص نفسه نشره الدكتور عبد الرحمن الحجي في القسم الذي نشره من المقتبس ، ص ٢٤٤ - ابن سعيد المغربي ، ج ١ ص ٩ - الحميري ، ص ٢١)

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 225

(٣) ابن القوطية ، ص ٦٧

استعان بهؤلاء البحريين في ادارة اسطول قوي زوده بالآلات والمعدات التي اختصت بصناعتها جزيرة شلطيـش . ومن المعروف أن شلطيـش كانت تنتج المراسي اللازمة للسفن والمراكب الحـصالة الجافية (١) . أما انشاء دار صناعة اشبيلية في عهده . فأمر يتعارض مع ما ذكره ابن القوطية نفسه في موضوع سابق . اذ ذكر أن سارة القوطية ابنة المند . وحفيدة غيطشه ملك القوط . أنشأت مركبا بأشبيلية . وتوجهت بأخويها الى الشام . فنزلت بعسقلان . وقصدت دمشق . حيث تطلعت لهشام بن عبد الملك من عنـها أرتلباس (٢) . ونستنتج من ذلك أن دار الصناعة بأشبيلية كانت قائمة بالفعل منذ الفتح العربي للاندلس . ولعل دار الصناعة التي اتفق مؤرخو العرب على نسبتها الى عبد الرحمن الاوسط هي نفس الصناعة القوطية القديمة . وقد تكون تلك الصناعة قد توقفت فترة الامارة الاموية عن الانتاج فجددها الامير عبد الرحمن بالبناء عقب غزوة النورمان الاولى في سنة ٢٣٠ هـ . ولعله أضاف اليها منشآت معمارية جديدة كي تنشط في انتاج العديد من السفن . كذلك أنشأ الامير نفسه دارا لصناعة الاسلحة اللازمة للسفن في مدينة قرمونة (٣) . وكان من أثر ذلك أن أصبح لحكومة قرطبة أسطول ضخم يضم عددا كبيرا من السفن الحربية (الغزوانية) يقدر عددها بما يزيد على ثلاثائة سفينة . اذا صدقنا رواية ابن حيان عند تعرضه لذكر اشتراك الاسطول في فتح جزيرة ميورقة ومنورقة سنة ٢٣٤ هـ بقوله « وفيها أغزى الامير عبد الرحمن اسطولا من ثلاثائة مركب الى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة لنقضهم العهد . واضرارهم بسن يسر اليهم من مراكب المسلمين . ففتح الله للسـلـسـلـين عليهم وأظفرهم بهم .

(١) الادريسي ، ص ١٧٩

(٢) ابن القوطية ، ص ٥

(٣) الحميري ، ص ١٥٩

فأصابوا سباياهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم » (١) .

ج - غارة النورمان الثانية في عصر الامير محمد بن عبد الرحمن

الايوسط سنة ٢٤٥ هـ :

لم يكد يضي على غزوة النورمان الاولى على سواحل الاندلس الجنوبية الغربية خمسة عشرة سنة حتى تعرضت الاندلس لغزوة نورمانية جديدة في عهد الامير أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن ، ويبدو أن النورمان بعد وفاة ملكهم هوريك في سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٤م) وهو نفس الملك الذي كان الامير عبد الرحمن قد تبادل معه السفارة بعد خروج النورمان من مياه الاندلس في سنة ٢٣٠ هـ ، انتقضوا سياسة المهادنة التي جرى عليها ملكهم هوريك تجاه امراء الاندلس ، فعادوا من جديد الى حياة الغزو البحري واعمال القرصنة التماسا للغنائم ، فهاجموا سواحل شبه جزيرة أيبيريا في سنة ٢٤٥ هـ من قواعدهم التي كانوا قد أقاموها على سواحل فرنسا الغربية . وكان الدفاع البحري عن سواحل اسبانيا الاسلامية في هذه المرة يختلف اختلافا جوهريا عنه في غارتهم الاولى ، ذلك أن الامير محمد بن عبد الرحمن كان يتوقع طروقهم لبلاده بعد وفاة أبيه في سنة ٢٣٨ هـ ، فأعد لذلك الامر عدته ، واتخذ أهبطه لصد غارتهم بسياج ضخيم من الوحدات البحرية المقاتلة (الحرييات) (٢) التي تتحرك بدون انقطاع من

(١) ابن حيان ، قطعة من المقتبس ، من عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، تحقيق الدكتور

محمود علي مكي ، ص ٢

(٢) المراكب المقاتلة تسمى أيضا مراكب غزوانية كما تسمى غربانا لرقتها وطولها وسوادها بالاطلية المانعة للماء كالزفت وغيره فتصبح لسوادها اشبه بالغربان (راجع النويري السكندري ، الامان بالاعلام ، مخطوطة الهند ، ورقة ١٢٢ ا) ، والغربان تحمل الفزاة ، وسيرها بالقلوع والمجازيف ، منها ما له ١٨ مجذافا ومنها ما له أقل من ذلك . (نفس المصدر ، ورقة ١٢٤ ا) . ومن مزايا الغربان انها كانت تحمل جسرا من الخشب يهبط على مركب العدو (سفالة) ويمر الجند عليه ، فيقاتلون بالاساليب البرية (راجع سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية هي ٢٥٩) .

سواحل افرنجة المطللة على المحيط الى سواحل جليقية، بقصد ترقب وصول السفن النورمانية الى مياه الاندلس . ويذكر ابن الكردبوس ان الامير محمد انشأ في البحر سبعانة غراب . وأن جيش المسلمين انتهى في أيامه الى مائة الف فارس (١) .

وبدأ النورمان غارتهم بالهجوم على الساحل الجليقي . ولأنهم انهزموا سريعا ، وارتدوا من هناك متجهين الى الجنوب (٢) . ويجمع مؤرخو العرب على أن النورمان خرجوا الى ساحل البحر بغرب الاندلس في سنة ٢٤٥ هـ . ويذكر ابن عذاري أن أسطولهم كان يتكون من ٦٢ مركبا (٣) . بينما يذكر العذري أنه كان يتكون من ثمانين مركبا (٤) . ويروى ابن عذاري أيضا ان النورمان « وجدوا البحر محروسا ومراكب المسلمين معدة تجري من حائط افرنجة الى حائط جليقية في الغرب الاقصى ، فتقدم مركبان من مراكب المجوس ، فتلاقت بهم المراكب المعدة فوافوا هذين المركبين في بعض كور باجة فأخذوها بسا فيها من الذهب والفضة والسبي والعدة » (٥) ، أما بقية مراكب النورمان فقد نجحت في الاتجاه مع الساحل الغربي للاندلس جنوبا حتى وصلت الى مصب نهر الوادي الكبير . وكانت وجهتها مدينة اشيلية . ولكن الامير محمد كان قد تأهب لمقابلتهم ، واستعد لصد غارتهم ، اذ كان قد حشد لهم الجيوش . وجسع لهم المطوعة من أهل الاندلس ، وقود على عسكره عيسى بن الحسن الحاجب (٦) ، وتلقاهم المسلمون عند مدخل نهر اشيلية فهزموهم .

(١) ابن الكردبوس ، ص ٥٧ - ابن دينار الفيرواني ، ص ٩١

(٢) Lévi - Provençal, Hist. t. I. P. 310

(٣) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ص ١٤٥

(٤) العذري ، ص ١١٨

(٥) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤٥

(٦) العذري ، ص ١١٨ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤٥

وتسكنوا من الاستيلاء على عدة مراكب من مراكبهم^(١) . ولكن النورمان تجنبوا الاشتباك بعد ذلك مع المسلمين . وواصلوا السير بحذاء الساحل بغية البحث عن منفذ يتسللون منه الى مدن الاندلس ، ووجدوا بغيتهم في الجزيرة الخضراء ، فتغلبوا عليها ودخلوها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وركزوا فيه راياتهم ، فنسب الجامع الى تلك الرايات^(٢) . والظاهر أنهم قبلوا بمقاومة شديدة أرغتهم على الانسحاب سريعا ، ويبدو أن النورمان عبدوا الى اصطناع الحيلة ، فتظاهروا بالعدول عن مهاجمة سواحل الاندلس حتى يكف المسلمون عن مطاردتهم ، والاستعداد لمواجهتهم . ثم يباغتون السواحل الاندلسية بعد ذلك بالهجوم ، فيخلو لهم الجو لنهب هذه السواحل ، فجازوا الى العدو واستباحوا أريافها^(٣) ، ونزلوا في نفس السنة بنكور « فتغلبوا عليها واتهبوها وسبوا من فيها الا من خلصه الفرار . وكان فيسن سبوا أمة الرحمن وجنوعة ابتنا واقف ابن المعتصم بن صالح ، فقدها ابن الامام محمد بن عبد الرحمن ، وأقامت المجوس بمدينة نكور ثمانية أيام »^(٤) . ثم جازت سفن النورمان الى ساحل تدمير (قرطاجنة الخلفاء) وهزموا أهلها ، اذ لم يكن أهل تدمير يتوقعون طروقهم بلدهم . وتوغل النورمان في داخل اقليم تدمير حتى انتهوا الى حصن أوريوالة . ولكنهم لم يتسكنوا من الظفر بشيء ، فعادوا الى سفنهم . واتجهوا شمالا الى « حائط افرنجة » أي الى ساحل فرنسا الجنوبي فقضوا هناك فصل الشتاء ، « وأصابوا بها الذراري والاموال حتى انصرفوا الى ريف بحر الاندلس وقد ذهب من مراكبهم أكثر من

(١) ابن الفوطي ، ص ٦٧

(٢) الحميري ، ص ٧٢ ، ٧٥ . وقد رمم هذا الجامع بعد ذلك ، وأقيم له باب من

خشب سفنهم

(٣) ابن عذاري ، ص ١٤٥

(٤) البكري ، ص ٩٢ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٤٧

أربعين مركبا « (١) . وتؤكد المصادر الفرنسية واللاتينية القديمة الرواية العربية . فتشير الى أن النورمان أشتوا في جزيرة كاماريا الواقعة جنوبي نهر الرون . كما تشير الى أنهم أغاروا على سواحل إيطاليا وغسوا غنائم كثيرة . ثم تعرضت سفنهم لعاصفة عاتية فغرق منها نحو أربعين سفينة (٢) . ويبدو أن النورمان انحدروا بعد انتهاء فصل الشتاء جنوبا نحو الساحل الشرقي من الاندلس ، وأغاروا على جزر البليار (٣) . وفي هذه الاثناء كانت سفن المسلمين قد استدارت مع الساحل الاندلسي قادمة من السواحل الغربية الى الساحل الشرقي . وكان يتولى قيادة السفن الاندلسية قائدان هما سبش بن كشوح وخشخاش البحري . فلاقتهما سفن المسلمين بريف شذونة ، فأصاب المسلمون من مراكب النورمان مركبين فيها الاموال العظيمة ، نفلها الله المسلمين : « ثم صدمهم خشخاش وابن كشوح فأحرقا مركبين ... للسجوس بجيعة ما كان فيها . فحسى الكفرة عند ذلك حتى استشهد خشخاش وقوم من المسلمين معه » (٤) .

ثم مضت بقية مراكب النورمان شمالا ، وصعدت في وادي ابرو او وادي بيداساو ، وتقدم بعضها الى بنبلونة ، ولم يستطع ملك نبرة (نقارا) جرثية انيجث Garcia Iniguez المعروف في المصادر العربية باسم غرسية ابن وثقة (٥) أو غرسية الفرنجي (٦) أن يدافع النورمان ، فانهزم . ووقع أسيرا ، واقتدى منهم بسبعين ألف دينار دراهم . وارتهن في بعضها

(١) العذري ، ص ١١٩ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤٥ - النويري ، نهاية الارب ،

ج ٢٢ ص ٢٦

(٢) حسين مؤنس ، ص ٧١

(٣) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 311

(٤) العذري ، ص ١١٩ - ابن عذاري ج ٢ ص ١٤٦ - النويري ، نهاية الارب ، ص ٢٦

(٥) العذري ، ص ١١٩

(٦) النويري ، نهاية الارب ، ص ٢٦

أولاده^(١) . كذلك وقع في أسر النورمان من المسلمين بياجة عبدالله وعبد الملك ابنا محمد بن مسلمة ، فأطلق النورمان منها عبدالله ، واستبقوا أخاه عبد الملك ، كما وقع في أسرهم سعدون بن قنح السرباقي الثائر في أيام الأمير عبدالله ، عند مهاجتهم للساحل الغربي ، ففداه منهم بعض تجار اليهود^(٢) .

ولم تنته غارة النورمان عند هذا الحد ، فقد ظهرت مراكبهم في البحر عند الجزيرة الخضراء في سنة ٢٤٧ هـ ، فكتب الأمير الى عبال الساحل بالاحتراس والتحفظ ، فعطب بعض هذه السفن في ناحية البحيرة من الجزيرة الخضراء ، ونجت بقية سفنهم ، فسُفست الى ناحية افرنجة^(٣) .

وواصل الأمير محمد عنايته بالبحرية الاندلسية بعد غارة النورمان ، ويبدو أنه أنشأ دارا للانشاء في قرطبة استنتاجا مما رواه ابن عذاري في حوادث سنة ٢٦٦ هـ اذ يقول : « وفيها أمر الأمير محمد بانشاء المراكب بقرطبة ليتوجه بها الى البحر المحيط الرعيطي المعروف بابن مغيث ، وكان قد رفع اليه رافع أن جليقية من ناحية البحر المحيط لا سور لها ، وأن أهلها لا يستنعمون من جيش ان غشيتهم من تلك الناحية »^(٤) . ولكن هذه السفن ما كادت تدخل البحر المحيط حتى تعرضت لعاصفة عاتية فرققتها ، ولم يجتمع بعضها الى بعض ، واختفت ، ولم يعد منها الا اليسير . وسيواصل أمراء الاندلس بعد ذلك عنايتهم بالبحرية ، وستسود

(١) العنري ، ص ١١٩ . وذكر النويري انه فدى نفسه بتسعين ألف دينار ، والظاهر أن النويري أخطأ في النقل ، فقرأ الرقم ٧ تسعا ، وهو امر شائع كثيرا ما يحدث في النقل عند النسخ (راجع أمثلة هذا الخطأ في النقل لرقمي ٧ ، ٩ ، في كتاب المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٥٠١) .

(٢) ابن حيان ، القسم الثالث ، نشره ملشور انطونية ، ص ٢٣ - العنري ، ص ١١٩

(٣) العنري ، ص ١١٩

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٥٥ - النويري ، المصدر السابق ص ٢٧

البحرية الاسلامية في حوض البحر المتوسط الغربي في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر .

د - دور البحرين في تصير بجانة في ختام القرن الرابع الهجري .

كنا قد أشرنا فيما سبق الى أن البحرين الاندلسيين كانوا ينزلون في مرسى أشكوبرس القديم قبل أن ينزلوا مرية بجانة ، وأنهم نزلوا هذا الموضع وتغلبوا عليه ، واستوطنوه بعد انتقالهم من تنس الحديثة التي أسسوها على ساحل المغرب الاوسط . وكان يسكن اقليم بجانة قبل أن ينزلها البحرىون جساعة من عرب اليمن هم بنو سراج من قضاة . فرأى الامير عبد الرحمن الاوسط ، بعد غزوة النورمان الاولى ، ان يكل الى هؤلاء الينية بحراسة ساحل بجانة من غارات النورمان المقبلة . فأنزل جساعة منهم ببجانة لاتخاذها دار رباط ، وعهد اليهم بحراسة « ما يليهم من البحر وحفظ الساحل » (١) . وفي مقابل ذلك تمتع هؤلاء الينيون باستقلال جزئي ، كما أصبح لهم الحق في استغلال وادي آش الذي كان يعرف أيضا بوادي بجانة ، ومنذ ذلك الحين أطلق على هذا الاقليم اسم « أرش الين » اي عطية الينية ، وان كان الاستاذ توريس بلباس يؤكد أن أرش كلمة معربة من اورسي Urci المركز العمراني القديم لبجانة (٢) ، استنادا الى أن Urci اسم ذكره بطليوس كما ذكره المؤرخ الروماني ميلا ، وحدده في نفس موضع المرية الحالية (٣) بينما حدده بلباس على الساحل (٤) .

(١) الحميري ، ص ٢٧

Torres Balbàs, Almeria Islamica, p. 418 (٢)

Antonio Garcia y Bellido, La España del siglo primero de nuestra Era, según p. Mela y C. Plinio, colección Austral, Madrid, 1947, p. 31,51

Ibid. P. 130,130 (٤)

ثم آلت رئاسة اقليم بجانة أو أرش الين الى عمر بن أسود الذي يرجع اليه الفضل في تصير اقليم بجانة . وظل بنو سراج القضاة يتولون حراسة ما يليهم من البحر . وأقاموا لذلك الغرض برجا للحراسة بالقرب من مصب وادي بجانة فوق المرتفع الذي تقوم عليه اليوم قبة المرية باعتبار أن هذا المرتفع اصلح المواقع لهذا الغرض . وسوا هذا المحرس باسم مرية بجانة . وتوالى انشاء المحارس بصرية بجانة ، وبالتدريج أخذ الناس يتجمعونها ، ويرابطون فيها ^(١) عندما قام النورمانيون بالاغارة على السواحل الاندلسية المغربية في سنة ٢٤٥ هـ .

وفي سنة ٢٧١ هـ اجتذبت المدينة الرومانية القديمة Urci . بعيونها وبساتينها وموقعها الاستراتيجي أنظار البحريين الاندلسيين ، فنزلوها بعد أن اتفقوا في ذلك مع عرب أرش الين ، وتباحثوا معهم في اقامة ما يشبه بالجمهورية البحرية تضم أرش الين ومراسيه ومحارسه لمواجهة اي اعتداء بحري على هذه السواحل . ثم تغلب البحريون بالتدريج وأصبح لهم الامر في بجانة ^(٢) . ثم حوطوا حاراتها وضياعها بسور ، ويبدو أن هذا السور أقيم بعد سنة ٢٧٧ هـ ، وهي السنة التي قدمت فيها قوات سعيد بن سليمان بن جودي ، سيد عرب البيرة، لمهاجمة البحريين فيها ، وكانت بجانة « مدربة لم يضرب بعد عليها سور » ^(٣) . واهتم البحريون بتصير بجانة وتعميرها ، واتخذوا من قرطبة أنموذجا اتخذوه في بجانة ، « فامتثلوا في ذلك بنية قرطبة وترتيبها ، وجعلوا على أحد أبوابها صورة تشاكل الصورة التي على باب القنطرة » ^(٤) . ومن المعروف أنه كان

(١) الحميري ، ص ١٨٢

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، القسم الذي نشره الاب مشور ، ص ٨٩ . والمقصود بمدربة انها كانت تتألف من دروب وحارات .

(٤) الحميري ، ص ٢٨

يعلو هذا الباب القربلي تشال للعدراء ^(١) ، ويستتج الاستاذ ليهم بروفنسال من ذلك ان بجانة كانت تضم جباة من البحرين النصارى . وأنهم أقاموا لهم كنيسة ^(٢) . ولكن استتاجه لا يخلو من مبالغه . فليس من الضروري أن يكون ذلك دليلا على أن المدينة المحدثه كانت تضم جباة من البحرين النصارى ، وأنهم أقاموا كنيسة لهم ، فقد يكون هذا التشال المنسوب على باب بجانة مجرد تقليد للتشال المنسوب على باب القنطرة بمدينة قرطبة امعانا في تقليد هذه الحاضرة . كما يشير الحيري . ومن الجدير بالذكر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر عندما انتهى من تسوير مدينة الزهراء ، أقام تشالا على بابها الرئيسي المعروف بالزهراء ، وكان يشل الزهراء جارية الخليفة الاثيرة لديه ^(٣) وان كنت أعتقد أن هذا التشال لم يكن قد صنع خصيصا لتلك الجارية وأنه لا يعدو أن يكون تشالا رومانيا قديما من جيلة التناثيل العديدة التي شاهدها المسلمون في خرائب طالقة Italica المجاورة لاشبيلية أو ماردة أو اشبيلية ، فنصبوه على أحد أبواب مدينة الزهراء تقليدا للتشال القائم على باب القنطرة بقرطبة . ولعله كان تشالا لفينوس التي تشل كوكب الزهرة ، فحرفت هذه اللفظة الى الزهراء . ولا نشك في أن التشال الذي كان قائما على أحد أبواب بجانة كان يشل امرأة ، شأنه في ذلك شأن تشال الزهراء ، وأنه وضع في هذا الموضع تقليدا لتشال العدراء الذي كان يقوم على باب القنطرة بقرطبة ، والمسماى أيضا بباب الصورة ^(٤) وباب

(١) ابن عذاري ، ج ٣ ص ١٤ . يقول ابن عذاري : « وهي العدراء صاحبة قرطبة التي أودع أقادم حكماتهم صورتها فوق باب مدينتها القبلى وهو باب القنطرة »

(٢) Lévi - Provençal Histoire, t. I, p. 352

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٦٥

(٤) أخبار مجموعة ، ص ١١ . وقد ظلت الصورة قائمة على باب قرطبة الى أن قذفها الثائر عمر بن حفصون برمحه أثناء احدى غاراته على قرطبة ، فاصابها ، في بداية عهد الامر عبدالله . (راجع أخبار مجموعة ص ١٥١)

الشكال^(١) (أي الاشكال) • ولا تنع هذه المناقشة من وجود بعض البحرينى النصارى ببجانة ، فان بجانة كانت تحتفظ برفات سان اندالثو ، ويؤكد سىونى Simone أن بجانة كانت تضم كنيسة صغيرة فى العصر الاسلامى^(٢) •

تولى رئاسة البحرين ببجانة امير منهم يسمى عبد الرزاق بن عيسى فى عهد الامير عبدالله الذى منح أهل بجانة من البحرين والعرب الحق فى توسيع رقعة بلدهم بضم القرى والحصون المجاورة مثل حصن الحبة والخاية وبنى طارق فى الغرب وحصن ناشر فى الشرق ، وحصن برشانة المنيع فى الشمال^(٣) • وكان لاحد كبار البحرين ببجانة وهو سعيد بن اسود ولد يدعى خشخاش ، لا نشك فى أنه هو الذى كان قد تصدى للنورمان عند شذونة ، وسيرد اسه عند حديثنا عن المغامرين فى بحر الظلمات •

وقد لعب البحرىون ببجانة فى عهد الامير عبدالله دورا هاما فى مواجهة غارة بحرية خطيرة قام بها شنير Sunier II قومس أنبورس Comte d'Ampurias بقطلوونية، فقد انتهز هذا القومس فرصة مهاجمة عرب البيرة لبجانة ، وقدم فى خمسة عشر مركبا أرفأت بساحل المرية فرضة بجانة ، وأحرق عددا كبيرا من السفن الاسلامية الراسية فى خليج المرية ، وعزم على التقدم الى بجانة لنهب المدينة ، ويبدو أنه اصطدم بجعاة من المسلمين القائسين بالمرابطة فى المحرس ، وقتل أحد أعلامهم وهو خلف

(١) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٥٦ ، ٨٩ (تحقيق الاستاذ ليلى بروفنسال)

(٢) Francisco Javier Simont, Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897 - 1903, p. 132

(٣) ابن حيان ، المقنيس ، تحقيق الاب ملشور ، ص ٥٣

ابن زهري في منطقة الحوض ، فخرج جميع البحرين من بجانة ليلا ،
فلما أشرفوا على المرية اشتبكوا مع القطلانيين في معركة انتهت بانسحاب
هؤلاء ، ودعوا الى الصلح ، فأجابهم البحرىون الى ذلك ، وتم الصلح
على يدي عبد الرحمن بن مطرف الحاج صاحبهم ، وانصرف شنير
عنهم بسفنه ^(١) .

(١) ابن حيان ، طبعة منشور انطونية ، ص ٨٩ - Lvéi - Provençal, t. I, p. 354

البحرية الأندلسية في أوج قوتها في القرن الرابع الهجري

أ - عناية عبد الرحمن الناصر بالأساطيل :

عندما بويغ الأمير عبد الرحمن بن محمد - الذي تلقب بالناصر لدين الله فيما بعد - بالامارة في مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هـ ، كانت الاندلس جيرة تحتم بالثورات ، ونارا تضطرم بالفتن ، في الوقت الذي تطلع فيه عبيد الله المهدي اول خلفاء الدولة الفاطمية بنظره نحو الاندلس ، فأرسل دعااته وعيونه اليها لتسهيل البلاد الاندلسية قبل فتحها لتقبل المذهب الاسعائيلي ، وللاستطلاع أحوالها ، وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها ^(١) . وكان من الطبيعي أن يبدأ الأمير عبد الرحمن بتدعيم الجبهة الداخلية قبل أن يواجه الخطر الفاطمي المائل في جنوب الاندلس ، وخطر الممالك المسيحية في شمالها ، وكانت أعظم المشاكل الداخلية التي واجهته ثورة عمر بن حفصون، امام الثوار في الاندلس وقدوتهم، وأعلامهم ذكرا ، وأشدهم سلطانا ، وكان قد تحصن في مدينة بيشتر من كورة رية ، وأطاعته أكبر مدن وسط الاندلس الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة ، والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى ^(٢) . ويبدو أن عمر بن حفصون كان يسعى للاطاحة بدولة بني أمية والاستئثار بولايتها في ظل الخلافة العباسية ، ففي عهد الأمير عبدالله ، أظهر الميل الى الدعوة

(١) محمود علي مكي ، التشيع في الاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية

بمريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ص ١١٢

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وأثارهم في الاندلس ، ص ٢٨٢

العباسية ، وكاتب ابراهيم بن أحمد الاغلبى أمير افريقية وأخبره بأنه يعمل لبني العباس ، ولاطقه بالهدايا ، فأجابه الأمير الاغلبى ، ورد على هديته بهدية (١) فلما سقطت دولة الاغالبة وقامت الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٦ هـ ، انفصل بالمهدي ورغبة في ضسها اليه ، ويبدو أن المهدي وعده بالنصرة ، فقد وصلته بالفعل مراكب في البحر رست في سنة ٣٠١ هـ بالساحل الجنوبي من الاندلس ، كانت تسيره من العدو . وكان لا بد للأمير الاموي أن يبادر بقطع الاتصال بين الثائر ابن حفصون وبين عملائه في المغرب . فشرع الأمير عبد الرحمن في حرق هذه السفن (٢) . وفي العام التالي وصل عبد الرحمن الى الجزيرة الخضراء « وضبط البحر ونظر في أساطيله ، واستكثر منها ، ومنع ابن حفصون من البحر » (٣) . وأغلب الظن أنه وزع أسطوله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الاندلس حتى يمنع وصول الامدادات من القيروان الى عر بن حفصون (٤) .

ومنذ ذلك الحين بدأ عبد الرحمن بن محمد أمير قرطبة يهتم اهتماما جديا بالاساطيل البحرية ، فعمل على انشاء أسطول قوى يدفع به عن الاندلس الاخطار الخارجية التي تتعرض لها بسبب الغزو الفاطمي المرتقب وغارات النورمان على السواء ، وينازع بهذا الاسطول السيادة الفاطمية في حوض البحر المتوسط الغربي . ويذكر ابن خلدون أن أسطول الاندلس انتهى في أيامه « الى مائتي مركب أو نحوها وأسطول افريقية

(١) ابن حيان ، طبعة ملتسور انطونية ، ص ٩٣

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٤٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٢

(٤) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمطرد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ ص ٢٠٦ - السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٦١٠

كذلك مثله أو قريباً منه » (١) ونعتقد أن المقصود بهذا العدد السفن الحربية الغزوانية المخصصة للقتال . وكان يتولى قيادة هذا الاسطول القائد محمد بن رماحس (٢) .

ويعتبر عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقي للاسطول الاندلسي، فقد نشطت حركة الانشاء وصناعة السفن في عهده الى حد أنه أنشأ لهذا الغرض عددا كبيرا من دور الصناعة في مدن الاندلس مثل المرية وطرطوشة (٣) ، والجزيرة الخضراء (٤) ، ومالقة ، ولقنت (٥) ، وشلب (٦) وقصر أبي دانس بالبرتغال ، ودانية (٧) ، ومدينة الزهراء (٨) ، وشنتمة

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩

(٢) يبدو أنه كان ولدا للرماحس بن عبد العزيز الكناني أحد فواد جند مصر زمن مروان ابن محمد ، ثم شق عصا الطاعة عليه وخالف مروان في جمع من القيسيين في الحوف الشرقي ، وانتهى به الامر بأن نفى من مصر . (الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٩٤) ، ثم مضى الى الاندلس ، واشترك في الصراع القائم بين القيسية واليمانية ، ويظهر أنه كان من مؤيدي الامير عبد الرحمن الداخل ، فولاه الجزيرة الخضراء ، ولكنه تأمر مع بعض الثوار ضد الامير في سنة ١٦٤ هـ ، فحاربه الامير وهزمه ، ففر الرماحس الى الشرق (تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٠٢) .

(٣) ما زالت اللوحة التذكارية التي سجل فيها الناصر انشاء دار صناعة طرطوشة في سنة ٢٢٢ هـ مثبتة على الجدار الشمالي من كاتدرائية طرطوشة (راجع Lévi - provençal Inscriptions Arabes d'Espagne) وكانت المراكب الكبار تصنع فيها من خشب جبالها الصنوبري المعروف بطوله وغلظه وصفاء بشرته ودسامته بحيث لا يفعل فيه السوس ما يفعله بغيره ، ومنه كانت تتخذ الصواري والقرى (الادريسي ، ص ١٩٠ - الحميري ، ص ١٢٤) (٤) ذكر الحميري أن عبد الرحمن الناصر هو الذي أسس دار صناعة الجزيرة وأتقن بناءها وعلى أسوارها ، كما ذكر أن هذه الدار اتخذت في زمن الفتنة قسرا (الحميري ، ص ٧٢)

(٥) كانت تنشأ في هذه الدار المراكب السفرية والحراريق (الادريسي ، ص ١٩٣)

(٦) اشتهرت شلب بخشب جبالها الذي تصنع منه السفن (الادريسي ، ص ١٨٠)

(٧) كانت دانية دار انشاء للسفن وقاعدة حربية للاساطيل (الادريسي ، ص ١٩٢ -

الحميري ، ص ٧٦)

(٨) كانت دار صناعة الزهراء مخصصة لصناعة آلات السلاح للحرب (المقرئ ، نفع

الطيب ، ج ٢ ص ١١٢) .

بالبرتغال ^(١) . واستخدم لذلك أخشاب الصنوبر التي تنبت في طرطوشة لجودتها وصلاحياتها للانشاء . وما ان تهيأ له اعداد أسطول ضخم حتى بدأ يتحرش بالفاطيين ويناولهم . وبادر في سنة ٣١٤ هـ بالاستيلاء على ملنجة ومليلة . وفي سنة ٣١٩ هـ على سبتة ، وبذلك أصبح يستلك معبري الاندلس ، ثم شك سبتة بالرجال ، وجعلها مفتاحا للغرب والعدوة من الاندلس . وفي هذا العام أرسل أسطوله بقيادة أحمد بن محمد بن الياس ويونس بن سعيد قائديه في البحر « في عدة ومراكب جيلة ورجال كثير ومنوف من البحريين والمقاتلين ، فجازا مرسى الجزيرة ، واحتلوا العدو وحاصروا ابن ابي العيش » ^(٢) . ويبدو أن عبد الرحمن بن محمد هو الذي أمر بتأسيس دار الصناعة بطنجة التي أشار إليها الادريسي ^(٣) ودار صناعة قصر مصودة القريبة من سبتة ، وكانت تنشأ فيها المراكب والحراريق التي يسافر فيها الى بلاد الاندلس ^(٤) .

وفي سنة ٣٢٠ هـ طلب موسى بن أبي العافية ، أمير فاس من قبل عبد الرحمن الناصر ، منه ان يساعده في افتتاح جزيرة أرشقول ، فرضة تلسان ، فاستجاب عبد الرحمن لرغبته . وأمر أهل بجانة وغيرهم من أهل السواحل بأعداد خمسة عشر مركبا حربية ، مجهزة بالرجال والسلاح ، لمحاصرة جزيرة أرشقول التي لجأ إليها الحسن بن عيسى بن أبي العيش ، وقد حاصرت هذه السفن الجزيرة المذكورة فترة من الوقت ، ثم عادت الى مرية بجانة في شهر رمضان سنة ٣٢٠ هـ ^(٥) . وفي سنة ٣٣٣ هـ غزا محمد بن

(١) كانت السفن فيها تصنع من اشجار الصنوبر التي تنبت في جزائر تقع تجاهها

(الادريسي ص ١١٥)

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ص ٢٠٨

(٣) الادريسي ، ص ١٦٨

(٤) نفس المصدر

(٥) البكري ، ص ٧٨

رماحس على الاسطول الى بني محمد بالعدوة ، وكان عدد السفن الاندلسية الغازية ١٥ مركبا حربية وشينيين وفتاش ^(١) . وفي العام التالي غزا محمد بن رماحس قائدا على الاسطول الى افريقية من المرية ^(٢) . ومنذ ذلك الحين أخذت اساطيل الاندلس تسدد ضرباتها الى مستلكات الفاطسيين في المغرب ، ولم يلبث النزاع بين الفاطسيين في المغرب والامويين في الاندلس أن تطور الى صدام بحري مسلح ، ففي سنة ٣٤٤ هـ أمر عبد الرحمن الناصر بانشاء مركب كبير لم يعمل مثله في دار الصناعة بالمرية . وسير فيه أمتعة الى بلاد المشرق ، فلقى في البحر مركبا يحصل رسولا من الحسين بن علي أمير صقلية الى المعز لدين الله الفاطسي . فقطع عليه بحريو المركب الاندلسي طريقه . واستولوا على ما فيه . كما استولوا على الكتب التي أرسلها الحسين بن علي الى المعز . فلما بلغ المعز ذلك عسر اسطولا بقيادة الحسين بن علي صاحب صقلية . وسيره الى الاندلس . فهاجم الاسطول الفاطسي مدينة المرية في نفس السنة . ودخل المهاجمون مرسى المرية . وأحرقوا جميع ما فيه من السفن ، واستولوا على المركب الاندلسي الكبير . وكان قد عاد من الاسكندرية مشحونا بأمتعة للخليفة عبد الرحمن وجوار ومغنيات . ثم دخلوا المدينة . وقتلوا ونهبوا وعادوا سالمين الى المهدية ^(٣) . وكان رد الفعل الاندلسي على هذه الغارة البحرية شديدا ، فقد هاجم الاسطول الاندلسي بقيادة أمير البحر غالب سواحل افريقية في العام التالي (٣٤٥ هـ) في ستين سفينة ، وكان مرسى الخرز وساحل سوسة هدفي هذه الغارة ^(٤) . وفي أول المحرم سنة

(١) العنري ، ص ٨٢

(٢) نفس المصدر

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٢ ، ص ١٢٧

(٤) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ، ص ٢١٨ - Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 108 - Torres Balbas, Atarazanas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1946, p. 180

البحرية الاسلامية (١٢)

٣٤٧ هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بساحب شرطة القائد أحمد بن يعلي بالخروج غازيا في الاسطول الى سواحل افريقية •

ولم يكتف الناصر بغزو خصومه المسلمين في العدو و افريقية ، بل وجه أساطيله الى قطلونية وفرنجة للغزو ، ففي سنة ٣٢٨ هـ خرج محمد ابن رماحس في حريتين برجالها من أهل مرية بجانة الى طرطوشة ، وركب من هناك في عشرة مراكب حربية وأربعة شواني وفتاشين بالاضافة الى حريتي المرية ، مبحرا الى أنبوريش . فبلغ رأس الصليب على طرف جونها . ثم عاد الى طرطوشة عن طريق برشلونة بعد انتهائه من مهسته (١) .

وفي سنة ٣٣١ هـ غزا محمد بن رماحس مع غالب بن عبد الرحمن وسهيل بن أسيد الى افرنجة في ثلاثين مركبا حربية وستة شواني . فخرج من مرية بجانة في ١٣ من شوال ، ولكن سفنه تعرضت لعاصفة عاتية ، فتفرقت قطع اسطوله ، وتلوم بسرسي القبطة بالمرية . اما القائدان غالب وسهل فقد لجئا الى ساحل منبسط . فغنما بها ثم عادا الى المرية (٢) .

ب — قيام المرية قاعدة أسطول الاندلس :

ظلت بجانة تحتفظ بسكاتها طوال النصف الاول من القرن الرابع الهجري . ولكنها أخذت تفقد بالتدريج من أهيتها أمام مريتها التي ارتفعت مكاتها منذ ان امر الخليفة عبد الرحمن الناصر ببنائها وتصويرها سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) . ولم تلبث المرية أن أصبحت من اشهر مراسي الاندلس وأكثرها عرانا . واتسعت رقعتها . ونسا عمرانها . وأصبحت هي وبجانة على حد قول ياقوت الحوي « بابي المشرق » منها يركب التجار

(١) المعري ، ص ٨١

(٢) نفس المصدر

وفيها تجل مراكب التجار وفيها مرفأ ومرسى لسفن والمراكب « (١) .
وبازدهار المرية وتآلقها اضمحلت بجانة ، وأصبحت في طليعة القرن الخامس
الهجري مجرد قرية ، في الوقت الذي ارتفعت المرية الى مصاف الحواضر ،
ويعبر ابن سعيد المغربي عن اضمحلال بجانة بقوله : « كانت محرس
المسلكة الى أن ضعفت . وعظمت المرية ، فصارت تابعة » (٢) .

وأصبحت المرية اهم موانيء الاندلس في القرن الرابع الهجري
واشهر مراسيها وأعسرها ، وكان خليجها العميق الفسيح يضم معظم
وحدات الاسطول الاندلسي (٣) . فكانت المرية مرفأ أساطيل الاندلس ،
وكانت دار الصناعة بالمرية تقوم بإنشاء السفن والعدة والآلات اللازمة
للسفن وما يقوم به الاسطول (٤) . وكانت هذه الدار تنقسم الى قسمين
متميزين : قسم تصنع فيه المراكب الحربية والآلات والعدد ، والثاني يضم
القيسارية ، قد رتب كل صناعة منها حسب ما يشكل لها (٥) ، وكان
يحصن دار الصناعة برج يقوم على بابها (٦) ، مهتة تدعيم أسوارها والدفاع
عنها في حالة اقتحام الأعداء لشجر المرية .

وكان لقائد أسطول المرية في عصر الخلافة أهمية خاصة ، وقد
أشار صاحب كتاب « الازهار المشورة في الاخبار المأثورة » الى أهمية
منصب قائد اسطول المرية في الدولة الاموية ، فذكر أن أكثر شؤون

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١١٩

(٢) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ١٩٠

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المرية قاعدة الاسطول الاندلسي ، مجلة الرابطة ،

ص ٧٨

(٤) ابن غالب ، قطعة من فرحة الانفس ، ص ١٤

(٥) المعنري ، ص ٨٦

(٦) نفس المصدر ، ص ٨٣

الخلافاء الامويين اھسية لم يكن يقطع فيها برأى دون الرجوع الى ثلاث شخصيات : الاول قائد جيش سرقسطة حاضرة الثغر الاعلى لاهسية موقعها . والثاني قاضي قرطبة . والثالث قائد أسطول المرية (١) .

ويرجع سر اختيار الخليفة عبد الرحمن الناصر لهذه المدينة لتكون مرفئا لاساطيل الاندلس وقاعدة للحط والاقلاع الى حصانتها من جهة البر . وكثرة حصونها المتوزعة حولها . مثل قصبة المرية المعروفة بقلعة خيران . وحصن برجة الواقع في الجنوب الغربي من المرية في واد شديد الخصب . وحصن شنش الواقع على مرحلة منها . وحصن القبطة ويقع الى الجنوب الشرقي من خليجها . كل ذلك ساعد على تدعيم نظامها الدفاعي وزيادة منعتها . والحصانة والمنعة شرط من الشروط اللازم توافرها في المدن الساحلية في رأي ابن خلدون (٢) . وبالإضافة الى هذا الشرط تستاز المرية بتوافر شرط آخر وهو ان تقع المدينة الاسلامية بالقرب من نهر أو أن يكون بازائها عيون عذبة . والمرية تقع على مصب نهر صغير هو وادي بجانة . والى جانب هذه المزايا التي اختصت بها المرية . كان خليجها شديد الاتساع والعق بحيث يسكنه ان يضم عددا كبيرا من السفن . بالإضافة الى أنه كان يستاز بهدوء مياهه وقلة أمواجه .

والى جانب الاهسية الاستراتيجية للمرية كقاعدة لاسطول الاندلس الحربي ، اكنسبت المرية منذ قيامها كميناء ومرسى ، شهرة كبرى في التجارة العالمية ، وقد عرفت بأنها باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق (٣) ، على الرغم من قلة خيرات اقليسها . واعتسداها على ما كان يجلب اليها من

Lévi-Provençal, L' Espagne musulmane au Xe siècle, pp. (١)
85, 86.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة

(٣) ابن غالب ، ص ١٤ - ابن سعيد ، ج ٢ ص ١٩٢

ساحل العدو من ميرة وأقوات ، والسبب في شهرتها التجارية يرجع الى أنها كانت محط السفن القادمة من المشرق الاسلامي والاقطار الاوروبية . وكانت مراكز التجار تصل اليها من الاسكندرية والشام كله (١) ، ولم يكن بالاندلس كلها أيسر مالا من أهلها ، ولا أتعبر منهم في الصناعات وأصناف التجارة تصريفا وادخارا ، وقد حافظت المرية على هذه الشهرة التجارية في العصور الاسلامية التالية .

ج - غارة النورمان الثالثة في عامي ٣٥٥ هـ ، ٣٦٠ هـ وفشلها :

في سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) عمل ريتشارد الاول ، حفيد رويون النورماني ، ودوق نورمانديا على توجيه النورمان الدانين الى الاندلس ، بقصد تخليص بلاده منهم . وكانت قطع الاسطول الاندلسي قد زادت في عهد عبد الرحمن الناصر من مائتي سفينة الى ثلثائة (٢) ، ثم تضاعف عدد سفنه في بداية خلافة الحكم المستنصر الى ستائة جفن بين غزوي وغيره (٣) . وكانت معظم وحدات الاسطول ترابط في القاعدة الرئيسية بالمرية لمواجهة الخطر الفاطمي الذي كان ما يزال ماثلا . في حين كانت اشبيلية مقرا للاسطول المرابط على سواحل المحيط . ولقد عمل الحكم المستنصر منذ توليه الخلافة على تدعيم قاعدة المرية . ففي سنة ٣٥٣ هـ انتقل بنفسه اليها لتوقعه غزوا فاطميا ، ولمعينة ما استكله بها من الحصانة وتفقد رابطة القبضة (٤) . ويذكر ابن عذاري أنه في أول رجب سنة ٣٥٥ هـ قدمت سفن النورمان الى مياه غرب الاندلس ، ففي هذا

(١) الادريسي ، ص ١٩٧ ، ١٩٨

(٢) ابن الخطيب ، الاطحة في أخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ،

ج ١ ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٨٧ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٤٢

(٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٥٢

اليوم » ورد كتاب من قصر أبي دانس على المستنصر بالله يذكر فيه ظهور أسطول المجوس بحر الغرب بقرب هذا المكان ، واضطراب أهل ذلك الساحل كله لذلك ، لتقدم عادتهم بطروق الاندلس من قبله فيسلف ، وكانوا في ثمانية وعشرين مركبا . ثم تبادلت الكتب من تلك السواحل بأخبارهم ، وأنهم قد أضروا بها ووصلوا الى بسيط أشبونة . فخرج اليهم المسلمون . ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين . وخرج اسطول اشبيلية فافتحسوا عليهم بوادي شلب . وحطوا عدة من مراكبهم ، واستنقذوا من كان فيها من المسلمين ، وقتلوا جللة من المشركين ، وانهزموا اثر ذلك خاسرين « (١) . وبعد هذه المعركة البحرية التي انتصر فيها الاسطول الاندلسي في الغرب عاد هذا الاسطول الى قاعدته اشبيلية ، أما النورمان فقد انصرفوا من ساحل الغرب مخذولين ، منهزمين .

ويبدو أن سفن النورمان كانت تتناز بزايا خاصة كالسرعة في الحركة ، مما دعا الخليفة المستنصر بالله الى اصدار الامر لابن قطيس بانشاء أسطول في اشبيلية على هيئة مراكب النورمان اذ كان يتوقع ملوqهم لسواحل الغرب . وقد صح ما توقعه الخليفة المستنصر بالله ، فلم تكد تنضي خمس سنوات على معركة وادي شلب حتى ظهرت سفن النورمان في مياه الاندلس الغربية . ويروى ابن حيان أنه في « صدر رمضان (سنة ٣٦٠ هـ) منها وقع الارجاج بتحرك المجوس الاردمانيين - لعنهم الله - وظهورهم في البحر الشبالي ، ورومهم سواحل الاندلس الغربية على عادتهم ، فانزعج السلطان لما سيق اليه خبرهم ، وعهد الى عبد الرحمن بن رماحس قائد البحر وهو حاضر بقرطبة بالخروج الى

المرية والتأهب^(١) للركوب الى ناحية الغرب^(٢) ، فنفذ لامره يوم الاثنين
لست خلون من شهر رمضان المؤرخ ، وأحضر الوزير القائد غالب بن
عبد الرحمن الناصري ، وكان حاضرا يومئذ بقرطبة ، فخصه بالتكلم معه
فيما طرقه من خبر هذا العدو المرهوب جانبه ، وأهاب به له ، وحول اليه
صائفة عامه الآزفة ، وقلده العود لها ، والتهمم بها برا وبحرا لضلوعته
وغنائمه ، وعليه بثقوب نظره ومحسود اكتفائه ، وحد له حدودا أمره
بالتزامها والوقوف عليها ، وبسطه أتم بسط ، وقربه أفضل تقرب ،
واستودعه الله عز وجل ، وأمره بالتهوض ، والاخذ في شأنه ، فودع ،
وانطلق وهو يشيعه بدعائه ويسأل الله له وللسليين جيل صنعه وحسن
عاقبته »^(٣) .

ونخرج من النص السابق بالحقائق الآتية :

١ — أن عبد الرحمن بن رماحس المذكور ورث أباه محمد بن
رماحس في ولاية الشرطة العليا وقيادة البحر في الاندلس .

٢ — أن أساطيل الاندلس الهامة كانت لها قاعدتان : الاولى في المرية
للدفاع عن السواحل المطلة على البحر المتوسط ، والثانية في اشبيلية
لحماية السواحل الغربية المطلة على المحيط الاطلسي .

(١) ذكرها ابن عذاري كما يلي : « والتأهب لركوب الاسطول منها الى اشبيلية وجفع
الاساطيل كلها للركوب الى ناحية الغرب » . ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) أورد ابن الخطيب رواية مخالفة لرواية ابن حيان ذكر فيها ان الخليفة تحرك الى
المرية وفد حصر المجوس حصن القبة ، فافزع بهم (ابن الخطيب ، أعمال الإسلام ،
ص ٤١ ، ٤٢) . ولا تتفق هذه الرواية مع طبيعة الاحداث التي جرت ، ولذلك نعتد أنها
ملفقة .

(٣) ابن حيان ، المتنبى في أخبار بلد الاندلس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن
الحجي ، ص ٢٤ .

٣ — أن الاندلس كانت مجهزة بأجهزة لمخابرة اولى الامر في قرطبة وابلاغهم بتحركات النورمان فور دخولهم في مياه البحر الشسالي ، اما عن طريق عيون . أو بفضل تحركات عدد من السفن السريعة .

٤ — أن غالب بن عبد الرحمن الناصري كان اكبر قواد الاندلس زمن الحكم المستنصر . وكانت له خبرة بشؤون الحرب في البر والبحر ، ونستدل من نص آخر لابن حيان أنه كان يقود الاساطيل الثقيلة (١) .

٥ — أن الخليفة الحكم المستنصر رسم مع غالب الخطة الحربية لمواجهة الغزوة النورمانية ، مما يقطع بسقدرة الخليفة الحكم في التنظيم الحربي .

ويبدو أن النورمان نزلوا بساحل جليقية ، ودخلوا نهر دويرة ، وتوغلوا حتى مدينة شنت بريّة Santaver ، ولكنهم انهزموا ، وعادوا الى سفنهم (٢) ، فقد وصل الى قرطبة رسول من القومس غند شلب Gonzalo Menendez في ٢٥ من رمضان سنة ٣٦٠ هـ بكتاب الى الخليفة يتضمن خبر نزول النورمان بجليقية وانصرافهم مهزومين ، ولعله كان يقصد من ذلك تنبيه الحكم المستنصر الى الخطر النورماني المقبل حتى يتأهب المسلحون لتلقي الغزاة ، وبذلك يكون غند شلب قد قدم خدمة جليلة الى الخليفة . والحقيقة أن الحكم المستنصر كان يعلم مقدما بقدوم النورمان ، منذ أن أبلغه عيونه بظهور سفنهم في مياه البحر الشسالي .

ومع ذلك فقد واصل المستنصر بالله بذل الجهود واعداد العدة

(١) ابن حيان ، نفسه ، ص ٥٨

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧

والتأهب الكامل لتلقى النورمان عند اقترابهم من السواحل الغربية للاندلس ، فأنفذ مباركا ومبشرا القتين الى كورة رية وشدونة لشحن الاطعمة منها وارسالها الى الاسطول المجهز باشييلة الى ساحل المغرب ، وفي آخر رمضان تحرك عبد الرحمن بن رماحس قائد أساطيل الاندلس من مرية بجانة ليركب منها الى البحر الشالي الذي ظهرت فيه سفن النورمان (١) .

وما ان وصل ابن رماحس الى اشبيلية قائدا لاسطول المرية حتى بادر بجمع أسطول اشبيلية استعدادا للاقلاع للملاقاة النورمان بمجرد أن تصله الانباء بدخولهم المياه الاسلامية ولكن الانباء وافته بعودة سفن النورمان الى بلادهم بعد أن تأكد لديهم استعداد المسلمين لحربهم ، وعزمهم على قصدهم ، فاضطر الى الاقلاع من اشبيلية منصرفا بأسطول المرية في ٢٥ من ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ ، ويعتبر ابن حيان عن ذلك بقوله : « وفي يوم الاثنين لاربع بقين من ذي القعدة منها وافى الخبر باقلاع صاحب الشرطة العليا قائد البحر عبد الرحمن بن محمد بن رماحس من مدينة اشبيلية بالاسطول منصرفا الى المرية ، عافا عن اجرائه الى جهة المجوس الظاهرين في البحر الشالي ، اذ وردت الانباء وتوالت بهزيتهم ، وهربهم بعد اقدامهم وتلجيجهم في البحر الشالي لا يلوون على شيء بحسن دفاع الله عن المسلمين ، اذ اتصل بهم وصح لديهم صيد الخليفة المستنصر بالله لحربهم ، ونصبه التدبير عليهم ، وتجريده القائد الوزير غالب بن عبد الرحمن مدير حروبه نحوهم ، وقصدهم في البر ، ونهوض القواد بالاساطيل الى ناحيتهم ، وتحريكه نحوهم الجنود الحسنة ، والاساطيل الثقيلة التي لم يجد أعداء الله عند سماعهم بها من نفوسهم معينا على

(١) ابن حيان ، ص ٢٨ .

التعرض لملاقاتها ، والانبساط في السواحل التي احسوا بهم فيها ، فولوا على أعقابهم ناكسين ، ومما رجوه من انتهاز فرصة من المسلمين خائبين ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قويا عزيزا » (١) .

وكما عاد اسطول المرية الى قاعدته عاد الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن من غزاته الى سواحل الغرب الى قرطبة بعد أن أحجم النورمان عن ملاقاته المسلمين ، فوصل فحصى السراق من قرطبة في ٢ صفر سنة ٣٦١ هـ (٢) .

وعلى الرغم من انصراف اسطول النورمان عن متابعة غارته على سواحل الاندلس ، وزوال خطرهم عنها فقد كان الخليفة ما يزال يخشى عودتهم من جديد بأسطول كبير لغزو هذه السواحل ، فلم يطمئن لعودتهم المبكرة الى بلادهم ، وظل يتوقع قدومهم ، ففي ٥ من رمضان سنة ٣٦١ هـ استدعى الى مجلسه الخاص مع الوزراء قائدين من قواده هما زياد بن افلح وهشام بن محمد بن عشان ، فأمرهما أن يتأهبا للخروج على صائفة ذلك العام الموجهة الى الغرب ، وعند خروجهما من قرطبة في ١١ من رمضان دعاهما لمقابلته ، وأوصاهما بالمبادرة وتجنب التواني ، والاختذ بأمحصى الرأي المقارن للزم ، واستشارة اولى الرأي فيما يقع عليه التدبير ، وزودهما بكثير من الوصايا ، وخلع عليهما (٣) .

ومضت الحملة التي جردها المستنصر بالله الى وجهتها ، فانتهت الى شتيرين ، وهناك تأكد لدى قائدي الحملة أن النورمان قد أحجموا

(١) نفس المصدر ، ص ٥٨

(٢) نفسه ، ص ٦٦

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٧٨ ، ٧٩

عن ملاقاتة المسلمين بعد أن بلغتهم أخبار شخوص المسلمين اليهم والاستعداد برا وبحرا ، وزاد تأكيد القائدين من هذه الانباء بعد وصول الجواسيس الذين كانا قد سيراهم الى شنت ياقب من قاصية بلد العدو لتقصي أخبارهم ، فقفل الجيش عائدا بعد أن انتهى من مهمته ، ووصل القائدان الى مدينة الزهراء في ٥ ذي القعدة من نفس السنة (١) .

د — نشاط أسطول الاندلس في سواحل المغرب وسواحل غرب

الاندلس :

ظهر في أيام المستنصر بالله عدد كبير من قادة الاندلسيين ، نخص بالذكر منهم عبد الرحمن بن محمد بن رماحس وغالب بن عبد الرحمن ، وقيصر ، وسعد الجزري ، ورشيق بن عبد الرحمن المعروف بالبرغواطي ، وعبدالله بن شعيب ، وابن الازرق البحري ، وعبد الرحمن بن يوسف ابن أرمطيل ، واسماعيل بن عبد الرحمن بن الشيخ ، وعبد الرحمن بن أبي جوشن ، وعبدالله بن مروان المعروف بابن مسلة ، وعبدالله بن رياحين . وكان عبد الرحمن بن رماحس هو القائد العام للاساطيل الاندلسية ، وكان يلقب بصاحب البحر (٢) .

وقد أبدى هؤلاء القواد نشاطا كبيرا في البحر المتوسط وفي المحيط الاطلسي ، وأسهموا في حوادث المغرب : ففي ١٢ من رمضان سنة ٣٦١ هـ توجه عبد الرحمن بن رماحس بالاسطول الى العدو (٣) ، كما اشترك في هذا الشهر نفسه اسطول المرية وأسطول اشبيلية بقيادة قيصر

(١) نفسه ، ص ٩٢ ، ٩٣

(٢) نفسه ، ص ١٠٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٠

وسعد الجزري ورشيق وابن الشيخ وابن أرمطيل وابن أبي جوشن في إحدى الغزوات البحرية^(١) . وفي غرة ذي القعدة سنة ٣٦١ هـ قام عبدالله بن رياحين قائد المستنصر على البحر بمهاجمة طنجة من البحر^(٢) ، ونجح عبد الرحمن بن رماحس قائد البحر في ذي القعدة من سنة ٣٦٢ هـ في افتتاح طنجة^(٣) ، واشترك هذا القائد مع القائد غالب بأسطوليها في مهاجمة أصيلا واستنزال الحسن بن قنون^(٤) .

ثم أنشأ المنصور محمد بن أبي عامر أسطولا ضخما في قصر أبي دانس . وجهزه برجال البحريين وصنوف المترجلين ، وحصل الاقوات والاطعمة والعدد والاسلحة ، وسير هذا الاسطول في سنة ٣٨٧ هـ ايشترك في غزو مدينة شنت ياقب ، فسارت السفن في نهر دويرة . وبفضل هذا الاسطول أغار المسلمون على جزيرة شنت مانكش وغيرها^(٥) .

هـ — مغامرات الاندلسيين في بحر الظلمات في القرن الرابع الهجري :

كان من أثر تقدم البحرية الاسلامية في الاندلس في عصر الخلافة الاموية ان سرت في نفوس فريق من شباب المسلمين في هذه البلاد روح المغامرة البحرية للكشف عن مجاهل البحر المحيط المعروف ببحر الظلمات

(١) نفس المصدر ، ص ٨١

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ص ٢٦٥

(٣) ابن حيان ، ص ٩٠

(٤) نفس المصدر ، ص ١١٦

(٥) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٤٤١ — ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٦٧ — المقرئ ،

نفع الطيب ، ج ١ ص ٢٩١

الظلمات أو الاوقيانوس أو البحر الاخضر . وللتأكد من وجود أرض تقع غربي هذا المحيط ، اذ كان الظن أن الساحل الغربي للاندلس هو آخر المعسور من الارض وأن البحر المحيط لا أرض وراءه ^(١) .

ولا شك أن الرغبة في الكشف عن المجهول لا تحدث الا في أعقاب نهضة حضارية كبيرة ، والاندلس في عصر الخلافة كانت قد بلغت الذروة في التقدم الحضاري ، وكان جغرافيوها قد اسهوا بنصيب كبير في تعريف أهل البلاد بالطرق والمسالك في البر والبحر . معتمدين في ذلك على مصنفات الاغريق واللاتين أمثال بطليموس وهروشيئش ^(٢) ، ويبدو أن القول بنظرية كروية الارض ^(٣) وهي نظرية عرفها الجغرافيون العرب عن الاغريق (بطليموس وغيره) كانت حافزا على قيام بعض المغامرين من أهل الاندلس برحلات عبر المحيط للكشف عن مجاهله معتمدين في هذه الرحلات على بعض المعلومات الجغرافية عن البحار وعن الارض والملك . دون أن يتزودوا بخرائط ملاحية لهذا المحيط أو بآلات تعين على الاتجاه نحو الغرب ، فمن المعروف أن آلة البوصلة لم يعرفها العرب الا في القرن

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ليدن ، ١٨٩٢ ص ٦٨ - مروج الذهب ، ج ١ ص ١١٨ - ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٥ - الحميري ، ص ١ ، ٢ ، ٢٨ . وفي هذا البحر المحيط يقول الادريسي : « ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف بشر منه على خبر صحيح لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاضم أمواجه وكثرة أهواله وتسلف دوابه وهيجان رياحه ، وبه جزائر كثيرة ومنها معمورة ومعمورة وليس أحد من الزبانيين يركبه عرضا ولا هلججا وإنما يمر منه بطول الساحل ولا يفارقه ، وأمواج هذا البحر تندفع متفلقة كالجبال لا ينكسر ماؤه » (الادريسي ، ص ١٦٥) .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ ،

ص ٢٠٠ وما يليها .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٨٦ ، ٩١ - ابن رسته ، ص ٨ - ابن الفقيه

الهمداني ، ص ٤ .

الحادي عشر الميلادي (١) .

وتستل اولى هذه المغامرات فيسا رواه الادريسي في نزهة المشتاق ، ونقله عنه الحصري في الروض المعطار ، في رحلة المغربيين او المغربيين وخلصتها أن جساعة من المغامرين الاندلسيين خرجوا من أشبونة في بحر الفلبسات ليعرفوا ما فيه ، وإلى أين اتهاؤه ، وكانوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، أنشأوا مركبا حسالا وزودوه بما يكفيهم من الطعام والشراب عدة أشهر ، ثم اقلعوا بركبهم في البحر المحيط ودخلوا في أول طاروس الرياح الشرقية . فدفعهم التيار نحواً من ١١ يوما إلى أن وصلوا إلى موضع من المحيط « غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء . فآيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوما » (٢) فوصلوا إلى جزيرة سموها بجزيرة الغنم تستاز بكثرة أغنامها ، ثم غادروها ، وواصلوا الاتجاه في البحر جنوباً مدة اثني عشر يوماً أخرى . فلاح لهم جزيرة فقصدوها ، ولكن أهل هذه الجزيرة وكانوا شقرا زعرا ، شعور رؤوسهم سبطة ، طوال الاجسام ، خرجوا اليهم بالزوارق فأسروهم واعتقلوهم في بيت ثلاثة أيام . ثم أدخلوا عليهم في اليوم الرابع رجلا يتحدث بالعربية ، أحضرهم أمام ملك الجزيرة ، وسألهم عن قصدهم وغايتهم ، فأخبروه بخبر مغامرتهم ، والهدف من رحلتهم ، فروى لهم أن قوما من عبيده حاولوا نفس المحاولة وأخفقوا في كشف ما وراء المحيط ، ثم أنه وعدهم خيرا ، وصرفهم إلى

(١) خوان بيرنيط ، هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية ، تعريب الدكتور مختار المبادي ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، العدد الأول ، السنة الأولى ، ١٩٥٣ ، ص ٨٧ . والأصل نشره المؤلف بعنوان *Influencias musulmanas en el origen de la cartografia nautica*, publicaciones de la Real sociedad geografica, No 289, Madrid, 1953.

(٢) الادريسي ، ص ١٨٤ - الحميري ، ص ١٦

موضع معتقلهم . فاقاموا فيه الى ان بدأ موسم الرياح الغربية ، فوضعوا في زورق . وتركوا في البحر . فحصلهم التيار بعد ثلاثة أيام الى بر المغرب عند بلدة آسفى . ومن المعتقد أن هؤلاء الفتية المغررين وصلوا في مغامرتهم الى احدى جزر المحيط الاطلسي القريبة من ساحل المغرب ولعلها احدى جزر الازور أو مادريا ، وهي التي سسوها بجزيرة الغنم ، واعتقد أنهم نزلوا بعد ذلك في احدى جزر كناريا ، ومنها حملتهم الرياح ودفعت قاربهم الى ساحل آسفى .

والمغامرة الثانية قام بها فتى من أهل قرطبة وأحداثها يقال له خشخاش مع فتية من أصحابه ، ويعتقد الاستاذ ليفي بروفنسال أن خشخاش هذا هو أحد البحريين الذين أقاموا في بجانة ، ولعله خشخاش ابن سعيد بن أسود من عرب اليمن ^(١) . ركب هؤلاء المغامرون في البحر المحيط في مراكب أعدوها لهذا الغرض ، فغابوا فيه مدة ، ثم عادوا يحملون معهم غنائم كثيرة ^(٢) . وقد يكون هؤلاء البحريين قد ادركوا احدى جزر البحر الكاريبي وهو أمر بعيد الاحتمال . وأغلب الظن أنهم لم يصلوا الى أبعد من جزر الازور المعروفة عند الجغرافيين العرب بالجزائر الخالدات لقربها من ساحل المغرب . أما الوصول الى جزر البحر الكاريبي وساحل القارة الامريكية فلم يتم فيما يظهر الا ابان القرن الرابع عشر الميلادي ، عن طريق الرحلتين اللتين قام بهما محمد الجاوي ^(٣) .

Lévi - Provençal, Histoire, t. I, P. 354 (1)

(٢) المسعودي ، ج ١ ص ١١٩ - الحميري ، ص ٢٨

(٣) راجع ما ذكره الاستاذ خوان برنيط في هذا الصدد في بحثه السابق ، ص ٨٥ ، ٨٦

الفصل السادس

تدهور البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس الهجري

(١) سياسة الزييين البحرية حتى منتصف القرن الخامس الهجري

(٢) ضعف البحرية الإسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس

الهجري •

(٣) سقوط صقلية في أيدي النورمان

(٤) جهاد الزييين في البحر منذ أيام تميم بن المعز

(٥) استيلاء النورمان على المهديّة •

الفصل السادس

تدهور البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس الهجري

(١)

سياسة الزيريين البحرية حتى منتصف القرن الخامس الهجري

سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية في مصر والدولة الصنهاجية في افريقية في امارة ابي الفتوح يوسف بن بلكين بن زيري ، وكان أبو الفتوح يسعى الى أن يعيد للبحرية التونسية مكائتها التي فقدتها بعد انتقال الاسطول الفاطمي الى مصر عند انتقال الفاطميين اليها نهائيا ، باستثناء عدد قليل من السفن التي تركوها له لمعاوته في حياية املاكه من الخطر الاموي في الاندلس (١) ، فأمر في ذي الحجة سنة ٣٦٥ هـ واليه عبدالله بن محمد الكاتب أن يقيم اسطولا بالمهدية ، وأن يزوده بالرجال والعتاد ، فشرع عبدالله في حشد البحريين من كل البلاد بالقوة ، وزج بمن امتنع منهم في سجون القيروان وأصبح للمهدية في عصر الزيريين أسطول في أقل من عام واحد خرج في أول المحرم سنة ٣٦٦ هـ من مياه المهدية ، فتعذرت عليه الرياح ، فأقام البحريون والنوابة بسفنهم في موضعهم من البحر حتى فرغت أزوادهم ، وعدموا الماء ، فهربوا الى الساحل بعد أن نهبوا ما في المراكب من عدة وسلاح (٢) .

(١) ارشيبالدلوس ، ص ٢١٢

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢٧

ولما توفي يوسف بن بلكين في سنة ٣٧٣ هـ وخلفه ابنه أبو الفتح المنصور . ابدى ميلا صريحا الى الانفصال الروحي والسياسي عن الخلافة الفاطمية . ولكن العزيز بالله الفاطمي اصطنع معه سياسة الملاطفة وبذلك ظلت العلاقات الودية في الظاهر سائدة بين مصر وافريقية في عصر نصير الدولة باديس بن المنصور . ولكنها كانت في الحقيقة قناعا زائفا يخفي وراءه ما كان قائما بالفعل بين الخليفة الفاطمي وباديس من تغاير . وقد حرص باديس على تدعيم قوته الحربية والبحرية ففراه يزور سواحل افريقية في عامي ٣٨٦ ، ٣٨٧ هـ كالمهدية وسوسة وسردانية ، وعندما وصل الى المهدية في هذه الرحلة لعبت المراكب بين يديه . ورمى النفاطون بالنفط (١)

وعندما تولى المعز بن باديس امارة افريقية ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمي . وتوترت فيما يقرب من سنة ٤٤٠ هـ توترا ادى في النهاية الى قيام المعز باعلان انفصاله عن الخلافة الفاطمية . وكان انتقام الخليفة الفاطمي شديدا . فقد سير قبائل بني هلال وبني سليم النهاية الى افريقية وأطلق لهم العنان في استباحة البلاد التونسية ، وما كاد هؤلاء يصلون الى نواحي افريقية حتى عاثوا في البلاد فسادا ، وخرّبوا الديار ، وأتوا على عمران البلاد ، ووصلوا الى القيروان واستباحوها ، وطمسوا معالمها . ثم زحفوا الى قابس وبونة ، واضطر المعز بن باديس الى الانتقال الى المهدية ، التي اتخذها مقرا له ، كما اضطر بنو حماد الى الانتقال غربا الى بجاية . واقتصر ملك تميم بن المعز ابن باديس على شريط ساحلي ضيق ، وتنج عن انحصار ملك الزيريين في افريقية الى الساحل بسبب الضغط الذي كانت تمارسه قبائل العرب على

(١) ابن ابي دينار القيرواني ، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، ص ٧٤

المدن الداخلية . ازدياد عناية الصنهاجيين بشؤون البحر ^(١) ، فوجهوا أنظارهم الى صقلية وجنوبي ايطاليا ، وعاود التونسيون نشاطهم البحري منذ أن أصبحت المهدية حاضرة الزيريين الجديدة . وهكذا أخذ الزيريون يتطلعون الى البحر بعد أن مضى زمن طويل لم يبرحوا خلاله أرض افريقية . وقد ظل الزيريون يشتغلون بالغزو البحري منذ أيام المعز ابن باديس حتى آخر عهد الدولة الزيرية ^(٢) . وكان المعز بن باديس قد أمر في سنة ٤١٤ هـ بحشد البحريين والتعجل باصلاح القطائع وعسارة دار الصناعة بالمهدية . وأخذ في انشاء العدد البحرية . فأُنشئ في امد قصر أسطول ضخيم ^(٣) بلغ عدد قطعه في سنة ٤١٦ هـ أربعائة قطعة ، وكان المعز يهدف من انشاء هذا الاسطول مواجهة منافسيه في طرابلس الغرب التي أصبحت في ظل خليفة بن وروا قوة بحرية يخشى بأسها ^(٤) ، ومواجهة الحيلة البيزنطية التي سيرها بسيل الثاني في سنة ٤١٦ هـ الى قلورية وصقلية لوضع حد لغارات المسلمين التي بلغت بلاد البلوبونيز ، وقد حاصر هذا الاسطول البيزنطي بلرم ، فاستنصر أهلها بالمعز بن باديس الذي لم يتردد في نصرتهم بعد أن تخلت الخلافة الفاطمية عنهم ولكن أسطول ابن باديس لم يلبث ان تعرض لأنواء عاتية بالقرب من قوصرة ، ففرقت سفنه ، وهلك كثير من عسكره ^(٥) ، ولم يصل منها الى صقلية الا عدد قليل . وانفذ موت بسيل الثاني أهل صقلية من غزو اكيد ، اذ مال خليفته (قسطنطين الثامن) الى الصلح مع الخلافة الفاطمية ، وتم ذلك في سنة ٤١٨ هـ ^(٦) . ومن الملاحظ ان العلاقات بين صقلية وبين افريقية

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فترة حاسمة ، ص ٢٨

(٢) اومبرتو ريتسيانو ، النورمنديون ، ص ١٧٧

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(٤) سعد زغلول ، ص ٢٤ - ارشيبالد ، ص ٢١٢ .

(٥) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٢

(٦) ارشيبالد لويس ، ص ٢٠٩

بدأت تقوى وتشتد اواصرها منذ أن مدت صقلية يدها الى المهدية
لنصرتها . فالتقت منها النصره . ومنذ ذلك الحين حول امراء صقلية
انظارهم في طلب العون عن خلفاء القاهرة .

غير أن الصلح الذي انعقد بين البيزنطيين والمسلمين كان قصير
الامد . اذ سرعان ما نقضه الامبراطور رومانوس أجريروس مع الفاطميين
بغارته على بلاد الشام . وعندئذ عاود المسلمون توجيه غاراتهم الى
سواحل اليونان وجزرها القريبة في سنة ٤٢٧ هـ . الا أن أمير صقلية لم
يلت أن اعترف بسيادة بيزنطة . وفي نفس الوقت عقدت القاهرة معاهدة
مع البيزنطيين تعهدت فيها بعدم تقديم المساعدة لاهل صقلية اذا قام عداء
بينهم وبين البيزنطيين . فاطبأن البيزنطيون عندئذ الى الفاطميين ، وانفسح
لهم مجال العمل في صقلية . فأعدوا حملة بقيادة ميناس نزلت في صقلية ،
وافتحت سرقوسة والقسم الشرقي من الجزيرة في سنة ٤٣٠ هـ
(١٠٣٨ م) . ولكن الحملة فشلت بعودة ميناس الى اليونان ومقتله .

ويبدو أن بني زيري اشتركوا فيما بين عامي ٤٣٠ ، ٤٣٥ هـ بوحداث
من أسطولهم ضد البيزنطيين ، كما استطاع أسطولهم اخضاع الحركات
المنافسة في سوسة في سنة ٤٤٥ هـ ، واحراق مراكب الثوار ، وكانت تربو
على ستين مركبا أكثرها لاهل سوسة (١) . ولكن ظهور قوى النورمان
في جنوب ايطاليا منذ سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) وازدياد نشاطهم في أبوليا
وبنفت ، بعد انتقال الزعامة في اشد فرقههم عنفا الى روبرت جيسكارد
بعد سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) ، على حساب أمراء ايطاليا المحليين ،
واعتراف البابا به في ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ، كان له أعظم الاثر في اضعاف

البحرية الاسلامية في صقلية وافريقية ، فسرعان ما نجح أخوه روجر
جسكارد في فتح قلورية والتقدم منها في سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) الى
مسينى ، التي كانت المنطلق الاول لافتتاح النورمان لجزيرة صقلية كلها .
ومن صقلية يبدأ النورمان يتطلعون الى افريقية ، وينتهي الامر بتدمير
الصرح الزيري الاخير بالاستيلاء على المواقع الساحلية من البلاد
التونسية فيما بين المهديّة وطرابلس الغرب في عامي ٥٤١ ، ٥٤٣ (١) .

Robert Brunschvig, la Berberie orientale sous les Hafside, (١)
t. I, Paris, 1940, p. 4.

(٢)

ضعف البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرن الخامس الهجري

تدهورت القوى البحرية في المغرب وصقلية تدريجيا بعد رحيل الفاطميين من المغرب الى مصر ، في نفس الوقت الذي ضعفت فيه البحرية البيزنطية بعد بسيل الثاني . وعلى الرغم من قيام الزيريين مرتين بانشاء اسطول افريقي في المهديّة في عامي ٣٦٥ ، ٤١٦ هـ ، الا أن هذا الاسطول كان ينقصه في المرة الاولى الرجال والملاحين ، وفي المرة الثانية تعرض لكارثة اطاحت بسعظم قطعه . واذا كان قد أصبح للبحرية الزيرية شأن في عهد تميم بن المعز وخلفائه ، فانما كان مرجع ذلك الى اعتماده على البحرين المسلمين الذين هاجروا من صقلية والجزر المجاورة بعد دخول النورمان في مسرح الاحداث ، واشتغلوا بعد ذلك بأعمال القرصنة والغزو البحري .

ولم تكن قوة البحرية الحسادية في المغرب الاوسط تفوق الزيرية على الرغم من أن دار صناعة بجاية ودار صناعة مرسى الخرز كانتا تنتجان المراكب والسفن الحربية التي تغزو الى بلاد الروم ، بسبب توافر الخشب في اودية بجاية وجبالها ، والزفت البالغ الجودة والقطران والمعادن (١) . الا ان انتاج السفن الحربية كان محدودا لاعتماد المغرب الاوسط على البحرية التجارية في تصريف منتجاته (٢) .

وبينما كانت البحرية التونسية في طريقها الى التدهور المحتوم ،

(١) البكري ، ص ٥٥ - الادريسي ، ص ٩٠

(٢) عثمان الكمال ، مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٤ .

كانت بحرية الاندلس أيضا بعد عصر الدولة العامرية تسير سيرا حثيثا نحو الاضمحلال ، فقد أعقب سقوط الخلافة الاموية واختلال ميزان الامن والنظام في البلاد ، وتفتت الوحدة السياسية للاندلس أن تجزأت البلاد الى دويلات مستقلة حافظت كل منها على استقلالها في امكانياتها المحدودة . ولم تعد هذه الدويلات تحتفظ بأساطيل قوية تحركها السلطة المركزية في قرطبة ، كما كان الحال في عصر الخلافة ، وانما اعتمدت هذه الدويلات وخاصة الساحلية منها ، ومعظمها كانت تخضع لعناصر صقلية ، على اساطيل محلية صغيرة هي اجزاء من الاسطول الاندلسي الذي اقتسمته فيما بينها ^(١) ، ولم تلعب هذه الدويلات دورا ذا قيمة في الصراع البحري يومئذ في حوض البحر المتوسط الغربي باستثناء دويلات قليلة كان لها دور بحري واضح في احداث هذا العصر ، ونخص بالذكر منها دولة بني عباد باشيلية ودولة بني صادح بالمرية ، وعلى الاخص دولة مجاهد العامري في دانية والجزائر الشرقية . الذي يعتبر اكثر ملوك الطوائف جسيما عناية بالاساطيل . والذي لعب دورا هاما في الجهاد البحري في البحر المتوسط الغربي .

أما بنو عباد فقد اهتموا بشؤون البحر لوقوع معظم ثغورهم على المحيط الاطلسي ، فكان لهم اسطول تنوزع قطعه عند مصب الوادي الكبير وفي مياه شلب ، ويبدو أن داري صناعة شلب واشيلية كانتا تنتجان أعدادا كثيرة من السفن في عصر بني عباد ، وما يؤكد ذلك أن العود بجبال شلب كان يحصل منها الى سائر مملكة اشيلية لصناعة السفن ^(٢) ، وقد ساهمت قطع من اسطول اشيلية ومن بينها سفينة

Henri Pérès, La Poésie andalouse, p. 214 (١)

(٢) الحميري ، ص ١٠٧

نسخة كأنها قصر مبنى على الماء في مهاجرة سبتة الخاضعة لسقوت البرغواطى وولده المعز (١) في صفر سنة ٤٧٦ هـ ، كما ساهم أسطول اشبيلية في نقل جيوش المرابطين من سبتة الى الجزيرة الخضراء (٢) . غير أن معظم سفن اشبيلية تعرضت للتدمير عندما اقتحم المرابطون اسوار اشبيلية من جهة الوادي .

أما المرية فقد ظلت بعد سقوط الخلافة بقرطبة تحتل المركز الاول بين قواعد الاسطول الاندلسي في زمن الطوائف ، لكثرة سفنها ، ونشاط دار الصناعة بها في الاتاج ، وخاصة في عهد المعتصم بن صمادح ، الذي نجح في انشاء أسطول قوى يرسو في خليج المرية . وكانت كل غايته العناية بهذا الاسطول (٣) ، وكان هذا الاسطول يتألف من عدد كبير من الجواري والفلك (٤) والاجفان (٥) . وقد وصف الشاعر ابن الحداد أسطول المعتصم بن صمادح فقال :

هام صرف الردى بهام الاغادي ان ست نحوهم لها أجياد
وتراءت بشرعها كعيون دأبها مثل خائفها سهاد
ذات هذب من المجاذيف حاك هذب باك لدمعها اسعاد
حسم فوقها من البيض نار وكل من أرسلت عليه رماد
ومن الخط في يدي كل در ألف خطها على البحر صاد (٦)

(١) نص ابن بسام في كتاب الذخيرة نشره الدكتور خواكين فالفي Joaquin Vallvé Bermejo نشره بعنوان Suqut al—Bargawati, rey de Ceuta في مجلة الاندلس al — Andalus ، مجلد ٢٨ ، قسم ١ مدريد ١٩٦٢ ص ٢٠٢

(٢) الحميري ، ص ٨٧ — المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٦ ص ٩٢

(٣) الفتح بن خافان ، فلاند العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ٤٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٨ . والجواري هي السفن السريعة

(٥) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ص ١٩٢

(٦) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٥ ص ١٩٨ .

غير أن معظم قطع هذا الاسطول لم تلبث أن أحرقت على يدي معز الدولة بن المعتصم عندما تغلب المرابطون على المرية ، واستبقى منها ثلاثة قطع للفرار عليها بنفسه وماله (١) .

أما مسلكة دانية والجزر الشرقية التي استقل بها مجاهد العامري فكانت أكثر هذه الدويلات جميعا اهتماما بالاساطيل وجهادا في البحر ، وكان مجاهد وقت سقوط الخلافة الاموية وقيام الفتنة مقدما على جزر البليار الثلاثة ، فلما استقل بها بادر بضم دانية في سنة ٤١٣ هـ وتسمى بالموفق بالله (٢) . ومن جزر البليار غزا جزيرة سردانية في سنة ٤٠٦ هـ في أسطول من ١٢٠ سفينة (٣) ، فاقطحها . وتغلب على أكثرها ، ويبدو أنه أغار منها على سواحل إيطاليا وهاجم لوني وما حولها من المناطق الساحلية (٤) . وقد أثارت هذه الغارات عليه غضب اهل جنوة وبيشة (بيزا) ، فتعاونوا على رده ، وخرجوا بأسطول كبير لمهاجمته في سردانية ، واشتبك اسطول الموفق مع الاسطول الجنوبي البيشي في وقعة شنيعة دارت على سواحل سردانية وامتت بهزيمته ، وأسهمت الطبيعة في هذه الهزيمة ، إذ تعرضت سفينه لرياح عاتية . أغرقت معظمها . بحيث لم ينج من أسطوله الضخم الا عدد يسير من القطع لا يتجاوز خمسة مراكب واربعة قوارب ، وقد عاد الموفق منكوبا من هذه الغزوة (٥) . ولم تشه هذه الهزيمة الشنعاء عن معاودة الجهاد والغزو البحري ، فقد ظل هو ومولاه الاغلب ، واليه على ميورقة ، يجاهدان الفرنجة في البحر ، ويهاجمان

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٩٢

(٢) ابن علدري ، البيان ، ج ٢ ، باريس ١٩٣٠ ص ١٥٥

(٣) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، ص ٢١٩

(٤) أرشبالد لويس ، ص ٢١٤ — Amari, Storia, t. III, p. 5-8

(٥) القسبي ، ص ٤٥٨ — ابن الخطيب ، ص ٢٢٠ — الحميري ، ص ٢٢١

برشلونة وأربونة (١) .

هذا وقد ساعد على اضعاف البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس نسو القوى البحرية لبيشة وجنوة وساحل ايطاليا الشمالي الغربي ، واقبالها على الملاحة في البحر منذ أن نجح كونت وليم ، حاكم بروفانس في سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، في طرد غزاة المسلمين من فراكينيت (٢) . ولم يأت عام ١٠١٥ م (٤٠٦ هـ) الا وقد أصبحت جنوة وبيشة قوتين بحريتين عظيمتين تسكتتا من ايقاع الهزيمة بأسطول مجاهد العامري ، كما ذكرنا ، في بحر سردانية ، ثم استفحلت قوة بيشة البحرية في سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) الى حد أنها تجرأت على غزو مدينة بونة عندما لمست ضعف البحرية الزيرية (٣) . ولم يكن الدافع على هذا النشاط البحري حماية طرق التجارة في البحر من غارات المسلمين ، وانما كان المحرك عليه الرغبة في نهب التجارة الاسلامية ومدن المسلمين الساحلية .

وفي سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) عظمت قوة بيشة وجنوة البحرية بحيث أصبحت تشكل خطرا جديا على سواحل افريقية نفسها ، ففي هذا العام اشتركت الاساطيل البيشية (البيزية) والجنوية التي وصل عدد قطعها الى ٣٠٠ سفينة وقيل ٤٠٠ ، بتحريض من البابا فكتور الثالث في هجوم بحري على المهديّة ، عاصمة الدولة الزيرية ، وتمكن البيشيون والجنويون بالاشتراك مع قوات من أمالفي ، من مفاجأة المسلمين في المهديّة ، في غيبة عسكر الامير وتجرد كافة الناس من الاسلحة والعدد ، وتهدم الاسوار ، وسوء تدبير عبدالله بن منكوت ، متولي أمور الدولة ، اذ

(١) ابن خلدون ، ج ١ ص ١٦٥ - ارشبالد ، ص ٢١٤

(٢) ارشبالد ، ص ٢١٤

(٣) نفس المرجع

خالف عثمان بن سعيد المعروف بالمهر مقدم قائد الاسطول الزيري في الخروج للقاء الاعداء ومنعهم من النزول في البر ، كل ذلك أدى الى نجاح الايطاليين في التغلب على المهديّة وزويلة ونهبهما واستباحتهما ^(١) . واضطر الامير تسيم بن المعز أن يقدم الى الغزاة مبلغا من المال قدره مائة ألف دينار ، وقيل ٣٠ ألف دينار (ابن الاثير) دفعه بين ناض واوان ذهبية وفضية ثمنا لانسحاب هذه القوات من المهديّة وزويلة ، مع تعهده لهم بعدم التعرض مستقبلا للسفن الايطالية في المياه الافريقية ، فأقلع الغزاة بذلك كله وبعده كبير من اسرى المسلمين ^(٢) . وأحدثت هذه الغزوة الايطالية المشتركة دويا هائلا في المغرب الاسلامي . ثم أعاد الايطاليون الكرة مرة أخرى في سنة ٤٩٨ هـ ، فقدموا في أجفان كثيرة حربية تعرف بالشواني و ٢٣ مركبا ، ويذكر ابن عذاري انهم كانوا يهدفون في هذه المرة الى ايجاد وسيلة لدخول المهديّة كالمرّة السابقة ، « فقصّدوا الى باب دار الصناعة ليسنعوا أسطول المهديّة من الخروج اليهم ، فخاب ظنهم وخرج أسطول المهديّة اليهم فهزموهم ، وقتلوا كثيرا منهم » ^(٣) .

أما البندقية فقد تمكنت عقب نجاحها في التغلب على المسلمين في أبوليا من السيطرة على مياه البحر الادرياتي . كذلك ساعد على اضعاف البحرية الاسلامية في المغرب ظهور النورمان في جنوب ايطاليا واستيلائهم بالتدريج على صقلية ، وانسحاب الزيريين من الميدان الصقلي في سنة ٤٦١ هـ بعد اختلافهم مع أهلها . ومنذ ان استولى النورمان تماما على

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٢٢ - ابن ابي دينار ، ص ٨٠

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٢ - ابن الخطيب ، القسم الثالث من

اعمال الاعلام ، ص ٧٨ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٨ - النويري ، نهاية الادب ، ج ٢٢

ص ١٦٧

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٢٤

مقلية وذلك بعد سقوط سرقوسة آخر معقل اسلامي فيها سنة ٤٨٠ هـ تمت
للنورمان السيطرة البحرية على مياه البحر المتوسط الغربي ، وتحكسوا ،
بعد استيلائهم على جزيرة مالطة ، في المضائق الحيوية بين افريقية
وصقلية (١) .

(١) ارشيبالد لويس ، ص ٢٧٦

(٣)

سقوط صقلية في أيدي النورمان

سقطت صقلية في أيدي النورمان عقب نزاع قام بين أحد ثوار صقلية المسلمين ويدعى ابن الثمنة الملقب بالقادر بالله وبين القائد أبسن الحواس على بن نعمة ، وتفصيل هذا النزاع أن جزيرة صقلية توزعت بعد سنة ٤٢٧ هـ بين القائد عبدالله بن منكوت بمارز والقائد ابن الحواس بقصريانة وجرجنت ، وابن المكلاطي بسرقوسة بقطانية . ثم حدث أن استولى ابن الثمنة على مدينة سرقوسة ، وهاجم قطانية وقتل ابن المكلاطي الذي كان متزوجا من ميسونة أخت علي بن الحواس . ثم طلب ابن الثمنة الثائر من ابن الحواس أن يزوجه من ميسونة ، فوافق ابن الحواس ، وزوجها من ابن الثمنة . ولكن ابن الثمنة قام ذات يوم - وكان ثملا - بفصدها حتى اشرفت على الموت ، لولا أن أدركها الأطباء فعملت حتى برأت . فلما علم ابن الحواس بما فعله ابن الثمنة بأخته ، عمل على الانتقام من صهره . ولم يضر وقت طويل حتى كان الرجلان قد استعدا للقتال، وقامت الحرب بينهما ، فانهزم ابن الثمنة ، ورحل إلى رجار النورماني صاحب مليطو او ملطيه Mileto^(١) منذ سنة ٣٧٢ هـ، وخاطبه وخاطب خاصته قائلا : « أنا أملكك الجزيرة ، فقالوا ان فيها جندا كثيرا ولا طاقة لنا بهم ، فقال : انهم مختلفون وأكثرهم يسمعون قولتي ولا يخالفون امري » (٢) . وتردد روجار في نصرة ابن الثمنة خوفا من أن يقحم نفسه

(١) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ص ٢٧٦ - النوبري ج ٢٢ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩

(٢) ابن الأثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٦

في مغامرة قد تسبب لجيشه كارثة ، ولكن ابن الثمنة ما زال به يهون عليه الامر . ويغريه بفتح صقلية ، حتى طمع في فتحها . وتذكر المصادر الايطالية ان ابن الثمنة قدم ابنه رهينة الى روبرت أخي رجار ، وكان يحكم مدينة ريو Reggio مبالغة منه في اظهار حسن نيته . وعندئذ دخلت جيوش النورمان بقيادة روبرت ورجار وابن الثمنة جزيرة صقلية ، واشتبكت مع قوات ابن الحواس في رجب سنة ٤٤٤ هـ في موقعة دارت امام اسوار قصر يانة ، فانهمزم ابن الحواس . وزحف النورمان داخل الجزيرة . فاستولوا على مواضع كثيرة منها ، وعندئذ هاجر عدد كبير من أهل صقلية الى افريقية لائذين بالمعز بن باديس وكان من بين هؤلاء الصقليين المهاجرين الشاعر ابن حديد الصقلي (١) . واستنجد هؤلاء بأمير افريقية ليحرر صقلية من الغزو النورماني . وجاءت هذه الصيحة في وقت تعرضت فيه البلاد التونسية للغزوة الهلالية المدمرة ، وعز على ابن باديس ان تضع صقلية من المسلمين ، كما خاف في نفس الوقت من سقوطها في ايدي النورمان فتصبح على هذا النحو معبرا لهم الى الساحل الافريقي . وجسرا يوصلهم الى ثغور افريقية ، فعزم على التدخل لاستنقاذها . وعمر أسطولا كبيرا شحنه بالمقاتلة والاسلحة ، وابحر هذا الاسطول من المهدية في فصل الشتاء ، وما كاد الاسطول الزيري يصل الى جزيرة قوصرة حتى تعرض لعاصفة بحرية عاتية دمرت أكثر سفنه ، ولم ينج منها الا عدد قليل (٢) .

ثم شغل المعز بن باديس عن انتقاذ صقلية بما أصابه بعد ذلك على أيدي العرب حتى توفي في سنة ٤٥٣ هـ ، وفي نفس الوقت تمكن بعض

(١) اومبرتو ريتسيانو ، ص ١٧٦ - احسان عباس ، العرب في صقلية ، ص ٢٢٦

(٢) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٧ - النويري ، ج ٢٢ ص ٢٢٩

خصوم ابن الشنة من قتله . واستغل النورمان فرصة انصراف تسيم بن المعز عنهم بشاكل بلاده وأخذوا يتغلبون تدريجيا على مدن صقلية دون أن يقاومه أهلها مقاومة فعالة . وما أن تمكن تسيم من التفاهم بعض الشيء مع زعماء العرب الهلالية حتى تفرغ لتحقيق مشروع أبيه . فبعث الى صقلية اسطولاً زوده بالرجال والعدة . وقدم عليه ولديه أيوب وعلياً . فوصل الاسطول الى جرجنت .

وقابل أهل صقلية نبأ وصول النجدة الزيرية في سعادة وفرحة . واستقبلوا أيوبا استقبالا حاراً أغضب ابن الحواس . فأمن أهل جرجنت باخراجه عنها . فخالفوه . وأدى ذلك الى نشوب القتال . وأصيب ابن الحواس بسهم غرب صرعه على الفور . غير أن مسلي بلرم لم يحتسبوا سيادة بربر افريقية عليهم . فقامت فتنة أدت الى قيام الحرب بين المسلمين . ولم يجد أيوب وأخوه على بدا من العودة بالاسطول الى افريقية في سنة ٤٦١ هـ . وصحبهما جماعة من أعيان صقلية تاركين الجزيرة المنكوبة لمصيرها التعس . وخلا المجال للنورمان ولم يبق لهم مانع ولا ممانع . فاستولوا على بلرم في سنة ٤٦٥ هـ . وأخذت مدن صقلية تتساقط في أيديهم الواحدة اثر الاخرى . ولم يبق في حوزة المسلمين سوى مدينتي جرجنت وقصريانة . فحاصرها النورمان . وضيقوا على المسلمين الحصار حتى اكلوا الميتة . وعدموا الاقوات . فاستسلمت جرجنت في سنة ٤٨١ هـ . اما قصر يانة فظلت تقاوم وحدها ثلاث سنوات أذعن أهلها بعدها الى التسليم . فاستولى عليها رجار في سنة ٤٨٤ هـ (١) .

(١) ابن الاثير ، المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٧ - النويري ، ص ٢٢٩ - الحميري ، ص ١٥٨ - ابن أبي دثار ، ص ٨٢ - Marçais, La Berberie, p. 219-220

(٤)

جهاد الزيريين في البحر منذ أيام تسيم بن المعز

أسس تسيم بن المعز أسطولاً ضخماً بدار الصناعة بالمهدية ، وقام هو وابنه من بعده يحيى بن تسيم بشن الغارات البحرية المتواصلة على جزيرة صقلية . وعلى السواحل الإيطالية ^(١) . وكان دخول صقلية في فلك النورمان قد دفع كثيراً من رجال البحر المسلمين الى الهجرة الى افرقية والاشتغال بالجهاد البحري والغزو . وقد قام يحيى بن تسيم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ) بدور كبير في هذا الجهاد . « فقد كانت له غزوات بحرية عملها الى بلاد الروم الى أن طلبوا سلبه ^(٢) ، ففي سنة ٥٠٣ هـ جرد من أسطوله خمسة عشر غراباً لغزو بلاد الروم ، فأصيب منها ستة . وعادت السفن الباقية الى المهدية ^(٣) . وفي سنة ٥٠٧ هـ أغار اسطول المهدية على بلاد الروم . وعاد بسبي كثير في ربيع الآخر ^(٤) . وكان لهذه الغارات أثر كبير في قيام النورمان بتوجيه ضرباتهم الى المهدية . وتشير المصادر الى أن يحيى بن تسيم كان يوجه سفنه للاغارة على سواحل سرديانية وجنوة وبروفانس ^(٥) ، وأنه صرف همه الى « غزو النصارى في الاساطيل البحرية ، فاستكثر منها واستبلغ في اقتنائها ، وردد البعوث الى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد افرنجة وجنوة وسردانية ^(٦) » . ولكن يحيى لم يوجه غاراته الى

(١) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين ، ص ٢٢٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٨٠

(٣) ابن غزاري ، ج ١ ص ٤٢٨ - ابن أبي دينار ، ص ٨٣

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٢٩

(٥) اومبرنو ريتسيانو ، ص ١٨٣

(٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٩

صقلية . اذ كان أبوه مرتبطا بمعاهدة مع رجار الاول عقدت في سنة ٤٦٨ هـ . وظلت سارية المفعول في عهد تسيم بن المعز وولده يحيى ثم في عهد علي بن يحيى (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) . غير أن المنافسات التجارية بين صقلية والمهدية أدت في النهاية الى نقضها (١) .

وحدثت بين رجار وعلي بن يحيى بن تسيم جفوة شديدة سادت العلاقات بينهما بسبب خلاف قام بين علي ابن يحيى ورافع بن مكى بن كامل بن جامع الرياحي المنقلب على قابس . مرجعه رغبة علي بن يحيى في احتكار التجارة البحرية . وقد أدى هذا الخلاف الى خروج علي لحصار قابس في سنة ٥١١ هـ . فاستعان رافع بregar صاحب صقلية الذي أمد رافعا بأسطول ضخيم يتألف من ٢٤ شينيا . ولكن أسطول علي تسكن من ايقاع الهزيمة بأسطول النورمان في مياه قابس (٢) . وبدأ علي منذ ذلك الحين يدعم اسطوله ويقويه استعدادا للحرب . فعبر عشرة مراكب حربية وثلاثين غرابا وشحنها بالرجال والعدد والنفط (٣) . ولما كان يدرك تساما عدم قدرته على مواجهة رجار وحده ، فقد كاتب المرابطين بسراکش وطلب من أميرهم الاجتساع معه على الدخول في صقلية وكف رجار عما يعتزمه (٤) . ويذكر ابن عذارى ان رجار أرسل في ٥١٢ هـ رسولا الى علي بن يحيى « يلتبس تجديد العقود وتأكيد العهود ، ويطلب أموالا كانت له موقفة بالمهدية . وذلك بعنف وغلظة ، فرد على رسوله

(١) Marçais, La Berberie, P. 221

(٢) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٧٩ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٠ ، ٢٤٢ - النجاشي ، ص ٩٨ ، ٩٩ - النويري ، ج ٢٢ ص ١٧٢ ، ١٧٣ - محمد الرزوقي ، قابس ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٧٢

(٣) النويري ، ج ٢٢ ص ١٧٣

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤٤

دون جواب . وجبهه بالقول . فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار ، فأوسع
شرا . وحاول بعد ذلك مكرًا . « (١) .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٤٣

(٥)

استيلاء النورمان على المهديّة

توفي علي بن يحيى في سنة ٥١٥ هـ وخلفه ابنه الحسن آخر أمراء بني زيري ، وحدث في عهد الحسن أن قام أبو عبدالله بن ميمون قائد أسطول علي بن يوسف بن تاشفين بالآغارة على صقلية في سنة ٥١٦ هـ ، فافتتح مدينة نقوطرة Nicotera من علل رجار الثاني ، وسبى نساءها وأطفالها ، وقتل شيوخها ، وسلب جميع ما وجدته فيها ، فلم يشك رجار في أن المحرك لتلك الغارة المرابطية هو أمير إفريقية الحسن بن علي ، فصمم على الانتقام منه ، « فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة ، فالتأم له ما لم يعهد مثله كثرة » (١) ، وأعد الحسن بن علي عدته ، وتأهب لتلقي أساطيل رجار ، وجمع مائة ألف راجل وعشرة آلاف فارس (٢) .

واتخذت حملة رجار طابع الحملات الصليبية ، وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن تحصل على ظهرها ثلاثين ألف مقاتل وزهاء ألف فارس ، يقودهم جورجي بن ميخائيل الانطاكي . وعبد الرحمن النصراني ابن عبد العزيز . وكان جورجي هذا نصرانيا مشرقيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية ، فاصطنعه تميم وجعله ناظرا على أمواله ، فلما توفي تميم ، خاف جورجي على نفسه من يحيى ، ورحل هو وأهله وذويه الى صقلية بعد أن تزيا بزى البحرين ، وحظى في صقلية بسجبة رجار له ، فسيره رسولا الى الخليفة الفاطمي ببصر (٣) . ثم استخدمه على قيادة

(١) نفسه ص ٤٤٢

(٢) ابن أبي دينار ، ص ٨٤ - انحاف أهل الزمان ، ص ١٤٣

(٣) النجاني ، ص ٢٢٢

اسطوله . فلما عزم رجار على مهاجمة المهديّة بعثه في اسطوله المذكور في سنة ٥١٦ هـ . وبالغ رجار في اخفاء تحركات هذا الاسطول عن المسلمين حتى يتفاجيء به المهديّة . فيسهل عليه التغلب عليها . ولكن سفينة من سفنه دعتها الرياح الى الساحل . فانكشفت خطة رجار . وتأهب الحسن بن علي لاستقباله . واستعان بقبائل العرب ، فقدموا أفواجا بنية خالصة في الجهاد . ونزل الاسطول في آخر جبادي الاولى سنة ٥١٧ الى ساحل افريقية . فافتتح جرجي جزيرة قوصرة . ثم استولى على جزيرة الاحاسي . وهي جزيرة تقع على بعد عشرة أميال من المهديّة ذات أحساء . بينها وبين البحر مجاز متداني المعبر . هين خوضه على الفارس والراجل ^(١) . ثم استولى النورمان في ٢ جبادي الآخرة على قصر الديساس ، وزحفوا من هناك في البر بالرجال والخيال الى المهديّة . وعندئذ اجتمع المسلمون . وخرجوا من المدينة كالموج . فانهمز النورمان وتراجعوا الى سفنهم ، ودخل المسلمون جزيرة الاحاسي . وغنموا غنائم هائلة . ثم حاصروا قصر الديساس ، فاضطر عسكر النورمان الى طلب الامان من الحسن في ١٤ جبادي الآخرة . ولكن العرب الذين اشتركوا معه في القتال رفضوا ذلك . فخرج النورمان في منتصف جبادي الآخرة . فأخذتهم سيوف العرب ، وأبيدوا عن آخرهم . أما النورمان الذين فروا من الجزيرة أحياء فقد ألقوا بها تبقى من السفن . وعددها مائة ، عاندين الى صقلية ^(٢) . وقد صور الشاعر ابن حديس الصقلي انتصار المسلمين في واقعة الديساس بقوله :

(١) التجاني ، ص ٢٢٨ - الحميري ، الروض المطار ص ١٨١

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٤٢ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢١ - التجاني ، ص ٢٢٥ -

ابن أبي دينار ، ص ٨٤

هناك شفي الاسلام منهم غليله بطعن له بتر وضرب له هبر
وكانوا رأوا مهديتيك وفيها لعز الهدى أمر فهاهم الأمر
فما للعلوج امتد في الغي جهلهم أما كان فيهم من ليبب له حجر
فكم قسسوا في الفن أميال أرضنا ولم يطنوا منها مكانا هو الشبر^(١)

وادرک رجار بعد هذه الهزيمة أن الوقت لم يحن بعد لفتح المهديّة ،
فأرجأ ذلك الى فرصة مواتية ، وأخذ يعد العدة لحملة جديدة .

وكان في امكان الحسن بن علي ان يكون ندا عتيذا لرجار لولا
أنه اصطدم وقتذاك بأطماع يحيى بن العزيز بالله الحساوي صاحب بجاية ،
فاضطر الى مداراة رجار ، ووقع معه هدنة في سنة ٥٢٩ هـ . وثار أهل
المهديّة لذلك ، وكاتبوا يحيى بن العزيز وأطبعوه في المهديّة ووعدوه
بتسليمها اليه . فوثق بهم ، وبعث اليهم جيشا في البر ومراكب في البحر ،
ونازل المهديّة برا وبحرا فأرسل رجار أسطولا من ٢٠ سفينة لمساعدة
الحسن ، وأراد مقدم الاسطول النورماني أن يقضي على سفن صاحب
بجاية ، فنهاء الحسن عن ذلك ، وعادت مراكب بجاية الى قواعدها ،
كما عادت سفن رجار الى صقلية^(٢) . وكان رجار قد أدرك بعد أن قدم
مساعدته للحسن ضعف قوته البحرية ، فعزم على الاستيلاء على المهديّة
وعلى غيرها من موانئ افريقية . ففي سنة ٥٢٩ هـ أرسل رجار اسطولا
الى جزيرة جربة ، فافتتحها بالسيف في غفلة من أهلها ، وقتل رجالها
وسبى حريصها^(٣) . وفي سنة ٥٣٦ هـ أغار جرجي الانطاكي على مرسى
المهديّة في أسطول يتألف من ٢٥ غرابا ، واستولى على ما كان راسيا به

(١) أومبرتو ديتسيانو ، ص ١٨٥

(٢) ابن أبي دينار ، ص ٨٥

(٣) ابن عذاري ، ص ٤٥ - ابن أبي دينار ص ٨٥ - محمد أبو راس الجرجي ، ص ١٠١

من السفن (١) . ومن بينها مركب ضخيم كان قد صنعه الحسن من أخشاب مركبين مصريين غيطاني وعجزي كانا قد قدما من الاسكندرية في سنة ٥٣٢ هـ للعزیز بن المنصور بن علناس صاحب بجاية . فاستولى عليها الحسن (٢) . وفي سنة ٥٣٧ هـ أغار اسطول صقلية على طرابلس . ولكن النورمان لم يتسكنوا في هذه الغارة من الاستيلاء عليها لحصاناتها وشدة دفاع أهلها عنها . ولكن حظ هذا الاسطول كان أكثر توفيقا في جيجل اذ تسكن من انتزاعها عنوة ، وسفك النورمان دماء أهلها وسبوا حريتها . وأحرقوها بالنار . واستولى رجار في نفس السنة على جزيرة قرقة . وسبى أهلها (٣) .

ثم عزم رجار على محو هزييته في طرابلس ، فقام بعد سنتين بالاغارة عليها في قوة بحرية صغيرة للتسوية . ثم أعاد الكرة في سنة ٥٤١ هـ في اسطول ضخيم عدته مائتا سفينة . فاقتحم النورمان أسوارها ، وتغلبوا عليها ، وسفكوا دماء أهلها ، ونهبوا اموالهم (٤) . وفي العام التالي افتتح النورمان مدينة قابس .

ثم اغتنم رجار فرصة اشتداد المجاعة بافريقية في سنة ٥٤٣ هـ ، وهجرة عدد كبير من سكانها ، وعمر أسطولا من ٣٠٠ شينيا مشحونة بالسلاح والرجال ، ووصل الى المهدية في ٢ صفر ، وخادع أهلها ودخلها بدون مقاومة (٥) . وظفر النورمان بجميع تحف القصور ونقائسها ، وغنموا مراكب الامير الحسن ومن بينها سفينة كان قد انشأها ليهدئها الى الخليفة

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥١

(٢) ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، ص ٢٢٤ - ابن عذاري ، ص ٥١

(٣) ابن أبي دينار ، ص ٧٦

(٤) النويري ، ج ٢٢ ص ١٧٤

(٥) ابن عذاري ، ص ٥١ - التجاني ، ص ٢٤٠ - النويري ، ص ١٧٥

الفاطمي الحافظ تعرف باسم « نصف الدنيا » (١) ، ولعله كان يعد هذه السفينة ليركبها الى مصر لاجئا . ثم استولى جرجي الانطاكي على سفاقس وسوسة في نفس السنة (٢) .

أما الامير الحسن فقد خرج من المهديّة بحاشيته الى قسنطينة ، وكان بها سبع بن العزيز صاحب بجاية ، فأرسله الى جزائر بني مزغنة حيث أقام الى أن افتتح الموحدون هذا الثغر في سنة ٥٤٧ هـ ، فكرمه الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي ، واشترك الحسن معه في تحرير المهديّة من النورمان في ١٠ من المحرم سنة ٥٥٥ هـ (٣) .

السيد عبد العزيز سالم

(١) التجاني ، ص ٢٤٠ - اتحاف اهل الزمان ، ص ١٤٣

(٢) النويري ، ص ١٧٦ - ابن أبي دينار ، ص ٨٧

(٣) ابن أبي زرع ، الانيس المطرب ، طبع حجر ، ص ١٢٥

قائمة المراجع

- ١ - ابن الأبار (أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي) : كتاب
الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣
- ٢ - ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل في
التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ
- ٣ - الإدريسي (الشريف أبو عبدالله محمد بن العزيز) : صفة
المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق
في اختراق الآفاق ، نشره دوزي ودي غويه ، ليدن ، ١٨٩٣
- ٤ - « : صفة البلاد الإيطالية ، نشره أماري ، رومة ١٨٧٨ م
- ٥ - ارسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ،
١٣٩٢ هـ
- ٦ - Amari (M.) : Storia dei Musulmani di Sicilia, t. I,
Catania, t. 1933.
- ٧ - الانصاري السبتي (محمد بن القاسم) : اختصار الاخبار ،
نشره الاستاذ ليفي بروغنسال ، مجلة هسبريس Hesperis ، ج ١٢ ،
كراسة ٢ ، الرباط ، ١٩٣١
- ٨ - الانطاكي (يحيى بن سعيد) : صلة كتاب سعيد بن بطريق ،
المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ، ١٩٠٥

Brunschvig (R.) : La Berberie Orientale sous les — ٩
Hafsides, t. II, Paris, 1940.

١٠ — بعيو (مصطفى عبدالله) : دراسات في التاريخ اللوبي .
الاسكندرية ، ١٩٥٣

١١ — البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان .
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧

١٢ — البكري (ابو عبيدالله عبدالله بن عبد العزيز) : المغرب في
ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق البارون دي سلان ، الجزائر ، ١٩١١

١٣ — Pellegrin (Arthur) : Histoire de la Tunisie,
Tunis, 1948.

١٤ — Bernet (Juan) : Influencias musulmanas en el
origin de la cartografia nautica, pub. de la R. S. G.
No 289, Madrid, 1953.

والترجمة العربية للدكتور أحمد مختار العبادي ، في مجلة المعهد
المصري للدراسات الاسلامية بسدر يد بعنوان : « هل هناك أصل عربي
اسباني لفن الخرائط البحرية » ، العدد الاول . السنة الاولى . مدريد .
١٩٥٣

١٥ — Pèrès (Henri) : la poésie andalouse en Arabe
classique au XIe siècle, Paris, 1937.

١٦ — التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد) : رحلة التجاني ،
تحقيق الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨

١٧ — ابن تغري بردي (ابو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة
في ملوك مصر والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦

- Torres Balbàs (L.) : Atarazanas hispanomusul. — ١٨
manas, al-Andalus, vol, XI, 1946.
- » » : Râbitas hispanomusulmanas, al - — ١٩
Andalus, vol, XIII, 1948.
- » » : Almeria Islamica, al - Andalus, — ٢٠
vol. XXII, 1927.
- Garcia y Bellido (A.) : La Espana del siglo — ٢١
primero de nuestra era, segun
Mela y plinio, colleccion Austral,
Madrid, 1947.
- ٢٢ — ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد) : الرحلة ، تحقيق
وليم رايت ، ليدن ، ١٩٠٧
- ٢٣ — الجبري (محمد أبو راس) : مؤنس الاحبة في أخبار جربة ،
تحقيق محمد المرزوقي . تونس ، ١٩٦٠
- ٢٤ — الجزنائي (أبو الحسن علي) : كتاب زهرة الآس في بناء
مدينة فاس ، نشره الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢
- ٢٥ — ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب ،
تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال . القاهرة ، ١٩٤٨
- ٢٦ — الحميدي (أبو عبدالله محمد بن فتوح) : جذوة المقتبس في
ذكر رجال الاندلس ، حققه الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة .
١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م)
- ٢٧ — الحميري (ابن عبد المنعم) : صفة جزيرة الاندلس ، من

كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ،
القاهرة ، ١٩٣٧

٢٨ — الحميري : منتخبات من الروض المعطار متعلقة بجزيرة
صقلية ، نشرها الدكتور امبرتو ريتيسيتانو ، بسجلة كلية الاداب ، جامعة
القاهرة ، مجلد ١٨ ، ج ١ ، مايو ، ١٩٥٦

٢٩ — ابن حوقل النصيبى : صورة الارض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢

٣٠ — ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) : قطعة من كتاب
المقتبس في تاريخ رجال الاندلس ، من عهد الامير عبدالله ، نشرها الاب
ملشور أنطونية ، باريس ، ١٩٣٧

وقطعة من المقتبس من عصر الامير عبد الرحمن الاوسط ، تحقيق
الدكتور محمود على مكى ، بيروت ١٩٦٩ •

وقطعة ثالثة من المقتبس من عصر الخليفة الحكم المستنصر ، تحقيق
الدكتور عبد الرحمن على الحجى ، بيروت ١٩٦٥

٣١ — ابن خاقان (الفتح بن محمد) : قلائد العقيان ، طبعة مصر ،
١٣٢٠ هـ

٣٢ — ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : كتاب أعمال الاعلام ،
تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦

٣٣ — » » : كتاب أعمال الاعلام ، الجزء الثالث الخاص
بالمغرب ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم
الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

٣٤ - ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ ، تحقيق الاستاذ محمد عبدالله عنان ، القاهرة ، ١٩٦٦

٣٥ - ابن خلدون : (عبد الرحمن) : كتاب العبر ، المقدمة ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافي ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٧

٣٦ - » » : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ

٣٧ - ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق الاستاذ ابراهيم الايباري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور احمد أحمد بدوى ، القاهرة ، ١٩٥٤

٣٨ - Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, nouvelle édition, t. I, Leyde, 1932.

٣٩ - Diehl (Charles) : Histoire du Moyen-âge, t. III; Le Monde oriental, de 395 à 1081, Paris, 1936.

٤٠ - الذهبى : (أبو عبدالله محمد) : العبر في خبر من غبر ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٠

٤١ - ابن رسته : (أبو على أحمد بن عمر) : الاعلاق النفيسة ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق دي غوية ، لندن ، ١٨٩٢

٤٢ - الزاوى : (الاستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ، ١٩٦٣

٤٣ - ابن أبى ذرع (على بن محمد الفاسي) : الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، طبع حجر . البحرية الاسلامية - ١٥

٤٤ — زيادة (دكتور نقولا) : لمحات من تاريخ العرب . بيروت .

١٩٦١

٤٥ — سارنللى (كليشيا) : مجاهد العامري ، القاهرة ، ١٩٦١

٤٦ — سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : المرية قاعدة الاسطول

الاندلسي . مجلة الرابطة ، القاهرة ، مايو — يونيو ١٩٥٩

٤٧ — » » : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي .

الطبعة الاولى ، الاسكندرية ، ١٩٦١ . والطبعة الثانية ١٩٦٩

٤٨ — » » : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٤٩ — » » : المغرب الكبير ، الجزء الثاني : العصر الاسلامي .

الاسكندرية ، ١٩٦٦

٥٠ — » » : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧

٥١ — » » : دراسات في تاريخ العرب . الجزء الاول : عصر

ما قبل الاسلام . الاسكندرية ، ١٩٦٨

٥٢ — ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) : المغرب في حلى المغرب .

تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥

٥٣ — السلاوى (أبو العباس احمد بن خالد) : الاستقصا لخبار

المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤

٥٤ — Scott : History of the moorish empire in Europe ,
vol. II. London, 1904.

٥٥ — Simonet (Francisco Javier) : Historia de los
Mozarabes de Espana, Madrid, 1897—1903,

٥٦ — السيوطي (جلال الدين) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . ج ١ . طبعة مصر ١٣٢٧ هـ

٥٧ — Cheira (M. A.) : La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.

٥٨ — الشيال (دكتور جمال الدين) : أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٥

٥٩ — « » : المجبل في تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩

٦٠ — الضبي (أبو جعفر أحمد) : بغية المتتس في تاريخ رجال الاندلس ، تحقيق كوديرة ، مدريد ، ١٨٨٥

٦١ — طرخان (دكتور ابراهيم) : المسلمون في أوربا ، القاهرة . ١٩٦٦

٦٢ — الطرطوسي (مرضى بن على بن مرضى) : تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ، نشره الاستاذ كلود كاهن Claude Cahen في مجلة :

Bulletin des Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, t. XII, année 1947—1948.

٦٣ — الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الامم والملوك ، تحقيق دى غوية ، ليدن ، ١٨٨٠ — ١٨٨٣

٦٤ — العبادي (دكتور أحمد مختار) : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بسدير ، المجلد ٥ ، ١٩٥٧

٦٥ — « » دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية

١٩٦٨

- ٦٦ — عباس (دكتور احسان) : العرب في صقلية ، القاهرة
- ٦٧ — ابن عبد الحكم : (عبد الرحمن القرشي) : كتاب فتوح مصر
والمغرب والاندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١
- ٦٨ — عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) : فترة حاسنة في تاريخ
المغرب ، مجلة كلية الاداب والتربية بالجامعة الليبية ، المجلد الاول .
بنغازي ، ١٩٥٨
- ٦٩ — » » : الاسكندرية الاسلامية ، مقال في كتاب محافظة
الاسكندرية منذ اقدم العصور ، الاسكندرية ، ١٩٦٣
- ٧٠ — عبد الوهاب (الاستاذ حسن حسنى) : قصة جزيرة قوصرة ،
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، عدد ٢ ، اكتوبر ، ١٩٤٩
- ٧١ — عثمان (دكتور فتحى) : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج ٢ .
القاهرة ، ١٩٦٧
- ٧٢ — العدوى (دكتور ابراهيم) : الاساطيل العربية في البحر
المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧
- ٧٣ — » » : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة .
١٩٥٨
- ٧٤ — » » : اقریطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع
الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الثاني .
اكتوبر ، ١٩٥٠
- ٧٥ — » » : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ،
القاهرة ، ١٩٦٣

- ٧٦ — ابن عذارى (أبو العباس أحمد المراكشي) : البيان المغرب
في أخبار المغرب ، جزآن طبعة بيروت ، ١٩٥٠
- ٧٧ — « » : البيان المغرب في أخبار المغرب ، الجزء الثالث ،
تحقيق الاستاذ ليفى يروفنسال ، باريس ١٩٣٠
- ٧٨ — ابن العنزي الدلاني (أحمد بن عمر بن أنس) : ترصيع
الاخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك الى
الممالك ، نشره الدكتور عبد العزيز الاهواني ، مدريد ، ١٩٦٥
- ٧٩ — العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) : وصف افريقية
والمغرب والاندلس من كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار ، تحقيق
الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٠٦
- ٨٠ — عنان (الاستاذ محمد عبدالله) : مواقف حاسمة في تاريخ
الاسلام ، القاهرة ، ١٩٢٩
- ٨١ — عواد (الاستاذ ميخائيل) : المآصر في بلاد الروم والاسلام ،
بغداد ، ١٩٤٨
- ٨٢ — ابن غالب (محمد بن أيوب الاندلسي) : قطعة من كتاب
فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع ،
مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦
- ٨٣ — Vasiliev ; Byzance et les Arabes, t. I : La dynas-
tie d'Amorium, Bruxelles, 1935.
- والترجمة العربية بعنوان « العرب والروم » للدكتور محمد عبد
الهادي شعيرة

Vallvé (Joaquin) : Suqut al-Bargawati, rey de — ٨٤
Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII, fasc. 1, Madrid, 1963.

٨٥ — ابو الفداء (الملك المؤيد عباد الدين اساعيل) : المختصر في
اخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩

Fahmy (Dr. Aly Moh.) : Muslim sea - power in — ٨٦
the eastern Mediterranean, Cairo, 1966.

٨٧ — ابن القطان (أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي) :
جزء من كتاب نظم الجبان ، تحقيق الدكتور محسود علي مكي ، منشورات
كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ، بالرباط ، تطوان .

٨٨ — ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبدالله) : كتاب الامامة
والسياسة ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٣٧

٨٩ — ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر) : تاريخ افتتاح
الاندلس ، نشره دون خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

de las Cagigas (Isidro) : Andaluces en Africa, — ٩٠
Boletin de la Real academia de ciencias, Bellas letras,
y nobles artes de Cordoba, ano VIII, 1929.

٩١ — القيرواني (ابن أبي دينار) : المؤنس في تاريخ افريقية
وتونس ، تونس ، ١٢٨٦ هـ

٩٢ — ابن الكردبوس : تاريخ الاندلس ، نص نشره الدكتور أحمد
مختار العبادي ، بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بدمريد ، المجلد ١٣ ،
دمريد ١٩٦٥ ، ١٩٦٦

٩٣ — الكعك (الاستاذ عثمان) : مراكز الثقافة في المغرب ،
مطبوعات معهد الدراسات العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٥٨

- ٩٤ — الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) : كتاب الولاية وكتاب
القضاة ، تحقيق الاستاذ رفرنجست ، بيروت ، ١٩٠٨
- ٩٥ — لويس (ارشيبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض
البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٠
- ٩٦ — Lévi - Provençal (E) : Inscriptions arabes d'Espa-
gne, 2 vols., Paris - Leyde, 1931.
- » » : L'Espagne musulmane au xe siècle, — ٩٧
Institutions et vie sociale, Paris, 1932.
- » » : Histoire de l'Espagne musulmane, — ٩٨
t. III, Paris, 1953.
- » » : Les citations du Muqtabis d'Ibn — ٩٩
Haiyyan relatives aux agrandissements
de la grande mosquée de Cordoue, au
IX e siècle, Arabica, t. I, fasc. 1, Leiden,
1954.
- ١٠٠ — ليفى بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة
الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حليبي ،
القاهرة ، ١٩٥٨
- ١٠١ — المالكي (أبو بكر عبدالله بن ابي عبدالله) : كتاب رياض
النفوس ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١
- ١٠٢ — ماهر (دكتورة سعاد) : البحرية في مصر الاسلامية وآثارها
الباقية ، القاهرة ، ١٩٦٧
- ١٠٣ — مجهول : أخبار مجموعة في تاريخ الاندلس ، نشره دون
لافونت القنطرة ، مدريد ١٨٦٧

١٠٤ — مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، نشره
الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

Marçais (G.) : La Berbérie musulmane et l'Orient — ١٠٥
au Moyen - âge, Paris, 1946.

١٠٦ — المرزوقي (الاستاذ محمد) : قابس ، القاهرة ١٩٦٢

١٠٧ — ابن مرزوق (الخطيب) : نخب من كتاب المسند الصحيح
في مآثر مولانا أبي الحسن ، نشره ليفى بروفنسال في مجلة هسبريس ،
العدد الاول ، سنة ١٩٢٥

١٠٨ — المسعودي (أبو الحسن على) : كتاب مروج الذهب ومعادن
الجوهر ، تحقيق الاستاذ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٠٩ — » » : التنبيه والاشراف ، ليدن ، ١٨٩٣ ، وطبعة
مصورة عنها بيروت ، ١٩٦٥

١١٠ — المسعودي (أبو عبدالله محمد الباجي) : الخلاصة النقية
في أمراء افريقية ، تونس ، ١٣٢٣ هـ

١١١ — المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد) : أحسن
التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦

١١٢ — المقرئ (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس
الطيب ، تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ،
القاهرة ، ١٩٤٩ .

١١٣ — المقرئ (تقى الدين أحمد) : كتاب المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ ، وطبعة بيروت ، ١٩٥٦

١١٤ — المقرئى : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ،
الجزء الاول نشره الدكتور جمال الدين الشيال عن المخطوطة الكاملة
بمكتبة سراى أحمد الثالث باسطنبول ، القاهرة ، ١٩٦٧

١١٥ — مكى (دكتور محسود على) : التشيع فى الاندلس ، مقال
بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامىة ، بسدرىد ، المجلد الثانى ،
١٩٥٤

١١٦ — المكتبة الصقلية ، نصوص عربىة جمعها الاسناذ مىخائىل
أمارى ، ونشرها فى ١٨٥٧

١١٧ — مؤنس (دكتور حسىن) : غارات النورمانىين على الاندلس
بىن ستنى ٢٢٩ ، ٢٤٥ هـ ، المجلد التاريخىة المصرىة ، عدد ١ مجلد ٢
ماىو ، ١٩٤٩

١١٨ — » » : ففتح العرب للسعرب ، القاهرة ، ١٩٤٧

١١٩ — النعمان (القاضى أبو حنىفة بن محمىد) : قضىة اقريطش فى
عهد المعز لىدين الله ، تحقيق فرحات الدشراوى ، حوليات الجامعة
التونسىة ، العدد الثانى ، ١٩٦٥

١٢٠ — النورى (شهاب الدين أحمد) : نهاية الارب فى فنون
الادب ج ٢٢ ، نسخة مصورة من المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرىة
برقم ٥٤٩ معارف عامة .

١٢١ — النورى السكندرى (محمىد بن قاسم) : الالام بسا جرت
به الاحكام المقضىة فى وقعة الاسكندرىة ، نسخة مصورة من المخطوطة
نسخة الهند المحفوظة بمكتبة كلىة آداب الاسكندرىة برقم ٧٣٨ م

- ١٢٢ — الهمداني (ابن الفقيه) : مختصر كتاب البلدان ، طبعة
ليدن ، ١٨٨٥
- ١٢٣ — ياسين الحموي (الاستاذ محمد) : تاريخ الاسطول العربي -
دمشق ، ١٩٤٥
- ١٢٤ — ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) : معجم
البلدان ، خمسة مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥
- ١٢٥ — اليعقوبي (أحمد بن جعفر) : كتاب البلدان ، الجزء السابع
من المكتبة الجغرافية العربية ، لندن ، ١٨٩١
- ١٢٦ — » » : تاريخ اليعقوبي ، ٣ أجزاء ، طبعة النجف ، ١٣٥٨

القسم الثاني

البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس
منذ قيام دولة المرابطين حتى سقوط مملكة غرناطة

رأينا أنه خلال القرن الخامس الهجري (١١ م) ، حدث تغيير كبير في ميزان القوى في غربي حوض البحر المتوسط : فالسيطرة الاندلسية على هذه المنطقة قد ضعفت رغم المحاولات الجريئة التي قام بها مجاهد العامري في سبيل استعادة هذا النفوذ القديم الذي كان للدولة الاموية من قبل .

كذلك نلاحظ في الوقت نفسه أن قوى بحرية جديدة مثل جنوه وبيزا وبرشلونة وغيرها ، قد أخذت تقوى وتزدهر حتى تمكنت اساطيلها من السيطرة على البحر المتوسط وتجارته .

ولعل أصدق مثال يصور هذه الحالة ، هو ما ذكره أبو الاصبغ نباتة الحارثي الاندلسي ، من أن المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، بعث الى الشاعر الصقلي أبي العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزيري مبلغ خمسمائة دينار بصقلية وامره ان يتجهز بها ويتوجه اليه ، فكتب اليه ابو العرب معتذرا بقوله :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى
وأعجب لاسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا يجرى السفين به
الا على الفرر ^(١) والبر للعرب ^(٢)

(١) الفرر (يفتح الفين والراء) التعرض للهلاك

(٢) راجع (أماري : المكتبة العربية الصقلية ص ٦٢٨ - ٦٢٩)

البحرية على عهد المرابطين

المرابطون أو الملمثون ، قوم صحراويون من قبائل صنهاجة اللثام . خرجوا من صحراء موريتانيا برسالة دينية سامية تقوم على جهاد المارقين عن الدين الحنيف من قبائل برغواطة وغساره في بلاد المغرب شمالا (١) . واستطاع هؤلاء المرابطون المجاهدون أن ينتصروا على هذه القوى الضالة . وأن يسيطروا على جميع بلاد المغرب الاقصى ما عدا بعض الثغور الشمالية مثل سبتة وطنجة التي سيطرت عليها امارة بحرية قوية ، وهي امارة سقوت البرغواطي . وكانت دراية المرابطين بالشئون البحرية قليلة في ذلك الوقت . ولهذا لم يتمكنوا من احتلال تلك الثغور . ومن ثم شرع يوسف بن تاشفين في اعداد أسطول لهذا الغرض . كما استنجد في الوقت نفسه باساطيل جيرانه ملوك الطوائف بالاندلس . وقد استجاب بعضهم لندائه . لان هذه الامارة البرغواطية ، كانت بحكم وضعها الجغرافي في منطقة سبتة وطنجة ، تستلك اسطولا بحريا وتتحكم في مضيق جبل طارق ، وكثيرا ما أثارت الذعر والاضطراب بسبب أعمال القرصنة التي كانت تقوم بها ضد السفن الاندلسية والمغربية المارة هناك ، وفي ذلك يقول ابن بسام :

« من رجل — أي سقوط البرغواطي — استعان بالشر ، وتهاون بالامر ، لا سيما في البحر ، فانه اضرم بلججه نارا ، ولقى ريجه اعصارا ، أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف الى كل رعبا ، فضجت منه الارض والساء ، والتقت الشكوى عليه والدعاء (٢) . »

(١) راجع تفاصيل قيام هذه الدولة في مقالنا (الصفحات الاولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦) .
(٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ - ٥٧ حيث وردت هذه النصوص نقلا عن كتاب الذخيرة لابن بسام .

واستطاع أسطول سقوت البرغواطى بقيادة ولده المعز أن يتنصر في مياه سبته على الاسطول الذي أعده يوسف بن تاشفين لقتالهم سنة ٤٧٦ هـ . وأن يستولى على قطعة جليلة منه ، مما أدى الى ارتياع محلة المرابطين لاختذ تلك القطعة حتى هموا بالاحجام ، وقوضوا بعض الخيام ^(١) . ولكن في ذلك الوقت وصلت نجدة المعتد بن عباد ملك اشبيلية وهي سفينة حربية ضخمة ، تقدمت — كما يقول ابن بسام — نحو سبته ، « فأطلقت على أسوارها ، ورفعت صوتها ببوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبته الى سوء قرارها ، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ ٤٧٦ هـ ، فلجأ المعز بن سقوت الى البحر ، فهم بركوبه فأعوزة الفرار ، ودفع في صدره المقدار . وكر راجعا فدخل دارا تعرف بدار شوير ، وبدرت جماعة من المرابطين ، فاقتحموا عليه بعد مرام وقتال شديد حتى ضاق اضطرابه ، وفر عنه أصحابه . ولما أحس بالشر ، دفع ذخائر كانت عنده الى بعض أصحابه . فبلغني أنه عثر عليها ، فوجدوا فيها جوهرًا كبيرًا ، ونسبًا من نسب الملك خطيرا . ووجد في جيلتها خاتم يحيى بن علي بن حمود الادريسي ، وخرج بالمعز بن سقوت حين وضع الفجر ، فلقه المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منه المال فقال له : « الخازن أيبك كنا نجبع المال ؟ فجلله الحسام ، وحكم فيه الجمام ، تعالى من لا يرد قضاؤه ولا تبيد آلاؤه » ^(٢) .

ولا شك أن احتلال المرابطين لهذه الثغور الشمالية ، كان خطوة ايجابية في بناء أسطول مغربي قوى ، اذ انهم استفادوا من دور صناعتها وما فيها من سفن وآلات ، وقد أشار بعض المؤرخين الى أن أول عمل

(١) و (٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ - ٥٧ ويلاحظ أن سقوط البرغواطى كان في الاصل مملوكا لبنى حمود الادارسة حكام هذه المنطقة ثم تمكن من الاستقلال بها .

اهتم به يوسف بن تاشفين بعد دخوله سبتة . هو اصلاح أحوالها وسفنها (١) .

وعندما استنجد الاندلسيون بالمرابطين ضد أطماع الملك الفونسو السادس ، اشترط عليهم يوسف تسليبه ثغر الجزيرة الخضراء كي يستطيع التحكم في مضيق جبل طارق ويضمن سلامة قواته وخطوط مواصلاته بين العدوتين ذهابا وإيابا . واضطر المعتد بن عباد ، الذي كانت الجزيرة الخضراء ضمن ممتلكاته ، أن يستجيب لطلبه ، فأمر ابنه الرازي باخلاء هذه المنطقة الجنوبية وتسليمها ليوسف بن تاشفين (٢) . ثم جاز يوسف ابن تاشفين بجيوشه الى الاندلس ، وكان أسطوله حتى ذلك الوقت يتألف من سفن النقل أكثر من سفن القتال ، لان الغرض الاساسي منه وقتئذ هو نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والاندلس (٣) .

وأحرز المرابطون نصرهم المشهور على جيوش الفونسو السادس ، في وقعة الزلاقة غربي الاندلس سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٦ م) . وقد مكنتهم هذا النصر من توطيد نفوذهم في الاندلس وخلع ملوك الطوائف بعد ذلك . ولا شك ان المرابطين قد استفادوا بسا كان في الاندلس من امكانيات مادية (٤) وكفايات بشرية في الشؤون البحرية ، فأولوها عنايتهم .

(١) راجع (ابن أبي ذرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) الحلل الموشية ص ٢٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٨٢ (القسم الثاني) .

(٣) اشباح . تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٢٧ ترجمة عبدالله

عنان .

(٤) اشار الادريسي الذي كان معاصر للمرابطين الى دور الصناعة في طرطوش ودانية وقصر

ابى دانس وشلب التي كانت محاطة بغابات تصلح أخشابها لبناء السفن

(Torres Balbas : Atarazanas Hispanomusulmanas, Al Andalus, 1946, Vol. XI, fasc. I P. 184) .

وخلقوا منها قوة بحرية منظمة موحدة ، وقيادات حكيمة ماهرة ، مثل اسرة بني ميسون التي قادت اساطيل المرابطين الى النصر في معظم المعارك التي خاضتها مع القطلانيين والنورماندين في صقلية . وقد مدح الشقندي بعض أفراد هذه الاسرة بقوله « وفي المرية . كان ابن ميسون القائد الذي قهر النصارى في البحر ، وقطع سفرهم فيه ، وضرب على البلاد الرومانية ، فقتل وسبى وملا صدور أهلها رعبا ، حتى كان منه كما قال أشجع :

فاذا تنبه رعته واذ غفا سلت عليه سيوفك الاحلام ^(١)
ومن الطريف ان الشقندي ينسب هذه الاسرة الى المرية ، بينما ينسبها صاحب المعجب الى دانية ^(٢) . أما ابن خلدون فيرى أنهم من قادس ^(٣) ، كما يفهم من ابن الكردبوس أنهم خدموا في ميورقة ^(٤) والواقع أننا لو أنصفنا هذه الاسرة المجاهدة ، لجعلنا من البحر وطنا لها وأحسب أن هذا كان شعورها ايضا بدليل ما أورده صاحب المعجب من أن أهل المرية حاولوا اقامة القائد أبى عبدالله بن ميسون واليا عليهم ولكنه اعتذر بقوله : « ان وظيفتي البحر . وبه عرفت . فكل عدو جاءكم من البحر فأنا لكم به . فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري » ^(٥) .

هذا وقد أشار ابن خلدون الى قوة الاسطول المرابطى تحت قيادة هذه الاسرة بقوله « وكان الجانب الغربي من هذا البحر موفور الاساطيل ،

(١) راجع المرقى . نفع الطيب ج ٤ ص ٢٠٦

(٢) عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص ٢١٠

(٣) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٥٥

(٤) ابن الكردبوس . كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ص ١٢٢ ، صحيفة معهد الدراسات

الاسلامية بمطرد سنة ١٩٦٥ .

(٥) عبد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص ٢١٠ . البحرية الاسلامية - ١٦

ثابت القوة . لم يتحيفه عدو . ولا كانت لهم به كرة (بتشديد الراء) .
فكان قواد الاسطول به لعهد لمتونة (أى المرابطين) بنى ميسون رؤساء
جزيرة قادس . و انتهى عدد أساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين
جسيعا « (١) .

وقد فسر بعض المؤرخين كلمة أسطول التي وردت في كلام ابن
خلدون بأنها تعنى القطعة الواحدة وليس مجسوعة من السفن (٢) ، وان
كان يبدو أن هذا التفسير لا يتفق هنا مع عظمة الاسطول المرابطى الذي
بسط نفوذه على سواحل المغرب الاقصى والايوسط وسواحل الاندلس .
فكيف تتصور أن مجسوع أساطيل هذه الامبراطورية ، مائة قطعة فقط
في حين كان أسطول احد ملوك الطوائف وهو مجاهد العامري ، أكثر
من ذلك ؟! (٣) هذا في الوقت الذي كانت فيه أساطيل القوى المسيحية
مثل جنوا ويزا والنورماندين في صقلية ، تزيد كل منها على ثلاثائة
قطعة (٤) . وأغلب الظن أن المقصود من كلام ابن خلدون هنا هو عدد
مجسوعات السفن الحربية التي كانت موزعة على جميع قواعد المغرب
والاندلس . يؤيد ذلك قول ابن الكردبوس أن أمير المؤمنين علي بن
يوسف ابن تاشفين أمر بتعير ثلاثائة قطعة لانقاذ جزيرة ميورقة (٥) .

أما عن المعارك البحرية التي خاضها الاسطول المرابطى ضد القوى
المسيحية في حوض البجن المتوسط . فالمصادر التي لدينا لا تشير للأسف

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ .

(٢) انظر Aly Mohamed Fahmy : Muslim sea-power in the eastern mediterranean p. 128.

(٣) راجع الصفحات القليلة السابقة من هذا الكتاب .

(٤) أمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٢٨٢ ، ٢٩٢ :

(٥) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٣ .

الى تفاصيلها . ولكنها تشير الى بعض العمليات الحربية التي قام بها الاسطول في بعض الجزر الشرقية (البليار) سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) وفي جزيرة صقلية سنة ٥١٦ هـ .

وكانت جزر البليار في بادىء الامر يحكمها ولاية من قبل صاحب دانية مجاهد العامري وولده على بن مجاهد . وعندما استولى أمير سرقسطة ، المقتدر بن هود على دانية ، وسجن أميرها على بن مجاهد ، أعلن والى هذه الجزر عبدالله المرتضى استقلاله بحكمها ، ثم خلفه بعد موته مولاه مبشر بن سليمان ناصر الدولة .

وقد فضل المرابطون في بادىء الامر ترك هذه الجزر في يد أصحابها ما داموا يقومون بأعباء الدفاع عنها ويعززون ما وراءهم من بلاد الاعداء الا انهم اضطروا الى احتلالها في سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) نتيجة للغارات والاعتداءات المتكررة التي شنها المسيحيون على شواطئ تلك الجزر وعلى سكانها المسلمين . وكانت أخطرها تلك الغارة الوحشية التي قام بها سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) حلف مشترك من أساطيل جهوريتي بيزا ، وجنوه ، وأمير برشلونة رامون برنجر الثالث Ramon Berenguer ، وأميري نابون ومونبليه بفرنسا (١) . وبلغت سفن هذه الاساطيل المتحدة نحو خمسمائة سفينة ، اتجهت في بادىء الامر نحو جزيرة يابسة Ibiza ، فاستولت عليها ثم اتجهت نحو ميورقة كبرى هذه الجزر ، ونزلوا فيها و ضربوا حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة التي تعرف الآن باسم بالما

(١) راجع Jacinto Bosch Vila : Los Almoravides p. 191, Tetuan 1954.

دي ميورقة Palma de Mallorca ^(١) . قال ابن الكردبوس : « وفي خلال ذلك الحصار . كان ناصر الدولة (أي مبشر بن سليمان) كتب الى أمير المسلمين (علي بن يوسف) يستصرخه ويستنصره . ووجه كتابه مع القائد أبي عبدالله بن ميسون . وكان اذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه . فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معرا ليلا من دار الصناعة عليه . فانطلق في الحين يقفوا أثره . وأتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره فلما قطع يأسه في الظفر به . رجع خاسئا على عقبه . فوصل ابن ميسون بالكتاب الى أمير المسلمين . فأمر في الحين . بتعير ثلاثائة قطعة . وأن تلقى بعد شهر دفعة . فامثل أمره في ذلك . واندفعت بجيشتها من هنالك . واذ ذاك تعين ابن ميسون عند أمير المؤمنين . فلما شعر العدو بخروج ذلك الاسطول . أخلى وصدر عن الجزيرة . وعينه بسا احتل من السبى والاموال يريرة . فلما وصل الاسطول . وجد المدينة خالية على عروشها محرقة سوداء مظلمة منطبقة . فعمرها قائد الاسطول ابن تاقراطس بسن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس . وجلب اليها من كان فر عنها الى الجبال فاستوطنوها وعسروها وسكنوها . وانصرف الاسطول الى مكانه . وعاد الى موضع مقره واستيطانه .

وفي انصراف العدو الى اوطانه هبت عليه ريح ببحار طامية فحلت منه أربع قطائع الى ناحية دانية . فعمر اليها قائد البحر أبو السداد . ففرت أمامه وغرقت واحدة منها قدامه . وعكس الثلاث (أي جعلها

(١) راجع ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٢ في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد سنة ١٩٦٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦٥ ، ج ٦ ص ٢٤٢ ، العميري : الروض المطار ص ١٨٨ وكذلك : (Alvaro Campaner ; Op. cit p. 91.)

مراكب اسلامية (١) •

وهكذا احتل المرابطون جزر البليار بدون قتال على عهد علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥/١١١٦ م) والجدير بالذكر أنه في أثناء حصار العدو لميورقة ، مات مبشر بن سليمان ناصر الدولة ، وقام بالامر من بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون الذي تسميه المصادر المسيحية Burabé (أي أبو الربيع) وقد دافع هذا القائد عن بلده ببسالة حتى غلب عليه وتسلط العدو البلد في ٧ ذي القعدة ٥٠٨ هـ وأحدثوا فيها خرابا يجعل عن الوصف كما هو واضح من النص السالف الذكر •

ولقد تعاقب على حكم هذه الجزائر بعد ذلك عدد من قواد المرابطين (٢) ، ثم وليها في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) القائد المرابطي محمد ابن علي بن غانية المسوفى ، مؤسس أسرة بني غانية التي ظل فيها حكم هذه الجزر من بعده •

ولم يقتصر نشاط الاسطول المرابطي على محاربة أطباع الايطاليين والفرنسيين والقطلانيين بل حاول أيضا وقف اطباع النورماندين في مستلكات الزيريين بافريقية • وكان هؤلاء النورمانديون قد استقروا في بداية أمرهم

(١) راجع (عبد الملك بن الكردبوس : كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء ص ١٢٢ - ١٢٤

صحيفة معهد مدريد سنة ١٩٦٥) .

(٢) انظر Alvaro Campaner, y Fuerts : Bosquejo historico de la dominacion islamita en las Islas Baleares p. 100.

(٣) راجع أسماء هؤلاء الولاة في (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١٥)

في ولاية قلورية (كلابريا) في جنوب إيطاليا ثم تسكنوا بزعامة ملكهم رجار الاول Roger (١٠٧٠ - ١١٠١ م) من انتزاع صقلية من أيدي المسلمين سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩٢ م) ^(١) . ومن هناك أخذوا يشنون الغارات على سواحل الدولة الزيرية طسعا في احتلال عامستها المهدية . واستنجد الزيريون الصنهاجيون بأبناء عسومتهم المرابطين فلبوا نداءهم ، وسير أمير المسلمين على بن يوسف قائد أسطوله أبا عبدالله ابن ميسون ^(٢) الى جزيرة صقلية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) . فشن الغارة على بعض نواحيها ، واقتنح بها مدينة تقوطرة Nicotra ^(٣) من عسل رجار (الثاني) وسبى نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجده فيها ، فلم يشك رجار الثاني (١٠١ - ١١٥٤ م) أن المحرك لذلك والمسبب له هو أمير إفريقية الحسن ابن على بن يحيى ^(٤) . فاستنفر أهل بلاد الروم قاطبة ^(٥) ضده الا أنه يلاحظ ان الملك روجار الثاني ، كثيرا ما كان يعسل حسابا لقوة المرابطين فيعدل عن خطته العدوانية ضد الزيريين ^(٦) . ولعل ما يلفت النظر في هذا الصدد أن استيلاء روجار الثاني على المهدية لم يتم الا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) أي بعد سقوط دولة المرابطين بقليل ^(٧) .

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ١٢٠ حاشية .

(٢) يرد اسم هذا القائد أحيانا باسم محمد بن ميمون ، وأحيانا أخرى باسم علي ابن ميمون .

(٣) يذهب البعض الى أن هذه المدينة تقع في افليم كلابريا في جنوب إيطاليا . راجع مادة تقوطرة في فهرس المكتبة الصقلية لامارى .

(٤) هو الحسن بن علي يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي آخر ملوك بني زيري الصنهاجيين على إفريقية .

(٥) امارى : نفس المرجع ص ٢٨٢ .

(٦) امارى المكتبة العربية الصقلية ص ٢٧١ .

(٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٥٦ - ٥٨ ، وكذلك مقالنا (سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمطريد سنة ١٩٥٧) .

ولقد كان سقوط دولة المرابطين على يد قوة فتيّة مغربية جديدة هي دولة الموحدين . ومن الطريف ان احداث نهاية هذه الدولة قد اقترنت ببحريتها عندما حاول السلطان المرابطي تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين أن يستعين بأسطوله في الفرار الى الاندلس ، فرحل الى ثغر وهران Oran بالجزائر سنة ٥٣٩ هـ ، وأقام هناك ينتظر قائد أسطوله أبا الحسن علي بن عيسى بن ميمون ^(١) ، الى أن وصل اليه من المرية في عشر سفن حربية ، فأرسل قريبا من معسكره ، غير أن الموحدين بقيادة عبد المؤمن ابن علي أحاطوا بالمدينة من كل جانب . ولجأ تاشفين الى ربوة هناك مشرفة على البحر ، فأخذقوا بها وأضرموا النار حولها ، حتى اذا غشيهم الليل ، خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل فسات في ٢٧ رمضان من تلك السنة ^(٢) . وبسوت تاشفين ثم ولده ابراهيم من بعده ٥٤١ هـ (١١٤٦) . تنتهي هذه الدولة المجاهدة .

والخلاصة ان المرابطين كانوا قوما مجاهدين عرفوا جيدا المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المراقبة وفخسوا من شأنها الى درجة انها صارت اسما علما لهم ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك بمثابة وسام عسكري يمنحه كل سلطان مرابطي لاتباعه المجاهدين ليؤكد من جديد سنة أسلافه في ايثار الجهاد والرباط والذود عن الاسلام . ويكفي أن نشير الى سلسلة الرباطات والمحارس التي انتشرت في أيامهم على طول السواحل المغربية والاندلسية . ولعل من أهمها ذلك المحرس او الطالع العظيم الذي بنوه في مدينة سبتة ليشرف على كل حركة في المضيق . وقد شرح أهيبته أبو القاسم الانصاري السبتي بقوله : « ومنها الطالع الكبير الفذ النظير ،

(١) الحميري . الروض المعمار ص ١٩٧ والترجمة الفرنسية ص ١٧٦ ، وبلاحظ ان السلاوي الناصري قد أورد اسم هذا القائد على أنه محمد بن ميمون (الاستقصاء ج ٢ ص ٦٤) .
(٢) راجع السلاوي : نفس المرجع ج ٢ ص ٦٤ .

طالع سبتة الذي بأعلى جبل مينائها المعروف عندنا بالناطور . ابتناه المرابطون هنالك المناظر الراتب ، به حصنا وبه قلعة كبيرة (١) . وبداخل القلعة مسجد . وكان ذلك على يد القاضي أبي الفضل عياض . وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونه يكشف البرين ويشرف على العدوتين الى بادس من بر الريف ، ومن مألقة شرقا والى ما وراء طريف غربا ، فلا يخفى عليه من الزقاق شيء لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة ، وفي حكم أهلها اذا تقع فتنة أو يحصل حصار (٢) .

البحرية على عهد الموحدين :

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية اصلاحية تهدف الى تحقيق وحدة اسلامية شاملة كسا هو واضح في كتابات مؤرخيهم وشعرائهم .

ثم بدأ الخليفة الموحي الاول عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ — ٥٥٨ هـ = ١١٣٠ — ١١٦٣ م) عسلياته العسكرية في المغرب والاندلس ، اذ كان من الطبيعي لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترنو بأبصارها شمالا عبر المضيق نحو الاندلس ، وشرقا عبر المغرب العربي الكبير كي يتم لها توحيد المغرب الاسلامي وتكتيله ضد القوى الصليبية في البر والبحر .

ولم يلق عبد المؤمن صعوبة في ضم الاجزاء الغربية والوسطى من الاندلس ، اذ سارع أمراء هذه المناطق باعلان ولائهم وانضمامهم للسوحدين وكانت ولاية شريش Jerez في طليعة هذه الولايات (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م) ولذا سسى أهلها بالسابقين الأولين ، وصاروا مقدمين على غيرهم في

(١) قلعة بمعنى قلعة أو برج القلعة (Dozy : Suppl. II p. 401)

(٢) راجع محمد بن القاسم الانصاري السبتي : وصف سبتة (القرن ١٥ م) نشر

ليفى بروفنسال في (Hesperis 1931, Tome XII fasc. II p. 156)

التشريفات الملكية بالعاصمة مراکش . كذلك انضم الى الموحدين في السنة التالية أمير البحر علي بن عيسى بن ميسون قائد اسطول المرابطين الذي كان قد استقل بمدينة قادس عقب سقوط دولتهم . كذلك انضمت اشبيلية الى الموحدين ، وسافر وفد من أعيانها برئاسة القاضي أبي بكر بن العربي المعافري ، الى العاصمة مراکش لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن علي (١) .

أما الاقليم الشرقي للاندلس Levante ، فقد عارض امراؤه فكرة الوحدة مع المغرب ، وأعلنوا استقلالهم باماراتهم (٢) ومثال ذلك مدينة المرية التي استقل بها أهلها من رجال الاسطول (القطائع) وغزاة البحر ، وكونوا فيها امارة بحرية مستقلة ، وصاروا يغيرون منها بأساطيلهم على شواطئ أسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا .

ولقد تكالبت على هذه الامارة البحرية أساطيل برشلونة ومونبيليه وجنوا ويزا ، بالإضافة الى جيوش قشتاله وقطولونيا ونافار وجليقية وأستوريش ، التي حاصرت المرية من البر والبحر مدة ثلاثة أشهر ، ثم احتلتها عنوة سنة ٥٤٢ (١١٤٧ م) ، وسلستها لملك قشتاله وليون الفونسو السابع الملقب بالسليطن . غير أن هذا الاحتلال الصليبي لم يدم أكثر من عشر سنوات ، اذ تسكنت جيوش الموحدين من استعادة المرية سنة ٥٥٢ هـ (٣) .

(١) راجع (السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٠٤) وقد توفي القاضي أبو بكر ابن العربي وهو في طريق عودته بالقرب من مدينة فاس ، ودفن خارج الباب المحروق سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، ولا يزال قبره يزار هناك الى اليوم بجوار قبر ابن الخطيب .

(٢) اذا تصفحنا تاريخ هذا الاقليم الشرقي الاندلسي في مختلف العصور الاسلامية ، نجد انه كثيرا ما جنح الى الاستقلال واثارة القلاقل في وجه الامويين والمرابطين والموحدين وكذلك في أيام بنى نصر ملوك غرناطة ، وهذه ظاهرة تدعو الى الالتفات والدراسة .

(٣) أشباح : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص - ٢٢٤

وما يقال عن المرية يقال أيضا عن الجزر الشرقية (البليار) التي استقل بها محمد بن غانية وأولاده من بعده . وبنو غانية كانوا في الاصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين في الاندلس ، ويقال انهم عرفوا ببني غانية على اسم أمهم غانية (١) . وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين ، اذ نجد كثيرا من قوادهم ينسبون الى أمهاتهم مثل ابن عائشة وابن فاطمة وابن الصحراوية وغيرهم .

ولقد ظل بنو غانية شوكة في جنب الدولة الموحدية مدة طويلة . الا أنهم كانوا في نفس الوقت غزاة بحريين ضد القوى الصليبية في حوض البحر المتوسط ، فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا ، وهاجسوا سفنهم في البحر . كذلك كانت تربطهم في بعض الاحيان بجمهوريتي جنوا وبيزا الايطاليتين علاقات تجارية طيبة . وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين في الدعاء للخلفاء العباسيين في بغداد ، واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم ، الا أنهم كانوا في نفس الوقت يهادنون الموحدين ويدارونهم بالهدايا والاموال تجنبنا لخطرهم ، وفي ذلك يقول عبد الواحد المراكشي في سيرة اسحاق بن محمد غانية : « وأقبل على الغزو ، وصرف عنايته اليه ، فكان له في كل سنة سفرتان الى بلاد الروم ، يغنم ويسبي وينكي في العدو أشد نكاية الى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالا ، فقوى بذلك أمره وتشبه بالملوك . وكان يرسل الموحدين ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبي ويغنم بنفسه وجيده ، يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لامر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم اليها . وخرج في سنة ٥٧٩ هـ الى بلاد الروم غازيا ، فاستشهد رحمه الله هناك (٢) . ولم

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٧ - ٢٧٦

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٩

تخضع هذه الجزر لسلطان الموحدين الا في سنة ٥٩٩ هـ أيام الخليفة الناصر .

كذلك استقل بولايتي بلنسية ومرسية في شرق الاندلس ، الامير محمد بن سعد بن مردنيش . وواضح من اسمه أنه من أصل أسباني وهو مارتين Martinez . غير أن هذه الامارة لم تلبث أن انضمت الى الموحدين بعد موت عاهلها في عهد يوسف بن عبد المؤمن وصار أبناء ابن مردنيش من كبار قادة الاسطول الموحيدي .

وهكذا نجد أنه باستثناء بعض الامارات الشرقية ، فإن معظم الاندلس قد انضمت الى الموحدين منذ أيام الخليفة الاول عبد المؤمن ابن علي .

أما بالنسبة للمغرب العربي فلقد قام عبد المؤمن منذ سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) بعمليات عسكرية برية وبحرية واسعة النطاق انتهت بتوحيده لأول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتحه العرب : فبدأ أولا بضم وطنه الاصلي المغرب الاوسط ^(١) ، ثم احتل تونس وسوسة وصفاقس وطرد النورماندين من المهدية وغيرها من بلدان سواحل افريقية ، كما استولى على طرابلس وما وراءها ، وبذلك تم له توحيد المغرب الكبير من الحدود المصرية شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، والى الصحراء الكبرى جنوبا وفي ذلك يقول صاحب كتاب الاستبصار : وكلمة التوحيد والهداية

(١) يقال ان عبد المؤمن حينما مر بمسقط رأسه وهي قرية تاجرا بارض كومية بالجزائر، تشبثت به امرأة عجوز وهي تصيح في زهو واقتخار « هكذا يعود الغريب الى بلاده » وهي عبارة جميلة تعبر عما ينبغي على الشباب عمله وهم في بلاد الغربة كي يعودوا الى بلادهم ظافرين مرغوبى الراس .

متصلة من طرابلس الى مدينة غانة (١) .

ولقد شارك الاسطول الموحدى مشاركة فعالة في تلك العمليات الحربية السالفة الذكر ولا سيما في حصار المهديّة التي كانت محاطة بالبحر من معظم جهاتها وكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبرء فيروى المؤرخون أن عبد المؤمن زحف اليها بجيوشه والاسطول يحاذيه في البحر ، وكان يتكون من سبعين شينيا (٢) وطريدة (٣) وشلندى (٤) بقيادة محمد بن عبد العزيز بن ميسون من البيت المشهور في قيادة البحر (٥) ، وابن الخراط وأبى الحسن الشاطبي وغير هؤلاء من هو مثلهم في المعرفة والشهرة ، ثم ضرب حول المهديّة حصارا من البر والبحر (٦) . ثم ركب عبد المؤمن سفينة حربية من أسطوله وطاف بالمدينة من ناحية البحر ليتفقد حصاتها

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الامصار (مؤلف مجهول من كتاب الموحدين) ص ١١١ نشر سعد زغلول .

(٢) الشينى أو الشوانى السفينة الحربية الضخمة التي كانت تتكون من عدة طبقات كالقلمة Galér .

(٣) الطريدة والطراد سفينة صغيرة سريعة اطلق عليها الاسبان اسم

(٤) الشلندى وجمعها شلنديات ، وهي نوع من المراكب الحربية الكبيرة المسطحة لحمل المقاتلة والسلاح .

(٥) تجدر الإشارة هنا الى ان امير البحر ابا الحسن علي بن عيسى بن ميمون الذي كان قائدا للمرابطين ثم انضم الى الموحدين حتى صار يسمى بصاحب البحر الموحد ، قد انتهت حياته عندما تعقب فارس المرابطين يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين الملقب بالصحراوي أو ابن الصحراوية فيروى البيهقي ان هذا القائد الصحراوي حينما فر الى سبتة ارسل عبد المؤمن وراؤه صاحب البحر علي بن عيسى الذي حاصر سبتة بأسطوله ، فخرج اليه الصحراوي وقال له : اريد أن يكون توحيدى على يدك يا ابا الحسن . فقال له نعم اهلك الى الخليفة . ولا أنسى له هبط على بن عيسى من الغراب وأراد الجلوس معه فرأى في وجه يحيى الصحراوي الغضب ، فاراد أن يرجع الى الغراب فرمى عليه يحيى حصانه وضربه بالرمح فوصل بين الكتفين حتى نفذه . (راجع البيهقي : كتاب أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ٢٠٠ والترجمة الفرنسية ص ١٦٠ حاشية ٢ ، نشر وترجمة بروفنسال) وكذلك (المراكشي : المعجب ص ١٩٩ - ٢٠٠) .

(٦) راجع رحلة التجانى ص ٢٤٧ وما بعدها .

من هذه الناحية فهاله أمرها ، وعلم أنها لا تفتح بقتال وليس لها الا مطاولة الحصار ، فتسادی حصاره لها ستة أشهر ..

ويؤثر عن عبد المؤمن أنه قال للحسن بن علي الصنهاجي آخر أمراء بنى زيري الذي كان صاحبها قبل احتلال النورماندين لها ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) « ما الذي أخرج هذا المعقل من يدك ؟ » فقال له « أخرجه انقضاء الامر وعدم الثقة بأحد » . فصدق عبد المؤمن واستحسن كلامه . وحاول ملك صقلية النورماندي وليام بن رجار (١١٥٤ — ١١٦٦ م) انقاذ المهدي . فأرسل اليها أسطولاً كبيراً من مائة وخمسين شينياً غير الطرائد . فلما ظهرت طلائعه في الافق : تقدم مقدم الاسطول الموحدى ابن ميمون بين يدي الخليفة عبد المؤمن وقال له : هذا الاسطول قد أقبل وهو لا يصل الا متفرقا بحكم النوء ، فلتأذن لنا بالخروج اليه فسكت عبد المؤمن ، فاغتنموا سكوته وبادروا الى القطع فسلأوها بسا تحتاج اليه من العدد ، واصطفت عساكر المسلمين على الساحل . فلما قاربت شوانى الفرنج المهدي . حطوا قلاعهم ليدخلوا الميناء ، فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن ، فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر ، ودخل الرعب قلوبهم ، وبقي عبد المؤمن يسرغ وجهه على الارض ويكي ويدعو للمسلمين بالنصر ، واقتتلوا في البحر ، فانهزمت شوانى الفرنج ، وأعادوا القلوع ، وتبعهم المسلمون ، فأخذوا منهم سبع شوانى ، ولو كان معهم قلوع لآخذوا أكثرهم . وعاد أسطول المسلمين ظافراً منصوراً فسجد عبد المؤمن شكراً لله ، وفرق في غزاة الاسطول اثني عشر ألف دينار مؤنية (١) .

ويبدو أن ملك صقلية وليام بن رجار قد رأى في ذلك الوقت عدم

(١) أورد أمارى في المكتبة العربية الصقلية معظم روايات المؤرخين العرب حول فتح المهدي ، وذلك في الصفحات ٣٠٢ ، ٣١٨ — ٣٢١ ، ٤٠١ — ٤٠٢ ، ٥١٨ ، ٥٠٦ ، ٥٤٠ .

التورط في حرب مع الموحدين كي يتفرغ لحرب فردريك الاول (بربروسا) امبراطور ألمانيا ، فترك المهديّة لمصيرها المحتوم ^(١) . ولما ينست حامية المدينة من النجدة . طلبوا الامان على أنفسهم وأموالهم وأن يعودوا الى بلادهم ، فأجابهم عبد المؤمن الى طلبهم ودخل المدينة بكرة عاشوراء من المحرم ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ^(٢) . ولقد وجه عبد المؤمن عنايته نحو انشاء وتعمير المراسي ودور الصناعة المنتشرة على طول السواحل المغربية والاندرلسية . ولا شك ان اهتمام هذا الخليفة بانشاء بحرية قوية كان ضرورة حتية فرضتها عليه طبيعة تلك الانتفاضة الدينية الاصلاحية التي قام بها الموحدون والتي اتست بطابع العظمة والتوسع والزعامة الاسلامية . ولم يجد عبد المؤمن صعوبة في الحصول على خامات الحديد والخشب وكل ما هو ضروري لبناء السفن ، اذ أن كل ذلك كان متوفرا في جبال وغابات العدوتين . ومن ثم استطاع أن يشيئ أقوى أسطول في البحر المتوسط على حد قول اندريه جوليان ^(٣) . وقد أشار صاحب كتاب روض القرطاس الى انه في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) انتجت دور الصناعة في العدوتين أسطولا من أربعائة قطعة : منها في سلا والمعصورة ١٢٠ قطعة ، وفي مراسي سبتة وطنجة وبادس ومراسي الريف مائة قطعة وفي مراسي وهران وهنين وتونس مائة قطعة ، وفي مراسي الاندلس ثمانين قطعة ^(٤) وفي هذا المعنى يعطينا المؤرخ المعاصر ابن صاحب الصلاة وصفا يدل على مدى الاستعداد والقوة والرخاء في ذلك العهد . فيقول : « وأن أمير المؤمنين — عبد المؤمن — رضى الله عنه ، أضر غزوة عطشى

(١) انظر (André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord p. 110)

(٢) امارى : المرجع السابق

(٣) (A. Julien. Histoire de l'Afrique du Nord p. 124.)

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥

والرجاء . فامر بانشاء القطائع في سواحل العدو^(١) والاندلس ، فصنع للروم بجزيرة الاندلس برا وبحرا ليلقي الله بها يوم القيامة بالفوز لديه منها زهاء مائتي قطعة . أعد منها في مرسى المعصورة بطلق البحر على وادي سبو بنقرة سلا مائة وعشرين قطعة ، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور ، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف^(٢) العدو والاندلس — وأمر بكتب الرجال والرؤساء والابطال لعسارتها والقيام بحمايتها والنظر في آلاتها . وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعصورة المذكورة مما عاينته مكدسا كأمثال الجبال ، بما لم يتقدم لماك قبله . ولا سنعنا به في جيل من الاجيال ، بقى في ذلك الموضع معدا من عام سبعة وخمسين الى عام اثنين وستين وخمسائة ، حتى فنى في أكداسه وعاد ترابا ورمادا باحتراقه في بعض ، وفساد الزمان له فسادا^(٣) .

والى جانب دور الصناعة السالفة الذكر ، كانت توجد أيضا دار صناعة في قصر مصودة^(٤) التي كانت تبنى فيها مراكب النقل التي يسافر

(١) المقصود بالعدوة هو بلاد المغرب بصفة عامة ، والعدوة (بضم العين او كسرهما او فتحها) شاطئ الوادي وجانبه والنسبة اليها عدوى ، لهذا اطلقت على عدوتى المغرب والاندلس لان بينهما مضيق جبل طارق ، وعدوتى سلا والرباط ويفصلهما وادي أبو الرقراق ، وعدوتى فاس وبينهما وادي فاس او وادي الجواهر . كذلك اصطلح على اطلاق كلمة العدو ، لا على المغرب الاقصى وحده بل على المغرب العربي الكبير ايضا ، ونجد ذلك واضحا في جغرافية الادريسي مثلا على اعتبار أن المغرب الكبير يمثل جانبا مقابلا لاوربا وبينهما البحر المتوسط .

(٢) سبقت الإشارة الى أن المقصود بالريف في المغرب والاندلس هو ريف البحر او الاراضي المناخمة للبحر او المحيط ، بينما تطلق ، في مصر على الاراضي الداخلية المناخمة للنيل (٣) راجع (ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة ص ٢١٣ - ٢١٥ ، نشر عبد الهادي النازي) .

(٤) قصر مصودة او قصر المجاز او القصر الصغير الذي بناه من قديم احد زعماء قبيلة مصمودة بالقرب من طنجة أيام طارق بن زياد . وتقابله بلدة طريف Tarifa في الصدوة الاندلسية المقابلة ، والمسافة بينهما عبر المضيق ١٢ ميلا (ابن خلدون : المعرج ٦ ص ٢١٠ - ٢١١) .

عليها الجنود ومعداتهم الى الاندلس . كذلك كانت توجد دار صناعة كبيرة في الموضع المعروف حتى اليوم باسم الجبال (بضم الحاء وتشديد الباء) شرقي فاس عند ملتقى وادي فاس بوادي سبو . وكانت تنشأ بها القوارب والسفن الصغيرة ثم تنساب منها الى وادي سبو ، وتبعد فيه حتى مصبه في المحيط الاطلسي . وقد أنشأ هذا المصنع الخليفة عبد المؤمن عندما اراد أن يتوجه لفتح المهديّة سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ^(١) .

كذلك اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الاراضي المغربية ، فأنشأ القصور والقلاع والرباطات ذات المناور او الطلائع التي تشعل النار على قسها ليلا وينبعث منها الدخان نهارا لانداز الاهالي في حالة وقوع غارة بحرية معادية . هذا الى جانب استخدام الطبول الضخمة للغرض نفسه وهي تقابل الاجراس والابواق عند المسيحيين . ومن أمثلة تلك الحصون نذكر رباط تيط على ساحل المحيط الاطلسي جنوبي الجديدة (مازيغان) بنحو ١٢ كم . ويؤرخ بناء هذا الحصن في حوالي منتصف القرن السادس الهجري (١٢ م) ^(٢) . كذلك نذكر قصبة المهديّة التي بناها عبد المؤمن سنة ٥٤٥ هـ عند مصب وادي أبي الرقراق في مكان مدينة الرباط أو قصبة الوادية الحالية على ساحل المحيط الاطلسي . وقد سهاها بالمهديّة تيسنا باسم المهدي بن تومرت ، وأجرى لها الماء في سرب تحت الارض من بين عين غبوله التي تقع في جنوب

(١) الجزنائي : زهرة الآس ص ٢٧ ، وقد ورد في النص اسم المكان على شكل الهبالات وصحته الجبال . وهو اليوم عبارة عن بساتين وحقول في القسم الشرقي من مدينة فاس . راجع (الترجمة الفرنسية لكتاب الجزنائي ص ٦٨ حاشية ٣ ترجمة الفرد بل Alfred Bel الجزائر ١٩٢٢)

(٢) راجع (Georges Marcais : L'architecture musulmane d'Occident p. 222, Paris 1954) .

غرب الرباط بنحو تسعة عشر كيلو مترا . وما زالت آثار السقاية المتفرعة منها باقية الى الآن (١) .

وقد نقش الخليفة على الباب الشرقي لهذه القنصة تلك الآية الكريمة التي ترمز الى جهاد العدو المهاجم من البحر « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله . وتجاهدون في سبيل الله الى قوله وبشر المؤمنين (٢) .

ولا يبعد ان يكون قصد الخليفة الموحدى في اطلاقه اسم المهديّة على هذه القنصة ، هو تقليد الناطبيين في تسميتهم للسهيّة الشرقيّة بتونس . وان كانت الرواية السائدة تقول بأن أهل الاثر وكذلك المهدي بن تومرت كانوا قد بشروا ببناء مدينة في هذا المكان والزمان (٣) .

وكيفما كان الامر فالمهم هنا هو عدم الالتباس بين مهديّة الموحدين التي صارت رباط القنص عاصمة المغرب الآن . وبين مدينة المهديّة الحالية أو المعسورة التي تقع على الضفة اليسرى لمصب وادي سبو بالقرب من القنيطرة على ساحل المحيط الاطلسي . فهذه المدينة الاخيرة سميّت بالمهديّة أيام العاهل المغربي المولى اسماعيل سنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) عندما ضيق الحصار على الجيش الاسباني المرباط فيها . فخرج راهبها مستسلما ويده مفاتيح المدينة كهديّة للسلطان ، فأمنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسماها

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢١٨ ، ٤٤٨ ، ابن ابي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٧ ، السلاوى الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ وكذلك
(Gaillé : La Ville de Rabat p. 27) .

(٢) راجع (محمد النواى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ١٣)

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٤٧

المهدية (١) .

هذا ولم ينس عبد المؤمن أن يربط بين قصبة المهدية وبين مدينة سلا المقابلة لها . بجسر من السفن المشدود بعضها ببعض بالسلاسل عبر وادي الرمان (أبو الرقراق الحالي) وعليها الواح خشبية كي تسر عليها جيوشه ومعداته المتجهة الى أسبانيا (٢) .

على أن العمل العسكري الهام الذي توج أعمال عبد المؤمن وخلد ذكره هو تلك المدينة البحرية الحصينة التي بناها على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥ (١١٦٠ م) وسماها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب ومنذ ذلك الوقت صار جبل طارق يعرف أيضا بجبل الفتح (٣) . وقد قام ببناء هذه القلعة البحرية عدد كبير من العمال والبنائين الأندلسيين ، كما أشرف على بنائها مجموعة من العرفاء أو المهندسين المشهورين أمثال الحاج ابن يعيش المالقي ، والعريف أحمد ابن باس ، اللذين قاما بأعمال في هذا الجبل وفي غيره من المشروعات العمرانية ، تشهد لهما بالبراعة والنبوغ ، كما تشهد لعصر الموحدين بالنهضة والتقدم (٤) .

(١) عبد الهادي النازي : مهدية المولى اسماعيل ، مجلة المغرب مايو ١٩٦٢ ، عبد الرحمن ابن زيدان : : انحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس ج ٢ ص ٧٢ وكذلك : (Caillé : La Ville de Rabat p. 63) .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٥ .

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢١٢ ، الحل الموشية ص ١١٩ - ١٢٩ ، الحميري : الروض العطار ص ١٢١

(٤) الحاج ابن يعيش المهندس ه الذي صنع في اعلا جبل طارق اول رحي تدار بالريح لطحن الاقوات ، اذ ان الطواحين في العصور الوسطى هي الطواحين المائية التي تدور مع جربة الماء . كذلك ينسب الى هذا المهندس صنع مقصورة المسجد الجامع بمدينة مراكش التي كانت

ومن الطريف أنه حينما تم بناء مدينة الفتح ، ركب الخليفة عبد المؤمن سفينة من أسطوله وطاف بها حول جبل طارق ليتفقد حصون المدينة الجديدة ، ويعاين أحوال البناء ^(١) فيها ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل بمدينة المهدية التونسية قبل الاستيلاء عليها .

ومن حسن الحظ ، أنه يوجد لدينا ضمن مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، الخطاب الرسي الذي وجهه عبد المؤمن الى رعاياه حول تفاصيل هذا المشروع الكبير ^(٢) . كذلك توجد تفاصيل أخرى هامة في هذا الموضوع في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ^(٣) ، هذا الى جانب القصائد الشعرية التي قيلت بمناسبة زيارة عبد المؤمن لهذه المدينة بعد انتهاء العمل فيها ، وقد تضمنت اشارات هامة في وصف الاسطول الموحي الذي صحب الخليفة في هذا المهرجان الكبير ^(٤) .

الى جانب هذه المصانع المادية التي تنتج السفن الحربية وما يلزمها من معدات وآلات ، اهتم عبد المؤمن أيضا بالمصانع البشرية التي تتولى تربية الجيل الناشئ واعداده للحرب والجهاد فيروي المؤرخون أن عبد المؤمن

→

تتحرك بطريقة آلية فترتفع عند خروج الخليفة عبد المؤمن وتخفض عند دخوله . اما المهندس ابن باسه فهو الذي قام ببناء جامع اشبيلية وصومعته الشهيرة باسم الخرايدا ومعناها بالاسبانية الدوارة .

راجع (ابن صاحب الصلاة : المن الامامة ص ١٤٢ ، ٤٦٧ - ٤٦٩ ، ٤٧٤)

(١) ابن صاحب الصلاة نفس المرجع ص ١٤٤ .

(٢) انظر (Levi - Provençal : Trente Sept - lettres officielles Almohades p: 95 - 99 (Rabat 1941) .

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ١٢٧ وما بعدها

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ١٥٩ - ١٦٤ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام

ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

أنشأ في حاضرتة مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش والاسطول . وأنه كان يستدعي اليها الشبان (الحفاظ) من أبناء أشبيلية وقرطبة وفاس وتلسان وغيرها . ويتولى تربيتهم على حفظ القرآن والحديث . وتأليف المهدي بن تومرت الخاصة بعقيدة الموحدين . وكان يجتمعهم كل يوم جمعة بعد الصلاة في قصره . وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة . فيستحهم فيسا درسوه ويزودهم بنصائحه تشجيعا لهم على الاجتهاد . ثم يعد في أيام أخرى الى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة كالطعن بالحراوب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل والركض . ثم في تعلم السباحة وخوض المعارك البحرية وذلك في بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره في الحي المعروف اليوم باكدال (أي المنتزه) . وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتسرن الشباب فيها على القتال في البحر والتجذيف وقيادة السفن والوثب الى سفن العدو . ومزاولة جميع التمارين البدنية التي تقتضيها الخدمة البحرية . وكان تعليمهم جميعا على نفقة الدولة (١) .

كذلك يؤثر عن عبد المؤمن أنه كان يشجع الناس على قراءة ونشر الكتب التي تتحدث عن الفروسية أو سيرها أو كتب المغامرات . ومن القصص التي كانت شائعة على هذا العهد قصة جازية والشريف التي يرويها باختصار ابن خلدون في تاريخه عند حديثه عن دخول العرب الهلالية لافريقية . وهي في الواقع ما هي الا قصة أصل أبي زيد الهلالي الشهيرة (٢) . وهكذا استطاع هذا المجاهد الكبير . الذي يعتبره المؤرخون

(١) الحلل الموضيعة ص ١٢٥ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٩ ، أشباح : نفس

المرجع ج ٢ ص ٥١ .

(٢) نقل هذه القصة السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٩ .

المحدثون من أعظم قواد العصور الوسطى ، أن يخلق من المغرب الاسلامي قوة موحدة مجاهدة في البر والبحر تسهيدا لغزو الممالك النصرانية في شمال اسبانيا ، ويؤثر عنه أنه قال لأشياخ وقادة دولته في هذا الصدد « أشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة الى بلاد الروم فقد عزمنا عليها برا وبحرا » فقال القائد الاندلسي أبو محمد سيد رأى ابن وزير القيسي ^(١) : نقسم العساكر على روم جزيرة الاندلس الى أربع جهات تكون جهة ابن الرنك ^(٢) بقليرية ^(٣) أولا ، وجهة البوج ^(٤) بالسطاط ^(٥) ثانية ، وجهة أدفونش ^(٦) بطليطة ثالثة ، وجهة برشلونة رابعة ، فقال له الخليفة أحسنت يا أبا محمد ! ثم قام جميع الاشياخ وبايعوا الخليفة على تلك الخطة ^(٧) وبينما كان عبد المؤمن مقبلا في مدينة سلا والجيش تحتشد ، والاساطيل تستعد لنقلها الى الاندلس ، فاجأه الموت بعد مرض قصير فلم يسهله حتى يحقق عزمه ، ونقل جثثانه الى مدينة تينسل ^(٨) بجبال أطلس حيث دفن بجوار أستاذه ابن تومرت سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) .

(١) يعتبر من كبار القادة الاندلسيين الذين شاركوا في غزوات الموحدين ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ولهذا كانت له دراية بأحوال اسبانيا وقد اعتمد بن صاحب الصلاة على روايته مرارا . (راجع كتاب المن بالامامة ص ١١٧ حاشية ٣) .

(٢) ابن الرنك هو الفونسو انريك Alfonso Enrique ملك البرتغال

(٣) قلمرية Coimbra قاعدة البرتغال في ذلك الوقت

(٤) البوج هو فرناندو الثاني ملك ليون ويلقب بالبوج El baboso بمعنى

الكثير لللعاب اي الاحمق .

(٥) السطاط هي مدينة رودريجو Ciudad Rodrigo غربي أبله Avila

(٦) الاذوفونش هو ملك قشتالة الفونسو الثامن الملقب بالصغير El chico

(٧) راجع ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢١٨ - ٢٢١

(٨) تيمثل كلمة بربرية مؤلفة من شقين : تين بمعنى ذات ، وملل بمعنى الحواجز التي توضع في سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى . وهذه القاعدة الجبلية الحصينة كانت مهد دولة الموحدين ، وبها بنى المهدي بن تومرت داره ومسجده ثم دفن بها بعد مماته . راجع (الادريسي : نفس المرجع ص ٦٤ ، الاستبصار ص ٢٠٨ ، محمد الفاسي : الاعلام

وولى بعد عبد المؤمن ولده أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ ١١٦٣ — ١١٨٤ م) الذي كانت سياسته استمرارا لسياسة والده الجهادية . فيروى أنه أمر العلماء بالقاء المحاضرات في الجهاد على الموحدين ليدرسوها وأنه شارك في القائتها . فكان يسلها عليهم بنفسه ، وكان كل واحد من هؤلاء الطلبة يحبل لوحا يكتب فيه ما يسلي عليه (١) . وما يقال عن اهتمام هذا الخليفة بتربية النشء وتوجيهه ، يقال أيضا عن اهتمامه بتقوية بحريته ، وقد لاحظ ابن خلدون أن تفوق الاسطول في عهده كان تفوقا ملحوظا بز من قبله ومن بعده ، وفي ذلك يقول : « ولما استنفحت دولة الموحدين في المائة السادسة ، وملكوا العدوتين ، أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد . وكان قائد أساطيلهم أحد الصقلي أصله من صدغيان الوطنين بجزيرة جربة من سدويكش ، أسره النصارى من سواحلها وربى عندهم ، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك . وولى ابنه فأسخه ببعض النزعات وخشى على نفسه ، فلحق بتونس ، ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن ، فأجازه الى مراكش ، فلقاه يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة ، وأجزل له الصلة وقلده أمر أساطيله ، فجلى في جهاد أمم النصرانية ، وكانت له آثار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين ، وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه (٢) . »

كذلك يروى المراكشي أن ملك صقلية (وليام الثاني) صالحه وأرسل اليه بالآتاوة بعد أن خافه خوفا شديدا ، فقبل منه ما وجه به اليه ، وهادنه

> « الجغرافية ، مجلة البينة ، مايو ١٩٦٢) كذلك :

(Basset et Terrasse : Tinnel, Hespéris 1924)

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ ، أمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٤٦١ — ٤٦٢ .

على أن يحل إليه في كل سنة مالا اتفق عليه (١) .

هذا ويلاحظ ان مهمة الاسطول الموحدى منذ عصر عبد المؤمن لم تقتصر على جهاد الصليبيين ، بل أخذ على عاتقه أيضا مهمة قمع حركة القرصنة التي كانت منتشرة بين المسيحيين والمسلمين على السواء . ذلك لان سياسة الموحدين البحرية كانت تقوم على مبدأ احترام نواميس التجارة الدولية وضمان السلام والطأنينة في البحار ، وهم بهذا العمل — كما يقول بعض المؤرخين الاوربيين — قد لقنوا أوربا درسا في بعض مبادئها التي تنادي بها (٢) . وحسبنا الآن أن نضرب على ذلك مثلا بتلك الغارات البحرية التي شنّها الخليفة أبو يعقوب يوسف على حصن طييرة Tavira الذي كان وكرا للقرصنة المسلمين بزعامة ثائر يدعى عبدالله بن عبيد الله . ويقع هذا الحصن في منطقة غرب الاندلس Algarve على ساحل المحيط الاطلسي على نحو ٦٠ كم غربي مدينة فارو (شتتيرة الغرب) . وقد ظل هذا الحصن شجى على أهل المغرب والاندلس في نهب اموال المسافرين والتجار في البراري والبحار منذ سنة ٥٤٦ هـ حتى آخر سنة ٥٦٣ هـ عندما استولى عليه الخليفة أبو يعقوب يوسف وقضى على فساقه (٣) .

هذا وقد شارك الاسطول الموحدى أيضا في معظم العمليات الحربية التي دارت ضد القوى المسيحية في أسبانيا . ففي عهد هذا الخليفة يوسف

(١) عبد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص ٢٥٢ .

(٢) راجع (عبد العزيز بن عبدالله : البحرية المغربية والقرصنة ، مجلة تطوان العددان

٢ ، ٤ ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩) . وكذلك

André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord p. 123.

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ابن الابار : الحلة

السراة ج ٢ ص ٢١٨ .

نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلانيين على مقربة من برشلونة وأحرز الاسطول الموحدى كثيرا من ضروب التفوق ^(١) . على أن معظم العمليات البحرية في الواقع قد تركزت بصفة خاصة في غرب الاندلس حيث مسلكة البرتغال الناشئة التي كانت في ذلك الوقت قد استقلت عن مسلكة قشتالة . وأخذت تنمو وتتسع جنوبا على حساب المسلمين بقيادة ملكها الفونسو انريكث Alfonso Enriquez الذي تسييه المصادر العربية بابن الرنك او الريق . ثم لم تلبث هذه الدولة أن اعترف بها البابا كدولة مستقلة ومنح أميرها المذكور لقب ملك سنة ١١٧٩ م ورأى الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن أن يركز حملاته على هذه الجبهة الغربية البرتغالية لأنها كانت أقرب وأشد المسالك الاسبانية وطأة على المسلمين ، ثم لأنها كانت أيضا معبرا هاما الى قلب مسلكة قشتالة التي كان ملكها الفونسو الثالث قد أخذ هو الآخر يغير على الاراضي الاسلامية المتاخمة له .

وقد استغرقت الحرب مع البرتغال فترة طويلة اضطر الخليفة خلالها أن يعمل على تحصين البلدان الغربية الاندلسية التي كانت عرضة لغارات هذا العدو برا وبحرا عن طريق الوادي الكبير ، وهتم يوسف بصفة خاصة بمدينة أشبيلية حاضرة الموحدين المفضلة بالاندلس . فعقد على واديها (اي الوادي الكبير) جسرا من السفن عظيم ^(٢) الهندسة يستد الى أطريانه Triana إحدى حواضر اشبيلية وذلك لاجازة الجيوش المتجهة

(١) أشباخ نفس المرجع ج ٢ ص ٢٤٧

(٢) يلاحظ أن هناك فارفا بين الجسور وبين القناطر في أن الاولى متحركة مثل الكبارى حاليا بينما تكون الثانية ثابتة مثل القناطر الخربة مثلا . وكانت الجسور عبارة عن سفن يشد بعضها ببعض بواسطة سلاسل بعرض النهر وتوضع الواح خشبية عليها لمرور الناس والدواب عليها ثم تفتح عند اللزوم لمرور السفن وبذكرنا هذا بالخليفة العباسي ابي جعفر المنصور حينما قال له أحد المهندسين في مدح موقع بغداد « وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو فطرة فاذا قطعت الجسر أو خربت القناطر لم يصل اليك عدوك » .

الى تلك الجهات الغربية . ويشير ابن صاحب الصلاة أن الخليفة حضر افتتاح هذا العمل الهندسي الحربي في صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وأمر بأن تكون جيوش النجدة المتجهة الى مدينة بطليوس التي يهددها العدو ، هي أول من يعبر على هذا الجسر العظيم ^(١) . كذلك أمر عامله في اشيلية أبا داود يلول بن جلداسن ، ببناء سور حصين على قصبة اشيلية من مبدأ بنائه أمام رحبة ابن خلدون داخل اشيلية حتى مسجد المدينة ، وبناء دار صنعة للقطائع (أي الاسطول) تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل ^(٢) . هذا الى جانب بناء قصبتها الجوانية والبرانية وترميم أسوارها ولا سيما المطلة على الوادي ، وتعمير ثغورها الخارجية بعد أن كانت قفرة من كلب النصارى عليها ^(٣) .

ولم يقتصر اهتمام الخليفة على تحصين اشيلية وحدها بل شمل مدنا أخرى في هذه الجهة الغربية الساحلية مثل قول صاحب الصلاة « وهو الذي حصى بطليوس من الكفر وابتنى لها قصبتها الشاهقة المانعة ، وسرب الماء اليها من الوادي فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد من الأسلحة والرجال المتخبة » ^(٤) .

وفي خلال ذلك الوقت التحست أساطيل الموحدين بأساطيل البرتغاليين في معارك بحرية ، فأحيانا كانت تنتصر وأحيانا أخرى كانت تنهزم ولكن الغلبة عامة كانت للمسلمين . يروى ابن عذاري أنه في سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) اشتدت وطأة البرتغاليين في البر والبحر ، فولى الخليفة أمير

(١) ابن صاحب الصلاة : المن الامامة ص ٤٦٢ ، ٢٢٤ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٨١

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٦ .

البحر غانم بن مردنيش^(١) قيادة أسطول سبته . فعبر غانم البحر غازيا الى مدينة لشبونة وتغلب فيها على قطعتين من قطائع البرتغاليين الراسية هناك وعاد بها الى سبته .

ولقد كان رد البرتغاليين على ذلك بأن أغاروا على جزيرة سلطيش^(٢) Salim . وأسروا فيها من المسلمين عددا كبيرا^(٣) . وفي السنة التالية ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) ، عندما كان الخليفة يوسف متوجها الى افريقية (تونس) ، أمر أمير البحر غانم بن مردنيش بأن يواصل هجراته وغاراته على سواحل البرتغال ، فأقلع غانم وأخوه أبو العلا بالأسطول من سبته في شهر مايو من تلك السنة ونزلوا بقواتهم في ميناء سان مارتين دوبرتو San Martin do Porto ، ثم توغلوا في داخل البلاد البرتغالية محاولين الاستيلاء على بلدة بورتو دي موس Porto de Mos ، غير أن أمير البحر البرتغالي فواس روينهو Fuas Roupinho استطاع بمساعدة أهالي شنترين Santaren وألكينيا Alcanena أن يعد كميناً للغزاة المسلمين في

(١) هذا القائد هو ابن أمير بلنسية وشرق الاندلس ابن عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش الذي رفض الاعتراف بحكم الموحدين ودخل في حرب معهم الى ان مات سنة ٦٧ هـ (١١٧٢ م) واضطر أبناؤه أبو القمر وهلال وغانم وأبو العلا وغيرهم أن يدخلوا في طاعة الموحدين وقد عوضهم الخليفة أبو يعقوب يوسف عن ممتلكاتهم بمناصب يتقلدونها وأراضي تقطع لهم في مملكته كما تزوج اختا لهم تدعى الزرقاء المردنيشية وولع بها وتغلبت عليه حتى صار الناس يضربون المثل بحب الخليفة لها . وواضح من المتن أن معظم أبناء ابن مردنيش قد أسندت اليهم قيادات في البحرية المغربية . راجع (ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ٩٥ ، ١٠٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٧١ (القسم الثاني) .

(٢) جزيرة ساحلية صغيرة أمام مدينة اونيه Huelva في جنوب غرب الاندلس ، ويروى صاحب الروض المppard أنه كان يوجد بها دار صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفافه ، وهي صنعة المراسي التي ترسو بها السفن (الحميري : الروض المppard ص ١١٠) .

(٣) (ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ١١٢) .

جبال منديجا Mandiga عند منابع نهر بورتو دي موس، ففوجىء المسلمون بالعدو في هذا المكان الوعر، فأسقط في أيديهم، واستشهد منهم عدد كبير بينما أسر القائد غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلا، وخمسون من الموحيدين، كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بن عليها من الملاحين وانصرفوا بها الى لشبونة (١) .

وكتب امير البحر غانم بن مردنيش من موضع اعتقاله الى الخليفة يوسف يشكو له سوء حاله، فوصل كتابه وهو بتلسان، فأمر الامير أبا القسر هلال بن مردنيش بالذهاب الى مدينة مراكش لينظر في فداء أخويه غانم وأبى العلا ويأمر بإنشاء واعداد الاساطيل في الحال . فلما وصل أبو القسر الى مراكش أحضر المال وبعث به الى أشبيلية، فانصرف الفكك به ودفعه الى البرتغاليين، وانطلق غانم المذكور من الاسر وكذلك أخوه ومن بقي من أصحابه (٢) .

وتشير المصادر البرتغالية الى أن هذا النصر الذي أحرزه البرتغاليون قد شجع قائدهم فواس روينهو على الخروج بأسطول قوى والاغارة على سواحل الاندلس الغربية ثم على مدينة سبتة بعد ذلك (٣) . أما المصادر العربية فتشير الى غضب الخليفة والمسلمين من هذه الاعتداءات، وكيف أن نفوسهم جسيما قد نشطت لجهاد أعداء الله، والاخذ بثأر اخوانهم، « فخرج القائد عبد الله بن جامع بأسطول سبتة سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م)

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١١٦) وكذلك :

(Huici Miranda ; Historia politica del Imperio Almohade. l' pp. 279, Tetuan 1957).

(٢) المرجعان السابقان في حاشية رقم (١)

(٣) المرجعان السابقان في حاشية رقم (١)

كما خرج القائد أبو العباس الصقلي من أشبيلية بأسطولها أيضا. واجتمعوا جميعا عند ثغر قادس وقد استكملوا أربعين قطعة ، فنهضوا منها بجيعةهم الى جهة شلب Silves والتقوا بالاسطول البرتغالي نفس المكان والزمان الذي أسر فيه غانم بن مرديش في منتصف المحرم من العام الفارط ، وهذا من أغرب الاشياء . وقد نصر الله المسلمين في هذا اليوم نصرا مبرورا ، وقتل من النصاري وأسر منهم نحو الالف وثلاثمائة ، ولم يمت فيه من المسلمين الا عدد قليل ، وأخذت للعدو من القطائع نحو العشرين مع أسلابهم وأسلحتهم ، وانصرفوا ظاهرين ظافرين الى موضعهم « (١) » . ولقد اعترفت المصادر البرتغالية بهذه الهزيمة التي حاقت بأسطولها كسا أنها تجسع على أن أمير البحر البرتغالي فواس روينهو قد لقي مصرعه في هذه المعركة (٢) .

ويضيف ابن عذاري أن هذا الهجوم البحري قد صحبه هجوم بري قام به قائد جيش الموحدون في أشبيلية أبو عبد الله بن وانودين الذي استطاع أن يعيد مدينة يابره Evora ، وأن يستولى على بعض الحصون المجاورة لها وأن يسبي من النساء اربعمائة بين كبيرة وصغيرة ومن الرجال مائة وعشرين ثم يعود ظافرا الى أشبيلية حيث بيع السبي وكثر عند الناس الخدم (٣) .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين في البر والبحر دون أن

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) راجع :

(Crônicas dos sete primeiros reis de Portugal, I, p. 125

y sig. & Huici Miranda : Op. cit. 1, p. 280.

(٣) ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ١١٧ .

تسفر عن نتائج حاسمة . ولهذا عزم الخليفة أبو يعقوب يوسف على أن يقود غزو البرتغال بنفسه ، وحشد لهذه الغاية قوات عظيمة وأسطولا ضخما من سفن القتال ومراكب النقل لشحن آلات الحصار والمؤن والسلاح بقيادة أمير البحر أبي العباس الصقلي ^(١) . ثم عبر الخليفة الموحيدي مضيق المجاز ونزل اشبيلية سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) ، وكانت خطته تقضي بهاجية مدينة لشبونة من البر بينما يحاصرها الاسطول من جهة البحر عند مصب نهر التاجو Tajo . ولكنه رأى لانهجاح خطته أن يستولي أولا على مدينة شنترين Santaren ، مفتاح التاجو ، المجاورة لها . فحارب حولها حصارا واستطاع أن يستولي عليها ما عدا قلعتها .

ولما طال حصار المسلمين لهذه القلعة ، أمر الخليفة بأن يرحل معظم الجيش الى لشبونة كي يتعاون مع الاسطول في حصارها . ويبدو أن هذا القرار قد جاء مفاجئا لجنوده ، اذ وقع اضطراب في صفوفهم خصوصا بعد أن ترددت الشائعات بأن الخليفة قد رحل . وبينما كان الهرج يسود هذا الانسحاب ، اذ بحامية قلعة شنترين تخرج فجأة أثناء الليل وهي تصيح الري ! الري ! أي أقصدوا السلطان لان كلمة ري Rey معناها الملك . ثم انقض أفرادها على معسكر الخليفة ، وتسكن بعضهم من النفاذ الى شخصه واصابته بجراح قاتلة استشهد على أثرها في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ (يوليو ١١٨٤ م) ^(٢) .

كانت وفاة خليفة الموحدين بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ١٢٤ ، ابن أبي زرع : روض القرطاس

ص ١٤١ ، اشباح ج ٢ ص ٧٤ .

حركة الموحيدين بنكسة قوية في المغرب والاندلس اذ استغل اعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أطماعهم ، ومثال ذلك بنو غانية حكام الجزر الشرقية (البليار) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحيدين وأظهروا الفدر والعصيان ، وتصادف في ذلك الوقت أن بعض وحدات الاسطول الموحيدي كانت في زيارة رسية لجزيرة ميورقة بقيادة أبي الحسن بن البربرير (١) . فتظاهر الميورقيون باستقباله والحفاوة به ، ثم بعثوا سرا الى مراكبه من استولى عليها وأسر بحارتها ، فلم يكن للقائد أبي الحسن محيد عن الاستسلام ، واعتقلوه في دار الضيافة التي كانوا قد أنزلوه بها ، ووكلوا به من الحرس والرقباء ما أمنوا به مكره واحتياله (٢) .

ويضيف ابن عذارى أن بني غانية خرجوا بعد ذلك بأساطيلهم ورجالهم الى الساحل الافريقي حيث استولوا على مدينة بجاية بالمغرب

(١) البربرير Revecenter أو Reberter هكذا ضبط اسمه دوزى حسب نصوص الحولية اللاتينية للامبراطور الفونسو السابع . أما المصادر العربية فقد ذكرته بأشكال مختلفة مثل الدبرير والدبرين والابرير ... الخ . وواضح من اسم هذا القائد أنه من أصل مسيحي ، اذ كان أبوه فارسا فطلائيا من برشلونة ثم وقع أسيرا في يد أمير البحر علي بن ميمون الذي حمله الى سلطانه علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش . فعينه السلطان قائدا على جنوده الاسبان الذين في خدمته فقام بمهمته خير قيام وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عن دولة المرابطين الى ان قتل في معركة ضد الموحيدين عد تلمسان سنة ٥٣٩ (١١٤٥ م) وقد اعتنق ابنه الاسلام وتسمى بأبي الحسن علي بن البربرير . ولما قامت دولة الموحيدين انخرط في خدمتهم وصار من كبار قوادهم في البر والبحر الى ان انتهت حياته هو الآخر في المعركة التي دارت بين المنصور الموحيدي وبني غانية بافريقية عند بلدة عمره من اعمال قفصة سنة ٨٥٢ هـ (١١٨٧ م) .

راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ ، ١٥٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٩٦) راجع كذلك :

(Dozy : Recherches II pp. 437 - 442 & Lévi - Provençal : Documents inédits d'histoire Almohade p. 139 note I)

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ١٤٦ وما بعدها .

Campaner y Fuertes : Op. cit. p. 147.

الاولى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) • ومن هناك أخذوا في اثاره الفتن والاضطرابات ضد نفوذ الموحدين ، وتحالفوا مع قبائل الاعراب من بني هلال وسليم في شرقي المغرب ، وكذلك مع جنود الغزو المرتزقة الذين قدموا من مصر واستقروا في قابس بقيادة الامير السلوكي قراقوش التقي (١) • واستطاعت هذه القوى المتحالفة بزعامه بني غانية أن تسيطر على بلدان المغرب الادنى والاولى وأن تدعو على منابرهما لبني العباس أعداء الموحدين (٢) •

ولم تكن الحالة في الاندلس أقل خطورة من المغرب ، إذ انتهز البرتغاليون فرصة الاضطراب الذي حل بصفوف الموحدين عقب استشهاد خليفته يوسف ، وأخذوا بمخنق غرب الاندلس برا وبحرا • وقد ساعدتهم الظروف في ذلك الوقت أن قوات صليبية كبيرة من الالمان والانجليز والفلسنكيين (٣) قد أخذت تتجه تباعا الى فلسطين عقب سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وكانت هذه الاساطيل الصليبية كثيرا ما ترسو في الموانئ البرتغالية اما رغبة أو اضطرارا •

فتصادف في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) أن اسطولا من خمسين سفينة فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين الالمان والفلسنكيين ، اضطروا الى الرسو في ثغر لشبونة ، فانتهم ملك البرتغال سانشو الاول Sancho I Enrquez هذه الفرصة ، وطلب من هؤلاء الصليبيين معاوته

(١) هو شرف الدين قراقوش القوي مملوك نقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين الايوبي ، وهو شخصية اخرى غير بهاء الدين قراقوش الاسدي وزير صلاح الدين ونائبه في مصر ومملوك اسد الدين شيركوه .

(٢) ابن عذاري ج ٤ ص ١٤٧ ، رحلة النجاني ص ١١٢

(٣) سكان الاراضي الوطنية Netherlands وهي الاراضي الهولندية .

في قتال جيرانه المسلمين ، فاستجابوا لندائهم وتقدموا جميعا نحو مدينة شلب Silves وأحرقوا بها من جميع جهاتها . وقد دافع أهلها ببسالة نادرة ولكنهم اضطروا الى الاستسلام بعد أن تسكن العدو من الاسنيلاء على بشر قراجه الذي يمد المدينة بالمياه (١) .

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين في المغرب والاندلس قد أصيب بنكسة شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عاهلهم أبي يعقوب يوسف . وفي خلال هذه المدة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجاهد الكبير أبي يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ = ١١٨٤ — ١١٩٩ م) . وكان أول عمل اهتم به المنصور منذ توليه الحكم هو إعادة الوحدة المغربية ، والضرب على أيدي المفسدين فيها أمثال بني غانية وحلفائهم الغز والاعراب في المغرب الشرقي . فقام في الحال بتعبئة قواته البرية والبحرية لغزو تلك الجهات ، وأسند قيادة الجيوش البرية الى السيد أبي زيد بن أبي حفص ، كما تحركت الاساطيل من سبتة على اختلاف أشكالها ، وعليها أبو محمد بن أبي اسحاق بن جامع ، وأبو محمد بن عطوش الكومي ، والقائد أبو العباس الصقلي ومن دونهم من الرؤساء والاعيان والانجاد والشجعان ، والكل تحت رعي الشيخ أبي محمد بن جامع والى نظره تحت ما يراه من نهيه وأمره ، ومشى الجميع على قواعد من تظافر البر والبحر ، وتلاقى الفريقين على الفتح والنصر ، فارتجت الارض برا وبحرا (٢) .

(١) راجع (ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ١٧٥) وكذلك
& Huici Miranda : Op. cit. I, p. 342 Las cronicas dos
sete primeiros reis de Portugal I, p. 152 - 158.

(٢) ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ١٤٩

ولقد مهد المنصور لهذه الحملة بإرسال عيونه وأعواله في تلك الجهات وهو ما يعرف الآن باسم الطابور الخامس ، اذ يقول ابن عذاري : « وكان أبو يوسف المنصور أتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتباً لاهل سائر البلاد المغلوب عليها بالأمن والأمان والصفح والاحسان . ولما دنت الحملة من البلاد ، دسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلاً الى البلاد . واجتسعوا بها مع من يوثق به للامن . فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد آمنوا غوائل العذاب ، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الابواب ، وثبوا على من كان عندهم من الاعداء ، وأرصدوا لفرارهم بالمضايق ، وقبضوا على أكثرهم بتلك المخاتق (١) » .

ويشير ابن عذاري بعد ذلك الى النصر العظيم الذي حققه الاسطول الموحيدي في هذه الحملة سنة ٥٨١ هـ بقوله : « وسبقت الاساطيل ، ففتحت مدينة الجزائر قبل وصول أهل البر ، وضربت الطبول في يوم واحد مع فتح الجزائر ومليانه » . وقبض على يحيى صاحب الجزائر ثم على بدر بن عائشة صاحب مليانه وتقدم القائد أبو العباس الصقلي الى بجاية بقطعة واحدة مع بعض أهل البلد ، ودسوا لهم كتباً بها وراءهم من الاسطول والجيوش الواصلة ، فلما وصل الاسطول الى بجاية ضجت العامة وفتحت الابواب ودخلت عتائر الاساطيل (٢) » .

ثم توجه الخليفة المنصور الى أفريقية في السنة التالية (٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م) حيث تولى قيادة العمليات العسكرية بنفسه ، واتخذ من مدينة تونس مقراً لقيادته ، واستطاع بفضل شجاعته وحزمه أن ينتصر على

(١) ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ١٥٠ .

(٢) ابن عذاري : نفس المرجع والصفحة .

خصومه . وفر على بن غانية الى الصحراء حيث ظل محتسبا بها الى أن مات سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) أما قراقوش وجنوده الغز وحلفاؤهم الاعراب . فقد أنضسوا الى جيوش الموحدين وصح توحيدهم . وأرسل المنصور عددا كبيرا منهم الى المغرب والاندلس برسم الجهاد (١) .

وفي خلال ذلك الوقت استطاع قائد الخليفة المنصور . أبو الحسن عبي بن البربرير الذي كان معتقلا في جزيرة ميورقة ، أن ينتهز فرصة غياب معظم أمراء بني غانية في افريقية . ويداخل بعض مواليتهم وجنودهم المسيحيين المرتزقة الذين كانوا في خدمتهم ويرغبون في العودة الى بلادهم . فوعدهم بتحقيق رغباتهم . وقام معهم بانقلاب في الجزيرة ضد حكم بني غانية في اواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٦ م) . وانضم اليهم حاكم الجزيرة السابق محمد بن اسحاق بن غانية الذي كان أخوته قد خلعوه واعتقلوه بالجزيرة . فأقامه الثوار حاكما على الجزيرة باسم الموحدين . ثم عاد على ابن البربرير الى مراکش بعد أن سرح الجنود المسيحيين بأموالهم وأهلهم وأعادهم الى بلادهم حسب وعده لهم .

على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا . إذ سرعان ما علم بنو غانية في افريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع الى الجزيرة فورا عن طريق صقلية الامير عبدالله بن غانية . ويرجح المؤرخ الفرنسي الفرد بل في البحث الذي كتبه عن بني غانية أن ملك صقلية وليام الثاني (١١٦٦ — ١١٨٩ م) قد أمد هذا الامير ببعض سفنه كي يسترد ملكه في الجزيرة (٢) . واستطاع الامير عبدالله بمساعدة مواليه وجنوده وعلى

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٧

(٢) انظر (Alfred Bel : Les Banou Ghanyap. 71, eParis 1903)

رأسهم علج يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمدا الذي فر الى الاندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية (١) .

وحاول الخليفة المنصور انقاذ الجزيرة ، فأرسل اليها أسطولا بقيادة أمير البحر أبي علي بن جامع ، غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده لا سيما بعد أن تدخل أسطول ملك أراجون بدور الثاني Pedro II في صالح الميورقيين (٢) . على أن المنصور وأن كان قد فشل في احتلال كبرى جزر البليار ، الا انه قد نجح في احتلال صغراها ، جزيرة يابسة (٣) Ibiza على يد أمير البحر ابي العباس الصقلي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) (٤) .

وهكذا نرى أن الخليفة المنصور الموحدى قد نجح في اعادة توحيد المغرب الكبير من ليبيا شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، وبذلك أصبح في مقدوره أن يعبر في أطنان الى الاندلس لجهاد المسالك الاسبانية المعادية كالبرتغال وقشتالة .

ولقد اختار المنصور مدينة المهديّة التي أسسها والده أبو يعقوب يوسف على ساحل المحيط ، وبني قسبتها قبل ذلك جده عبد المؤمن (٥) .

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٧٦ .

(٢) راجع (Huici Miranda : Op. Cit. II p. 396)

(٣) اشتهرت جزيرة يابسة بشجر الصنوبر الجيد العود الذي كان يصلح للانشاء وعدة المراكب .

راجع (الحميري : الروض المعمار ص ١٨٨)

(٤) يعلق ابن عذارى على هذا التاريخ بأنه موافق تاريخ سقوط بيت المقدس في يد

صلاح الدين الايوبي راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٩ - ١٧٠)

(٥) راجع الصفحات القليلة السابقة عن بناء هذه القصبه في عهد عبد المؤمن . أما عن تاسيس المدينة على يد الخليفة ابي يعقوب يوسف ، فيصفه ابن صاحب الصلاة بقوله :



تكون قاعدة تتجمع فيها جيوش الموحدين قبل أن تتجه الى اسبانيا برسوم الجهاد والفتح . ولهذا اطلق عليها المنصور اسم رباط الفتح ^(١) وأمر بتعيرها وتحصينها حتى صارت كما يقول ابن عذارى « معقل الدنا ارتفاعا ووثاقة ومناعة » ^(٢) . ولم يلبث اسم رباط الفتح أن غلب على هذه المدينة التي قدر لها أن تصبح اليوم عاصمة للسلكة المغربية ^(٣) .

وتظهر براعة هذا المجاهد الكبير في انه استطاع ان يتجنب لقاء أعدائه في أسبانيا مجتسعين وأن ينفرد بهم واحدا بعد الآخر . وهذه الخطة هي التي سار عليها نابليون بوناپرت في العصور الحديثة . وكانت سر عظمتة . وقد شرح المنصور هذه السياسة اللولبية المرننة في خطابات الرسسية التي وجهها الى رعاياه . اذ بين فيها أنه قد أثر التحالف مع ملكي قشتالة وأراجون كي يتفرع لمحاربة ملك البرتغال ، ثم رأى أن يتحالف مع ملكي ليون وأراجون كي ينفرد بملك قشتالة في المعركة ^(٤) .

وبدأ المنصور حركته الجهادية سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) بسلكة



ونقدم الخليفة جيوشه على فرسه الى ان بلغ اسوار القصبه المهدية التي بناها والده ثم دار بفرسه حتى صار مواجهاً لجنوده ، فبارك جمعهم وطلب منهم البقاء والبناء ، فأخذ الناس يتنافسون في ذلك .

(١) سبقت الإشارة الى أن مكان هذه المدينة كان رباطا على برغواطه من قديم ثم جاء المنصور فأكد هذا المعنى حينما أطلق عليها اسم رباط الفتح . ومن الطريف أن عبد الواحد المراكشي سماها في كتابه المعجب ص ٢٦٦ اسكندرية المغرب لأنها كانت تشبهها في اتساعها وحصانتها وحسن تقسيمها (السلاوى ج ٢ ص ١٨١) .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ٢٢٩

(٣) كان ذلك منذ سنة ١٩١٢ م حينما اختارها المارشال الفرنسي ليوتي Lyautey مركزا إداريا للمغرب .

(٤) نشر هذه الرسائل ليفي بروفنسال تحت عنوان :

(Lèvi Provençal : Les Trente Sept Lettres Officielles

Almohades pp. 218 - 228 (Rabat 1941)

البرتغال التي سبق أن استشهد فيها والده ، فهاجمها برا وبحرا ، واكنسح أراضيها ، ولم يجرؤ ملكها سانشو انريكث Sancho I Enriquez (ابن الرنك) على مواجهة المنصور في معركة عامة مكشوفة . بل ظل مختفيا وراء جدرانه لا حول له ولا قوة . وكان للأسطول الموحدى قصب السبق في هذه الحيلة ، اذا استطاع قبيل المعركة بقليل أن يحرز نصرا على الاسطول البرتغالي سنة ٥٨٦ هـ ، ويعكس عدة من أجفانه فيصيرها اسلامية بعد أسر جسيع من كان فيها . وقد اعتبر هذا النصر من بواكر الفتوحات . وهنىء الخليفة المنصور على ذلك مثل قول الشاعر ابن مجير دلائل فتح كان يذخرها الدهر فلما أردت الغزو أبرزها النصر (١)

كذلك شاركت البحرية خلال هذه الحيلة بنقل المعدات وآلات الحصار والتعاون مع القوات البرية في الهجوم على الثغور الساحلية البرتغالية . وقد انتهت هذه العمليات باسترداد مدينة شلب Silves والاستيلاء على القاعدة البحرية الهامة قصر أبي دانس Alcacer do Sal سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) وقد أشاد ابن عذاري بالخفة والسهولة التي امتازت بها تحركات قطع الاسطول الموحدى بقوله : « ووصلت الاجفان البحرية بالعدد الحرية وقد تسابقت لدخول الوادي بتيسير يعجز العقول عن تكيفه ، فبهت الذي كفر . وسقط في أيدي المشركين من كل من ألقى السع وأبصر (٢) » . ويبدو أن قوة البرتغاليين قد انهارت تماما بعد هذه الحيلة بدليل أننا لم نعد نسع بعد ذلك عن دخولهم في حرب ضد المنصور .

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٧

(٢) ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ١٨٤ ، عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٨٠

ثم تحول المنصور نحو مسلكة قشتالة في قلب أسبانيا ، واتصر على ملكها القونسو الثامن الملقب بالصغير El Ghico عند حصن الارك Alarcos من اسال قلعة رباح Calatrava سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) • ثم اعتب هـ الصر بسلسلة من الانتصارات الاخرى في شال قشتالة خرب فيها أرباش طليطلة واستولى على بعض الحصون المحيطة بها مثل مجريط Madrid ووادي الحجارة Guadalajara ووصل الى أراض لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن ابي عامر • ولعل هذا هو السبب الذي جعل المؤرخين يشبهون المنصور الموحيدي بالمنصور بن أبي عامر ^(١) • ولا شك أن البحر كانت من وراء هذه الانتصارات البرية ، تعمل على حراسة المضيق وحماية المواصلات ونقل الحشود والمعدات والرقاصين (عسال البريد) بين العدوئين •

ولعل اكبر دليل على اختصاص الموحدين في ذلك الوقت بالاساطيل الحربية ، هو ما ترويه المصادر من أن عاهل مصر صلاح الدين الايوبي أرسل في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) سفيرا من قبله وهو الامير عبد الرحمن ابن منقذ الى خليفة المغرب يعقوب المنصور ، يطلب اعاقته بالاساطيل لتحول بين اساطيل الصليبيين وبين امداد النصرانية بالشام ، ولمنازلة ثغور عكا وصور وطرابلس التي سقطت في أيدي الصليبيين • وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض هذا الطلب لان صلاح الدين لم يلعبه في

(١) راجع تفاصيل معركة الارك في (ابن عذارى ج ٤ ص ١٩٢ - ٢٠٥ ، الشريف أبو القاسم محمد الفرناطي : كتاب رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ج ٢ ص ١٥٦

(القاهرة ١٣٤٤ هـ) راجع كذلك (Huici Miranda la Campana de Alarcos p. 25-27 Revista del Instituto de Estudios Islamicos de Madrid, Vol. II, 1954.

رسالته بأمير المؤمنين اي لم يعترف بخلافة الموحدبن ، فقد ذهب بعض المؤرخين الى ان المنصور قد ارسل لصالح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام ^(١) .

كذلك أورد صاحب روض القرطاس مثلاً آخر يدل على تفوق البحرية في ذلك الوقت ، وهو الخطاب الذي أرسله ملك قشتالة الفونسو الثامن الى الخليفة المنصور يطالبه فيها بارسال أسطول من المراكب والشواني والطرائد والمسطحات ، كي يجوز اليه بجيوشه ويقاقله في بلده ^(٢) . هذا الى جانب رواية ابن سعيد المغربي (ق ٧ هـ) عن تجنيد المغاربة المقيسين في مصر للعمل في الاسطول المصري استنادا الى الفكرة التي كانت شائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بسعانة الحرب والبحر ^(٣) . فأمثال هذه الروايات ان دلت على شيء فاننا تدل على تفوق البحرية المغربية والاندرلسية في ذلك العهد .

ثم توفي الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩ م) ، وقد أثارت وفاته حزنا عميقا في الاوساط الاسلامية ^(٤) ، الا انها في الوقت

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣

(٢) ابن ابى زرع : روض القرطاس ص ١٤٠ والمسطحات من أكبر السفن الاسلامية وربما سميت كذلك لان لها سطحا .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١١١ - ١١٢

(٤) يقال ان الكثيرين من الناس كذبوا وفاته ، وقال البعض انه قد تخلى عن الملك وذهب خفية الى الاندلس حيث يرايط في نفورها لجهاد الكفار ، وقال البعض الآخر بل انه توجه الى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول حيث يخفى أمره ، وقال فريق ثالث بل انه رحل الى الاراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وقالوا بان المنصور مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينمل .

راجع (الزركشي : تاريخ الدولتين ، الموحدية والحفصية ص ١١ - ١٢ ، الشريف الفرناطى : رفع الحجب المستورة ج ٢ ص ١٥٥ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٣١ - ٤٣٢ ، ابن عذارى ج ٤ ص ٢١١) .

نفسه حركت أطباع الطامعين من أعداء الدولة من جديد ، فعاد بنو غانية الميورقيون الى شن غاراتهم على افريقية ، وتسكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد . والدعاء فيها للخليفة العباسي جريا على عادة أسلافهم المرابطين .

كذلك حاول عبدالله بن غانية في سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) أن يسترد جزيرة يابسة Ibiza من أيدي الموحيدين ، فتحرك اليها بأسطوله من جزيرة ميورقة وحاصرها من جميع نواحيها ولكن أهلها قاوموه بشدة . واستنجدوا بأسطول الموحيدين ، الذي كان قريبا منهم ، فأسرع لنجدهم بقيادة أمير البحر ابن ميسون ، واشتبك مع ابن غانية في معركة بحرية انتصر عليه فيها ، وظفر منه بطريدين أضرهما نارا ، ورجع عبدالله بن غانية خائب الوجه (١) .

ورأى الخليفة الموحيدي الجديد أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور (٥٩٥ - ٦١١ هـ ١١٩٩ - ١٢١٤ م) أن استقرار نفوذ الموحيدين في افريقية لن يستتب الا اذا استولى على جزر البليار ، قاعدة بني غانية ، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في افريقية . لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها (٢) .

ولقد أعد الناصر لهذا الغرض حملة ضخمة في ثغر دانية Denia ، أسند قيادة الاسطول فيها الى عه ابي العلاء ادريس بن يوسف عبد المؤمن ، كما أسند قيادة الجيش الى شيخ الموحيدين أبي سعيد عثمان بن

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١٦

(٢) يلاحظ أن الجزيرة الصغرى يابسة كانت في يد الموحيدين منذ سنة ٥٨٢ أيام

المنصور ، والمراد هنا احتلال جزيرتي ميورقة ومنورقة .

أبي حفص . وكانت الحملة تتكون من الفين ومائتي فارس . والرماة سبعائة . والرجالة خمسة عشر ألفاً غير رجال الاسطول . وكان الاسطول في ثلاثائة جفن ، منها سبعون غراباً ، وثلاثون طريدة . وخسون مركبا كباراً ، وسائرهما قوارب متنوعة . وأما العدد والسلاح والمجانيق والصلالسم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والجمال فشيء لا يأخذه عدد ، وكذلك الدروع والرماح والبيضات والاتراس والدرق والقسي وصناديق الشباب وجسلة وافرة من الطعام ، فأدوا صلاة الجمعة يابسة ، وأقلعوا غدوة السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٩٩ هـ . (١٢٠٣) ، فأتوا ميورقة Mallorca ونزلوا فيها وتقدم الجنود نحو المدينة . بينا دار الاسطول بالمرسى مع ابي العلاء ، وخرج اليهم عبدالله بن غانية بجسوعه ، ودافع كل الدفاع ثم انهزم وقتل ، وأغلقت المدينة بابها . فأحاطت بها الرماة وغزاة البحر ، فتغلبوا عليها ، فدخلت ونهبت ولم يسلم الا قصبتها . ودخل البلد السيد ابو العلاء قائد الاسطول ، والشيخ ابو سعيد قائد الجيش ، ورأس عبدالله ابن غانية معها على قناة بيد رجل غزي كان قطعه ، فنها الناس عن النهب ، وأمرأ بضرب عنق رجل فعل ذلك وخالف النهى ، وطيف برأسه ، وأمنأ الناس ، ونودى بالامن في الأزقة والقصبة ، فخرج الناس وأمنوا . وكتبأ الى الملك الناصر بالفتح ^(١) . ويضيف ابن عذاري أن السيد أبو العلاء أسرى بأسطوله الى الجزيرة الثانية منورقة Menorca ، وكان ابن غانية قد ترك عليها مولى أبيه ابن نجاح ^(٢) . السالف الذكر ، فبطش الاسطول بأهلها قبل التناهم أحوالهم وترتيب قتالهم ، فدخل البلد عنوة ،

(١) راجع (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢١٤ - ٢١٥ ، الحميري : الروض المطار ص ١٨٩) .

(٢) يسميه المراكشي (المعجب ص ٢١٧) بالزير بن نجاح ويقول بأن الموحدين قتلوه وبمنوا برأسه الى مراكش .

وقبض على ابن نجاح وارسله الى العاصمة مراکش فهلك بها ^(١) . وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو البليار . وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يتبع الخليفة الناصر فلول بني غانية في افريقية : فتحرك اليهم بجيشه واسطوله ^(٢) سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) واستولى على تونس والمهدية . وفر يحيى بن غانية بأهله وولده الى صحراء طرابلس . ثم رأى الناصر أن استمرار بقاء نفوذ الموحدين في افريقية يتوقف على اقامة حاكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف في ادارتها . فاختار لهذا الغرض واليا من قرابته وهو الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهتاني جد الملوك الحفصيين ^(٣) .

وبعد أن تم للناصر توحيد المغرب الكبير ، تقدم بجيوشه وأساطيله نحو الاندلس للقيام بالدور الذي كان يحلو له ولآبائه من قبل وهو جهاد المسالك النصرانية في أسبانيا .

واستطاع الاسطول الموحيدي في بادىء الامر ان يحرز نصرا باهرا على اسطول ملك اراجون اذ يقول ابن عذارى : وفي سنة ٦٠٧ هـ . (١٢١٠ م) تحرك السيد أبو العلا قائد أساطيل البرين الى بلاد برشلونة بجميع أجناف العدو والاندلس على معاندة ومنافسة من أهل البلاد في الاحتفال ، وتسكن من العدد الوافرة والاموال ، فكانت أحسن حركة للمسلمين ، وأوحش فجيرة وأعم وقية جرت على الغزاة البحرين ، وأوقع خسارة كانت بقلوب الكافرين ^(٤) .

غير أن الاوضاع السياسية في أسبانيا في ذلك الوقت ، قد تغيرت عما

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١٦ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٣ ، رحلة التجانى ص ٣٦٢ .

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ٢٤٢ .

كانت عليه في عهد المنصور ، ذلك أن الاسبان لم يكتفوا بتوحيد صفوفهم بل اعلنوا الدعوة لحرب صليبية في اوربا . وبارك البابا انوسنت الثالث حركتهم ، فجاءتهم جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا والمانيا . ولم يستطع الخليفة الناصر الصمود أمام هذه القوى الصليبية المتحالفة ، فدارت الدائرة عليه وقضى على معظم جيشه في موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) .

ولقد انهار تماما نفوذ الموحدين في الاندلس بعد هذه الكارثة ، وأخذت المدن الاندلسية تتساقط في يد المسيحيين . وقد شجعت هذه الحالة على قيام بعض الرؤساء الاندلسيين بسحاولة الاستقلال بحكم الاندلس بغية انقاذها من تلك النكسة ، ولعل الارجاف والنبوءات التي سادت البلاد في ذلك الوقت بتحديد اسم المخلص المنتظر ، لخير دليل على ما كانت تحس به البلاد من فراغ وشغور في الحكم ، ومثال ذلك قول ابن الخطيب « وكان الناس يرتقبون ظهور طالب للأمر اسمه محمد واسم أبيه يوسف ، وهي العلة المحركة لمحمد بن يوسف بن هود الثائر برسنية ، تم لمحمد بن يوسف بن نصر بن الاحمر بعده بأرجونة ، وجرى على الناس بسبب ذلك في زمن الموحدين امتحان شقى به قوم من وافق هذا الاسم أساؤهم أو أساء آبائهم ، وقتل بسبب ذلك شخصان من أهل جيان ^(١) .

ولقد استطاع ابن هود في بادىء الامر أن يجمع شمل معظم بلاد الاندلس ، كما أطاعته سبته ورباط الفتح وسلا بعضا من الوقت . ولكي يكسب حكمه الشرعية اللازمة ، دعا للخليفة العباسي ببغداد المستنصر بالله الذي أرسل له بدوره خلعة وتقليده الذي يخول له حكم الاندلس .

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٧٨ (القسم الثاني) ، ابن عذارى : البيان

المغرب ج ٤ ص ٢٥٦ .

واستعان ابن هود في قيادة جيوشه وأساطيله بشخصية طريفة مغامرة وهي شخصية المقدم الغشتي . وكان هذا الرجل في الاصل صعلوكا ذاعرا يقطع الطريق . وتحت يده جماعة من انجاد الرجال ، وسباع البراز . قد اشتهر أمرهم في تلك النواحي بشرق الاندلس ، مغاورين ^(١) فيها للرمح المجاورين اليها حتى اشتد جنوده هنالك بالارض ومن عليها . فنهض اليه ابن هود . وعرض عليه الانضمام اليه ، فوافق الغشتي بشرط ان يوليه قيادة الاسطول بالاندلس اذا تم له الامر ، وقال له : نستفتح الامر بسفيرة الى ارض العدو باسبك وعلى سعدك : ففعلوا وجلبوا كثيرا من الغنائم والاسرى . ثم وفي ابن هود للغشتي بعهد . فولاه قيادة اسطول اشبيلية ثم اسطول سبتة مضافا الى امرتها . فلما علا سعده قام عليه اهل سبتة وأرادوا قتله ، ففر امامهم وخفى أثره الى أن تحقق بعد ذلك خبره . فقيل انه دخل في زورق صغير ليهرب فيه الى الاندلس ، فوقع في ايدي العدو اسيرا ، فحمل الى جهة غرب الاندلس . ودام في الاسر أعواما كثيرة . ولو علموا أنه الغشتي لقتلوه او طلبوا منه مالا كثيرا ، لانه كان قد ضربهم في البحر ، وله فيهم جيلة غزوات قتلهم فيها واستأصلهم وشاع ذكره في الآفاق حتى ضرب به المثل لزعامته وشهامته ^(٢) .

على أن جهود ابن هود في توحيد الاندلس ، لم تلبث ان اصطدمت

(١) انتقلت كلمة المغاور بمدلولها ونظمتها الى اللغة القشتالية باسم Almogavar

ومعناها المحارب الذي يفر على الحدود المجاورة ونطلق كذلك على قرصان البحر

راجع : Eguilaz Glosario atimologico de las palabras espanolas p. 233 .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، ويضيف ابن عذارى أن هذا القائد ترك الاندلس في شيخوخته ومات برباط أسفى بالقرب . راجع كذلك (ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٧٩) .

بسطامع الاسبان من ناحية (١) ، والرؤساء الاندلسيين من ناحية اخرى ، وكانت النتيجة ان جرت عليه وقائع وهزائم كثيرة ، واتتهى الامر باغتياله سنة ٦٣٥ (١٢٣٨ م) (٢) . وتحول حكم الاندلس الى بنى نصر أمراء غرناطة .

وفي خلال ذلك الوقت تكالبت قشتاله واراغون على اراضي المسلمين بالاندلس ، فاستولى ملك قشتالة وليون فرناندو الثالث الملقب بالقدیس El Santo (١٢١٧ — ١٢٥٢ م) على نهر الوادي الكبير بسا عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) . واشبيلية وقادس وشريش سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ، فصار لهم منفذ الى مضيق جبل طارق بعد أن كان التحكم فيه للسليسين فقط . اما ملك اراجون خايسي الاول الملقب بالفاتح El Conquistador (١٢١٣ — ١٢٧٦ م) ، فقد أغار بأساطيله وجيوشه على شرق الاندلس . وحاصر مدينة بلنسية برا وبحرا . وقد حاول أمير تونس ابو زكريا الحفصي انقاذ هذه المدينة ، فأرسل اليها في المحرم سنة ٦٣٦ هـ أسطولا مزودا بالمال والسلاح والمؤن ، ولكن الاسطول لم يستطع اختراق الحصار المضروب حولها فاضطر الى العودة بعد ترك ماسوى المال من أطعمة واسلحة في مدينة دانية . ولم تلبث بلنسية بعد شهر واحد أن سقطت في يد العدو (صفر سنة ٦٣٦ هـ — ٢١٣٨ م) (٣)

(١) بروى ابن الخطيب ان ابن هود ارسل الى البابا في روما رسولا من قبله ليطلبه على العقود المبرمة بينه وبين ملك قشتالة وكيف ان هذا الاخير قد نكث عهده ولم يف بشرطه . وكان سفير ابن هود هو ابو طالب بن سبعين ، أخو أبى محمد عبد الحق بن سبعين المتصوف المرسى المعروف وقد اشاد البابا بمنزلته .

راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، ورقة ٢٨١ — ٢٨٢)

(٢) (اقتاله ابن الرميى عامله على المرية (ابن عذارى ج ٤ ص ٢٥٨ ، ٢٢٥) .

(٣) ابن عذارى ص ٢٤٤ — ٢٤٥

وفي نفس هذه السنة التي سقطت فيها بلنسية . هاجم الجنويون ثغر سبتة بغية فصل المغرب عن الاندلس والتحكم في مضيق جبل طارق . غير أن يقظة حاكمها الحاج ابي العباس اليانشتي . وسرعة استنجاده بالقبائل المجاورة ، قضت على هذه المحاولة . واضطر الجنويون الى الفرار بعد ان ذبح معظمهم ونهبت اموالهم وفنادقهم التي بالمدينة . ولقد عاود الجنويون الهجوم على سبتة في مائة مركب للانتقام لضحاياهم ، فحاصروها ونصبوا المجانيق عليها ، ولكنهم لم يتسكنوا من النيل منها لقوة اسوارها . واضطروا الى الاقلاع عنها بعد أن دفع لهم اليانشتي مالا معلوما تعويضا لهم عن بعض خسائرهم (١) . (٢) .

ولم تقتصر فتوحات ملك اراجون خايسى الاول على مدن الساحل الشرقى ، بل شملت ايضا جزر البليار ، يعاونه في ذلك كثير من الجنوين وأهل بروفانس . فاستولى على جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ هـ (٣) (١٢٣٠ م) ثم يابسة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . أما الجزيرة الوسطى منورقة ، فقد ظلت في يد أميرها ابي عثمان سعيد بن حكم الاموى (ت ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م) .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ وكذلك ص ٢٨١ حيث ترد اشارات عن قوة أسوار سبتة وعدم تأثرها بمقتنقات المجانيق .

(٢) يروى ابن عذارى ص ٢٤٧ ان بعض اهل سبتة يؤرخ هذه الحملة في سنة ٦٢٢ هـ وان كان الراى الغالب هو سنة ٦٢٦ هـ .

(٣) تذكر المدونات الاسبانية انه لما سقطت ميورقة في أيديهم وجدوا فيها مكانا محاطا بأسوار وحصون ويحفظون بداخله السفن على الارض ويطلقون عليه اسم دارسانة Darzana ، وقد أهدى الملك خايمي الاول هذا المكان الى جماعة الفرسان الاسبتارية كي يمكنهم عمل منازل جميلة بضم هذه السفن بعضها ببعض .

راجع (Granicas de los reyes de Castilla coleccion ordenada por don Cayetano Rosell, 1, cap. xvII p. 163 & Torres Balbas : Atarazanas Hispanomusulmanas, Al Andalus, 1946, fasc. 1 p. 136).

ثم ولده من بعده ابي عسر حكيم بن سعيد حتى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وقد أفرد ابن الخطيب لكل منها ترجمة وافية . وقد شرح في كلامه كيف استطاع ابو عشان سعيد بقوته ويقتضه . أن يحصى منورقة من خطر الغزو ، اذ يقول : « وكان من سيرته ان يقتل الناس عقابا على شرب الخمر ، فقال له المحدث ابن مفوز (تشديد الواو مع كسرهما) محتجا : حفظك الله ، تطلب منى رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود الله هكذا ؟ ، والله لاسعت منى حرفا أبدا . » فقال له : « يا فقيه ، هذه الجزيرة كثيرة العنب ، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون ، فيضيعون الاحتراس ، فيظهر علينا العدو . » اما في ترجمة ابنه ابي عمر بن سعيد ، فيقص ابن الخطيب كيف كانت نهايته المحزنة غرقا في البحر مع أهله جميعا وهو في طريقه الى تونس ، بعد أن رفض ما عرضه عليه قائد السفينة من ركوب الشانى الذي يتبع المركب لينجو به وحده » (١) .

وصف الشعراء لاسطول الموحدين :

كان أسطول الموحدين مثل غيره من الاساطيل الاسلامية الاخرى ، موضع اطراء الشعراء ومديحهم . الا انه يلاحظ أن معظم القصائد التي قيلت فيه ، كانت في مناسبات سياسية او حرية معينة ، وهذا أعطاها قيمة تاريخية الى جانب قيمتها الادبية . ومثال ذلك القصائد التي انشدت بمناسبة زيارة الخليفة عبد المؤمن للقاعدة البحرية « مدينة الفتح » التي بناها على جبل طارق سنة ٥٥٥ هـ . وحسبنا أن نقبس منها بعض الايات مثل قول الشاعر القرشي القرطبي المعروف بالطلق (٢) :

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام (القسم الثاني) ص ٢٧٥ - ٢٧٧ ، ابن البار : الحلة السراء ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) يقال انه حفيد طليق النعام الذي أفرج عنه المنصور بن ابي عامر بسبب اسطورة النعام .

راجع (المراكشي : المعجب ص ٢١٦ - ٢١٧)

يرمى بهم ظهر طرف بطن سباحة فالبر في شغل والبحر في صخب
وتعبر الماء منهم نار عادية يصلى بها عابد الاوثان والصلب
ملك اذا ما دغته الحرب من بعد طار السفين أمام الجحفل اللجب^(١)

وفي هذه المناسبة أيضا يقول الشاعر الاندلسي ابو عبدالله الرصافي :

تسئم الفلك من شط المجاز وقد نودين: يا خير أفلاك العلا سيري
فسرن يحملن أمر الله من ملك بالله منتصر في الله منصبور
لما تسابقن في بحر الزقاق به تركزن شطيه في شك وتحير
ذي المنشآت الجواري في أجرتها شكل الغدائر من سدل وتضفير
من كل عذراء جلى في ترائبها ردعان من عنبر ورد وكافور
تخالها بين أيدي من مجادفها يغرفن في مثل ماء الورد مبخور
وربما خاضت التيار طائفة بشل أجنحة الفتح الكواسير^(٢)

وفي سنة ٥٦٠ هـ تحرك السيد الاعلى أبو حفص عمر بن عبد المؤمن من مراكش لمقابلة أخيه السيد ابى سعيد أمير اشبيلية في جبل طارق . وفي اليوم التالي من وصوله سبته عبر غراب طيار من الجزيرة الخضراء يعلم بحلول السيد ابى سعيد بجبل الفتح فعبر السيد أبو حفص البحر في ذلك اليوم ، ومعه جيلة الناس في القطائع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود وقرع الطبول كذلك برز السيد ابو سعيد في قطاعة بجبل الفتح براياته ما أبهت الحاضرين . وفي هذا اللقاء انشد الشاعر أبو عمر ابن حربون قصيدة نذكر منها :

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ١٥٩ - ١٦٤ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

يا من رأى الفلك على الموج طافية كما كفأت قبابا وسطها العسد
ينساب منهن في أعلى غواربه أساود سكنت أجوافها أسد
بحر كأن أبا حفص بصهوته لقسان والمركب الجاري به لبد^(١)
تعجبوا من غراب فوق غاربه نهلاذو الهضبات الشم أوأحد^(٢)

وحينما عبر الخليفة ابو يعقوب يوسف الى الاندلس في سنة ٥٨٠ هـ
(١١٨٤ م) مدحه الفقيه أبو محمد المالقي بقوله :

أوراكب فوق متن الماء مرتفق كأنه قيصر والقلع اكليل
فالبر كالبحر اذ تستن أدرعها والبحر كالبر اذ يصطف أسطول^(٣)

كذلك أورد المقرئ أبياتا عديدة في وصف الاسطول الموحدى نقلا
عن شعراء عديدين امثال ابن الابار البلسى وابى عرو يزيد بن عبد الله
اللخى الاشبيلي وغيرها^(٤) .

البحرية في عهد بنى مرين ملوك المغرب

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب ، واخذ كل رئيس يستقل بناحيته ،
استطاع الفقيه الشريف ابو القاسم بن ابي العباس العزفي بمساعدة قائد
البحر الاندلسي ابي العباس الرنداحى أن يستقل بسبنة وأعمالها سنة
٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) وقد أطاعه الناس جميعا لان بيت بنى العزفي كان من
بيوتات سبنة المعروفة بالدين والعلم والرئاسة .

(١) لقمان شخصية أسطورية ينسب اليها الحكم والافوال والامثال ، ونقال انه ابو
النور ولبد آخر نسوره .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٥٣ وما بعدها :

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ٥ ص ١٩٨ - ٢٠٠ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٣

البحرية الإسلامية - ١٩

وفي سنة ٦٦٣ هـ بعث الفقيه أبو القاسم العزفي اسطوله الى مدنة
أصيلا فهدم اسوارها وقصبتها خوفا من احتلال الاسبان لها . ثم أخذ
ذلك باحتلال مدينة طنجة سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) فصار مسيطرا بذلك
على السواحل الشمالية للمغرب (١) .

ومن هذا الموقع الاستراتيجي الهام : أخذ أبو القاسم ييث سفنه في
انحاء المضيق للتجسس على تحركات الاساطيل الاسبانية المعادية .
واستطاع بفضل هذه السياسة اليقظة ان يحذر اهالي المراسي والسواحل
المغربية قبل وقوع الغارة عليهم بوقت كاف . ومثال ذلك تحذيره لاهالي
مدينة سلا من الغارة البحرية التي شنها عليهم ملك قشتالة الفونسو العاشر
(العالم El Sabio) سنة ٦٥٨ هـ قبل وقوعها بأيام قلائل (٢) .

وقد وجه اليه الخليفة المرتضى الموحدى رسالة شكر على تحذيره
ونصائحه (٣) . (٤) .

ولما قامت دولة بني مرين بالمغرب ، وقضت على نفوذ بني عبد المؤمن

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٣ ص ٢٤ - ٣٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٢٢ .

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٤٢٥ .

(٤) يؤثر عن هذا الفقيه ابي القاسم العزفي انه اول من احتفل بالمولد النبوي (١٢ ربيع
الاول) احتفالا رسميا ، وجعله عيدا من اعياد الدولة الوطنية الرسمية شاركت فيه
بأموالها ونفوذها فأكسبته بما يستحقه من روعة وبهجة . ولم تلبث هذه العادة ان انتقلت
الى فاس وغرناطة وبلنسان ونونسي وعمت جميع بلاد المغرب الاسلامي فصار يحتفل به
رسميا هناك الى اليوم : وما زالت مدينة سلا تخصص بموكب الشموع الذي يخرج منها في
هذه الليلة العظيمة . هذا ومن المعروف ان الفقيه ابا القاسم العزفي قد ألف كتابا حول
هذا الموضوع اسماه « الدر المنظم في مولد النبي العظيم » .

وقد توفي هذا الحاكم العالم سنة ٦٧٧ هـ . راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤
ص ٤٥٢) .

نهائيا سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) وجدت أن اتسام توحيد المغرب يقتضي ضرورة الاستيلاء على هذه القواعد البحرية الشسالية التي تحت طاعة بني العزفي . واستطاع السلطان ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (٦٥٦ — ٦٨٥ هـ — ١٢٥٨ — ١٢٨٦ م) أن يستولي على مدينة طنجة من أيديهم سنة ٦٧٢ هـ . أما مدينة سبتة فقد استعصت عليه واضطر أن يبرم اتفاقا مع صاحبها ابي القاسم العزفي ينص على أن يبقى هذا الاخير معتصبا بحصنه . وان يؤدي لسلطان المغرب خراجا معلوما كل سنة (١) .

ولقد أخذ المرينيون منذ ذلك الوقت يوجهون عنايتهم نحو الاسطول . وكان السلطان ابو يوسف يعقوب هو اول المهتمين به ، وينسب اليه بناء دار الصناعة بمدينة سلا . على يد المهندس الاندلسي محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن الحاج الاشيلي الاصل (ت ٧١٤ هـ) . وقد بنيت قبلى مدينة سلا من جهة وادي أبى الرقراق . وجعل لها بابان كان الوادي يدخل من احدها ويخرج من الآخر بصناعة هندسية . حيث جلب الماء من الوادي الى الباب المسامت لجامع حسان في ترعة عسيقة ، فاذا صنعت سفينة جديدة بهذه الدار . وأريد ارسالها في الوادي . فتحت الترعة فيدخل الماء وتعويم فيه السفينة . فتخرج من الباب القبلى سابحة على وجه الماء الى ان تقع في الوادي . ولذلك ارتفع قوس الباب القبلى جدا ، ليخرج المركب مشور القلاع (٢) كذلك اهتم السلطان يعقوب بتحسين

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٣ ص ٢٤ — ٢٥ . ولقد استمرت سبتة في طاعة بنى العزفى الى ان استولى عليها سلطان غرناطة ابو سعيد سنة ٧٠٢ هـ ثم استعادها سلطان المغرب ابو الربيع سليمان المريني سنة ٧٠٩ هـ (١٢٠٩ م) وظل بنو العزفى يتمتعون بنفوذهم القديم في ظل الدولة المرينية (السلاوى : الاستقصا ج ٣ ص ٨٢ ، ١٠١) .
(٢) راجع (محمد بن علي الدكالى السلاوى : الاحاف الوجيز بأخبار العدوين لولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D 1320 ولا يزال هذا الباب القبلى لدار



بعض القواعد البحرية التابعة له على الضفة الاخرى للسفيق ومثال ذلك البنية او المدينة التي بناها بجوار الجزيرة الخضراء لينزل فيها جيشه بعيدا عن الاهالي (١) .

وجاء بعد السلطان يعقوب ولده يوسف (٦٨٥ — ٧٠٦ هـ ١٢٨٦ — ١٣٠٦ م) الذي استمر على سياسة والده في انشاء الاجفان الغزوية بدار صناعة سلا ، كما بنى قصبة تطوان سنة ٦٨٥ هـ ، ثم بنى سور قصر المجاز الذي يعرف ايضا بقصر معسودة والقصر الصغير بجوار طنجة سنة ٦٨٦ هـ (٢) .

على أن البحرية المرينية لم تبلغ ذروتها وقوتها الا في عهد السلطان ابي الحسن على المريني (٧٣١ — ٧٤٩ هـ = ١٣٣١ — ١٣٤٨ م) . فيروي ابن خلدون ان هذا السلطان استكثر من بناء الاساطيل حتى بلغ مجسوعها مثل عدة النصرانية وعديدهم (٣) . كذلك يذكر السلاوي ان اساطيل هذا السلطان التي جاز بها في حملته على تونس في اواخر أيامه بلغ عددها نحو الستائة قطعة . هذا ولم يتردد ابو الحسن في الاستعانة بخبرة الملاحين الجنوبيين في تنظيم بحريته حتى يضارع بها بحرية ملكتي أراجون وقشتالة في أسبانيا (٤) .



صناعة سلا قائما حتى اليوم ويعرف بباب الملاح اذ انه يجاور حارة لسكنى اليهود ، وقد جرت العادة في المغرب اطلاق اسم الملاح على الاحياء اليهودية . راجع كذلك (محمد المنوني . نظام الدولة المرينية ، مجلة البحث العلمي الرباط ، العدد الثاني مايو ١٩٦٤) .

(١) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابي الحسن نشر نخبا منه ليفي بروفنسال في مجلة هسبريس سنة ١٩٢٥ ، السلاوي ج ٣ ص ٤٢ .

(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٣ ص ٨٩

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٦ .

(٤) السلاوي : نفس المرجع ج ٣ ص ١٧١ . وهذا الاسطول للأسف عصفت به ...

ولم تقتصر عناية السلطان ابي الحسن المريني على بناء الاساطيل ، بل اهتم ايضا بانشاء المحارس والمناظر على طول الساحل المغربي . كما بنى أبراجا للمراقبة في داخل البحر امام ميناء سبتة ليحول دون دخول سفن العدو في مرساها . وقد وصف كل ذلك الكاتب والخطيب المعاصر ابو عبدالله محمد بن مرزوق العجيسي التلساني (ت ٧٨١ هـ) في الكتاب الذي ألفه عن هذا السلطان ^(١) وفيه يقول :

أنشأ هذا المولى من المحارس والمناظر ما لم يعهد بشله في عصر من الاعصار ، وحسبك ان من مدينة آسفى وهي آخر المعصور الى بلاد الجزائر ، جزائر بنى مزغان ، آخر وسطى الغرب ، وأول بلاد افريقية ، محارس ومناظر اذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة ، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحو من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد بلاد المسلمين الا والتنير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم ، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة .

ومن أعجب ما انشاء في هذا النمط : الابراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العساة قبل أن تنشيء ليتصور بناؤها على الوجه الذي قدره واراده ، فجرت على اتم الوجوه والاحسان ، فسها برج الماء

➤ ربح شديدة حطمت معظمه وغرق الكثير من رجاله وفيهم جملة من العلماء والفقهاء . وفيهم جملة من العلماء والفقهاء . ونجا السلطان من الموت باعجوبة اذ دلف به الموج والغاة على الساحل الجزائري بناوحى تدلس .

(١) هو كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابي الحسن للخطيب بن مرزوق ، وقد نشر نخباً منه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مجلة هسپرس تحت عنوان :

Lévi provençal : un nouveau texte d'histoire Mérinide
Le Musnad d' Ibn Marzuk, Hespéris ' tome V 1925)

الذي أنشأه داخل البحر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبته .
وقد حضرت انشاءه . وكان قد اجتمع الملا على عدم امكان بنائه هناك .
فنقلت الصخور التي هي كالروابي . والاحجار التي لا يتزحزح مثالا الا
بهندسة واحكام وعجل . فالتقيت في تلك التروش . وضم إليها امثالها حتى
صارت جزيرة في وسط البحر ، فأقام عليها ذلك البرج المشيد المعروف
هناك . ثم امر بعزل جسر يربط من الساحل الى هذا البرج بحيث يتمكن
مشى البهية عليه واتصال مشاه من البر الى البرج . صان ذلك البرج
جميع المرسى . فلا يتهيأ لاحد من المراكب الدخول لذلك المرسى الا ان
يكون صديقا . والا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته ، وهو من
أعاجيب معمرات المعمر . ومنها البرج الذي على المشحن أيضا من
المدينة المذكورة ، وآخرون من هذا النمط بالجبل المحروس (١) .
(اي جبل طارق) .

كذلك اهتم السلطان أبو الحسن بتحسين القواعد البحرية التابعة
للبرينين على الضفة الاندلسية المقابلة . وأهملها جبل طارق الذي حرره
من أيدي القشتاليين سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) وعزل على تحصينه وتزويده
بالعدد والآلات . وقد زاره عقب ذلك الرحالة الطنجي المعاصر ابن بطوطة
ووصفه بقوله « وتطوفت على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو
الحسن رضى الله عنه ، وما أعد فيه من العدد ، ووددت ان لو كنت من
رابط به الى نهاية العسر » ثم يقول : « وبنى به مولانا أبو الحسن ، رحمه
الله المأثرة العظيمة — أي برجا كبيرا — بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك
برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق ، فبناها مكانه وبنى به دار الصناعة
لانشاء السفن ، ولم يكن به دار صنعة ، وبنى السور الاعظم المحيط

(١) ابن مرزوق : المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١

بالتربة الحمراء الأخذ من دار الصنعة الى القرمدة ^(١) . (أي مصنع
الأجر والقراميد) .

ولقد خاض السلطان ابو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد
أساطيل اراجون وقشتالة انتصر في بعضها وانهزم في البعض الآخر ،
وكلها تدخل في نطاق الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق الذي
أفردنا له فصلا خاصا بعد ذلك نظرا لتشعب احداثه مع القوى الاخرى .

وولى بعد ابي الحسن ولده ابو عنان فارس (٧٤٩ — ٧٥٩ هـ
= ١٣٤٨ — ١٣٥٨) الذي اهتم باعادة بناء الاسطول المغربي بعد تلك
العاصفة المدمرة التي اودت بسعظمه خلال حملة القيروان المشؤمة في اواخر
أيام والده . وقد اشار ابن بطوطة الى الجهد الذي بذله السلطان ابو
عنان في هذا الصدد بقوله : « وما شاع من أفعال مولانا — أيده الله —
انشاؤه الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر ... وأكد ذلك
بتوجهه بنفسه الى جبال جاناتة ^(٢) في العام الفارط لياشر قطع الخشب
للانشاء ، ويتولى بذاته أعمال الجهاد » ^(٣) .

ولا شك ان هذه الاساطيل لم تكن تصنع بسلا فقط ، بل كانت
تبنى أيضا في دار صناعة سبتة التي كانت تسمى أيضا بدار الانشاء . ولقد
اشتهرت سبتة بسنجراتها او مناجرها ، وهي مصانع النجارة التي كانت تصنع

(١) ابو عبدالله محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب
الامصار وعجائب الاسفار ج ٤ ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، نشر وترجمة دفريرى وسانجونيتى
(باريس ١٩٢٢) .

(٢) جاناتة في غرب زمرور بأفليم الرباط . راجع (محمد المنونى : المرجع السابق
ص ٢٢٢) .

(٣) ابن بطوطة : المرجع السابق ج ٤ ص ٢٥١

بها لوازم السفن وأنواع القسي المختلفة . كذلك اشتهرت سبته بمرأهها أو جلساتها التي يربط فيها الرماة على ابعاد مختلفة لصد المغيرين . اذ كان الرمي من طبع أهلها فلا تجد منهم شريفا ولا مشروفا ولا كبيرا ولا صغيرا الا وهو بصير بالرمي وله تقدم فيه (١) .

هذا وقد سار ابو عنان على سياسة والده ، في توجيه عنايته نحو جبل طارق باعتباره قاعدة بحرية امامية هامة لبلاده . وقد بلغ من اهتمامه بهذه القاعدة أن أمر بعزل مجسم أو مثال لهذا الجبل ليضعه امام عينيه في قصره وفي ذلك يقول ابن بطوطة : —

« وجدد مولانا امير المؤمنين ابو عنان عهد تحصينه وتحسينه وزاد بناء السور بطرف جبل القتح وهو اعظم اسواره غناء وأهملها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة والاقوات والمرافق العامة ... وبلغ من اهتمامه بأمور هذا الجبل ان أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور ، يشل فيه أشكال اسواره وابراجة وحصنه وابوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعته وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء . فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع اتقاناً يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال ، وما ذلك الا تشوقه ، أيده الله الى استطلاع احواله وتهنئته بتحصينه واعداده (٢) » .

ولقد كان الاسطول في عهد السلطان أبي عنان موضع مديح عدد من الشعراء نذكر منهم كاتب الدولة في عهده ابا القاسم بن رضوان المالقي في قوله :

(١) راجع (محمد بن القاسم الانصارى السبتي . وصف سبته في القرن التاسع الهجري ، نشر ليفي بروفنسال ، مجلة هسبرس سنة ١٩٣١ ، الجزء الثاني عشر ص ١٥٦)
(٢) ابن بطوطة نفس المرجع ص ٢٥٧ ، ٢٥٩

ولما استقامت بالزقاق أساطل له واستقامت للسعود محاملا
رآها عدو الله وانقض جمعها وأبصر أمواج البحار أساطلا
ومن دهش ظن السواحل أبجرا ومن ذهب خال البحار سواحلا
ومن جندكم هبت عليه عواصف تدمر ادناها الصلاب الجنادلا (١)

كذلك نذكر الشاعر احمد بن يحيى بن ابي حجلة التلساني نزيل
القاهرة في أبيات يخاطب بها أبا عنان :

فلله ما انشأته من مراكب ترادفها في البحر منه تكاوس
قطائعها مثل النجوم قلوعمها وغربانها قطع من الليل دامس
كأن مجاديف الغراب قوادم يطير بها والنسر في الافق كانس

وهذه الايات قالها ابن ابي حجلة بمناسبة قدوم غراب لابي عنان في
الرسالة الى الاسكندرية ، مما يدل على ما كان للاسطول العناني من شهرة
في الشرق العربي (٢) .

كذلك يورد ابن الخطيب رسالة في هذا المعنى موجهة من سلطان
غرناطة ابي الحجاج يوسف الى السلطان ابي عنان يقول فيها :

وقد كان ذاع الخبر الذي تروق فوق اعطاف الاسلام منه الخبر ،
بما صرف الله اليه عزمكم من تجديد ما درس ، واحياء ما القح سلفكم
واغترس ، من الاساطيل السابحة ، والتجارة الرابحة ، والاعمال الباقية
الصالحة ، وأن الانشاء قد استدعى اليه الخلق ، والعزم تبليغ منه الصباح

(١) ابن الخطيب : الاحاطة : نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٢٤

(٢) محمد التوني : نفس الرجوع ص ٢٢٣ نقلا عن مخطوط بعنوان منطق الطير بمكتبة

الرباط رقم ١٩١٠ .

الطلق ، وشييم منه البرق وذهب الفرق . فلا تسألوا عن موقع هذه
الانباء من صديق يعدها من الله فضلا ومنا ، وعدو يسيء بها ظنا . فلتل
منها شرب معلوم ، وحفظ مقسوم ^(١) .

أما عن قيادة الاساطيل فهي — كما يقول ابن خلدون — من مراتب
الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية ، ومروسة لصاحب السيف وتحت
حكاه في كثير من الاحوال ، ويسى صاحبها في عرفهم الملند بتفخيم
اللام منقولاً من لغة الافرنجة ^(٢) .

ولقد رأس الاسطول المرينى عدد من كبار قواد البحر في ذلك
العصر نذكر منهم يحيى الرنداحى الذى تولى قيادة الاسطول في سبته حتى
سنة ٧٢٠ هـ ، وهو ينسب الى بيت اندلسى عريق في القيادة البحرية بسبته
المرية ^(٣) ثم آلت القيادة بعد ذلك في عهد السلطان أبى سعيد عثمان والد
أبى الحسن الى ثلاثة اخوة من بنى العزفي بسبته وهم أبى زيد عبد الرحمن
بن أبى طالب الذى تولى قيادة اسطول سبته ، ومحمد بن على الذى تولى
رئاسة دار الصناعة بمينائها ، ثم أبى زكريا يحيى الذى عين واليا على مدينة
سبته نفسها ^(٤) .

وفي عهد السلطان أبى الحسن المرينى برز في هؤلاء الاخوة قائد

(١) ابن الخطيب . ربحانة الكتاب ونجمة المتأب ج ٢ لوحة ٥٤ ، محمد المنونى :
الرجع السابق .

(٢) لملها الكلمة الاسبانية Almirante وأصلها امير البحر . راجع (ابن خلدون :
المقدمة ص ٢٥٢) .

(٣) راجع (ابن القاضى : درة البحال في غرة أسماء الرجال ج ١ ص ٧١ نشر
علوش ، ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٢٤٧) .

(٤) راجع : (Levi provençal : Le Musnad d' Ibn Marzuq
Hespéris, 1925, Tome V, p. 18.

البحر محمد بن علي الذي تولى القيادة العليا للأسطول وابتصر على أساطيل قشتالة وأراجون في مياه الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠م) واستمر هذا القائد في منصبه الى أن قتل بعد وقعة القيروان سنة ٧٤٩ هـ (١). •

وفي عهد السلطان ابي عنان آلت القيادة العليا للأسطول الى الامير الفرناطى محمد بن يوسف بن الاحمر ، بينما تولى أحمد بن الخطيب قيادة أسطول طنجة ، كما ولى أبو القاسم بن ابي بكر بن بنج قيادة اسطول جبل طارق (٢) . ولم يلبث هذا الاخير أن صار قائدا أعلى للأسطول في عهد السلطان ابي سالم المرينى (٧٦٠ — ٧٦٢ هـ) . ويوصم اسم هذا القائد بن بنج بتلك المأساة التي حلت بصغار امراء بنى مرين على يديه ، وقد وصفها ابن الخطيب وصفا مؤثرا بقوله :

« وصرف السلطان — أبو سالم — وكده الى اجتثاث شجرة أبيه ، وأن لا يدع من يصلح للسلك ولا من يترشح للامر ، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع ، طائفة تناهز العشرين غلسانا روقة من اخوانه وأبناء اخوانه . فاركبوا البحر الى رنده ، ثم تعقب النظر فيهم ، فأركبهم جفنا غزويا موريا بتغرييهم الى المشرق مبعدا اياهم عن حدود أرضه ، ثم طير الى قائد الاسطول ابي القاسم بن ابي بكر بن بنج يأمره بتغريقهم عند انصرافه عن مليلة (Melilla) ، فأخرجوا ليلا من جوف السفينة من بين أمهاتهم الشكالى بعد أن جللتهم الذلة ومسهم الضر ، وعاث في شعورهم الحيوان لطول مقامهم في البحر شهورا عدة وأغرقوا : يركب الصبى منهم

(١) السلاوى . الاستقصا ج ٢ ص ١٢٥

(٢) المتونى : نظم الدولة المرينية مجلة البحث العلمى بالرباط ، العدد الثانى

مايو سنة ١٩٦٤ .

زبني من تلك الزبانية ليخرجه الى البر ، فاذا خاض به العسر ، وقارب الضحضاح ظبه ، وأمسك أصحابه بيديه وغسوا رأسه في الماء حتى تفيض نفسه ، الى أن كسل منهم تسعة عشر بدور ملك وشسوس امارة ، غدوا بالنعيم ، ومهدت لهم الارائك ، لم تعلق بهم شبهة توجب اباحة قطرة من دمائهم . حدثني متولى هذا المكروه بهم بهول مصرعهم فقال : لقد علت منهم ليلتئذ الجثث حتى صارت هضبة ، وحفر لهم أخدود هيل عليهم تراه (١) .

ومن العجيب ان ابن الخطيب الذي أعطانا هذا الوصف المؤلم .
يورد أيضا خطابا وجهه الى هذا القائد ابي القاسم بن بنج يهنئه فيه على مولود أنجبه ، قال فيه :

« أبقاك الله أيها القائد الذي بأسه ضرم ، وشأنه شجاعة وكرم .
ومحل ولايته من العدو حرم ... بلغنى الطالع لديك ، والوارد من حضرة
المواهب الالهية عليك ، جعله الله أسعد مولود على والد ، وأقر عينك
منه بالقائد بن القائد بن القائد . وقد نظمت له أبياتا ان أدركته بعدها
حياتي بر وشكر ، أو كانت الاخرى رحم وذكر هي :

ارفع قسى المنشآت بسعده	واستنجز النصر العزيز لوعده
وانظر اليه تلح اليك بوجهه	سنة الشجاعة من أييه وجده
لله من سيف لنصرك صارم	ينساب ماء الحسن فوق فرنده
صدرت اليك بشارتي وتفاؤلي	بالامر قبل بروزه من غمده
يستبشر الاسطول منه بقائد	كالبدر تحت شراعه او بنده

(١) ابن الخطيب : نقاضة الجراب في غلالة الاغتراب ص ٢٦٧ نشر احمد مختار العبادي .

والبحر يفخر منه يوم ولاده بسلنده بن ملنده بن ملنده (١)

أما عن تحركات الاسطول ووصف مناوراته البحرية ، فحسبنا ان
نورد في هذا المعنى بعض النصوص على سبيل المثال • فيقول السلاوى
في وصف عبور السلطان ابي الحسن بجيوشه الى الاندلس : ثم شرع
السلطان أبو الحسن في أجازة العساكر ، وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة
من العدو الى العدو ، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين
الفا ، أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشسه آخر سنة أربعين وسبعمائة
ونزل بساحة طريف (٢) •

كذلك يصف أحد المعاصرين المناورة البحرية التي أشرف عليها أبو
عنان في مياه بجاية فيقول :

« أمثالا لتعليمات ابي عنان ، اصطفت اساطيل البلاد البحرية
المتوكية (٣) يتقدمهم القائد الاعلى ابن الاحمر في طريدته ، ثم أسطول
طنجة يتقدمه قائده ابن الخطيب في غرابه ، وبعد هذا ترتبت بقية الاساطيل
وقوادها حسبما اقتضته المدن التي تولوا امر بحرها • وقد لزم قائد كل
أسطول مكانه من مصطفى الاجفان التي كان يكسوها طلاء السواد
الحالك ، وتظهر صواريخها شبه المآذن بينما شحن داخلها بالابطال : بين
رام وسائف (١) ورامح ، وقد لبسوا الحديد ، ورفعوا عقائرهم بالتحميد
والتمجيد • فما شوهه ابداع من تلك الاجفان وقد صدحت موسيقى :
فقرعت الطبول ، وعلت أصوات البوقات والانفار ، كما دوت طلقات

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٩٢ - ١٩١

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٥

(٣) نسبة الى لقب ابي عنان وهو المتوكل على الله

(١) سائف اي حامل السيف

الانقاط ، بكل متأرجح الشواط . والرايات خفقت حول اعالي الرماح .
وقد تنوعت ألوانها ، كأنها قوس قزح . سوى طريدة القائد الاعلى فقد
كانت رايتها بيضاء ^(١) » .

البحرية في عهد بنى الاحمر ملوك غرناطة

مسلكة غرناطة هي البقية الباقية لدولة العرب في اسبانيا بعد ان
تسزقت دولتهم وسقطت مدنها في ايدي المسيحيين . لهذا كانت غرناطة هي
الملجأ الطبيعي لمعظم المهاجرين الاندلسيين الذين فروا أو طردوا من بلادهم
بعد سقوطها في يد الاسبان . ولا شك ان هذه العناصر المهاجرة قد
أعطت لهذا الوطن الجديد كل خبراتها وسواعدها مما كان له أثر كبير في
ازدهار هذه المسلكة وبقائها في مواجهة الاسبان أكثر من قرنين ونصف
من الزمان (١٢٣٨ — ١٤٩٢ م) ولقد وهبت الطبيعة مسلكة غرناطة جبالا
شامخة مثل جبال شلير Sierra Nevada والبشرات Alpujarras التي
سهلت مهمة الدفاع عنها . كما وهبتها أيضا ساحلا طويلا يستند من المرية
شرقا الى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوبا ، وهذا جعلها — رغم صغر
حجمها — دولة بحرية من دول البحر المتوسط . ولقد عرفت هذه المنطقة
الساحلية الغرناطية بأسسها القديم وهو البلاد البحرية التي ظلت عامرة
بالاساطيل ودور الصناعة والمحارس التي ورثتها عن الاسلاف المجاهدين
منذ أيام الامويين . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر ابن فضل الله العسري
(ت ٧٤٨ هـ) وصفا قيسا لاسطول غرناطة ونشاطه وقواعده في هذه
المنطقة بقوله : وبالبلاد البحرية اسطول حراريق ^(٢) للغزو في البحر

(١) محمد التونى : المرجع السابق ص ٢٢٦

(٢) الحراريق والحرافات ومقردها حرافة ، هي نوع من السفن الحربية التي تستخدم



الشامى يركبها الانجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة ، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون في الغالب ، ويغيرون على بلاد النصرارى بالساحل او بقرب الساحل . فيستأصلون أهلها ذكورهم واناثهم ، ويأتون بهم بلاد المسلمين . فيبرزون بهم ويحصلونهم الى غرناطة الى السلطان فيأخذ منهم ما شاء ويهدى ويبيع . والبلاد البحرية اولها من جهة الشرق :

المرية : وهي ذات مرسى على البحر الشامى ، وهي اول مراسى البلاد الاسلامية بالاندلس ، وكانت العسارة قبل لبجانة (Pechina) فانتقلت الى الساحل لمنافع الناس . والمرية ثلاث مدن . الاولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلي ، لها سور محفوظ من العدو بالسار والحراس ، ولا عسارة بها . ويليها الى الشرق المدينة القديمة ، وتليها المدينة الثالثة المعروفة بسلى المرية وهي اكبر الثلاث . والقلعة تحوز القديمة من جهة الشمال وتسمى القصبة بأستهم . وهما قصبتان في غاية الحسن والمنعة . وساحل المرية أجمل السواحل وحولها حصون وقرى كثيرة الفواكه . وبها دار صناعة لانشاء الحرايق لقتال العدو . ويأتيها الان ولاة من صاحب غرناطة وقد كانت فيما مضى مملكة مستقلة ، وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة ايام .

ويلي المرية من البلاد البحرية من جهة الغرب بلدة شلويين (١)



لحمل الأسلحة النارية ، كالنار الاغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو في البحر . وفيل هي المرامي أنفسها . انظر (محمد ياسين الحموى : تاريخ الاسطول العربى ص ٢٥) .

(١) ينسب الى هذه البلدة امام النخاعة في الاندلس ابو على عمر بن محمد - المعروف بالشلويين نسبة الى بلده هذا . له مصنفات كثيرة مثل كتاب التوطئة في النحو وشرح كتاب سيبويه ، وكانت وفاته سنة ٦٤٥ هـ . راجع (السيوطى : بغية الوعاة ص ٣٦٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٩٠) .

(Salobrena) وهي معدة لارسال من يغضب عليه السلطان من أقارب .
ويزرع بها قصب السكر . ويلبها المنكب ^(١) (Alemunecar) وهي من
مدينة دون المرية . بها دار صناعة لانشاء السفن ، وبها قصب السكر
والموز ويلب المنكب مالقة (Malaga) وهي مدينة بديعة كثيرة القواعد
لها رمضان عامران أحدهما عن علوها والآخر عن سفنها . وبها دار صناعة
لانشاء الحراريق ، وجامعها بديع وبصحنه فارنج ^(٢) ونخل . يلبي مالقة
مدينة مربلة (Marbella) ويلبها اشتبونة (Etepona) ، ثم جبل القنق
وهو طود شامخ منيع جدا يخرج في بحر الزقاق ستة أميال ويلب جبل
القنق من الغرب على الساحل ، الجزيرة الخضراء (Algeciras) وهي
مدينة أمام مدينة سبتة من بر العدو من بلاد المغرب ، ومرساها من أحسن
المراسي وهي آخر البلاد البحرية الاسلامية للاندلس وليس بعدها لهم
بلاد ^(٣) .

والى جانب هذه القواعد البحرية وما فيها من دور صناعة لبناء
الاساطيل وجدت كذلك الرباطات والمراقب الساحلية .

ولا شك ان الرباطات القديمة التي سنعنا عن نشاطها من قبل في هذه

(١) اشتهرت هذه المدينة بنزول عبد الرحمن الداخل الاموي على مرساها عند دخوله
الاندلس في طلب الملك سنة ١٢٨ هـ ، وهي الآن مصيف هادئ صغير ، ولا سيما لاهل
غرناطة .

(٢) أباح الامام عبد الرحمن بن عمرو الازعاعي (ت ١٥٧ هـ) غرس الاشجار في
صحنون المساجد ومذهب الازعاعي الشامي هو أول مذهب انتشر في الاندلس ، وقد انتشر
معه عادة غرس اشجار النارج والليمون في صحنون المساجد ، وظلت هذه العادة مستمرة بعد
انتشار المذهب المالكي في هذه البلاد .

(٣) راجع (ابن فضل الله العمري : كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار الجزء
الخاص بوصف افريقية والاندلس ص ٤٤ - ٥٠ ، نشر حسن حسني عبد الوهاب بتونس) .
انظر كذلك (الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢١٧ وما بعدها)

المنطقة . قد ظلت تؤدي دورها في حراسة هذه السواحل والدفاع عنها فالوزير الغرناطي ابن الخطيب يشير الى رابطة القبضة (١) بساحل المرية Cabo de Gata . وذلك في خلال كلامه عن غرق سفينة غرناطية بن عليها من الطلبة والادباء وأبناء السراة والحسباء بأحواز هذا المكان سنة ٧٣٩ هـ (٢) . كذلك نجد في بعض الظواهر الرسمية التي كان يصدرها سلطان غرناطة محمد الغنى بالله الى رعيته ، الحض على بناء الحصن بجبل فارو (٣) Gibralfaro الذي يشرف على مرسى مألقة ، اعانة للسافرين وانجادا لجهاد الكافرين (٤) . هذا الى جانب المدونات الاسبانية المسيحية التي وصفت غرناطة عقب سقوطها في يد الملكيين الكاثوليكين فرناندو وازايل (١٤٩٢ م) ، وأشارت الى وجود عدد كبير من الربط والقصور الساحلية التي كانت ترجع في معظمها الى العصر الاسلامي (٥) .

ولقد برز من أبناء هذه البلاد البحرية قادة مهرة تولوا قيادة الاسطول الغرناطي والمغربي أيضا . ونذكر منهم على سبيل المثال بنى الرنداجي (٦) في المرية الذين استمرت في بيتهم هذه الخطة منذ أواخر أيام الموحدين . وقد برز منهم شخصيات متعددة في المراجع الاسلامية .

(١) رباط القبضة او القابضة حصن حربي مشهور في كتب التاريخ منذ أيام الامويين .

(٢) ابن الخطيب . الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٥ .

(٣) لا يزال يعرف هذا المكان الى اليوم بنفس الاسم

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ٩ ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٥) راجع (Alfonso Gamir Sandoval : Organizacion de la def-
ensa de la costa del reino de Granada, desde su reconquista hasta fin-
ales del siglo XVI pp 265 - 275) .

(٦) ورد هذا الاسم كذلك في معظم المراجع ، ويرى سيبولد استنادا الى الادبي

أن صحته الرنداجي نسبة الى بلدة في صقلية اسمها الرانداج Randazzo .

راجع C. F. Seybold : Analecta Arabo-Italica, en Centenario
della Nascita di Michele Amari, Volume II p 213 Palermo 1910.

البحر الإسلامية - ٢٠

فنسبع عن ابي العباس الرنداحي (١) الذي ساعد باسطوله العباسي
أبا القاسم العزفي عندما استقل بسبته وطنجة عن طاعة الحفصيين .
٦٤٧ هـ . ونسبع كذلك عن جحفون الرنداحي (٢) الذي ولاه الامير
المرتضى الموحدى على قيادة الاساطيل بالمغرب . وهناك أبو الحسن علي
الرنداحي (٣) الذي تولى قيادة أسطول المرية وقام بدور كبير في الدفاع
عنها عندما حاصرها ملك اراجون خايسى الثاني سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ -) .

ثم هناك أبو علي الرنداحي (٤) الذي أشار اليه ابن الخطيب كما
عام للبحرية الغرناطية على أيامه . ولعله ابن أبي الحسن علي الرنداحي
السالف الذكر . كذلك يشير ابن خلدون الى يحيى الرنداحي كقائد
لاسطول سبته حتى سنة ٧٢٠ هـ (٥) وكل هذا يدل على اختصاص هذه
الاسرة بالقيادة البحرية .

ومن القادة الذين تولوا قيادة الاسطول الغرناطي نذكر أيضا
عبدالله محمد بن سلبطور الهاشي . وواضح من اسمه Salvador أنه
من أصل اسباني . وهو ابن اخت ابي علي الرنداحي وقد أفرد له ابن
الخطيب ترجمة في احاطته قال فيها :

كان من وجوه المرية وأعيانها ، متجندا ظريفا ، دربا على ركوب البحر
وقيادة الاساطيل ، ناب في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي

(١) ابن عذارى . البيان المغرب ج ٤ ص ٤٠٠ .

(٢) ابن خلدون . المعبر ج ٧ ص ١٨٦ .

(٣) ابن القاضي . درة البحال في غرة اسماء الرجال ج ١ ص ٧١ ، نشر علوش الرباط

سنة ١٩٣٤ .

(٤) ابن الخطيب . الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ١٨ - ١٩ .

(٥) ابن خلدون . المعبر ج ٧ ص ٢٤٧ .

الرنداحي . وولى أسطول المنكب برهة . وكان أدبيا جيد الشعر والكتابة .
ثم انحط في هواه انحطاطا أضاع مروءته . استهلك عقاره . وهدد بيته .
والجاء أخيرا الى اللحاق بالعدوة وتوفي بسراکش سنة ٧٥٥ هـ (١) .

ومن قادة الاسطول الغرناطى أيضا نذكر القائد الوزير أبا الحسن
ابن كاشة الذي أفرد له ابن الخطيب ترجمة وافية في احاطته قال فيها :
كان جده من المنتزين ببعض حصون الاندلس طليطاطة (Tablada)
وخدم طاغية الروم ببعضها وانخرط في جيشه يشهد بذلك مكتوبات تلقاها
بشماله ووراء ظهره صانها حافده المترجم به في خرقه من السرق لا يزال
يعرضها في سبيل الفخر على من يصل الى باب السلطان من رسل الروم .
ولقد عرضها أيام سفارته الى ملك قشتالة على وزيره سويل اليهودي
وطلب تجديدها . وهذا الرجل حسن الشكل كثير الهشة جيد الرياش ،
كثير التعلق والتوسل . شديد المداخلة لاذيال الامراء . متصامم على
أغراضهم متنفق بالسعاية متبذل في أسواق الخدمة أطمع خلق الله
وأبخلهم بما لديه ، وأبعدهم في مهاوى الخسة ، أما فلسه فسخزون ، وأما

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسودبال ، لوحة ١٨ - ١٩ ، المرقى :
نفع الطيب ج ٨ ص ١٩٢ ، ابن القاضي : درة الحجال ج ١ ص ١٩٦) وقد ورد في هذه
المصادر السابقة نماذج من شعر هذا القائد مثل قوله في مدح السلطان ابى الحجاج يوسف
عندما زار المربة :

انفراك أم سمط من الصدر ينظم وريقك أم مسك به الراح نختم
وقوله مخاطبا الشاعر أبا القاسم محمد بن خاتمة ردا على قطعة خاطبه بها مطلعها البيت
الاخير من هذه الابيات :

وفاضت دموعى بفرط ولوعى	وبين ضلوعى هوى شب نار
فكسم ذا أقاسى وقلبك قاسى	ومالى أنسى لطول النفار
انرضى مماسى وانت حياتى	إذا لم توات فكيف اصطبّار
خلعت عشارى بوادى المزار	وسمع الفعارى وسيف العقار

خوانه فمحجوب . وأما زاده فسنوع . وأما ثوبه فحبيس التخت إلى يوم القيامة (١) .

ومن الطريف أنه بينما يتحامل ابن الخطيب على هذا القائد ويصفه بالبخل والطمع إذا بالشاعر ابن خاتمة يصفه بالكرم أثناء ترجسته للشاعر ابن خيس بقوله : وقدم ابن خيس المرية سنة ست وسبعائة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن ابن كاشة فوسع له في الايثار والمبرة . وبسط له وجه الكرامة طلق الاسرة . فقال في مدحه . الخ (٢) . ولعل تحامل ابن الخطيب على ابن كاشة راجع الى موقف هذا الاخير من سلطانه محدد الغنى بالله حينما تخلى عنه أثناء مطالبته بعرشه (٣) .

والى جانب هذه المعلومات التي أوردها ابن الخطيب عن قادة الاسطول الغرناطى . فقد أعطانا أيضا بعض المعلومات عن بحارة الاسطول . ومثال ذلك اشارته الى اهتمام الدولة بزيادة أجورهم على أيامه (٤) . ثم وصفه لمهارة هؤلاء الملاحين وخفة حركاتهم عند قوله :

وبحرى تلاعب في شريط وحى الفعل متصل الصوت
تدلى وارتقى وسى وأهوى وأعجب في التساسك والثبوت
وقلنا ان يكن بشرا سويا ففيه غريزة من عنكبوت (٥)

كذلك يفهم من قصائد شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك ان الاعلام

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٩٧

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٨٢

(٣) راجع الجزء الخاص بالوزارة في عهد بنى الأحمر ص ٢٣٩ من كتابنا دراسات في تاريخ المغرب والاندلس .

(٤) ابن الخطيب . الاحاطة ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ (طبعة القاهرة)

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٥٤

التي كانت ترفرف على الاسطول الغرناطي كانت حمرى اللون جريا على شعار بنى الاحمر ملوك هذه الدولة ، ومثال ذلك قوله في مدح السلطان محمد الغنى بالله :

اعلامك الحمر فوق السفن خافقة وريح سعدك تجريها على قدر (١)

أما عن سياسة غرناطة البحرية ، فكانت مرتبطة بسياستها العامة التي امتازت بالمهارة والمرونة . لقد كانت غرناطة تستلك قوة بحرية منظمة قادرة على حماية سواحلها وتجارتها بل وامداد جارتها قشتالة (٢) ببعض وحداتها البحرية أثناء حروبها مع أراجون ، الا ان غرناطة مع ذلك كانت دولة صغيرة محدودة القوة والموارد والامكانيات ، ومحاطة بدول تفوقها عدة وعددا مثل أراجون وقشتالة والبرتغال والمغرب . لهذا كانت سياستها تعتمد أولا على مهارتها الدبلوماسية تجاه تلك الدول المحيطة بها . وعدم التورط في خوض قتال خطير بفردا ، ثم على الاستعانة بقوة جيرانها المغاربة عندما تضطرها الظروف الى مجابهة اعدائها المسيحيين في ميدان القتال برا أو بحرا . وهذا الموقف جعل غرناطة تحرص دائما على أن يكون مضيق جبل طارق مفتوحا أمام النجدة المغربية ، وبعبدا عن السيطرة المسيحية كي يظل اتصالها بالعدوة المغربية آمنا مستترا . وقد اضطرت غرناطة في هذا السبيل الى التنازل أحيانا للمغرب عن بعض قواعدها الجنوبية المطلة على المضيق مثل جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف ورنده ليتولى بنفسه مهمة الدفاع عن تلك القواعد ، واتخاذها رأس جسر للتدخل في

(١) المقرئ ازهار الرياض ج ٢ ص ١٢٨

(٢) يلاحظ أن مملكة أراجون كانت دولة بحرية بحكم وضعها الجغرافي في شمال شرق إسبانيا ، على عكس مملكة قشتالة التي كانت دولة برية بحكم نشأتها في قلب إسبانيا ، غير أن انتصاراتها الأخيرة على المسلمين مكنتها من احتلال بعض القواعد البحرية . الامر الذي جعلها ترسم لنفسها سياسة بحرية منذ ذلك الوقت .

وقت الجهاد. ولقد أدركت كل من قشتالة وأراجون أهداف تلك السياسة. فحاولت من جانبها فرض سيطرتها على المضيق واحتلال قواعده. لكي تحول دون اتصال المغرب بالاندلس. ومن هنا نشأ صراع طويل بين جميع هذه القوى حول السيطرة على مضيق جبل طارق *la empresa del estrecho de Gibraltar*. ولما كانت سياسة غرناطة في هذا الصراع مرتبطة بسياسة الاطراف الاخرى المشتركة فيه، فقد آثرنا ان نفرد لهذا النزاع موضوعا مستقلا.

الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق

ذكروا ان الغالب بالله محمد الشيخ مؤسس غرناطة ، كان له صهر من أهل بلدة أرجونة يعرف بابي الحسن بن الحسن بن أشقيلولة (١) شاركه في فتوحاته وفي تأسيس ملكه . فلما استقر الامر للغالب بالله بغرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره الامر ، فقال له « أنا أمي ، لا أكتب ، وعزك من عزي ، وملكك ملكي ! » فأسكنه بالقصبة وقدمه على الجيش . ثم توفي الرئيس ابن اشقيلولة وخلف ولدين : أبا اسحاق ، وأبا محمد ، فصاهرهما السلطان على ابنتيه . مؤمنة وشس ، وولى الاول على مدينة وادي آش Guadix كما ولى الثاني على مدينة مالقة Malaga . وأنجبوا البنين والبنات وصارت أحوالهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدهم السلطان جاريه ، الى أن كبر ابن السلطان وولى عهده محمد ، فنافس هؤلاء الابناء بنى اشقيلولة وقلق بهم (٢) .

(١) واضح أن هذا الاسم ليس عربيا وانما من أصل اسباني وقد وردت كتابته بصيغ مختلفة .

راجع (Diccionario de Historia de Espana I, p. 368)

(٢) يروي ابن الخطيب في احاطته (نسخة الاسوربال ورقة ٢١٤) أن ثورة بنى اشقيلولة بدأت في اواخر أيام السلطان محمد الشيخ ، وأنهم امتنعوا بحصونهم في مالقة ووادى آش مما أدى الى قيام الحرب بينهما . ثم يروي نادرة لطيفة تدل على انسانية هذا السلطان وشغفه اذ يقول وبينما كان السلطان يتازل مالقة ، ركب في ثلاثة من مماليكه متخفيا كانما غرضه وذهب الى باب المدينة ، فلما ابصر به القائمون به هالهم الامر وأدهشتهم الهيبة



ولما مات السلطان محمد الشيخ وآل الامر الى ولده محمد الثاني المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ - ١٢٧٢ = ١٣٠٢ م) زادت التفرقة بين بنى اشقيلولة وبين خالهم السلطان الجديد. فأظهروا الامتناع والعصيان بسديتي وادي آش ومالقة ، ثم أعلنوا ولاءهم وتبعيتهم لسلطان المغرب أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ = ١٢٥٨ - ١٢٨٦ م) وانهز سلطان المغرب هذه الفرصة وأعلن تأييده للشوار واستولى على مدينة مالقة واقام بها عيد النحر سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) ^(١) وتخون السلطان من أطباع سلطان المغرب وظن به الظنون . وخشي أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف . فلجأ الى جيرانه المسيحيين ، وعقد مع سانشو الرابع Sancho IV ملك قشتالة وخايسى الثاني Jaime II ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب .

واستطاع كل من الملكين سانشو وخايسى ان يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالهما بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras التي كانت في يد المرينيين ، لانها تعتبر



فأخرجوا له موقرين لحاله آتسين لقلعة أنبائه ، فدخل وقصد القصبة ، وطير الخبر الى الرئيس محمد بن اشقيلولة فبادر اليه راجلا مهرولا خافيا ولما دنا منه ترامي على رجله بقلهما اظهارا لحق ابوته وتعظيما لقدره ودخل معه الى بنته اي بنت السلطان وحفده فترامى الجميع على اطرافه يلتمونها ويتعلقون بأذياله وادرائه وهو يبكي اظهارا للشفقة والمودة . واقام معهم بياض يومه ثم انصرف الى محلته .

(١) عن ثورة بنى اشقيلولة راجع (ابن الخطيب . أعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ص ٢٨٧ - ٢٩١) ولاهية هذا النص فقد ترجمه علوش الى الفرنسية (Hesperis xxv, 1938) كما ترجمة سانشيث البرنت الى الاسبانية (Sanchez Albo) (rnoz ; La Espana Musulmana II, p. 352).

رأس جسر لعبور القوات المغربية الى الاندلس • ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك •

ثم نازلت أساطيل أراجون وقشتالة مدينة الجزيرة الخضراء ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ولكنها منيت بهزيمة فادحة امام الاسطول المغربي والسبتي ، واضطرت الى الاقلاع عنها خائبة السعى وتسكن سلطان المغرب من العبور بجيوشه الى اسبانيا • وكانت مالقة في خلال ذلك الوقت قد استردها سلطان غرناطة بعد أن داخل واليها من قبل المرينيين وعوضه عنها بالمنكب وشلوبانية • فنازلها ملك المغرب وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حلات الجيش المريني الى ان صادت الاسوار رؤوس الخيل ، ولكنه عجز عن احتلالها ، واضطر سلطان المغرب الى فك الحصار عن مالقة والعودة الى الجزيرة الخضراء • واستمرت المناوشات والحروب قائمة بين الفريقين الى ان تم الاتفاق بينهما على أن يتنازل سلطان غرناطة عن مدينة وادي آش قاعدة بنى اشقيلولة لسلطان المغرب ، بينما يتنازل سلطان المغرب عن مدينة القصر الكبير (١) في شمال المغرب لبنى اشقيلولة • وفي سنة ٦٨٧ هـ هاجر بنو اشقيلولة بأموالهم وأهليهم ورجالهم الى مدينة القصر الكبير وأعمالها ، واستقروا بها الى أن انقرضت أيامهم في اواخر الدولة المرينية (٢) •

على ان سلطان غرناطة رغم هذا الاتفاق السالف الذكر ، لم يأمن جانب بنى اشقيلولة ، وتوقع أغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم اليه ،

(١) القصر الكبير مدينة في شمال المغرب في جنوب سبتة وكانت تسمى أيضا بقصر كنامه وقصر عبد الكريم •

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ص ٦٨ •

ولهذا استولى على مدينة وادى أش وطرد عامل المرينيين منها . كما
استنجد بالقوى المسيحية الاسبانية لسد المضيق بأساطيلهم : وفي سنة
٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) قام سانشو الرابع ملك قشتالة بحاصرة طريف برا
بينما حاصرها ملك اراجون بأساطيله من البحر . أما ملك غرناطة ، فانه
أكنفى بهاجمة مدينة أسطونة احدى القواعد الاندلسية التابعة لسلطان
المغرب ، وانهت هذه العمليات بسقوط طريف في ايدي القشتاليين بعد
حصار دام ستة أشهر (١) .

على أن ملك قشتالة لم يلبث أن نسي وعوده السابقة لملك غرناطة .
ورفض تسليمه ثغر طريف بل واحتفظ أيضا بالحصون الغرناطية التي كان
محمد الثاني قد سلسها اليه في مقابل تسليمه قاعدة طريف ، وثارت ثائرة
سلطان غرناطة لهذه الخدعة ، ولم يجد وسيلة أمامه سوى العبور الى
سلطان المغرب ابى يعقوب يوسف سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ليطلب منه
الصفح على مسلكه السابق . وليطلب منه أيضا معونة حربية لاسترداد
طريف (٢) .

واستجاب سلطان المغرب لطلبه . وهاجمت الجيوش والاساطيل
المغربية والغرناطية قاعدة طريف ولكنها لم توفق في احتلالها . وترجع
المصادر الاسبانية هذا الفشل الى بطولة قائد حامية المدينة قزمان الطيب
Cuzman el Bueno الذي فضل أن يقتل المسلمين ولده أمام عينيه على

(١) راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٩١) وكذلك .

Gimenez Soler : La corona de Aragon y Granada Boletin de la
real academia de buenas letras de Barcelona : num. 19, 1905).

وراجع كذلك (ابن خلدون ، العبر ج ٧ ص ٢١٦) .

(٢) ابن ابى زرع : روض القرطاس ص ٢٦٥ ، ابن خلدون . العبر ج ٧ ص ١٧ .

أن يسلم المدينة (١) .

غير أن السلطان محمد الثاني ، وأن كان لم يوفق في استعادة طريف ، إلا أنه استطاع أن يتتزع من القشتاليين مدينتين من أعمال جيان وهما قيجاطة Quesada سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) (٢) والقبذاق Alcuadete سنة ٩٦٩ هـ (١٢٩٩ م) . ثم انتهت هذه الحروب بعقد صلح بين غرناطة وكل من قشتالة وأراجون سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) .

وفي أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م) قامت في بلاد المغرب ثورات واضطرابات داخلية ، ولم يلبث السلطان نفسه أبو يعقوب يوسف أن مات مقتولا بيد بعض عبيده سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) .

ولقد حركت انباء هذه الفوضى ، أطماع سلطان غرناطة الجديد محمد الثالث (٧٠٢ - ٧٠٩ هـ ١٣٠٢ - ١٣٠٩ هـ) في السيطرة على المضيق ، فاتهز هذه الفرصة وأمر ابن عمه أبا سعيد فرج صاحب مالقة بالاستيلاء على سبته ، فاقتحمها بأساطيله وجنده واستولى عليها سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) وقبض على ولاتها من بنى العزفى وأرسلهم أسرى

(١) راجع (Pedro Barrantes Maldonado : Ilustraciones de la case de Niebla, memorial historico Espanol, t IX p. 145 - 170, Gimenez Soler : La corona de Aragon. y Granada, B. R. A. B. L. B., no 19 (1905) p. 162).

(٢) راجع تفاصيل هذا الفتح في (ابن الخطيب : الإحاطة نسخة الاسكوريال : لوحات

٤٨ - ٥٢) .

انظر كذلك (Melchor Antuna : Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammad II de Granada, Religion y Cultura, 19٤2 XIX, XX).

الى غرناطة (١) .

وغضب سلطان المغرب ابو ثابت عامر (٧٠٦ - ٧٠٨ هـ) من ما
التدخل الغرناطي في شئون بلاده . وقام من فوره بتأسيس مدينة تطوان (٢)
جنوبي سبتة لتكون قاعدة عسكرية ضد الجيوش الغرناطية في سبتة . وام
يعش السلطان ابو ثابت طويلا لكي يحقق أماله ولكن ابنه ابو الراس
سليمان (٧٠٨ - ٧١٠ هـ = ١٣٠٨ - ١٣١٠ م) واصل سياسته بضرورة
استعادة سبتة وتحالف مع مملكتي قشتالة وأراجون ضد غرناطة .

ورأى كل من ملك قشتالة فرناندو الرابع . وملك أراجون خايمي
الثاني ، ان الفرصة باتت سانحة للقضاء على مملكة غرناطة . فتحالفا على
غزوها في وقت واحد على ان تقوم الجيوش القشتالية بمهاجمة مدينة
الجزيرة الخضراء من الجنوب ، بينما تهاجم الاساطيل الاراجونية مدينة
المرية من الشرق ثم يتقابل الجيشان في مدينة غرناطة العاصمة (٣) .

وحينما علت غرناطة بأنباء هذا العدوان المشترك على أراضيها .
ثارت ثائرة ابنائها ، وأخذوا يستعدون للقتال . وساء لهم ان يجدوا سلطانهم

(١) ابن الخطيب : اللوحة البدرية ص ٥٢ ، ابن خلدون : المبرج ٧ ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(٢) بلاحظ ان قصبة تطوان بناها السلطان أبو يوسف يعقوب ١٢٨٥ م ثم جاء السلطان

أبو ثابت فبنى المدينة نفسها لكي يهدد منها مدينة سبتة راجع (السلاوي : الاستقصا
ج ٢ ص ٢٦) .

(٣) راجع التفاصيل (Caspar Remiro : Relaciones de Aragon)
con los estados musulmanes de Occidente : El negocio de Ceuta
entre Jaime II de Aragon y abu Rabi Solaiman sultan de Eez, con-
tra muhammad III de Granada & Angel Canellas : Aragon y la
empresa del Estrecho en el siglo XIV, estudios de Edad media de
la Corona de Aragon Vol. II, p. 17 & Gimenez Soler : Expedicion
de Jaime II a Almeria, B. R. A. B. L. B., ho 14 (1904) P. 292).

محمد الثالث قد استنفد جميع المخزون من المؤن والغلال أثناء عملياته العسكرية في بلاد المغرب ، فقاموا بشوكة ضده ، انتهت بخلفه ونفيه الى ثغر المنكب Almunecar ، وتولية أخيه ابى الجيوش نصر سلطانا على غرناطة (٧٠٨ - ٧١٣ هـ = ١٣٠٩ - ١٣١٤ م) (١) .

ورأى سلطان غرناطة الجديد ضرورة إعادة العلاقات الودية بين غرناطة وفاس لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الخطر المسيحي المنتظر . فعبّر الى سلطان المغرب ابى الربيع سليمان ، وتنازل له عن مدينتي رنسة والجزيرة الخضراء . كما أعاد اليه ثغر سبتة الذي سبق ان استولى عليه أخوه . ثم توج هذا كله بعقد قرانه على أخت سلطان المغرب (٢) .

ثم رأى سلطان غرناطة ، بعد أن القى عن عاتقه مهمة الدفاع عن الجزيرة الخضراء ورنده ، ان يتقرب الى ملك قشتالة فرناندو الرابع . ويعرض عليه بعض الحصون الغرناطية مقابل تخليه عن حليفة ملك أراجون . غير أن ملك قشتالة رفض هذا العرض ، وأعلن الحرب على غرناطة وعلى سلطان المغرب أيضا لانه « كذب عليه وعلى ملك أراجون » (٣) .

وفي عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) هاجم ملك قشتالة جبل طارق وتسكن من الاستيلاء عليه . ثم تقدم نحو الجزيرة الخضراء محاولا احتلالها ولكنه فشل واكتفى بحصارها . وفي الوقت نفسه (٧٠٩ هـ) حاصر ملك أراجون خايسي الثاني بجيوشه وأساطيله ثغر المرية .

(١) ابن الخطيب : اللحة البدرية ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) بن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٢٩ - ٢٤٠ . ابن الخطيب : اللحة البدرية ص ٥٨ .

(٣) راجع (Gimenez Soler : Expedicion de Jaime II a Almeria, Op. cit p. 301-302).

غير أن هذا الهجوم المزدوج انتهى بالفشل إذ استطاعت كل من المدينتين الصمود امام العدوان ولا سيما مدينة المرية التي تعرضت في هذه الحرب لاشد هجوم عرفته في تاريخها . ولهذا اهتم به المؤرخون القدامى والحديثون وكتبوا عنه في شيء من التفصيل (١) .

ولقد انتهى هذا المشروع الحربي الفاشل بأن عقدت كل من قشتالة وأراجون صلحا مع غرناطة والمغرب ، وقامت بعد ذلك علاقات طيبة بين هذه الدول الاربع تشهد بها مجموعة المراسلات المتبادلة بينها ، والمحفوظة الآن في أرشيف تاج أراجون بمدينة برشلونة (٢) .

وفي سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤ م) حدث انقلاب داخلي في مملكة غرناطة انتهى بخلع سلطانها ابي الجيوش نصر ونفيه الى مدينة وادي آش وتولية

(١) وصف هذه المعركة بالتفصيل ابن الفاضي في كتابه درة الحجال في غرة أسماء الرجال (ج ١ ص ٧١ وما بعدها) ولاهمية هذا النص ترجمة علوش الى الفرنسية في (Hespèris 1939 XVI p . 122) كما ترجمه الى الاسبانية سانتش البرت (Sanchez Albornoz : La Espana Musulmana II p. 386) وقد رأتنا من المفيد ايراد هذا النص كتميمة في آخر الكتاب . ومن النصوص العربية الهامة التي تناولت وصف هذه المعركة ، زجل شعبي اندلسي لشاعر يدعى القيسي ، ورد في مخطوط منوانه مفتاح الدين في المجادلة بين النصارى والمسلمين .

ولقد نشر ليفي بروفنسال هذا الزجل في مجلة الاندلس الاسبانية بعنوان :

(Levi — Provençal : Un Zagal hispanique sur L' expedition aragonaise da 1309 contre Almeria, al Andalus, Vol. VI, fasc . 2, 1941.)

اما المصادر الاوروبية فنذكر منها :

Geronimo Zurita; Los anales de la Corona de Aragon I p. 435
& Gimenez Soler : El sitio de Almeria (1309) p. 392.

(٢) جمعت هذه الوثائق في كتاب :

(Alarcon y Linares : Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de aragon pp. 14, 20 — 23).

ابن عمه ابي الوليد اسماعيل الاول (٧١٣ - ٧٢٥ هـ ١٣١٤ - ١٣٢٥ م) .
وقد حاول السلطان اسماعيل ان يحافظ على العلاقات الودية التي تربط
غرناطة بقشتالة وأراجون . غير أن محاولاته باءت بالفشل وخصوصا مع
قشتالة التي أظهرت تأييدها للملك نصر المخلوع وأعلنت الحرب على
غرناطة (١) .

ثم قام الاميران بدرو وخوان ، الوصيان على ملك قشتالة الطفل
الفونسو الحادوى عشر ، بحملة على مملكة غرناطة أحرزت بعض النجاح
في منع السلطان اسماعيل من استعادة جبل طارق ، ولكنها انتهت بسقط
الاميرين القشتاليين في مروج غرناطة سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) وتذهب
الرواية الاسبانية الى أن الاميرين المذكورين ماتا موة طبيعية في هذه
المعركة ، الاول (بدرو) مات بالسكتة القلبية ، والثاني (خوان) مات
من الحر والعطش (٢) . ولكن هذا يتعارض مع الحقيقة التاريخية التي
نراها واضحة في رواية الوزير ابن الخطيب عند قوله « وتقدم لتربيته
والنيابة عليه عمه دون بطره Pedro ، وهو الذي وقعت عليه وقعة المرج
بظاهر غرناطة ، وسيقت جثته الى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض
الابراج ، عن يسير الصاعد الى الحمراء لصق باب يعقوب . وصارت
الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة الى أن غطته ، واحتيج الى بناء
البرج ، وأنا نائب عن السلطان اذ ذاك ، واضطر الى الكشف عن التابوت ،

(١) راجع :

(Angel Canellas : Aragon y la empresa del Estrecho en el
siglo XIV, Op. cit. p. 17) .

(٢) راجع :

Gimenez Soler. La expedicion a Granada de los Infantes don
Juan y don Pedro en 1319) .

فألقى قد عفن ، واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ، فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده اساقفتهم . فلما أخرجت الرمة لتتنقل الى التابوت ، ألقي بها الفقارات منها سنان صغار الجرم قد أثبتته فيها يد مجاهدة يوم الواقعة . كانت سببا للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم . وأمرت برده بـسكان بنائه وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكاية الكفار اذا مروا به . وتخليد الفخر للدين ما شاء الله (١) » .

وسارعت قشتالة بعد هذه الكارثة الى عقد صلح مع غرناطة سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) ولكنها نكبت في العام التالي بوفاة الملكة ماريّا دي مولينا Maria de Molina جدة الملك القاصر الفونسو الحادى عشر والوصية عليه بعد وفاة اعمامه . وادى موتها الى قيام منازعات داخلية بين أمراء قشتالة حول الوصاية على العرش . وانهز سلطان غرناطة اسماعيل هذه الفرصة واستولى على بعض المدن القشتالية مثل بسطة Baza وأشكر Huescar سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ - ١٣٢٥ م) . وتنبغى الاشارة هنا الى أنه في احتلال هذه المدينة الاخيرة استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة في الاندلس . وقد أورد ابن الخطيب وصفا هاما لهذا السلاح الجديد وما أحدثه من ذعر في صفوف الاعداء وهذا الوصف يعتبر في الواقع من أقدم النصوص التاريخية عن استعمال الاسلحة النارية وفيه يقول :

(١) راجع (ابن الخطيب أعمال الاعلام ، القسم الثانى ، ص ٢٢٤) وكذلك (المعرى :

مسالك الابصار ص ٤٣ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب) .

نازل السلطان أشكر ... ونشر الحرب عليها . ورمى بالآلة العظمية المتخذة بالنفط كرة محساة طاقة البرج المنيع . فعاثت عيات الصواعق المساوية ونزل اهلها قسرا على حكمه . وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم ابو زكريا بن هذيل :

وظنوا بأن الرعد والصعق في السا فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب أشكال سا همرس بها مهندمة تأتي الجبال فتند
ألا انها الدنيا تريك عجائبا وما في القوى منها فلا بد أن يبدو^(١)

ومن الطريف أن المصادر الاسبانية المعاصرة في وصفها لاحداث هذه الحرب . أشارت الى هذا السلاح الرهيب . ففى مدونة ثورتنا نجد العبارة التالية : « واتشرت الاشاعات في مدينة لقنت Alicante بأن ملك غرناطة يمتلك سلاحا جديدا مبيتا »^(٢) .

ورأى أمراء قشتالة أن خير وسيلة لحسم منازعاتهم الداخلية . هي أن يباشر الملك القونسو الحادي عشر حكم بلاده بنفسه رغم صغر سنه

(١) ابن الخطيب : اللامحة البدرية ص ٧٢ ، ويلاحظ ان كلمة نفط استعملها المسلمون بمعنى النار الاغريقية الحارقة وبمعنى الدفع المدمر الهادم كما هو واضح هنا في المتن .
(٢) راجع (J. Zurita : Anales, II, p. 31, 99) حيث يرد النص

بالاسبانية على الوجه التالي :

“ Se extendia el rumor que el rey de Granada estaba en posesion de una nueva arma mortifera ” .

هذا وقد توصل المغاربة الى اختراع الدفع قبل اخوانهم الغرناطين بنحو خمسين سنة اذ بروى ابن خلدون (العبر ج ٧ ص ١٨٨) ان السلطان يعقوب المريني عندما هاجم مدينته سجلماسة سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٢ م) نصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة بارئها . راجع ما كتبناه في هذا الموضوع في (Hespéris, 1959, 3 — 4 Trimestres p. 264)

البحرية الاسلامية — ٢١

(١٥ سنة) وقد تم ذلك فعلا في أغسطس سنة ١٣٢٥ م . وفي السنة التالية هاجم هذا الملك مملكة غرناطة منتهزا فرصة الاضطرابات التي حلت بها نتيجة لمقتل سلطانها اسماعيل وتولية ابنه محمد الرابع (٧٢٥ - ٧٣٢ هـ . ١٣٢٦ - ١٣٣٣ م) .

وأمام النجاح الذي أحرزه الهجوم القشتالي في الأراضي الغرناطية . أسرع محمد الرابع الى سلطان المغرب ابي سعيد عثمان الثاني . واتفق . على التعاون عسكريا ضد قشتالة . وقد رد ملك قشتالة على ذلك بان عقد اتفاقا مع ملك أراجون ضد خطر الغزو المغربي . وهي اتفاقية مكرمة Tarragona سنة ١٣٢٨ م (١) .

ثم بدأت الحرب في صيف ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وكانت شديدة . الجبهة القشتالية . ضعيفة في الجبهة الاراجونية . ويبدو أن الفونسو الرابع ملك أراجون لم يكن جادا في هذه الحرب . اذ لم يهاجم مينا المرية كما كان متفقا عليه . واقتصر على ارسال حملة الى منطقة لوركا Lorca (٢) أما قشتالة فقد تحسنت عبيء القتال وحدها . واستطاع الفونسو الحادى عشر أن يحتل عدة حصون غرناطية . ولكن الجيوش الغرناطية بالتعاون مع الاساطيل المغربية التي أرسلها السلطان أبو الحسن على المرينى (٧٣١ - ٧٤٩ هـ - ١٣٣١ - ١٣٤٨ م) بقيادة ولده أبي مالك تسكنت في نفس الوقت من استرداد جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) وحاول ملك قشتالة انقاذ هذه القاعدة الهامة ولكن بعد

(١) راجع (Angel Canelles : Op. cit. p. 25 — 26)

(٢) راجع (Gimenez Soler : La Corona de aragon y Granada . Op Cit Num. 27 (1907) p. 163.

فوات الاوان (١) .

ومن المؤسف أنه بينما كان سلطان غرناطة محمد الرابع في طريق عودته الى عاصسته بعد هذا النصر ، اذا به يقع صريعا بيد بعض المتآمرين من جنوده . وخلفه على عرش غرناطة أخوه ابو الحجاج يوسف الاول (٧٣٢ - ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) . واستطاع أبو الحجاج أن يصل الى اتفاق مع ملك قشتالة . وأن يعقد معه معاهدة اشترك فيها سلطان المغرب أيضا أبو الحسن المريني سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) وكان من شروط هذه المعاهدة ان يسود السلام بين هذه الدول الثلاث مدة أربع سنوات . على ألا تسرق قوات مغربية الى الاندلس اللهم الا ما يتعلق باستبدال جنود الحاميات المغربية في الاندلس . وفي نفس تلك السنة عقدت معاهدات سلسية مسائلة مع ملك أراجون (٢) .

على أن كل هذه المعاهدات ، لم تحل المشكلة القديسة القائمة ، وهي مشكلة السيطرة على مضيق جبل طارق ، فكل من أسبانيا والمغرب لم يقل كلمته الاخيرة بعد . وانهز كلاهما فرصة السلام للتسابق على التسلح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لانها الضمان الاساسي للسيطرة البرية بعد ذلك . ورأى سلطان المغرب أبو الحسن المريني أن يستعين في هذا المضمار بخبرة الملاحين الجنوبيين وبأصهاره الحفصيين ملوك تونس (٣) ، بينما رأى ملك قشتالة الفونسو

(١) ابن الخطيب : اللوحة البدرية ص ٧٦ - ٨٠ ، ابن بطوطة : نحة النظار

ج ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) انظر (Gimenez Soler : La Corona de Aragon y Granada. Op, Cit Num 28 (1907) p. 200) .

(٣) تزوج أبو الحسن المريني إحدى بنات السلطان يحيى الحفصي سنة ٢٢٠ م ويروى أن العروس جاءت في حاشية كبيرة الى ميناء غساسة بالقرب من مليلة . ومنها انتقلت الى فاس

الحادي عشر ان يستعين بأساطيل ملك أراجون • وقد أمده بالفعل بد •
 الرابع ملك أراجون بأسطول تحت قيادة Gilabert de Gruylles (١) •
 بينما أرسل الخليفة المنوكل أبو يحيى الحفصي اسطولا من ست سفن •
 قطعة الى المغرب بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية • ويذكر ان
 خادون أن أساطيل المغرب وتونس التي تجسعت بسرسي سبعة كانون
 تناهر المائة • وأن السلطان أبا الحسن المريني عقد عليها لمحمد بن علي
 العزفي حاكم سبتة (٢) • بينما تذكر المصادر القشتالية أن أساطيل المغرب
 بلغت مائتين وخسين شراعا •

وكيفسا كان الامر • فقد بدأت المعركة في ربيع ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م)
 عندما حاول القائد الارجوني Gilabert de Gruylles عبور المضيق
 والاتصال بقائد الاسطول القشتالي Alonso Jofre Tenorio في مياه
 أشبيلية عندئذ تصدى له الاسطول المغربي ليحول دون هذا الاتصال •
 ودارت بينهما معركة عنيفة في مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم
 الاسطول الارجوني وقتل قائده • وانسحاب فلوله الى برشلونة بقيادة
 نائب القائد المقتول Pedro de Moncada •

ولا شك ان انسحاب الاسطول الارجوني من ميدان المعركة • كان
 ضربة قاضية للاسطول القشتالي الذي لم يستطع الصمود وحده أمام
 اسطول المغرب • فسنى هو الآخر بهزيمة ساحقة وقتل قائده

(١) راجع (A. Canellas : Op. cit. P. 28 — 32 Gautier Dal-
 ache : Quelques aspects de la lutte pour la maîtrise du détroit de
 Gibraltar au XIV siècle, Comité Marocain de documentation histo-
 rique de la Marine, Bulletin no 7 mars 1958)

(٢) السلاوى : الاستفصا ج ٣ ص ١٢٥

Alonso Jofre Tenorio واستولى المسلمون على بعض قطعه . وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان ابو الحسن المريني سيدا بلا منازع على مضيق جبل طارق . وصار من السهل عليه نقل قواته الى اسبانيا في سهولة ويسر .

واتجهت أنظار هذا المجاهد الكبير الى مدينة طريف القاعدة الباقية في أيدي الاسبان من ثغور المضيق . فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله في يده ، كما صار الطريق امامه مفتوحا الى قادس وأشبيلية . لهذا عول على احتلالها وأجاز اليها بجيوشه وأساطيله وأحاط بها من كل جانب برا وبحرا في المحرم سنة ٧٤١ هـ . واشترك معه في هذا الحصار سلطان غرناطة ابو الحجاج يوسف الاول بجيوشه ايضا .

وشعر ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر بخطورة الموقف ، فاستنجد بملك أرجوان بدرو الرابع . كما استنجد بصهره ملك البرتغال الفونسو الرابع ، وهرع الجميع الى ساحة طريف بغية انقاذها ، وفي ٧ جنادى الاولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) دارت بين الفريقين معركة حاسمة انتهت بهزيمة المسلمين وقتل عدد كبير منهم . وسيت هذه الموقعة في المصادر العربية باسم موقعة طريف ، أما المصادر الاسبانية فقد سستها بوقعة نهر سلاдо el río Salado على اسم النهر المجاور لطريف في جنوب اسبانيا . كما سستها أيضا بوقعة الملوك الاربعة ^(١) de los cuatro reyes .

(١) راجع (Cronica de Alfonso once no, ed. Rosell, p. 323 & Canellas : Aragon y la empresa del Estrecho., pb. 28 — 32 & Miguel Cuartero : El Salado, revista « Ejercito » num. 13, Febrero de 1941 & Creasy : Las batallas decisivas en la historia del mundo p. 287).

ولدينا نص مختصر عن سبب هزيمة المسلمين أوردته ابن الخطيب الذي فقد أباه وأخاه ^(١) في هذه المعركة . يقول فيه : « ودون النفس — ملك البرتغال — هو الذي أمد صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه . وكان مصافه بازائنا أهل الاندلس . وحسبنا عليه وكدنا نفذه لولا أنهم جاءوا جيشا وراءهم فاصلا عن الملكين . يبد من ظهر به اختلال وتضعضع : فبادر الى عدونا ففكواه وسبب له الظهور ^(٢) » .

ويضيف ابن الخطيب ، في موضع آخر سببا ثانيا لهذه الهزيمة وهو خروج أهل البلد المحصور واشتراكهم في القتال ضد المسلمين فيقول : وكان اللقاء بظاهر طريف : وساء التدبير . واختل مصاف المسلمين وأضاعوا الحزم . وخرج أهل البلد المحصور وهم شوكة حادة ، وضيق مجال القتال . وأجفان الروم ناضجة بأساليب السهام حتى دخل البلد فرسان الروم . ف وقعت الهزيمة التي حصدت شوكة المسلمين وأهلكت نفوسهم واكنسحت أموالهم . وأسلم السلطان مضاربه . ومن جيلة ما بها أزواجه من بنات الملوك ، وقعت بهن المثلة بعد القتل . وكان الخطب على الاسلام قل أن يجتمع مثله » ^(٣) .

واتتهز ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التي حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة ، وواصل هجومه على غرناطة فاستولى على قلعة

(١) حاول الأب انقاذ ولده حين كبا به فرسه ، وقد غشي العدو فكان آخر العهد بهما .

راجع (المقرئ : نفع الطيب ج ٦ ص ٢١٥ - ٢١٨) .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٢٧ ويفهم من هذا ان الجيش البرتغالي كان

بواجه الجيش الغرناطي بينما كان الجيش القشتالي بواجه الجيش المغربي .

(٣) ابن الخطيب . كتاب رقم الحلل في نظم الدول ص ٩٢ (تونس ١٢١٦ هـ)

يحصب^(١) Alcala la Real وبأغو Priego ثم حاصر أخيرا مدينة الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) . ودام هذا الحصار مدة طويلة تقرب من الستين ، وذاعت أنبأؤه في أنحاء أوروبا ، وسارع اليه عدد كبير من الفرسان الانجليز والالمان والفرنسيين للمشاركة فيه ، وسقط بعضهم قتلى بسيف المسلمين^(٢) . كذلك شاركت أراجون في هذا الحصار بجزء من أسطولها بقيادة الامير Bernardo de Cabrera^(٣) .

وحاول كل من سلطان المغرب وسلطان غرناطة انقاذ هذه القاعدة الهامة بشتى الطرق السلمية والحربية ، ولكن محاولاتها باءت بالفشل ، وانهى الامر باستسلام الجزيرة الخضراء في ربيع سنة ٧٤٤ هـ^(٤) (١٣٤٤ م) ثم عقدت معاهدة سلمية بين قشتالة وغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات^(٥) .

وقبل انتهاء أمد هذه المعاهدة ، حاول الملك الفونسو الحادي عشر تحقيق أمنية طالما فكر في تحقيقها وهي الاستيلاء على جبل طارق . فأناخ عليه بجيوشه وأساطيله وأحاط به من كل جانب ، ولكن وباء الطاعون

(١) قلعة يحصب وتسمى كذلك بقلعة بنى سعيد ، أسرة المؤرخ المعروف ابن سعيد المغربي .

(٢) راجع (Gimenez Soler : la Corona de aragon y Granada , Op. cit 1907 num 28,, p. 214) .

(٣) Zurita : Anales, II, p. 149 & A. Canellas : Op. cit p. 32

(٤) راجع (القرى : نفع الطيب ج ٦ ص ١٢ - ١٢٨ حيث يرد الخطاب الذي وجهه سلطان المغرب الى سلطان مصر يصف فيه سقوط الجزيرة الخضراء) .

(٥) هذه المعاهدة نشرها كانيلاس ضمن الوثائق الملحقه ببحثه . راجع

(A. Canellas ; Aragon y la empresa del Estrecho, documento num. 17) .

انتشر في معسكره ، ولم يلبث هو نفسه ان راح ضحية لهذا المذبحة
الاسود في مارس سنة ١٣٥٠ م (٧٥١ هـ) .

وحينما علم السلطان أبو الحجاج يوسف بخبر وفاته . أمر جنوده
بعدم التعرض للجيوش القشتالية العائدة بجيشان مليكها الى اشبيلية (١) .
وقدر ملك قشتالة الجديد بدرو (٢) الاول : لسلطان غرناطة واللسان
هذا الصنيع : فعقد معه معاهدة ود وصداقة (٣) . كذلك عقدت أراجمة
مع ملك غرناطة معاهدة سلبية ماثلة وتبادلت معه خطابات ودية (٤) .

وما كادت غرناطة تنعم بالسلم والهدوء من جانب جيرانها المسيحيين
حتى دب نزاع جديد بينها وبين سلطان المغرب أبي عنان فارس (٥) .

(٧٤٩ - ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) والسبب في هذا النزاع يرجع
الى أن اثنين من اخوة أبي عنان وهما الاميران أبو الفضل وأبو سالم .
خرجا عن طاعة أخيهما السلطان . وهربا الى سلطان غرناطة ملتجئين حياذله .

(١) راجع (Lopez de Ayala : Cronica de los reyes de Castilla, I, p. 12).

(٢) يلقب بالقاسى el cruel و يلقب أيضا بالمعدل justiciero لانه قتل زوجته
وبدرو هذا هو الابن الشرعى الوحيد للملك الفونسو الحادى عشر من زوجته ماريا البرتغالية .
راجع : A. Ballesteros : Historia de Espana, III, p. 133.

(٣) راجع Argote de Molina : Nobleza de Andalucia, fol 228
(٤) أنظر Alarcon y Linares : Los documentos arabes diplomáticos del archivo de la Corona de Aragon p, 133.

(٥) هذا السلطان ناز على أبيه ابن الحسن المرتضى بلمسان سنة ٧٤٩ هـ واستولى
على المغرب الاقصى واضطر أبو الحسن ان يختم بشيوخ هتانة بجبال اطلس الى ان مات
في تلك السنة راجع تفاصيل تلك الثورة واسبابها في (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٧٨ -
٢٨٧ ، ابن الخطيب : اللوحة البدرية ص ٩٢ - ٩٥ ابن الاثير : روضة السنين
ص ٢٢ - ٢٤) .

وقبل ابو الحجاج يوسف طلبهما وآواهما في بلاطه . وقد أثار هذا العمل غضب السلطان المريني ، فأرسل الى سلطان غرناطة خطابا شديد اللهجة ، مليئا بعبارات الاحتجاج والتهديد ، وكان رد السلطان يوسف عليه واضحا ، اذ أوعز الى الامير ابى الفضل بالسفر الى قشتالة وطلب معونة من ملكها بدور الاول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه . ووافق ملك قشتالة على طلب الامير المغربي أبى الفضل لانه كان متخوفا من أطماع أبى عنان ، فأمدّه بالاساطيل والاموال وأنزله بنواحي السوس في جنوب المغرب كى يشعل حربا أهلية ضد أخيه . وثارت ثائرة السلطان أبى عنان لهذا العمل العدائي ، وطلب من ملك أراجون أن يتعاون معه على محاربة غرناطة وقشتالة ^(١) . غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما مات أخوه أبو الفضل أثناء حروبه بالمغرب ، وقتل سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف أثناء تأديته لصلاة عيد الفطر في شوال سنة ٧٥٥ هـ ^(٢) (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) .

وولى عرش غرناطة بعد أبى الحجاج يوسف ولده السلطان محمد الخامس الفنى بالله (٧٥٥ — ٧٦٠ . ٧٦٣ — ٧٩٣ هـ ١٣٥٤ — ١٣٥٩ ، ١٣٦٢ — ١٣٩١ م) . وحاول هذا السلطان الجديد ان يعيد العلاقات الودية بين غرناطة والمغرب بعد أن تازمت في عهد والده ، فأرسل الى فاس سفارة لهذا الغرض برئاسة وزيره اسان الدين بن الخطيب الذي يبدو أنه نجح في سفارته ، اذ يروى أنه حينما مثل بين يدي السلطان وقبل أن يسلم عليه ، أنشده قصيدة يقول في مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ملاح في الدجى قبر

(١) راجع (ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٩٢ — ٢٩٤)

(٢) قتله مخبر وول في المسجد الاعظم بقصر الحمراء .

فاهتز أبو عنان لآياتها وقال لابن الخطيب : « ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم » وقد علق أحد الحاضرين على ذلك بقوله : لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان الا هذا (١) .

غير أن السلطان أبا عنان لم يلبث أن راودته أحلامه القديمة بغزو الاندلس ، والسيطرة على المضيق ، خصوصا بعد أن تم له ضم المغرب الاوسط الى ملكه . وقد لاحظ ابن خلدون ذلك عند قوله : « وكان أبو عنان يؤمل في ملك الاندلس » (٢) . ورأى أبو عنان أنه من الصعب عليه تنفيذ مشروعه ما دام هناك حلف قائم بين غرناطة وقشتالة . ولهذا حاول أن يقنع سلطان غرناطة بالتخلي عن هذا الحلف الذي جعله يدين بالتبعية لملك قشتالة ويدفع له الجزية ، غير أن محمد الخامس رفض هذا العرض لانه كان يجنح دائما الى مسالمة قشتالة (٣) . أو لانه كما يبدو . كان يشك في نوايا سلطان المغرب . عندئذ رأى أبو عنان أن يتحالف مع بدره الرابع ملك أراجون الذي رحب من جانبه بهذا المشروع لانه كان فعلا في حرب مع قشتالة . ووقع الاتفاق بين الملكين بمدينة سرقسطة في يوليو سنة ١٣٥٧ م (٤) (٧٥٨ هـ) .

(١) القرى : أزهار الرياض ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٦ (طبعة القاهرة) .

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٢٠٤ .

(٣) راجع الرسائل المتبادلة بينهما في (ابن الخطيب : ربحانة الكتاب ونجعة المتأخر : وهو مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥ ، وقد نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة تحت عنوان :

Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez en el siglo XIV p. 253 - 257.

(٤) راجع (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٠٤) وكذلك : (Capmany Antig-) nos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes de Aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde el siglo XIII hasta el siglo XV p. 18 & Capmany : Memorias sobre la marina, Comercio y artes de Barcelona, tome III p. 202, tome IV p. 121).

ويبدو أن الاستعدادات للحرب قد بدأت فعلا بدليل قول ابن خلدون بأن الاساطيل المغربية والاراجونية قد أخذت تتجمع في مضيق جبل طارق منتظرة الامر بالهجوم ، وأن السلطان أبا عنان أرسل الى حليفة ملك أراجون هدية فاخرة عربونا لصداقته وامتنانه (١) .

غير أن هذه المشروعات الحربية لم تلبث ان توقفت فجأة نتيجة لوفاة او مقتل السلطان ابي عنان (٢) في سنة ٧٥٩ هـ (ديسمبر ١٣٥٨ م) . اذ انتهر ملك تلمسان المخلوع أبو حمو الثاني هذه الفرصة واستعاد ملكه بالمغرب الاوسط ، بينما سادت المغرب الاقصى حروب أهلية بين أولاد السلطان المتوفي طسعا في العرش . ورأى الوزير حسن بن عمر الفودودي ان يستأثر بالنفوذ في الدولة فدبر من قتل ولي العهد أبا زيان ، واختار طفلا من اخوته يدعى السعيد أبو بكر ، فأقامه سلطانا على المغرب وصار يحكم باسمه .

على أن هذا الاختيار لم يعجب الكثيرين من زعماء المغرب ، فاتجه بعضهم الى غرناطة وبايعوا الامير أبا سالم ابراهيم المريني الذي سبق ان التجأ اليها فرارا من أخيه ابي عنان وظن أبو سالم أن غرناطة سوف تساعد على تحقيق آماله في ملك المغرب نظرا للعداء الذي كان بينها وبين

(١) راجع وصف هذه الهدية في عبد الرحمن بن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٠٢ - ٢٠٤ وكذلك في كتاب أخيه يحيى ابن خلدون : بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد ج ٢ ص ٢٧ . وبلاحظ ان هذه الهدية لم تصل الى ملك أراجون اذا استولى عليها ملك تلمسان أبو حمو الثاني عندما استرد ملكه عقب وفاة ابي عنان وكانت الهدية لا تزال في بلاده .

(٢) راجع أخبار وفاته في (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٩٩ ، السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٤) كذلك يرى ابن الخطيب انه مات قتلا مثل قول (رقم الحلل ص ٨٤) :

ومسات فيما فيسل شرمية بفيلة لنفسه مفية
لسم نغن عنه الباس والبالة وأصبحت مهجته مساله

حكومة فاس على عهد أخيه ، ولكن سلطان غرناطة فضل أن يسلك سياسة محايدة في تلك الظروف المضطربة . واضطر أبو سالم إلى الفرار إلى ملك قشتالة بدور الاول بمدينة اشبيلية طالبا مساعدته في الوصول إلى عرش المغرب . وكان رأى المستشارين في البلاط القشتالي عدم الموائمة على مساعدة الامير المغربي ، لأن من مصلحة قشتالة ان يكون سلطان المغرب طفلا قاصرا مثل السعيد ابى بكر ، ولكن الملك بدرو لم يستجب لهذا رأى . وقرر مساعدة الامير أبى سالم بعد أن أخذ عليه الضمانات والموائيق بالوقوف إلى جانبه ضد أراجون . ثم أمده بالاموال وبالاساطيل التي عبرت به إلى الساحل المغربي ، وهناك تسكن أبو سالم بعد أحداث وحروب من التربع على عرش المغرب في شعبان ٧٦٠ هـ . (يوليو سنة ١٣٥٩ م) (١) .

وكان من الطبيعي أن تتجه سياسة هذا السلطان الجديد نحو محالفة كل من قشتالة وغرناطة ، والتخلي عن سياسة التحالف مع أراجون التي رسمها أبو عنان من قبل . وكانت الحرب وقتئذ قد استعرت بين هاتين المملكتين الاسبانيتين قشتالة وأراجون ، وجسم ملك قشتالة على مهاجمة خصه في مياحه الاقليمية ليثبت له أنه قادر على منازلته في البحر الذي هو ميدانه . واستعان في ذلك بحليفه محمد الخامس الذي لم يتردد في امداده بأسطول غرناطى من عشر شوانى حرية بجميع بحارتها وأسلحتها كما سمح له باستخدام القواعد البحرية الغرناطية ليستعين بها في تسوين أساطيله (٢) .

(١) ابن الخطيب : نقاضة الجراب ص ٢١٥ وما بعدها ، ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٢) راجع Lopez de Ayala. *Cronicas de los Reyes de Cast-* illa, I p. 286 Zurita : *Los anales de la Corona de Aragon* II p. 244 & Cascales : *Historia de Murcia* fol 102 .

وبينما كان ملك قشتالة منهسكا في غاراته البحرية ضد ميناء برشلونة وغيرها من الموانئ الأراجونية ^(١) إذا بحليفه محمد الخامس يعاني انقلابا داخليا في مملكته انتهى بخلع وتولية أخيه أبي الوليد إسماعيل الثاني مكانه وذلك في رمضان سنة ٧٦٠ هـ (أغسطس ١٣٥٩ م) ^(٢) . وتمكن السلطان المخلوع من الفرار ليلا على ظهر جواده الى مدينة وادي آش Guadix التي تعهدت بحمايته . ومن هناك بعث محمد الخامس الى حليفه سلطان المغرب يطلب منه قبوله كلاجئ سياسي في بلاطه . وقبل السلطان أبو سالم هذا العرض لانه رأى أن وجوده بجانبه يفيد كسلاح ضد حكومة غرناطة وضد أمراء بني مرين المقيمين في كنفها اذا ما فكروا يوما في غزو المغرب . وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون : « وأراد أن يعده زبونا (أي حربا وقوة) على اهل الاندلس ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طسحوا الى ملك المغرب » ^(٣) .

ثم أرسل السلطان أبو سالم رسولا خاصا من قبله ليصحب محمد الخامس في رحلته الى المغرب بعد أن أقنع المتغلب على غرناطة بذلك . وفي ذي الحجة سنة ٧٦٠ هـ (نوفمبر سنة ١٣٥٩ م) خرج محمد الخامس من مدينة وادي آش ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب وشاعره عبدالله ابن زمرك وجباة من مساليكه وأتباعه متجها الى ميناء ماربلة Marbella ' ومن هناك أبحر عبر مضيق جبل طارق الى مدينة سبتة ثم سار الى

(١) راجع التفاصيل في (Lopez de Ayala : Op. cit. I p. 277 — 286)

(٢) راجع تفاصيل هذا الانقلاب في مقالنا (فترة مضطربة في تاريخ غرناطة ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلد السابع ١٩٥٩) .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٢٠٦ ، ازهار الرياض ج ١ ص ٢٠٧

العاصمة فاس حيث استقر بها تحت كنف السلطان أبي سالم ورعايته (١) . ولم يكد ير عام على هذا الوضع حتى عانت مملكة غرناطة انكسار آخر طوح برأس سلطانها ابي الوليد اسماعيل الثاني في شعبان سنة ١٠٧٦ (يونيو ١٣٦٠ م) . وتولى مكانه قاتله وهو زوج أخته وأحد أبناء عمومته محمد أبو سعيد المعروف في المصادر الاسبانية باسم البرميجه . El-Bermejo ومعناه اللون البرتقالي الضارب الى الحرة . وهو لم يلبس لحيته وشعره (٢) . ورأى هذا السلطان المقتضب ان التحالف مع قشتالة أمر يتعذر تحقيقه نظرا للصدافة التي تربط ملكها بالسلطان المخلوع محمد الخامس ولهذا اتجه نحو بدرو الرابع ملك أراجون ، وانضم اليه في حروبه ضد قشتالة (٣) .

وقدر ملك قشتالة ، بعد انضمام غرناطة الى أراجون ، صعوبة الحرب في جبهتين في آن واحد ، ولذا اضطر الى أن يستجيب لوساطة البابا بعقد صلح مع أراجون في ١٣ مايو سنة ١٣٦١ ، كى يتفرغ بذلك لمحاربة غرناطة (٤) .

ولكى يبرر ملك قشتالة شرعية هذه الحرب ، أعلن نفسه مدافعاً

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ١٢ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون المبر ج ٧ ص ٣٠٩ ، المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٣ - ٢٥ ، ازهار الرياض ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٧) .

(٢) حفيد عم أبيه . انظر (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ق ٢ ص ٢٥٤) .

(٣) راجع (P. Mariana : Historis general de Espana II, p. 221) .

(٤) راجع (Bleda : Cronica de los moros de Espana p. 537 , Ayala : Op. cit, I p 326) .

& Alarcon y Linares : Documentos arabes diplomaticos de la Corona de Aragon P. 142) .

Ayala ; Op. cit I, 326 (٥)

عن حقوق السلطان الشرعى المخلوع محمد الخامس ضد الغاصب أبى سعيد البرميخو^(١) . وعلى هذا الاساس طلب من سلطان المغرب أن يسلمه سلطان غرناطة المخلوع كى يساعده في العودة الى عرشه . ولكن السلطان أبى سالم تلكأ في تنفيذ هذا الطلب . اذ يبدو أنه اتفق مع البرميخو سرا على منع محمد الخامس من العبور الى اسبانيا في مقابل أن يقوم البرميخو باعتقال جميع أمراء بنى مرين المقيمين عنده بغرناطة^(٢) .

وغضب ملك قشتالة من موقف سلطان المغرب . وهدده بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية في أسبانيا ان لم ينفذ مطلبه . واضطر السلطان أبو سالم أمام اصرار بدور القاسي وتهديده أن يرضخ لمطالبه . فأمر أساطيله بالتجمع في مضيق جبل طارق أمام ميناء سبتة ، متظاهرا بحرب الاسطول الارجوني ، بينما كان غرضه الحقيقي هو اجازة السلطان المخلوع الى الساحل الاندلسي . وفي الوقت نفسه وصلت الاساطيل القشتالية الى ميناء سبتة للقيام أيضا بهمة اجازة السلطان محمد الخامس الى أسبانيا . وهنا ترك المؤرخ المعاصر لسان الدين بن الخطيب يصف لنا رحيل سلطانه من فاس الى الاندلس كما شاهده بنفسه ، فيقول^(٣) .

وألح سلطان قشتالة في تسليم السلطان أبى عبدالله^(٤) اليه ، ليتولى شد أزره ، ويجتهد في جبر حاله . وألقيت اليه المعاذير فبنا عنها سعه ،

Garibay : Op. cit, p. I 103, Bleda : Op. cit 537, Ayala (١)
Op. cit. I p. 331.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢١٦ .

(٣) راجع ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغراب ص ١٨٤ - ١٨٥ ، ٢٨٥ ،
نشر أحمد مختار المبادئ .

(٤) اي السلطان محمد الخامس الفنى بالله .

ورفق عن غرضه في رفع السلم عند اخفاق مطلبه . ولم يقبل العوض من
 ضروب ملاظفته فترجح الرأي على توجيهه الى الاندلس . وقد كان
 الاسطول ^(١) تألف بفرضة المجاز من ستة موريا بجهاد من ظهر به من
 عدو برشلونة . ووصلت اساطيل الروم ^(٢) المسخرة في غرض اجازته .
 أركبها ملك النصارى ^(٣) وجوه خدامه : فقعد السلطان أمير المسلمين
 بالمغرب ^(٤) في قبة العرض المتخذة بجنة المصاراة . ووقع البريح ببرم
 الناس الى القضاء الافيج ، واستحضرت البنود والطبول وأوعية المال
 صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ ^(٥) .
 واستحضر السلطان ^(٦) فصعد الى القبة ثم نزل وقد ألبس خلع الملوك .
 وقيدت له فرس شقراء مطهمة ، حليها ذهب بحت ، ونشرت حولها
 الاولوية ، وقرعت الطبول ، وركب السلطان ^(٧) مشيعا اياه غلوة ثم
 انصرف عنه وقد التف عليه كل من جلى عن الاندلس من لدن الكائنات
 الواقعة بها في جلسة كثيفة . وبلى من رقة الناس وأجهاشهم وعلو أصواتهم
 بالدعاء ما قدم به العهد ، اذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظاه
 الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائج المحبة الى كونه مظلوم العهد .
 منتزع الحق ، فتبعته الخواطر وحيث له الانفاس . . . وحث السلطان ابيه
 عبدالله بن نصر الموجه الى الاندلس ركا به الى سبتة ، لا يصدق بالافلات .
 ولا يثق بالنجاة ، فعارت له خيل وثقت حصوله لشدة السير ، واستقر

(١) يقصد الاسطول المغربي .

(٢) اي اساطيل فستاله .

(٣) يدرو الاول الملقب بالقاسي ملك فستاله .

(٤) ابو سالم ابراهيم المستعين بالله سلطان المغرب .

(٥) عام ٧٦٢ هـ (٢٠ أغسطس ١٣٦١ م) .

(٦) اي سلطان غرناطة المخلوع محمد الخامس .

(٧) اي سلطان المغرب ابو سالم .

بسببة . واستعجل الجواز . وحل بجبل الفتح بعد مراوضة كبيرة لقواد الاسطول ^(١) الرومى ومحاورة . اذ تبرعوا باجازته . ولم يسبحوا في خلاف ذلك ليجلبوا الفخر لسلطانهم وينسبوا الحركة اليه . فأعلنت الحيلة ولفقت الحجة وقطع السلطان سنتهم بسال بذله مكارمة لهم . وأركب أجفانهم طائفة من كبار قرابته واستقر بجبل الفتح . وطال به مقامه تتردد الرسل بينه وبين ملك الروم . ثم ارتحل نحوه ^(٢) في لمة من مساليكه ووجوه قرابته . وتحفى السلطان — بدرو — بسقدمه . وبالغ في بره . وأفرط في التزلزل لوجهته . وأبعد المدا فى خطا تلقيه . وأرجل الاكابر لاداء حقه . وتوسع في نزله . وعم بالملاحظة جسيع من في صحبتته . وأعطاه سفقة يسيته بالمظاهرة والمعاضدة . وسلقه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقته . وشرط له أن لا يبتززه حصنا . ولا ينقصه فتحا . ولا يعلق به طباعية . وأنه يصل معه السلم مدة حياته . ويتركه وصية في عقبه وانصرف مجبورا قرير العين . منشرح الصدر . فلق بسائر الجيش المرينى ومن تخلف عنه من قومه بظاهر رنده ^(٣) .

واتخذ محمد الخامس من مدينة رنده ^(٤) Ronda مقرا له ولحكومته المؤقتة . وكانت في ذلك الوقت . تابعة لسلطان بنى مرين . ومن هناك أخذ محمد الخامس يكاتب زعماء غرناطة ويحرضهم على ترك

(١) اى الاسطول القشتالى

(٢) يشير ابن الخطيب في كتابه رقم الجدل في نظم الدول ص ١٢١ الى ان اللقاء بين محمد الخامس وبدرو الاول كان بمدينة اشبيلية . وهذا يتفق مع ما ورد في المصادر الاسبانية . راجع (Garibay p. 1103 Bleda p, 537) .

(٣) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٨٤ ، ٢٨٥ .

(٤) نماز رنده بموقع استراتيجى مرتفع يشرف على حدود غرناطة الغربية

Bastion de la Frontera occidental.

طاعة البرميخو والانضمام اليه . كما أخذ يعد العدة لمحاربة هذا السلطان
المغتصب . وقد أمده سلطان المغرب بست سفن حربية . كما أمده بال
قشتالة بخمس أخرى . ووعداه بزيد من الاساطيل والجيوش لاسترداد
ملكه . ويضيف ابن الخطيب ان محمد الخامس أخذ يرصد رجاله على
الطريق على رجال البرميخو وسفاراته المتجهة الى المغرب . ومن الطريف
أن من بين الذين وقعوا في أسره الفقيه محمد بن علي بن محمد الباشا
الذي كان مقرئاً في قصره أيام سلطنته . وقد اضطر محمد الخامس الى
العفو عنه حينما الى حسن تلاوته (١) .

ولدرأ هذا الخطر . رأى السلطان المغتصب أبو سعيد البرميخو أن
يستنجد بحليفه ملك أراجون ، فكتب له خطاباً بتاريخ ٣ من ذي القعدة
سنة ٧٦٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ١٣٦١ م) يخبره فيه بأنه تفادياً لشروط
المعاهدة المبرمة بين قشتالة وأرجوان ، فانه يرى ان يتكفل الاسطول
الاراجونى بسقاومة هجوم سلطان المغرب ، بينما يتكفل الاسطول الغرناطي
بحاربة الاسطول القشتالي (٢) .

ولم يكتف البرميخو بهذا التكتيك الحربي بل سسم على ارسال
بعض المرشحين لعرش المغرب من امراء بنى مرين المقيمين عنده الى المغرب
لاشعال نار الحرب الاهلية ضد السلطان ابي سالم جزاء مساعدته لمحمد
الخامس ، واختار لهذا الغرض اثنين من أولاد عم سلطان المغرب وهما
عبد الحليم وعبد المؤمن . وحاول هذان الاميران الابعار من ثغر المنكب
Almuneear على ظهر سفينة حربية غرناطية . غير أن أسطول المغرب

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٩٢ .

(٢) راجع نص الرسالة في (Alarcon y Linares : Los documentos arabes diplomaticos de la Corona de Aragon p. 142 — 143) .

وقشتاله المكلف بمساعدة محمد الخامس وحراسة مضيق جبل طارق ،
هاجم هذه السفينة واضطر بحارتها الى غرسها في الرمال فتعذر سيرها بعد
ذلك . على أن ركاب السفينة انتهبوا حلول الليل ، وغياب الاسطول
المشترك لقضاء حاجته من زاد الماء . وأبحروا تحت جنح الظلام على ظهر
سفينة أخرى صغيرة واتجهوا نحو ثغر هنين بالقرب من تلمسان بالمغرب
الاطوسط ^(١) . وهناك رجب بهم أبو حيو الثاني ملك تلمسان وآواهم
عنده . ثم نادى بعبد الحليم سلطانا على المغرب الاقصى لانه اكبر سنا
من أخيه عبد المؤمن ، وأمده بالمال والرجال . وكان الملك أبو حيو يهدف
من وراء ذلك أن يثير حربا أهلية بين بنى مرين الذين طالما شردوه وشردوا
آباءه بنى زيان من قبل . وضسوا تلمسان الى ملكهم بالمغرب الاقصى ^(٢) .

ونجحت سياسة كل من غرناطة وتلمسان في بث سسومها في فاس ،
ففي ٢٢ ذى القعدة سنة ٧٦٢ هـ (٢٣ سبتمبر سنة ١٣٦١ م) اغتيل
السلطان أبو سالم المريني على أثر انقلاب داخلى دبره وزيره عمر بن
عبدالله ^(٣) . وكان لهذا الحادث نتائج سريعة أثرت في الاحداث السياسية
بمنطقة المضيق اذ صدرت الاوامر الى الاساطيل المغربية المكلفة بحراسة
المضيق والاغارة على السواحل الغرناطية ، بالعودة الى قواعدها فوراً .

كذلك صدرت أوامر ماثلة الى الجيوش المغربية المقيسة مع محمد
الخامس في رندة ، تطلب منها التخلي عن مساعدته ولم يلبث الخامس أن

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) يحيى بن خلدون : بنية الرواد ج ٢ ص ٩٠ - ٩٢ ، عبد الرحمن بن خلدون :

العبر ج ٧ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) ابن الخطيب : الاطاحة ج ٢ ص ٢٢ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون : العبر

ج ٧ ص ٢١٣ .

وجد نفسه فجأة وحيدا خصوصا بعد أن تخلى عنه أيضا أقرباؤه واتباعه وفروا هارين الى غرناطة أو المغرب ^(١) واضطر الغنى بالله في غمرة يأسه أن يترك مدينة رندة التابعة لبنى مرين ، وأن يتجه بسن تبقى معه من رجال الى أشبيلية لكي يتدبر الامر مع صديقه بدرو الاول ملك قشتالة . ورأى الملك بدرو أن الموقف قد تعقد بسبب موت ابى سالم حليفها الثالث . وبسبب اقتراب حلول فصل الشتاء ، فاعتذر لمحمد الخامس عن عدم امكان مساعدته في هذه الظروف الصعبة ، ولكنه عمل على اكرامه وتطبيب خاطره ، وانزله هو واتباعه في ضيافته بمدينة استجة Ecija الجيلة المظلة على الشغور الغرناطية ^(٢) .

وكان المغرب الاقصى في خلال ذلك الوقت يعاني فتنة داخلية . اذ لم يرض الناس بسلطنة تاشفين بن ابى الحسن (الموسوس) ، الذي خلف أخاه أبا سالم . لضعف قواه العقلية . ورأى الوزير المستبد عسر بن عبد الله ان يستبدله بابن أخيه أبى زيان محمد بن أبى عبد الرحمن بن أبى الحسن المقيم ببلات ملك قشتالة بأشبيلية . واستعان الوزير المذكور في تنفيذ ذلك بمحمد الخامس نزيل استجة كي يتوسط لدى صديقه بدرو الاول في أن يسمح للامير أبى زيان بالعبور الى فاس . وقبل معتمد الخامس القيام بهذه الوساطة واشترط في مقابل ذلك تسليسه مدينة رندة التي كانت تابعة لبنى مرين ووافق الوزير عسر بن عبد الله على هذا الشرط تحت تأثير صديقه المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون ، وانهى الامر

(١) ابن الخيب : نفاضة الجراب ص ٢٠١

(٢) ابن الخطيب : المرجع السابق وكذلك (Ayala ; Op. cit I p. 24)

وقد اخطأ ابن خلدون (التعريف ص ٨٠) عندما اعتبر استجة ضمن الارض الاسلامية في ذلك الوقت .

بأن نجحت الوساطة وانتقل محمد الخامس الى رندة كما اعتلى أبو زيان محمد الثاني عرش المغرب في صفر سنة ٧٦٣ هـ (نوفمبر ١٣٦١ م) (١) .

وفي ربيع تلك السنة ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) قام ملك قشتالة بغارات صمم على الهرب فجمع ما في خزائنه من أموال وذخائر ، وفر ليلا الى الخامس الاراضي الغرناطية واستولى على انتقيرة Antequera ولوشه Loja ، وبليش Velez ، وقسارش Comarex ، والحسة Alhama ، ثم استولى على مالقة العاصمة الثانية لمملكة غرناطة (٢) .

ولما رأى السلطان أبو سعيد البرميخو انه لا فائدة من المقاومة ، صمم على الهرب فجمع ما في خزائنه من أموال وذخائر ، وفر ليلا الى أشبيلية دون اتفاق سابق مع ملكها كما يقضي العرف بذلك (٣) . وكان البرميخو يؤمل أنه بهذا العسل سوف يكتسب رضا الملك بدرو وعفوه وحياته غير ان بدرو القاسي او العادل لم يغفر للبرميخو ما اقترفه من آثام وذنوب فقتله كما قتل سبعة وثلاثين من فرسانه في طلياطة Tablada بضواحي اشبيلية في رجب سنة ٧٦٣ هـ (ابريل سنة ١٩٦٢ م) (٤) .

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ١١٢ ، التعريف ص ٨٠ ، المقرئ : نفع الطيب ج ٧ ص ٢٩ ، ج ٨ ص ١١٩

(٢) راجع (Ayala : Op cit. I p. 340) (Bleda : Op, cit. p 538)

وكذلك (ابن الخطيب اللوحة البدرية ص ١١٧ ، العمري : مسالك الابصار ص ٤٦)

(٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ق ٢ ص ٢٥٥ ، الاحاطة ، نسخة الاسكوريال لوحة ٤٢٩ .

راجع كذلك (Gaspar Remiro ; correspondencia diplomática entre Granada y Fez p. 345)

(٤) راجع تفاصيل مقتله في (Ayala ; Op. cit. I P. 345 — 349 &)
Joaquin Guichot ; Don pedro de castilla, muerte delrey Bérmejo p. 61 — 80)

وحرص السلطان محمد الخامس بعد عودته الى عرشه ، على ان يظل حليفا مخلصا لملك قشتالة ، وقد نوهت المصادر الاسلامية والمسيحية بهذه الصداقة ، وأشارت الى أن ملك قشتالة بعث الى محمد الخامس برأس البرمخيو ورؤوس فرسانه الذين كانوا معه ، فأمر السلطان بتعليقها على أسوار قصر الحمراء .

وفي الوقت نفسه أعاد محمد الى الملك بدرو جيسع الاسرى القشتاليين الذين كانوا في مسلكته كما قدم له الهدايا الفاخرة رمزا لصداقته وامتنانه (١) .

اما سلطان فاس أبو زيان محمد ، فانه حاول استرجاع رنده الى سلطان بنى مرين وطالب السلطان محمد الخامس بردها مهددا بسنح أسرته التي كانت لا تزال بالمغرب ، من العودة الى غرناطة . ويذكر ابن الخطيب الذي كان مقيما هو الآخر بالمغرب ، في ذلك الوقت ، أنه تدخل لدى المسؤولين في المغرب في هذا الشأن واستطاع حل هذه الازمة والعودة الى غرناطة صحة الامير يوسف ولى عهد غرناطة وبقية الاسرة الملكية . ولم يذكر ابن الخطيب كيف حلت هذه المشكلة ، ولكن من الثابت ان رنده ظلت تابعة لمحمد الخامس بدليل ان الخطابات التي تبودلت بينه وبين ملوك قشتالة واراغون كانت تنص صراحة على اسم رنده بين البلاد الخاضعة له (٢) .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٢٢ (طبعة القاهرة) Ayala ; Op cit. I p. 347.

(٢) المقرئ : نفع الطبيب ج ٩ ص ٤٧ ، ج ٧ ص ٦ ، ابن الخطيب : الاحاطة

وكيفما كان الامر ، فان هذا الحادث لم يؤثر في العلاقات الودية بين فاس وغرناطة اذ لم ينس أبو زيان محمد المجهودات التي بذلها كل من محمد الخامس وبدرو الاول في توليته عرش المغرب . ولهذا حرص على توطيد علاقته بهما ، فأوفد اليهما في سنة ٧٦٥ هـ (٣٦٣ م) المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون كسفير له في هذا الغرض . وقد نجح ابن خلدون في مهمته ، قصد أول الامر بلاط غرناطة حيث احتفى به السلطان محمد الخامس وأكرمه وأقطعته قرية البيرة بضواحي غرناطة وقد تسرى ابن خلدون بجارية اسبانية تدعى هند ، وبعث اليه صديقه الوزير الغرناطي ابن الخطيب برسالة من الادب المكشوف في هذا الموضوع نقلها المقرئ في نفعه (١) .

ثم اتجه ابن خلدون بعد ذلك الى بلاط اشبيلية حيث حظى بلقاء بدرو الاول . ويقول ابن خلدون ان ملك قشتالة طلب منه البقاء في اشبيلية ووعدته بأن يعيد اليه أملاك اجداده باشبيلية ولكنه اعتذر وعاد الى غرناطة ومنها الى فاس (٢) .

ولم يرض وقت طويل على ذلك حتى شغل ملك قشتالة بثورة داخلية ضده قام بها أخوه الغير شرعى هنرى دي تراستامارا Henrique de Trastamara واستطاع هذا الامير الثائر ان ينال تأييد كل من البابا ، وملك فرنسا شارل الخامس ، وملك أراجون بدرو الرابع ، الذين اعترفوا به ملكا على قشتالة في مارس سنة ١٣٦٦ ، وأمدوه بالمال والرجال لمعاوته ضد أخيه .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ٨ ص ٢٨٠ وما بعدها .

(١) راجع تفاصيل هذه السفارة في (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون

ص ٨٠ - ٩٢)

وحاول ملك أراجون أن يضم الغرب الاسلامي الى هذا الحلف . فأرسل كتبه وسفراءه الى كل من سلطان فاس وغرناطة محاولا اقناعهما بهاجبة قشتالة . مقدما لهما جميع التسهيلات المسكنة من مال وسلاح وأساطيل ^(١) وكان غرضه من وراء ذلك هو عزل مملكة قشتالة . وأحاطا بها بشبكة من الاعداء . غير أن محاولات ملك أراجون في هذا السبيل لم تلبث ان فشلت تماما أمام الصداقة القوية التي كانت تربط كلا من ممالك غرناطة وفاس بملك قشتالة بدرو الاول .

هذا ولم يكتف السلطان محمد الخامس برفض التحالف مع أراجون بل سارع الى امداد صديقه بدرو بقوة من خيرة فرسانه بقيادة القائد الغرناطي ابي الفرج رضوان المعروف في المصادر الاسبانية المعاصرة باسم دون فرج الكابثاني ^(٢) El - Cabezani ولعل معناها « ذو الرأس الصلبة أو الكبيرة » .

على ان الملك بدرو ، رغم ذلك ، لم يستطيع مقاومة الجيوش المتحالفة ضده ، واضطر الى ترك البلاد لمنافسه ، والالتجاء الى ملك البرتغال أم ملك انجلترا طلبا للمعونة الحربية .

وشعر ملك غرناطة بخطورة موقفه بعد أن تخلى عنه حليفه ، فكتب الى ملوك المغرب والجزائر يعلمهم بحقيقة الموقف ويخبرهم بأن الجيوش الفرنسية والاساطيل الارجونية قد وضعت خطة عدوانية تحت اشرافه .

(١) راجع السجل رقم ١٢٨٩ ورقة ٢٨ ، ٤٠ ظهر بارشيف تاج أراجون ببرشلونة .
(٢) راجع (Ayala : Ob. cit, I p. 385) ولعله ابن الوزير ابي النعيم رضوان الذي قتل أثناء الانقلاب الذي انتهى بعزل محمد الخامس سنة ٧٦٠ هـ .

البابا للقضاء على أملاك المسلمين في المغرب والاندلس ^(١) . وكان لهذا النداء صدى عيق في نفوس اهل المغرب والجزائر ، اذ سارعت اساطيلهم محملة بالجنود والاقوات والاسلحة الى غرناطة ^(٢) . ثم قامت الجيوش الاسلامية مجتمعة تحت قيادة محمد الخامس بهجوم خاطف على المواقع الاستراتيجية القتالية المهددة لمملكة غرناطة قبل أن يستتب الامر للملك القتالي الجديد هنري دى تراستارا . واستطاع المسلمون في شعبان سنة ٧٦٧ هـ (ابريل ١٣٦٦ م) الاستيلاء على حصنى برغه Burgo ، وبأغو Priego ، اللذين كان القشتاليون يغزون منها مدينة رنـدة وأحوازها ^(٣) وفي الشهر التالي استولوا على حصن آشـر Iznajar ^(٤) . المنيع الذي يقع عند نقطة الالتقاء بين حدود المقاطعات الثلاث : غرناطة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، كذلك استولوا على حصن السهلة بالقرب من جبل طارق . وقد لعبت الجيوش الجزائرية دورا بارزا في احتلال هذا الحصن الاخير ^(٥) .

أما أراجون ، فانها انتهزت هذه الفرصة ، وشنت هجوما بحريا على السواحل الغرناطية . واستطاعت في ربيع الثاني سنة ٧٦٨ هـ (أواخر

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٢١ (طبعة القاهرة) ، يحيى بن خلدون : بـغية الرواد ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣) راجع كذلك (Gaspar Remrio : Op cit. p 397) .

(٢) يحيى بن خلدون : نفس المرجع ج ٢ ص ١٧٤ .

(٣) يحيى بن خلدون : نفس المرجع ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ ، ابن الخطيب الاحاطة ج ٢ ص ٤٨ - ٥١ .

(٤) انظر (Gaspar Remiro : Op. cit. p. 271) .

(٥) يحيى بن خلدون : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٠ ، ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٥١ - ٥٢ .

سنة ١٣٦٦ م) أن تأسر سفينة غرناطية متجهة الى ثغر هنين^(١) وعليها هدايا
ثينة ارسلها السلطان محمد الخامس الى صديقه أبي حمو الثاني ملك
تلمسان^(٢) .

ورأى سلطان غرناطة ، بعد أن ضمن سلامة حدوده ، أن يلجأ الى
الحلول السياسية لمدارة اعدائه ودفع شرهم ، فأرسل سفراءه الى ملوك
أراجون وقشتالة^(٣) ، مبديا لهما استعدادا لعقد سلم دائم معها ان
توقفا عن مهاجمته . ونجحت غرناطة في سياستها اذ فضل كل من بدر
الرابع ملك أراجون وهنرى دي تراستارا ملك قشتالة قبول هذا العرض
مؤقتا حتى يتفرغا لحل مشاكلها الداخلية^(٤) .

وفي خلال ذلك الوقت كان ملك قشتالة المخلوع بدرو الاول يسكن
لدى ملكى البرتغال وانجلترا للحصول على معونة عسكرية تعيده الى
عرشه ولم يستطع ملك البرتغال تحقيق رغبته بينا وافق ملك انجلترا
ادوارد الثالث على مساعدته لان بلاده كانت في حرب مع فرنسا (حرب
المائة عام) فأمدّه بجيش بقيادة ابنه وولى عهده امير الغال ادوارد الرابع
المعروف بالامير الاسود نسبة الى لون درعه . وكان هذا الامير في ذلك
الوقت مقيما في مدينة بوردو محاربا للفرنسيين في بلادهم^(٥) .

(١) كانت هنين تقع على بعد ثلاثين كيلو مترا شرقى نيمور , Nemours في ولاية
تلمسان وقد حلت وهران Oran محلها الآن .

(٢) راجع (يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٤) .

(٣) يرد اسم السفير الغرناطى في الوثائق الارجونية على شكل Galib AlcaPelli

راجع (سجل رقم ١٢٨٩ ورقة ١ في أرشيف التاج الارجونى ببرشلونة) .

(٤) راجع نصوص هذه الاتفاقيات في (Alarcon y Linares : op cit p. 149)

(٥) انظر (Merimée : Histoire de Don Pedro I roi de Castille)
p. 444) .

واستطاع الجيش الانجليزي ان يحرز ذصرا كبيرا على الجيوش الفرنسية والاراجونية المتحالفة في موقعة ناجره Najera بشمال اسبانيا في شعبان سنة ٧٦٨ هـ (ابريل ١٢٦٧ م) ^(١) وبهذا النصر استعاد الملك بدرو عرشه من جديد ولكنه ظل مع ذلك في حالة حرب مع أخيه وحلفائه . ولقد ساء موقف الملك بدرو بعد ذلك عندما انسحب الامير الانجليزي بجيشه من اسبانيا نتيجة لمرضه ولعدم قدرة بدرو على دفع نفقات حملته . واضطر بدرو ان يطلب مساعدة صديقه محمد الخامس بعد أن أصبح وحيدا في الميدان . ولم يتردد ملك غرناطة في امداده بألفين من خيرة فرسانه بقيادة أبي الفرج رضوان وكان غرضه من ذلك ان يزيد الحرب اشتعالا بين الاخوين فيكفا عن مناوأة المسلمين ^(٢) .

ولم يكتف محمد الخامس بذلك ، بل انتهز فرصة انشغال الاخوين بحروبهما ، وقام بهجوم واسع النطاق على قرطبة وجيان سنة ٧٧٠ هـ (١٣٨٦ م) . وقد اشترك معه في هذا الهجوم جيش من المتطوعين المغاربة بقيادة شيخ الغزاة الامير عبد الرحمن بن علي بن ابي يفلوسن . وقد أشادت المدونات القشتالية ^(٣) المعاصرة بشجاعة هذا القائد المغربي Abenfaluz أي ابن يفلوسن . وذكرت انه استطاع أن يخترق حصون قرطبة وأنه لولا هطول الامطار وكثرة الاوحال لتسكن المسلمون من الاستيلاء على عاصمتهم القديسة ^(٤) .

(١) وأورد ابن الخطيب وصفا دقيقا مفصلا لهذه المعركة في كتابه الاحاطة ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٧ (طبعة القاهرة) .

(٢) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٢٢٧

(٣) راجع (Ayàla ; Op . cit I , p . 525 — 527)

(٤) راجع Gaspar Remiro : Op cit . p . 328 حيث ترد الرسالة

التي وجهها محمد الخامس الى سلطان تونس يصف فيها أحداث تلك الحملة على قرطبة .

كذلك يشير ابن الخطيب عند كلامه عن الحملة التي شنّها الفرناطيون على مدينة جيان Jaen سنة ١٣٦٧ م ، أن صيحة المسلمين في هذه الحرب كانت : « والثارات أهل الاسكندرية » (١) . وهذه الصيحة تعبر عن موجة الغضب التي أثارها بالاندلس تلك الغارة الوحشية التي شنّها ملك قبرص بطرس لوزجنان Lusignan على مدينة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (٢)

(١٣٦٥ م) كما أنها تحمل في طياتها معانى الاخوة والتضامن بين الشعوب الاسلامية امام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات .

وكيفما كان الامر فان هذه الحروب التي قامت بين بدرو وأخيه هنرى انتهت بهزيمة بدرو ومقتله عند بلدة موتيل Montiel وتولية هنرى عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م . ولما كان هنرى ابنا غير شرعي لالفونسو الحادي عشر ، فقد أثارت توليته معارضة ملوك البرتغال ونافاراً وانجلترا ، اذ ان كلا منهم كان يرى نفسه احق بملك قشتالة من هنرى بسبب اواصر القربى التي تربطهم بالاسرة الملكية الشرعية . ولم تلبث هذه المعارضات ان تحولت الى حروب بين الملك هنرى ومعارضيه .

ولقد انتهز السلطان محمد الخامس هذه الفرصة وعقد حلفاً مع ملك البرتغال فرناندو الاول ، ومع سلطان المغرب عبد العزيز بن أبى الحسن المرينى (٧٦٨ — ٧٧٤ هـ = ١٣٦٦ — ١٣٧٢ م) ، على أن يقوم

(١) راجع (ابن خلدون . التعريف ص ٢٨٨) وكذلك : Caspar Remiro : correspondencia p. 288, 321 — 322.

(٢) عن هذه الحملة راجع (محمد بن قاسم النويرى السكندرى : الامام بما جرت

به الاحكام المقضية في واقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ) وكذلك

Madelena Saz pomes : Lo3 Aragoneses en la conquista y saqueo de Alejiandria por pedro I de chipre, Estudio de edad media de la corona de Aragon V p. 361 — 405, Atiya Suiral The crusade in the later Middle ages p. 345 — 370).

ملك البرتغال بهاجمة قشتالة من جهة غاليسيا في الشمال^(١) ، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء في اقصى الجنوب يعاونه في ذلك اسطول سلطان المغرب من جهة البحر^(٢) ونجحت هذه الخطة ، وسقطت الجزيرة الخضراء في ايدي المسلمين في ذى الحجة سنة ٧٧٠ هـ (يوليو ١٣٦٩ م) وان كان السلطان محمد الخامس قد عمد الى تدمير حصونها وأسوارها خوفا من سقوطها في يد العدو مرة أخرى^(٣) .

ولقد انتهت هذه الاحداث المتشابكة بعقد صلح دائم بين كل من : قشتالة وأراجون وبين غرناطة والمغرب في سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ - ١٣٧٠ م) وتبدلت السفارات الودية بينهما .

على انه يبدو ان انتهاء المشاكل والاطار الخارجية بالنسبة لغرناطة ، كان من العوامل التي شجعت وزيرها وراسم سياستها لسان الدين ابن الخطيب على الفرار الى المغرب حينما أحس بكثرة السعايات ضده ، وفساد الجو بينه وبين سلطانه . وقد صرح ابن الخطيب نفسه بأنه لم يغادر غرناطة الا بعد ان وطد امورها ، وتأكد السلم بينها وبين جيرانها^(٤) .

غير انه يلاحظ ان ابن الخطيب كان في اواخر حكمه قد ربط سياسة

(١) Caribay Op. cit p. IIII, Ayala Op. cit II, p. 7 — 10

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٥٦ - ٥٨

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٣٢٧ - ٣٢٨

(٤) راجع الخطاب الذي أرسله ابن الخطيب الى سلطانه محمد الخامس يبرر له

فيه أسباب فراره الى المغرب (ابن خلدون : التبريد ص ١٤٧ وما بعدها) .

غرناطة بمجلة فاس ، وحرص على تنفيذ اوامر سلطان المغرب عبد العزيز المرينى ، وتحقيق رغباته في كل ما يطلبه من غرناطة (١) . وكان هدف ابن الخطيب من وراء ذلك هو سكنى المغرب (٢) والاستقرار فيه اذا ما عزل عن منصبه . وقد أثارت هذه السياسة شكوك السلطان محمد الخامس — الذي كان يخشى من اطماع السلطان المرينى في بلاده خصوصا بعد ان ضم المغرب الاوسط الى ملكه واصبح قوة يخشى خطرها . ثم جاءت الاحداث بعد ذلك مؤكدة لهذه المخاوف والشكوك ، اذ يقول ابن خلدون : « فأجمع — ابن الخطيب — التحول عن الاندلس الى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور ، وسار اليها في لمة من فرسانه ، فلما حاذى جبل الفتح (٣) فرضة المجاز الى العدو مال اليه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه . وقد كان السلطان عبد العزيز اوعز اليه بذلك ، وجهاز له الاسطول من حينه ، فأجاز الى سبتة ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامثال المراسم . ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (١٣٧١م) بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بسحل الامن والغبطة ، واخرج لوقته كاتبه ابا يحيى بن ابي مدين سفيرا الى صاحب الاندلس في طلب اهله وولده ، فجاء بهم على اكمل حالات الامن والتكرمة ، ثم اكثر المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته وابداء ما كان كامنا في نفسه من سقطاته ، واحصاء معاييه . وشاع على السنة اعدائه كلمات منسوبة الى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ، ورفعت الى قاضي الحضرة ابنى الحسن النباهي ، فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الاندلس رأيه فيه .

(١) راجع امثلة على ذلك في : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٠

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٢

(٣) نان جبل طارق في ذلك الوقت تابعا لسلطان بنى مرين في المغرب .

وبعث القاضي ابو الحسن الى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وامضاء حكم الله فيه ، فصم على ذلك ، وأنف لذمته ان تخفر ولجواره ان يرد وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك احد ما كان في جواري ثم وفر الجراية والاقطاع له ولبنيه ولمن جاء من اهل الاندلس في جملته (١) . .

ويضيف ابن خلدون بعد ذلك بأن ابن الخطيب حرض السلطان عبد العزيز على ملك الاندلس ، وحمله عليه ، توعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب ، ونسى ذلك الى ابن الاحمر (محمد الخامس) فبعث الى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها (٢) .

غير ان السلطان عبد العزيز لم يعيش بعد ذلك طويلا اذ مات سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٢ م) وخلفه ابنه زيان محمد السعيد وكان طفلا في الرابعة من عمره ، فاستبد بالامر وزيره ابو بكر بن غازي الذي كان صديقا لابن الخطيب .

على أن هذا الوضع السياسي الجديد الذي اقتضى اقامة سلطان طفل على عرش المغرب ، قد أتاح الفرصة لظهور عدد كبير من الامراء الطامعين في الملك ، وكانت النتيجة أز دبت الفوضى والحروب الاهلية في المغرب ، واستولى بنو عبد الواد على تلمسان والمغرب الاوسط ففقد المغرب بذلك وحدته وقوته . وهنا يجد السلطان محمد الخامس الفرصة سانحة لتحطيم سياسة ابن الخطيب وابعاد الخطر المريني عن بلاده . فعمل اولاً على تأييد استقلال بنى عبد الواد - أعداء بنى مرين - بتلمسان ، ثم الغى من مملكة

(١) و (٢) راجع (المرقى : نفع الطيب ج ٧ ص ٣٠ - ٣٢)

غرناطة منصب شيخ الغزاة الذي كان يشغله احد امراء بنى عبد الحق (او بنى مرين) وتولى هو واولاده قيادة الجنود الغزاة او المتطوعين المغاربة في غرناطة ، ثم اخذ بعد ذلك يتدخل في شؤون العدو المغربية فبعث ببعض الامراء المرينيين المقيمين عنده الى المغرب ملوحا لهم بالعرش المغربي ومقدما لهم جميع المساعدات الممكنة . وواضح ان هدف السلطان محمد الخامس من وراء ذلك هو اثارة الفتن والقتل ضد الوزير المستبد بحكم المغرب ابى بكر بن غازي صديق ابن الخطيب .

و اول امير ارسله سلطان غرناطة الى المغرب ، هو الامير عبد الرحمن ابن يفلوسن المريني الذي سبق أن سجنه ابن الخطيب في غرناطة بايعاز من السلطان عبد العزيز .

ونزل هذا الامير بساحل غساسة او بطوية عند مصب وادي ملوية بنواحي مليلة ، واتخذ من الجبال هناك قاعدة عسكرية لقواته وأعلن عن مطالبته بعرش المغرب . وفي نفس هذا الوقت اتجه السلطان محمد الخامس بجيوشه الى جبل طارق الذي كان تابعا لبنى مرين في ذلك الوقت ، مظهرا العبور الى المغرب (١) .

وأمام هذا الخطر المزدوج ، رأى الوزير ابن غازي أن يعمل على حماية مدينة سبتة ، قتل العدوتين ، من أي هجوم يقع عليها من الاندلس . فأرسل ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس على رأس جيش كبير لحماية هذه المدينة وما حولها من قواعد عسكرية بما في ذلك جبل طارق ،

(١) راجع مقالنا عن حياة ابن الخطيب المغربية في (مجلة البنية العدد الاول الرباط مايو سنة ١٩٦٢) .

بينما اتجه هو الى محاربة المطالب بعرش المغرب الامير عبد الرحمن ابن يفلوسن .

ورأى السلطان محمد الخامس ان يلجأ الى سياسة الحيلة والدهاء لتنفيذ اغراضه ، فاتصل من جنوب الاندلس بحاكم سبتة الجديد محمد ابن عثمان بن الكاس ، واستطاع اقناعه بأن من الخير للمغرب وأهله أن يكون سلطانه رجلا راشدا بدلا من هذا الطفل الذي لا يدرك شيئا ، واتفق معه على اقامة الامير المرينى ابى العباس احمد بن ابى سالم سلطانا على المغرب ، على ان يكون هو — أي ابن الكاس — وزيره في المستقبل ، ووعدته بكل المساعدات المادية والعسكرية لتنفيذ هذه الخطة . وفي مقابل ذلك اشترط محمد الخامس على محمد بن الكاس أن يسلمه ثلاثة أشياء :

(١) جبل طارق .

(٢) لسان الدين بن الخطيب .

(٣) الامراء المرينيين .

وتنفيذا لهذه الاتفاقية سلمت قاعدة جبل طارق الى سلطان غرناطة الذي أرسل بدوره جيشا غرناطيا صحبه الامير ابى العباس ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس لاحتلال عاصمة المغرب فاس (١) .

وعلم الوزير ابو بكر بن غازي بخيانة ابن عمه محمد بن عثمان ،

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٨٨ ، ٢٩١ وكذلك مقالنا السالف الذكر عن حياة

ابن الخطيب لغربية .

فأسرع للملاقاة ومنعه من دخول فاس ، ولكنه هزم عند جبل زرهون سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) .

وهكذا أصبح المغرب تحت رحمة الاميرين المرشحين لعرش المغرب :
ابى العباس احمد ، وعبد الرحمن بن يفلوسن وهما من احفاد السلطان
ابى الحسن المريني . وبطبيعة الحال قام نزاع بين هذين الاميرين حول
أحقية كل منهما في عرش المغرب ، واضطر سلطان غرناطة الى التدخل بينهما
لتسوية هذا النزاع ، فطلب من عبد الرحمن الخضوع لابي العباس
ومساعدته في احتلال فاس على أن يستقل هو بحكم عاصمة المغرب
الثانية مراكش .

وهكذا صار السلطان محمد الخامس هو الحاكم الحقيقي للمغرب
يولى ويعزل من يراه من أمراء بنى مرين . وكان طبيعيا ان يكون نتيجة
هذا التدخل هو القبض على غريمه لسان الدين وقتله وحرقة بعد امتحانه
وتعذيبه ومصادرة امواله وضياعه وذلك سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) (١) .

ولم يكد السلطان ابو العباس احمد تستقر له الامور في فاس حتى
طمع في توحيد ملك بنى مرين تحت سلطانه ، فدخل في صراع طويل مع
منافسه عبد الرحمن بن يفلوسن سلطان مراكش ، وانهى الصراع بين هاتين
العاصمتين بانتصار فاس على مراكش ومقتل عبد الرحمن سنة ٧٨٤ هـ
(١٣٨٢ م) ولم يكتف ابو العباس بهذا النصر الذي جعله سلطانا بدون
منازع على جميع المغرب الاقصى ، بل اتجه ببصره نحو المغرب الاوسط

(١) راجع (القرى نفح الطيب ج ٧ ص ٣٥) وكذلك مقالنا عن حياة ابن الخطيب

المغربية في مجلة البنية ، العدد الاول سنة ١٩٦٢ .

يريد ضمه الى ملكه كما كان الحال في عهد آباءه . واستنجد سلطان تلمسان أبو حبو الثاني بسلطان غرناطة محمد الخامس الذي كان يحرص بدوره على بقاء المغرب الاوسط مستقلا عن نفوذ المرينيين . ولهذا حاول سلطان غرناطة اقتناع سلطان فاس بترك مشاريعه التوسعية في المغرب الاوسط ولكن دون جدوى واستولى ابو العباس على تلمسان وفر صاحبها ابو حمو الى الصحراء . وكان رد سلطان غرناطة على هذا العمل ، أن أرسل الى سبتة اميرا مرينيا من أبناء ابي عنان يدعى موسى ، وزوده بالرجال والاموال والاسلحة كما أرسل معه كوزير له مسعود بن ماساي ، واستطاع موسى ان يحتل العاصمة فاس ويعلن نفسه سلطانا على المغرب سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) كما اعلن في الوقت نفسه ان مدينة سبتة تابعة لسلطان غرناطة ^(١) . أما أبو العباس فانه لم يلبث أن قبض عليه في تلمسان، وأرسله أسيرا الى غرناطة حيث عامله السلطان محمد الخامس معاملة كريمة حسنة .

ولم يعيش السلطان موسى أكثر من سنتين ، اذ مات سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦) ، وحاول سلطان غرناطة ان يقيم مكانه اميرا مريني آخر يدعى بالوائق ، ولكن الوزير مسعود بن ماساي ثار على هذا الوضع وقبض على هذا السلطان الجديد وعلى جميع من معه من الجنود الغرناطيين ورفض أن يطلق سراحهم الا بعد تسليم مدينة سبتة . ورد سلطان غرناطة على هذا التهديد بأن ارسل الى المغرب السلطان المخلوع ابا العباس احمد ليكون سلطانا للمرة الثانية، وارسل معه جيشا اندلسيا بقيادة احد قواده البارزين، وهو ابو الفرج رضوان الذي سبق له أن اشترك هو وفرسانه في صفوف ملك قشتالة بدرو الاول ضد أخيه هنري وحلفائه الارجونيين والفرنسيين

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٢٥٠

واستطاع ابو العباس بهذه القوة الفرناطية ان يستولى على فاس ويهزم
الوزير ابن ماساي ويعلن نفسه سلطانا على المغرب سنة ٧٨٩ هـ
(١٣٨٧ م) (١) .

ولقد حرص السلطان ابو العباس في هذه المرة على أن يوطد علاقته
مع سلطان غرناطة ، فأخذ يتبادل معه الهدايا والسفارات ، ويفهم من
قصيدة للشاعر الفرناطي المعاصر عبدالله بن زمرك (ت ٧٩٦ هـ) ان
السلطان محمد الخامس زار مدينة سبتة (٢) في خلال هذه الفترة مما يدل
على قوة نفوذه في منطقة المضيق .

ثم توفي محمد الخامس الفنى بالله سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) وخانه
على عرش غرناطة أبنه يوسف الثاني ولا شك ان هذه الوفاة قد أثارت
مطامع ابى العباس القديمة ، فيشير السلاوي الى أنه استطاع مد نفوذه
الى تلمسان بالمغرب الاوسط ، وأنه كان يطمع في مسلطة غرناطة نفسها
ولكنه مات قبل ان يدرك غرضه سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) (٣) .

وتوالى على عرش غرناطة والمغرب عدد من ملوك بنى مرين وبنى
الاحمر ، لم تكن لهم قوة اسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر
المهدد بهم فعاشوا عيشة ترف ولهو . ومن تصاريف القدر العجيبة أنه في
الوقت الذي اخذ الضعف فيه يدب الى كل من غرناطة وفاس ، كانت القوة
قد بدأت تتجمع في كل من اسبانيا والبرتغال .

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حرية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٥٤ - ٣٥٧ ، التعريف بابن خلدون ص ٢٧٧

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١٠ ص ٥٦ ، ازهار الرياض ج ٢ ص ٨١

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٤ ص ٧٦ ، ٨٢ .

الملك خوان الاول (١٣٨٥ — ١٤٣٣ م) مؤسس اسرة أفيس Avis^(١) التي حكمت البرتغال بعده . ولقد أبدى هذا الملك اهتماما خاصا بالبحرية والاساطيل ، واحتلال القواعد والمراكز البحرية التي تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة في منطقة المضيق .

واتتهز هذا الملك فرصة اضطراب الاحوال في المغرب ، وهاجم بنفسه مدينة سبتة Ceuta بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة ، واستولى عليها وعلى منطقة جباله في أغسطس سنة ١٤١٥ (٨١٨ هـ) ، وفر حاكمها المدعو صلاح بن صلاح ، وأقام مكانه حاكما من قبله اسمه بدور منسس Pedro Meneses .

وذكر محمد القادري في كتابه نشر المثنى « قصة في كيفية استيلاء البرتغاليين على سبتة ، تشبه قصة قيصر^(٢) مع الزباء قال رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعا وانزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق ملوئة رجالا عددهم اربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد^(٣) .

(١) كان هذا الملك في الاصل رئيسا لنظام Avis العسكرى الدينى ثم انتخبه مجلس النبلاء ملكا على البرتغال واستمر الملك في عقبه فترة من الوقت ثم انهار نفوذ اسرة ملوك Avis هذه عقب كارثة وادى المخازن او القصر الكبير التي اندحرت فيهما الجيوش البرتغالية سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م) .

(٢) يقصد الامبراطور الرومانى اورليان الذي استولى على مدينة تدمر سنة ٢٧١ م وأسر ملكتها الزباء التي تعرف عند الرومان باسم زنوبيا .

(٣) راجع (السلاوى : الاستقصا ج ٤ ص ٩٢) وكذلك استقينا معظم المادة التالية



وحاول المسلمون استعادة هذه القاعدة الهامة سنة ١٤١٩ م (٨٨٢٢).
فهاجمها سلطان المغرب ابو سعيد المريني من البر ، بينما هاجمها سلطان
غرناطة محمد الثامن من البحر ، ولكن البرتغاليون تسكنوا من احباما
هذه المحاولة .

وولى بعد خوان الاول ابنه الاكبر ادوارد Duarte سنة ١٤٣٣ .
الذي حاول احتلال طنجة ، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون
فرناندو ، ودون هنرى سنة ١٤٣٧ م (٨٤١ هـ) ونزلت الحملة في مدينه
سبتة ثم اتجهت الى طنجة ، وهاجمها هنرى من ناحية البر بينما هاجمها
أخوه فرناندو من البحر (١) . وخشى المسلمون ان تتكرر مأساة سبتة من
جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت . وكان سلطان المغرب في ذلك
الوقت طفلا صغيرا يدعى عبد الحق بن ابي سعيد المريني ، ويدير شئون
دولته وزيره ابو زكريا يحيى الوطاسى المعروف بأبى زكري . ولم يتردد
هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجة في ارسال الامدادات الى المدينة المحاصرة
واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة الى الانسحاب الى سبتة
ولكن الجيوش المغربية تسكنت من اللحاق بها وتطويقها وأسر الامير
فرناندو عدد كبير من البرتغاليين . واشترط المغاربة في مقابل اطلاق سراح
الاسرى ، ان ينسحب البرتغاليون من سبتة . ورأى ملك البرتغال ان
تسليم سبتة تضحية كبيرة لا تقدر بثمن ، ولهذا رفض هذا العرض ، وبقي



من مجموعة الوثائق والمراسلات والمعاهدات المتبادلة بين ملوك المغرب والبرتغال واسبانيا والتي
نشرها دى كاسترى بعنوان مصادر لم تشر في تاريخ المغرب . راجع :

De Castries : Les sources inédites de l'histoire du Maroc.
Portugal, Tome I p. VII (Madrid — Paris 1921) .

(١) راجع :

(Colonel H. De Castries : les sources inédites Op. cit. p. 9) .

أخوه فرناندو في الاسر الى أن مات بفاس في ٥ يونيو سنة ١٤٤٣ م (١) .

وفي خلال ذلك الوقت ولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس الذي سار على سياسة اسلافه التي ترمى الى السيطرة على مضيق جبل طارق واحتلال القواعد المطلة عليه . واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر الصغير او قصر مصمودة الذي يقع بين سبتة وطنجة . وكان هدفه من احتلال هذا الموقع هو التهديد لاحتلال طنجة بالإضافة الى تدعيم النفوذ البرتغالي في سبتة .

وفي اكتوبر سنة ١٤٥٨ م خرج الملك الفونسو الخامس على رأس حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و ٢٥ ألف جندي ، واستولى على القصر الصغير بدون صعوبة كبيرة وعين عليها حاكما يدعى (٢)

Duarte de Meneses

ثم رأى الملك البرتغالي ان يحاول من جديد احتلال طنجة ، فوجه اليها ثلاث حملات فيما بين سنتي ١٤٦٣ - ١٤٦٤ م قاد بعضها بنفسه ، ولكنها فشلت كلها ولا سيما الحملة الثالثة التي قتل وأسر فيها عدد كبير من خيرة رجاله حتى صارت طنجة ، على حد قول دي كاستري ، مقبرة للنبلاء البرتغاليين (٣) .

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل ان قتل سلطانه عبد الحق المريني في رمضان سنة ٨٦٩ هـ (مايو سنة ١٤٦٥ م) وبموته انقرضت الدولة

(١) راجع :

(De Castries : Op. cit. Portugal, tomelp. P. 10) .

(٢) راجع (De Castries ; Op . cit p . 10)

(٣) راجع (De Castriés ; Op . cit p . 11)

المرينية في المغرب ، وقام نزاع على الملك بين الشريف الادريسي محمد بن علي وبين قائد مدينة أصيلا Arzila محمد بن الشيخ الوطاسي . ابن الوزير السابق ابي زكري .

وامتد الصراع بين الطرفين عدة سنوات (١٤٦٥ - ١٤٧٢ م) . خلال خلالها محمد الشيخ الى ترك أصيلا ومحاصرة خصه في فاس .

واتهز ملك البرتغال الفونسو الخامس هذه الفرصة ، وهاجمه أصيلا بأسطول ضخم من ٤٧٧ سفينة عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وذلك في أغسطس سنة ١٤٧١ م وبعد مقاومة عنيفة تسكن من احتلال المدينة . عدد كبير من أهلها من بينهم زوجتين وابن لمحمد الشيخ كانوا معتقلين بقصبتها (١) .

وعندما علم محمد الشيخ بأنباء هذه الحملة ترك جزءا من جيشه لمواصلة حصار فاس ، واتجه نحو أصيلا لنجدها ، ولكنه ما كاد يصل الى مدينة القصر الكبير حتى بلغته الانباء بسقوط أصيلا ووقوع أسرته في أسر البرتغاليين .

ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الازمة والتفرغ لمحاربة خصه في فاس . وعلى الرغم من أن نصوص هذه الهدنة لم تصل إلينا ، الا انه يوجد في المدونة الخاصة بعصر الفونسو الخامس بعض شروطها ، وهي تنص على أن يمتد أمد الهدنة

(١) انظر : (Ruy de Pina : Chronica do Senhor Rey D. Afonso V p. 97, Lisbonne 1901 — 1902) .

عشرين سنة ، وان يحتل البرتغاليون مدينة العرائش الى جانب أصيلا ،
وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته (١) .

على أن ملك البرتغال ، رغم شروط هذه المهدنة ، اتجه بقواته
وأساطيله نحو مدينة طنجة التي خاف أهلها أن يكون مصيرهم مثل مصير
أهل أصيلا ، فأخذوا في الجلاء عنها مسا سهل على الجيش البرتغالي مهمة
احتلالها في ٢٩ أغسطس سنة ١٤٧١ م أي بعد خمسة أيام من احتلال
أصيلا (٢) .

وكان محمد الشيخ في خلال ذلك الوقت منهكا في محاربة خصمه
الشريف محمد بفاس ثم انتهى الامر بفرار هذا الأخير الى تونس بعد أن
تخلّى عنه أتباعه ، ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس في سنة ٨٧٧ هـ
(١٤٧٢ م) مؤسسا بذلك دولة بني وطاس .

ولقد أثار احتلال البرتغاليين لمدينة طنجة أثناء الهدنة المبرمة ، غضب
السلطان محمد الشيخ . فاتفق مع ملك أراجون فرناندو الكاثوليكي الذي
كان في حالة حرب مع البرتغال ، على أن يقوم المغاربة بمهاجمة سبتة من
البر ، بينما يهاجمها الأسبان من البحر . على أن هذا الهجوم المزدوج لم
يلبث أن فشل امام مقاومة حاكم المدينة البرتغالي - Rui Mendez Vasconcellos
وانتهى الامر برفع الحصار عن المدينة سنة ١٤٧٦ م (٣) .

(١) راجع De Castries : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal I, p. 13)

(٢) راجع De Castries : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal, I, p. 13 .

(٣) راجع (De Castries : Op. Cit p. 13 — 14)

ثم جاءت بعد ذلك معاهدات الكاثوفاس Alcaçovas في ٤ سبتمبر سنة ١٤٧٩ ، وطليلة في ٦ مارس سنة ١٤٨٠ م التي أبرمت بين أسبانيا والبرتغال ، مخيبة لآمال السلطان محمد الشيخ ، اذ أنها أنهت حالة الحرب بين هاتين الدولتين ، كما انها نصت على اعتراف اسبانيا بحقوق دولة البرتغال في المواقع التي احتلتها في مملكة فاس ، مثل سبتة ، وطنجة ، والقصر الصغير ، والعرائش ، وأصيلا .

وهكذا نجد أن البرتغال في خلال القرن الخامس عشر الميلادي قد احتلت سواحل العدوة المغربية وتحكمت في منطقة المضيق . ويبدو ان الملك الفونسو الخامس أراد ان يتوج هذه الفتوحات التي حققت آماله ، فاتخذ لقباً جديداً ورثه خلفاؤه من بعده وهو لقب « ملك البرتغال والمغربين المصاقين للبحر » .

(Rei de Portugal e dos algarves d'aquem, e d'alem mar)

كذلك أطلقت عليه المصادر البرتغالية لقباً آخر يدل على اعماله التوسعية في المغرب وهو « الفونسو الافريقي » ^(١) .

على أن المغاربة ، رغم كل ذلك ، ولا سيما الشيوخ المستقلين منهم في شمال المغرب ، لم يكفوا عن مهاجمة هذه الحاميات البرتغالية وشل حركتها حتى قيل انها كانت تعيش في حالة استعداد دائم للحرب . ومن هؤلاء الزعماء المغاربة نذكر الشريف العلمي على بن راشد الذي أسس مدينة شفشاون سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) على ارتفاع الف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان ، لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ضد الاحتلال

(١) راجع 14 — 13 p. cit Op. De Castries :

البرتغالي . كذلك نذكر القائد المندري قائد تطوان الذي كان شوكة في جنب المواقع البرتغالية المجاورة في سبتة وطنجة (١) .

إذا انتقلنا الى أسبانيا في خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، فنجد أنها عرفت هي الاخرى نهضة حرية كبيرة ، ووحدة سياسية شاملة ، بدأت طلائعها باحتلال جبل طارق سنة ١٤٦٢ م في عهد هنري الرابع ملك قشتالة (٢) ، ثم بعد ذلك بزواج الملكين الكاثوليكين Los reyes Catolicos فرناندو ملك أراجون وازاييل ملكة قشتاله سنة ١٤٦٩ م . وبهذا الزواج اتحدت هاتان المملكتان اللتان كانتا في منازعات وحروب مستمرة . لهذا اثارت هذه الوحدة في أسبانيا موجة كبيرة من الفرح ما زال صداها يتردد في الاغاني الشعبية مثل قولهم :

Tanto monta, monta tanto, Isabel y Fernando.

أي مهما ارتفعنا فسوف نجد في الذروة دائما ازايل وفرناندو .

ولا شك أن هذا الاتحاد كان معناه في الواقع انتهاء مسلكة غرناطة العربية ، لان بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعا الى حد كبير الى

(١) راجع (De Castries : Op. cit p. 16)

(٢) انظر Jose Carlos de Luma : Historia de Gibraltar p. 178 — 180.

وقد قال في رثاء جبل طارق الشاعر المعاصر عبد الكريم القيسي آخر شعراء غرناطة :
وقائلة لى مالى اراك مقطبا كأنك للتقطيب هددت بالبيع
فقلت دعيني الحزن فرض على الورى اما قد حوى اعداؤنا جبل الفتح؟
حرام علينا البشر والسبح بعده وفي القلب من الامة أعظم الجرح
راجع (محمود مكي : عبد الكريم بن محمد القيسي آخر شعراء الاندلس ، مجلة
العربي اكتوبر سنة ١٩٦٧ .

العداء القائم بين هاتين الدولتين كما سبق أن أشرنا • وبالفعل كان أول شيء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان ، هو تصفية مسلكة غرناطة وإزالة الحكم العربي من أسبانيا نهائيا • وقد اتبعا في ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة ، وإثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى •

ولما شعر سلطان غرناطة أبو الحسن على (٦٦٦-٨٩٠ هـ = ١٤٦١ م) بهذه النية المبيتة ضد مملكته ، امتنع عن دفع الاتاوة التي كان يؤديها للملوك أسبانيا في كل سنة وقال لرسول الملك فرناندو : « قل لمولايك ان سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الاتاوات قد ماتوا ، وان دار الضرب بغرناطة لا تطيع الآن ذهباً أو فضة ، واننا سيوفا ورماحا » • وقد أثارت هذه الاجابة غضب الملك فرناندو ، فصاح قائلاً :

Granada, Granada, le arrancaré los granos uno a uno

« اي غرناطة ، سوف انتزع حباتك واحدة واحدة ! »

ويلاحظ ان المعنى هنا مجازي لان كلمة Granada أي غرناطة معناها بالاسبانية الرمانة ولهذا فهو يقصد بانتزاع حباتها أي حصونها واحدا بعد الآخر (١) •

وبدأت الحرب باستيلاء الغرناطين على حصن الصخرة Zagra في الاراضي القشتالية سنة ١٤٨١ م • ورد الاسبان باحتلال مدينة الحمة

(١) راجع التفاصيل في (Miguel Lafuente Alcantara : Historia de Granada, III, p. 357 (Grandal 845) & W. Prescott : History of the reign of Ferdinand and Isabella, p. 182 London 1895) .

Alhama^(١) على مقربة من مدينة غرناطة نفسها سنة ١٤٨٢ م وحاول السلطان أبو الحسن أسترداد هذا الموقع الهام ولكنه لم يقدر ، واستمرت الحرب بين الجانبين عشر سنوات تخللتها ثورات وحروب داخلية بين المسلمين زادت من ضعف قوتهم . فتروى المصادر أن السلطان أبا الحسن كان متزوجا بابنة عمه عائشة وله منها ولدان : أبو عبدالله محمد المعروف في المصادر الاسبانية باسم Boabdil ، ويوسف . ثم اصطفى على زوجته امرأة أسبانية كان قد أسرها في إحدى غزواته اسمها ازابيل دى سوليس Isabel de Solis ، وكان أبوها ضابطا في الجيش الاسباني يدعى سانشو خيمينث دى سوليس Sancho Jimenez de Solis . ثم اعتنقت ازابيل الاسلام واتخذت اسما عربيا وهو ثريا . وقد أثار حب السلطان لها غيرة زوجته الاولى ، فوقع نزاع بينهما ، واضطرت الاميرة عائشة الى مغادرة قصر الحمراء بولديها والاقامة في حي البيازين ثم لم يلبث الولدان بعد ذلك ان فرا الى مدينة وادي آش واعلنا الثورة على أبيهما وقامت حرب ضروس بين الاب وولديه مات فيها ابنه يوسف ثم انضمت العاصمة غرناطة الى ابنه الآخر ابي عبدالله محمد وكانت عائلة بنى السراج Abencerrajes هي عماد هذه الحركة ، فاستدعت الامير محمد وأقامته

(١) اشتهرت هذه المدينة بمياهها المعدنية وحماماتها التي كانت تدر عليها دخلا كبيرا ، وقد احتلها مركيز فادس غيلة وغدرا ولهذا رثاها الكثيرون بمقطوعات شعرية عربية ورومانسية اي اسبانية . وقد أورد المؤرخون الاسبان أمثلة من هذا الشعر الرومانسي مثل المقطوعة التي قيلت على لسان ملك غرناطة وفيها يقول في مطلعها : Ay de mi Alhama اي « ولى على الحمة » .

راجع (Perez de Hita : Guerras civiles de Granada I. p. 252)
(Madrid 1913) & Prescott : Op. cit, 186.

راجع كذلك (كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر المؤلف مجهول ص ٦ وما بعدها ، نشر الفريد البستاني وكارلوس كروس ، المرائش ١٩٤٠) .

سلطانا بعد أن طردت أباه من العاصمة سنة ١٤٨٢ م . ولجأ السلطان
المخلوع ابو الحسن الى مدينة بسطة Baza حيث انضمت اليه عائلة
الثغرين Zegries أعداء بنى السراج ^(١) .

وحدث بعد ذلك ان وقع السلطان أبو عبدالله محمد أسيرا في يد
الاسبان اثناء قيامه بغارة في أراضيهم سنة ١٤٨٣ م (٨٨٨ هـ) . وكان
أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين في الاندلس لا من حيث أسره نفسه
ولكن من حيث ان الملكين الكاثولكيين استطاعا أن يستذلا نفسه ، ويصغرا
اليه ملكه وملك أبيه مرة بالتهديد ومرة بالوعود والاماني حتى ذل عنقه .
وأصبح آلة في أيديهما ، ثم أطلقا سراحه ، فعاد الى غرناطة ليواصل حرب
أبيه الذي استرد عرشه . وما لبث ابو الحسن ان مات هما وكندا بعد أن
أصيب بالعشى والصرع ، وخلفه في الملك أخوه أبو عبدالله محمد بن سعد
الملقب بالزغل سنة ١٤٨٥ م (٨٩٠ هـ) ^(١) .

ولقد استغل الاسبان فرصة انشغال المسلمين بالحرب التي قامت بين
الزغل وابن أخيه ابى عبدالله ، واستولوا على الاجزاء الغربية من مملكة

(١) يلاحظ ان الثغرين وبنى السراج بيوتات عربية أندلسية قديمة ، وقد سبقت
الإشارة الى ان بنى سراج كانوا من اصل يمني وان الامويين في الاندلس قد عهدوا اليهم
حراسة السواحل الشرقية . أما الثغريون فنسبة الى منطقة الثغر الأعلى في شمال اسبانيا
ثم انتقلوا الى غرناطة بعد سقوط بلادهم ويلاحظ ان النهر المعروف الآن باسم Segre
أحد فروع الإبرو هو الذي كان يسميه المسلمون وادى ثغر لانه كان يروى منطقة الثغر الأعلى
التي كانت قاعدتها سرقسطة .

راجع تفاصيل المنازعات بين بنى السراج والثغرين في :

(Perez de Hita : Op. cit. I. p. 41 y Sig) .

(١) راجع نبذة العصر في أخبار بنى نصر ص ١٠ وما بعدها ، عبد الحميد العبادي
المجلد في تاريخ الاندلس ص ١٩٢ .

غرناطة مثل رندة Ronda ولوشة Loja ، ومالقه ، فيما بين ستنى
١٤٨٥ - ١٤٨٧ م (٨٩٠ - ٨٩٢ هـ) •

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغل وابن أخيه اقتسام ما بقى
من بلاد خوفا من تبادى العدو في احتلالها • وتم الاتفاق على أن يستقر
الزغل في مدينة وادى آش Guadix وتتبعه الاجزاء الشرقية من غرناطة ،
بينما تكون العاصمة وأعمالها لابن أخيه ابى عبدالله Boabdil •

غير أن الاسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم ، فأرسلوا الى الزغل
من يعرض عليه وعلى قواده مالا كثيرا في مقابل تسليم الاجزاء الشرقية
من غرناطة التي تحت سلطانه • وأثر ذلك الارهاب والترغيب في نفس
الزغل لا سيما بعد أن تخلى عنه قواده ، فأثر التسليم والرجل الى فاس •
ولكن سلطان المغرب محمد الشيخ نقم عليه فسجنه وصادر أمواله وسمل
عينه •

أما أبو عبد الله محمد ، فانه ظن في بادىء الامر أن الجو قد صفا
له بذهاب عمه ، ولكنه سرعان ما تكشفت له الحقيقة عندما طالبه الملك
فرناندو بتسليم عاصمته غرناطة ، عندئذ صمم على القتال حتى النهاية وأيده
في ذلك أهل غرناطة (١) •

ولجأ الملك فرناندو الى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة
كى يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعا • فحاصر المدينة سنة ١٤٩١ م
(٧٩٦ هـ) ، وأفسد مروجها ، وبنى أمامها مدينة أطلق عليها أسم شنتفى

(١) كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر ص ٢٧ ،

علي مظهر : محاكم التفتيش ص ١٤ - ١٥

Santa Fé أي الايمان المدةس لتكون قاعدة لعلياته العسكرية (١) ويقول
 السلاوى في هذا الصدد : « وعلى الرغم من ذلك كله كان الطريق بين
 غرناطة والبشرات Alpujarras متصلة بالمرافق ، والطعام يأتي من ناحية
 جبل شلير Sierra Nevada الى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد .
 ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد
 الغلاء ، وعظم البلاء ، ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد
 الامر في شهر صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر ١٤٩١ م) ، فاجتمع ناس
 مع من يشار اليه من أهل العلم كأبى عبدالله الموافق شارح « المختصر »
 وغيره ، وقالوا « أنظروا لانفسكم وتكلموا مع سلطانكم » . فاحضر
 السلطان أبو عبدالله بن أبى الحسن أهل دولته وأرباب مشورته ، وتكلسوا
 في هذا الامر ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا ، فانظروا
 لانفسكم وأولادكم . فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع
 أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الاجناد في اسلام البلد خوفا على
 نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطا أداروها وزادوا أشياء
 على ما كان في صلح وادى آس ، منها : أن صاحب رومة (البابا) يوافق
 على الالتزام والوفاء بالشرط اذا مكنوه من حمراء غرناطة ، ويحلف على
 عادة النصارى في العهد . وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء
 أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك ، امتن عليهم النصارى بسال
 جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة
 فانقادوا اليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم
 ونزل سلطان غرناطة أبو عبدالله عن الحمراء ، واستولى النصارى عليها
 في ربيع الاول سنة ٨٩٧ هـ (يناير ١٤٩٢ م) ، ولا حول ولا قوة الا

والجدير بالذكر أن غرناطة اتجهت الى مصر تلتبس معوتها امام
الخطر الواقع بها ، ومثال ذلك السفارة التي أوفدها سلطان غرناطة محمد
ابن يوسف الايسر الى سلطان مصر الظاهر جقمق سنة ١١٤٠ م (٨٤٤هـ)
كذلك نذكر سفارة الفقيه الاندلسي ابي على بن محمد بن الازرق الذي
حاول أن يستنهض عزائم السلطان الاشرف قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٥ م)
لاسترجاع الاندلس (٢) .

والواقع ان مصر لم يكن في مقدورها القيام بعمل عسكري في اسبانيا
وعذرهما في ذلك واضح كما يقول احد الكتاب المعاصرين ، « لحيلولة
البحر مع بعد المسافة ، والاحتياج لكثرة المراكب . ولم يكن لملوك مصر
عناية بأمر الشحنة لانهم أصحاب خيل ، فقوتهم برية وليست بحرية » (٣)
ولكن على الرغم من ذلك ، فان بعض سلاطين مصر حاولوا انقاذ غرناطة
عن طريق الضغط الدبلوماسي ، ومثال ذلك تلك السفارة التي أرسلها
السلطان قايتباي في سنة ١٤٨٩ الى الملكين الكاثوليكين ، يهدد فيها
باضطهاد المسيحيين الموجودين في الشرق ان لم يكف عن مهاجمة غرناطة .
غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م (٨٩٧هـ)
ولم يفت الملكان الكاثوليكيان أن يبعثا بسفارة الى سلطان مصر قنصوه
الفورى سنة ١٥٠١ م واستطاع السفير الاسباني بدور مارتير Pedro
Nartir أن يسترضى سلطان مصر ويزيل التوتر السياسي بين مصر

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٤ ص ١٠٢ - ١٠٤ وكذلك نبذة العصر ص ٢٩ - ٤١ .

(٢) عبد العزيز الاهواني : سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ ،

مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة المجلد السادس عشر ، مايو سنة ١٩٥٤ .

البحرية الاسلامية - ٢٤

(٣) المرجع السابق

وأسبانيا (١) .

هذا والجدير بالذكر ان هذه الاحداث المتعلقة بنهاية الحكم العربى في أسبانيا ، قد اقترنت بحركة الاستكشافات الجغرافية الكبرى . ففى نفس تلك السنة (١٤٩٢ م) التي سقطت فيها غرناطة ، اكتشف كرسstof كولبس أمريكا بمساعدة ملكى أسبانيا . ولم تلبث البرتغال بعد خمس سنوات أن اكتشفت طريق الهند من رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م على يد فاسكودى جاما .

وقد استعان كل من الرحالتين بالعرب ليهتدى طريقة في مجاهل المحيط الاطلنطى والمحيط الهندى . وفي نفس تلك السنة ١٤٩٧ م تظاهر الاسطول الاسباني بأنه يعد العدة في جبل طارق لرحلة كرسstof كولبس الثانية الى أمريكا ، ثم أبحر سرا الى القاعدة المغربية مليلة Melilla واستولى عليها في سبتمبر سنة ١٤٩٧ م تحت قيادة دوق مدينة سدونيا دون خوان دى جثمان Don Juan de Guzman (٢) .

وهكذا لم تعد أهمية مضيق جبل طارق قاصرة على البلاد المطلة عليه من الشمال او الجنوب ، بل صار ممرا حيويا بين الشرق والغرب أو بين العالم القديم والعالم الجديد وبهذا يدخل النزاع في دور جديد .

(١) انظر M. Abbady : Algunos aspectos de las relaciones hispano-egipcias, Boletín de la embajada de Egipto en Madrid, 23 Julio 1952 — 1953 .

(٢) De Castries : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Espagne Tome I p. 4 — 5 (Madrid — Paris 1921) .

ضميمة

صورة من كفاح مدينة المرية ضد الهجوم الفاشم الذي شنه عليها
خايمي الثاني ملك أراجون (أرغون) سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) (١) .

وفي هذه السنة (٧٠٩ هـ) في يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الاول
منها بموافقة شهر غشت (أغسطس) من الشهور العجمية في أول دولة
أبى الجيوش نصر ، حاصر البرشلونى المرية وكان قائد الجيوش
عليها القائد أبو مدين شعيب ، وعلى البحر القائد أبو الحسن على الرنداحى .
والبرشلونى المذكور طاغية ارغون خذله الله وصل عشية يوم الاثنين ثانى
الشهر المذكور الى طرف الفنت (Alfunt) من ساحل المرية الشرقي في
ثلاثمائة قطعة بين صغار وكبار حرية وسفرية ، فحط هنالك وبات في
أجفانه . فلما كان من الغد يوم الثلاثاء ، أنزل الخيل والعدد والازواد
بتلك المواضع من طرف الفنت الى الموضع المعروف ببركة الصفر وانتهى
الفرسان والرجال بفحص المرية وخارجها .

وفي الحين أمر القائد أبو مدين بهدم ما قارب الاسوار من المباني بخارج
البلد ، فهدمت وسويت بالأرض ، وسدت أبواب البلد بالبناء الا ما

(١) ورد هذا النص في كتاب درة الحجال في غرة اسماء الرجال (ج ١ ص ٧١ - ٧٩)
لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبد الرحمن بن أبى العافية الكتانى المعروف
بأبن القاضي ولد سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٢ م) وتوفي ودفن بباب الجيسة بفاس سنة ١٠٢٥ هـ
(١٦١٦ م) وصلى عليه المؤرخ المشهور أحمد القرى صاحب كتابي نفع الطيب وأزهار الرياض
(ت ١٠٤١ هـ) . وقد نشر كتاب درة الحجال س . علوش في جزئين (الرباط ١٩٢٤) .
ونظرا لنفرة هذا الكتاب رأينا نقل هذا النص كضميمة لأهميته ، علما بأنه سبق ان ترجم
الى الفرنسية والاسبانية كما هو مذكور في ص ٢١٨ .

دعت الضرورة لتركه . وهيئت الاسوار للقتال ، ولازمها الرماة والرجال .

وفي يوم الاربعاء ثانى يوم نزولهم ، احتفل النصارى في أحفل زي . وأتوا يضربون الابواق والطبول ، حتى انتهوا الى أسوار البلد مما يلي الرجل ، فقاتلوا البلد قتالا عظيما ، وتكالبوا عليها تكالبا شديدا . وقد كان المسلمون على غير تعبئة لخروجهم من البلد طمعا في دفاع النصارى عند اقبالهم لعدم الخبرة بحالهم ، ففروا أمامهم الى البلد ، ولجؤوا الى الاسوار ودافعوهم بالقتال والسهم عن البلد، وعصم الله وهو نعم النصير .

وفي يوم الخميس خامس الشهر المذكور ، وصل الشيخان ابو العباس ابن احمد بن طلحة وأبو عبدالله محمد بن ابى بكر في نحو مائة وخسين فارسا ، وكان أولادهم بالمرية ، فلما رأهم النصارى وقد أطلوا خرجوا اليهم في خيلهم ورجلهم ومعهم الطاغية ملكهم ، فصر الغزاة القادمون لقتالهم أعظم صبر ، وتجلدوا على جلادهم غاية التجلد ، واقتحموا على رغم أنوفهم حتى دخلوا البلد بعد أن هلك من خيلهم تسعة وما نقص منهم عدد ، فكانت هذه الكائنة مما أكدت النصارى وأدخلت عليهم حزنا ، وفاد المسلمون بأعظم المدد . وفي سائر هذا اليوم وصلت جيوش النصارى على البر بما عم السهل والوعر من الخيل والرجال ، فأحذقوا بالبلد أحداق الهالة بالقصر ، والاكمام بالشر ، وقد كان لحق أهل المرية لأول حصارهم دهش فلما ناشبوهم القتال ، واستقربهم النزال ورأوا أن الحرب سجال ، انبسطت للقتال نفوسهم ، واثارت للحرب عزائمهم ، وأفرس رماتهم ، واتصر حماتهم ، وصاروا يبادرون الحرب ولا يهابون الطعن والضرب ، وأخذ النصارى نفوسهم لأول الحصار بالمواظبة على القتال ، والمصابرة بالنزال ، قلما ذهب لهم يوم الا بقتال جديد ، وجعلوا يرتبون الرجال نطاقا على البلاد ويضربون الطرق ، ويحافظون على الرتب .

ومهما ظهر لهم موضع راحة للبلاد او مسلك دخول أو خروج بادروا اليه لیسدوه ، ونصبوا المجانيق وضيقوا الحصار وفتحوا الى الحرب الابواب .

فلما كان يوم الاحد ثامن ربيع الاول المذكور ، احتفل الطاغية في مواكبه وجنوده وراياته وبنوده ، وأقبل نحو البلد في عدد كثير حتى وافى باب بجانة ، وهناك أكثر نزولهم ومعظم قتالهم ، فأفاضوا في المقاتلة ، واستقبلهم المسلمون بأشد المدافعة ، وكذا كانت الحروب بينهم في عامة الايام .

وفي يوم السبت الرابع عشر من الشهر المذكور ، أقبل جيش المسلمين من حضرة غرناطة طامعا في نصره البلد ودفاع العدو عنها ، فخرج الطاغية والتقى الجمعان فكانت الكرة على المسلمين وقتل كثير من الرجال والفرسان . وفي خلال ذلك خرج جمع من أهل البلد ، فاختلفوا الى محله النصارى ، فنهبوا منها كل ما قدروا عليه .

وفي يوم السبت الحادى والعشرين ، ضربوا ناقوسهم الكبير وكانوا لا يضربونه الا لركوب طاغيتهم ، ودخلوا في السلاح بأجمعهم وأقبلوا محدقين بالبلد من جميع جهاته ، وأعدوا للقتال أبراجا سامية من الخشب تندفع على عجلات ، وشحنوها بالرجال ، وهيؤوا سلاييم عالية على الاسوار ، وأقبلوا يتقدمهم الرجال والرماة ويتلوهم الفرسان ، وفرقوا ذلك على البلد فدافعهم المسلمون وطرحوا عليهم الزفت والقطران ، ورموا بالنيران حتى فر النصارى عنها وتسكن المسلمون من كثير منهم ، وكان هذا اليوم من الايام العظام .

وفي أول شهر ربيع الاخير ، أقبل جيش من حضرة غرناطة الى مرشانة (Marchena) ليرتبوا بها ، فضيقوا على النصارى تصرفاتهم .

وكانوا (اى النصارى) يخرجون من محلتهم صبيحة كل يوم في جبع وافر من الفرسان يتجمعون من الوادي على دوابهم أنواع العصير ^(١) وضروب الفواكه ، ويجلبون الخشب لابنتهم ، والحطب لوقودهم . فخرجوا على عادتهم يوم الاربعاء عاشر شهر ربيع الاخير ، فلما بلغوا الوادي خرجت عليهم كمائن المسلمين فانهزموا أمامهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنوا دوابهم واسلحتهم ، وكان عليهم في ذلك بوار وانكسار .

وفي يوم الجمعة الثاني عشر لشهر ربيع الاخير ، أقبل جيش المسلمين وعليهم الشيخ أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء فانبرت اليه جيوش النصارى وتلاقوا بمواضع خارج المدينة فكانت الدائرة على النصارى وقتل جماعة من زعمائهم وقتل الفرس تحت الشيخ ابي سعيد ، لكن نجاه الله تعالى وسلمه . ولما ضاقت صدور النصارى بالحرب وفشى فيهم القتل في الايام الفارطة ، عزموا على المكيدة ، فخرجت فرقة من فرسانهم ليلا وأبعدوا عن المحلة . فلما كان من الغد يوم الاحد الرابع عشر من شهر ربيع الاخير ، أطللوا في زى جيوش المسلمين ، عليهم البرانس . وعندما تظاهروا للمحلة ، ركب الجيش اليهم على حال استعجال ، وخلفوا اخبتهم ليس فيها أحد يستدرجون أهل البلد للخروج اليهم وقد رصدوا بها المكامن ، وعملوا عليها الخيل ، ونصبوا اليهم الحبال . ولما بصر المسلمون بظاهر الحال ، ولم يكن عندهم شعور بالمكيدة ، رفعوا الاعلام في الاسواق ، وخرج الفرسان وقائد البحر وجماعة من أعيان المرية قاصدين نحو الاخبية لينهبوها ، ثم أن الله سبحانه صرفهم عنها ، فرجعوا الى جبل المرية ليتدووا بها هنالك من الاخبية ، اذ كان أهلها من شرارهم . ولما شاهد أرباب الكمائن ذلك من فعل المسلمين ، حسبوا أنهم فطنوا للمكيدة ، وأن

(١) تطلق كلمة العصير على العنب ، وعلى التين الرطب ايضا .

تعريجهم انما كان طلبا لنجاتهم ، فانبروا من مكانهم وأرادوا قطعهم عن البلد ، فسقط في أيدي المسلمين واتفق أن فتح في تلك الجهة باب أمس ذلك اليوم ، فلجئوا اليه ، فاقترحوا عليه ، ومن انقطع منهم عاذ بالسور ودفع عنهم بالنبل ، ودلى لهم الواح وتستروا بها حتى ارتفع القتال ، لحقوا بالبلد وصرف الله مكرهم •

وفي يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر ربيع الاخير ، عملوا الحيلة في اقامة الواح عظام عالية بموضع يعرف بالاسبد على قرب من البلد ، ووصلوا بينها بمسامير الحديد ، وجعلوا يبنون خلفها ، فعظم الامر في ذلك على المسلمين ، وأقبلوا يحاولون تحريقها ، فيسر الله تعالى عليهم ذلك بعد جهد عظيم •

وفي يوم السبت الموافق العشرين للشهر المذكور ، كان القتال في البر والبحر ، وركب الطاغية في أسطوله في البحر ، وفرق جيشه على كل جهة من جهات البلد في البحر والبر ، وأقبلوا جميعا على القتال ، وقد أعدوا من الابراج والصلاليم ما يضيق عنه نطاق الاحتياط ، وصاروا لا يدفعهم قتال وضاق الحال بالمسلمين ، وانسدت باب الحيل ، فصرخ بهم صارخ أن بادروهم بطرح العذرة ^(١) فهو أعظم نكايه لديهم • فبادر الناس في الحين لتناول ذلك وحمله ، فوضعوا الشيء في محله ، وقارنوا الشكل بشكله ، ولا يحق المكر السيء الا بأهله ، فكان الفارس منهم في أجمل حال في زيه ، واذا هو مكسو ثوب العذرة فيصير مسخرة بينهم ، وكان ذلك أدهى عليهم من القتال ، وفرج الله من شدة تلك الحال •

وفي يوم الاربعاء العاشر لحمادى الاولى ، وصل جيش المسلمين من

(١) العذرة : الغائط

الحضرة في خيل ورجل كثير ، فأقبل الفرسان من جهة المناظر ، وأقبل
الرجالة من جهة الجبل وكان التقدم للرجالة ، فرجعت اليهم طائفة من
فرسان النصارى ، فلم يستطيعوا صبرا على مقاتلتهم ، فانهزموا أمامهم .
ومضت عليهم سيوفهم •

وكان من لطف الله تعالى ان خرج طائفة من المسلمين من البلد الى
ما يليهم عند زحف النصارى الى المنهزمين ، فاحرقوا بعض أخبية محلة
النصارى وكثيرا من بيوتهم ، فصعد دخانها في الجو • وعندما شاهد ذلك
مقاتلة النصارى ، أنصرفوا نحوه يظنون ان محلتهم أضرت في جسيما
النيران ، فكان ذلك للمنهزمين سببا لرفع السيف عنهم • ولما انتهى فرسان
المسلمين للحفير الذي أحترقه النصارى على محلتهم وعليه طاغيتهم بجنده
توقفوا عن مخالطتهم حتى فرق الليل بين الفريقين من غير قتال • وصار
هذا الجيش من المسلمين بعد ذلك يرتب مرشاة ، فيأتون في أكثر الايام
الى محلة النصارى يناهشونهم ويضاربونهم • وخف ذلك القتال عن البلد ،
فكانوا لا يقتلون أهل البلاد الا في اليوم الذي لا يأتي فيه جيش
المسلمين •

وفي صبيحة يوم الجمعة الثالث لجمادى الاخرة ، رام النصارى غدر
البلاد من ناحية جبلها ، فأتوا في عدد موفور بسلايم عالية ، فرفعوها حتى
ألصقوها بالسور ، ووثبوا يصعدون فيها ويرتقون عليها • ولم يكن في
تلك الجهة للاتفاق غير رجل واحد من المسلمين ، فصاح بالناس فسارعوا
اليه يتصايحون حتى غطت الاسوار باناسها ، وضاعت عن أهلها ، فدفعوهم
وفتح الباب هنالك ، فخرجت منه طائفة من المسلمين ، فقلبوهم ، وقتلوا
رئيسا من زعمائهم فيمن قتل •

وفي عشية يوم الخميس التاسع من الشهر المذكور ، عملوا الحيلة على غدر هذه الجهة من العرقوب مرة ثانية ، وظنوا اخلاءها من الناس ، وقد كان ناسها استشعروا الحذر من الغدرة الاولى ، ففطنوا لهم وتصايحوا ، فاجتمع الناس اليهم ، وفتح الباب هنالك فتمكنوا منهم وظفروا بعدد منهم .

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين لرجب ، سقطت ستارة من السور فاتدب النصارى اليها وتهالكوا عليها وتقاتلوا قتالا مستمرا بطول اليوم ، وهو آخر قتال كان بينهم وبين أهل البلد ، الى أن ارتحلوا .

وانما أطلت بهذا الحصار ، لما فيه من العبرة لاولى البصائر والابصار وكانت عدة فرسانهم ثلاثة آلاف فارس منها ألف مدرعة وأربعمائة مبرقة ، وأما الرجالة فلا يحصون كثرة ، هلك من جميعهم في هذا الحصار تسعون ألفا قتل منهم أهل المرية بطول الحصار أربعة عشرة ألفا من الزعماء ، وسبعمائة من الفرسان ، وعشرين ألفا من الرجالة ، والسائر قتلهم جيش المسلمين ، وعدة أخبيتهم نحو الثلاثمائة ، وأما القياطين والبيوت مما لا يأخذه حصر ، وعدة المجانيق التى نصبوا للرجم أحد عشر منجنيقا رعادة تدور بالبلد ، وينقل بعضها من دفعة لآخرى : منها ما يرمج أسوار البلد ، ومنها ما يرمج داخل البلد ، ومنها ما يرمج القصبة . ومعظم تسلطهم وكلبهم على أسوار العرقوب . وعدة الحجرة التى رمت بها المجانيق بطول الحصار أثنان وعشرون ألفا أنظر لحكمة الله ، كان عدد موتاهم أضعافا للاحجار المرمى بها من حجر يزن ثلاثين الى حجر يزن خمسة وعشرين (رطلا) .

وكان لاهل البلد منجنيق يرمون بها برا وبحرا بحسب الحاجة .
فلما تكسرت لحجر أصابها ، صنعوا ثلاثة مجانيق أخرى .

ومن أسباب عصمة الله تعالى لاهل البلد في هذه المدة ، ما توفر لمخازن قصبته من الشعير الكثير ، وصاروا يغرمون ذلك بحسب رطل لكل نفس بسوم قيراط واحد للرطل من غير تفرقة بين قوى وضعيف . وأنهى ما بلغ اليه الرطل من القمح ثلاثة دراهم ، والخبز منه احدى عشرة اوقية بدرهمين ، وعدة من استشهد من أهل البلد لطول الحصار مائة وتسعة وخمسون ، منهم امرأتان وسائرهم رجال . ثم ارسل الله الريح الغربية مدة شهرين ، فمنعت أجفانهم السير ، وقطعت عنهم المير حتى عمهم الجوع ، فأجابوا الى الصلح على مال التزم لهم ، فوصل الحمام الى المرية مبشرا بذلك ، وذلك يوم الاحد الحادي والعشرين لرجب من السنة (٧٠٩ هـ) .

وقد أنف من ذلك جيوش قشتالة ، ووثقوا أثقالهم في المراكب ، وما عجزوا عنه أضرموا فيه النيران ، وبقي منهم طائفة بعد ذلك ضاقت عليهم الاجفان فأقاموا تحت الذمة ورحلت المحلة بطاغيها المخزي في غضب الله الى لعنة الله وسوء المصير وذلك يوم الخميس الثاني والعشرين من شعبان منها فكانت مدة الحصار الى مدة التمام ستة أشهر غير أيام .

وفي شهر رمضان من السنة المذكورة ، حشد أهل بادية المرية لهدم ما بقى بعد الحصار بخارج البلد من الحيطان والابنية خوفا مما كان يتحدث به من عود الطاغية البرشلوني اليهم . ونزلوا عليها كرة أخرى فامتنعت الى أن حل قضاء الله وقدره ، وكان أمر الله قدرا مقدورا وانسا ذكرناه للاعتبار في مقدمات الله .

مراجع القسم الثاني

أولا : المصادر العريضة القديمة

- أحمد بابا : أبو العباس أحمد بابا التمبكتي . (١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م)
 - نيل الابتهاج بتطريز الديباج .
- كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة ١٣٢٩ هـ)
- ابن الآبار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله : (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)
 - التكملة لكتاب الصلة — نشر كوديرا .
- الجزءان الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الاندلسية . (مدريد ١٨٨٧)
- ذيل كتاب التكملة — نشر جو ثالث بالثيا . (١٩١٥)
- ذيل كتاب التكملة — نشر محمد بن أبي شنب وألفرد بل (الجزائر ١٩١٩ م)
- الحلة السيرة : جزءان ، نشر حسين مؤنس . (القاهرة ١٩٦٣م)
- ابن الاثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري . (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م)
- الكامل في التاريخ . (القاهرة ١٣٠٣ هـ)
- الادريسي : أبو عبدالله محمد الشريف السبتي . (ت حوالي ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م)

— المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس — عن نزهة المشتاق
في اختراق الآفاق — نشرة وترجمة الى الفرنسية دوزى ودى خوييه •
(ليدن ١٨٦٦)

اختراق الآفاق نشر هنرى بيريس • (الجزائر ١٩٥٧)

— وصف الاندلس — نشره وترجمه الى الاسبانية كوندى Conde
(مدريد ١٧٧٩) :

— ابن الاحمر : أبو الوليد بن الاحمر • (ت ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م)

— مستودع العلامة ومستبدع العلامة — نشر محمد التركي ومحمد
ابن تاويت (تطوان ١٩٦٤)

— روضة النسرين — طبعة القصر الملكي • (الرباط ١٩٦٢)

— ابن بسام : أبو الحسن على الششتري • (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٧ م)

— الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة • (القاهرة ١٩٤٥)

القسم الاول في جزئين والقسم الرابع الجزء الاول (القاهرة
١٩٣٩ / ١٩٤٥)

القسم الثالث مخطوط بالاكاديمية التاريخية بمديرى رقم ١٢ •

— ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك • (ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م)

— كتاب الصلة في أئمة الاندلس — نشر كوديرا في الجزئين الاول
والثانى من مجموعة المكتبة الاندلسية • (مدريد ١٨٨٣) •

— محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى • (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)

تحفة النظر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار — الطبعة الاوربية
نشر وترجمة دفريمرى وسانجونيتتى Defremery et Sanguinetti
(باريس ١٩٢٢) •

— البغدادي : صفى الدين • (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨ م)
— مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع — ثلاثة اجزاء
(القاهرة ١٩٥٤) •

— البكرى : عبدالله بن عبد العزيز المرسى • (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤ م)
— المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب • نشر دى سلان •
(الجزائر ١٩١١) •

— أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق • (ق ٦٢هـ/١٢م)
— أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة المرحدين •
نشر لفى بروفنسال • (باريس ١٩٢٨)

— التجاني : أبو محمد عبدالله بن محمد • (ت حوالى ٧١٧هـ/
١٣١٧ م)

— رحلة التجاني • نشر حسن حسنى عبد الوهاب (تونس ١٩٥٨) •
— ابن تومرت : المهدي ابو عبدالله محمد • (ت ٥٢٢هـ/١١٢٨ م)
— موطأ المهدي : مطبعة فوتتانة بالجزائر الشرقية ١٩٠٧ — وتوجد
بالخزانة العامة بالرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب تحت رقمى
٤٨٠ ج ١٢٢٢ •

— ابن جبير : محمد بن احمد الاندلسي • (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)
— رحلة ابن جبير • (بيروت ١٩٤٩)

- الجزائى أبو الحسن على
— كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس •
نشره وترجمه الى الفرنسية الفرد بل Alfred Bel (الجزائر ١٩٢٣)
— ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين احمد بن على (ت ٨٥٢هـ /
١٤٤٩ م)
— الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء
(حيدر آباد ١٣٥٠ هـ)
— رفع الاصر عن قضاة مصر (في آخر كتاب الكندى ، الولاة
والقضاة) •
— الحميرى : عبد المنعم السبتي الحميري (ت في أواخر القرن التاسع
الهجرى)
— الروض المطار في أخبار الاقطار ، نشر وترجمة ليفى بروفنسال
(القاهرة ١٩٣٧) •
— ابن حوقل : ابو القاسم محمد بن على البغدادي النصيبى
(ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠ م)
— صورة الارض (طبعة بيروت)
— ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الاشيلي
(ت ٥٣٥ هـ / ١١٣٤ م)
— قلائد العقيان في محاسن الاعيان (القاهرة ١٣٢٠ هـ)
— ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبدالله
(ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م)

- اعمال الاعلام فيمن بويق قبل الاسلام من ملوك الاسلام
- (أ) الجزء الخاص بتاريخ أسبانيا نشره ليفي بروفنسال (بيروت ١٩٥٦)
- (ب) الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشره أحمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني (الدار البيضاء ١٩٦٤)
- نقاضة الجراب في علالة الاغتراب ، نشر أحمد مختار العبادي (القاهرة ١٩٦٧)
- الاحاطة في أخبار غرناطة .
- (أ) نسخة الاسكوريال رقم ١٦٧٣ .
- (ب) طبعة القاهرة في جزأين (القاهرة ١٣١٩ هـ)
- (ج) نشر عبدالله عنان ، القسم الاول . (طبعة دار المعارف بالقاهرة)
- ربحانة الكتاب ونجعة المتتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥)
- وقد نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة في القرن الثامن الهجري (غرناطة ١٩١٦)
- رقم الحلل في نظم الدولة (تونس ١٣١٧ هـ)
- ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)
- وفيات الاعيان وأبناء أبناء الزمان نشر محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٥٠)
- ابن خلدون: (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر — (بولاق ١٢٨٤ هـ)
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا .
- نشر محمد بن تاويت الطنجي . (القاهرة ١٩٥١)

- ابن خلدون : (أبو زكريا يحيى) (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م)
— بغية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد — نشره وترجمه الى
الفرنسية الفرد بل Alfred Bel — الجزائر ١٩٠٣)
— ابن دراج القسطلی :
ديوان ابن دراج القسطلی نشر محمود مكى (دمشق ١٩٦١)
— ابن ابى دينار : محمد بن ابى القاسم الرعينى القيروانى)
— المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ١٢٨٦ هـ)
— ابن ابى زرع :
— الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس طبع على الحجر مرارا بفاس أولها سنة ١٨٨٥ م ثم طبعه الهاشمى
الفيلالى طبعة غير كاملة (الرباط ١٩٣٦) وقد اهتم المستشرقون بنشره
وترجمته فنشره تورنبرغ مع ترجمة لاتينية (ابسال ١٨٤٢) وترجمه الى
الالمانية دومباي سنة ١٧٩٤ والى البرتغالية مورا سنة ١٨٢٨ ، والى
الفرنسية Beaumier سنة ١٩٦٠
الزركشى : أبو عبدالله محمد بن ابراهيم اللؤلؤي
— تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩ هـ)
— ابن الزيات : (أبو يعقوب النادلى المعروف بابن الزيات)
— التشوف الى رجال التصوف .
(نشر أدولف فور ، الرباط ١٩٥٨)
— ابن أبى زمنين : أبو عبدالله محمد (ت ٣٩٨ هـ)
— قدوة الغازي
(مخطوط رقم ٥٧٥ بالمكتبة الوطنية بمديرية)
— السبتي : (محمد بن القاسم الانصارى)
— وصف سبتة (في ق ٩ هـ — ١٥ م)

- نشر ليفى بروفنسال (مجلة هسبريس ١٩٣١)
— السلاوى : (ابو العباس أحمد بن خالد الناصرى) (ت ٣١٥ هـ)
سنة ١٨٩٧ م)
— الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ٩ أجزاء
(الدار البيضاء ١٩٥٤)
— السلاوى : (محمد بن على الدكالى)
— الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز .
(مخطوط بمكتبة الرباط رقم ١٣٢٠ هـ)
— السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ ١٥٠٥ م)
— حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان (القاهر ١٣٢٧ هـ)
— تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الامة
(القاهرة ١٣٥١ هـ)
أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين الدمشقي
(ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٨ م)
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان
(القاهرة ١٢٨٧ هـ)
— الذيل على الروضتين ، نشره عزت العطار الحسيني الدمشقي
بعنوان : « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » (القاهرة ١٩٤٧)
— ابن الشباط : محمد بن على بن محمد بن الشباط المصري التوزري
(ت ٦٨١ هـ سنة ١٢٨٢ م)
— صلة السبط وسمعة المرط
نشر القسم الخاص بالاندلس ، أحمد مختار العبادي في صحيفة معهد
الدراسات الاسلامية في مدريد ، (تحت الطبع)

- الشهر ستانى : ابو الفتح محمد بن ابى القاسم (ت ٥٤٨ هـ
سنة ١١٥٣ م)

- الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨)

- ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (كان حيا سنة ٥٩٤ هـ سنة
١١٩٨ م)

- المن بالامامة على المستضعفين ، نشر عبد الهادي التازي (بيروت
١٩٦٤)

- الضبى : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبي (ت ٥٩٩ هـ سنة ١٢٠٣)

- بغية الملتبس في تاريخ أهل الاندلس (مدريد ١٨٨٤)

- ابن عذارى المراكشي : ابو العباس احمد بن محمد (كان حيا
٧١٢ هـ / ١٣١٢ م)

- البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب

(أ) الجزءان الاول والثاني (طبعة بيروت ١٩٥٠)

(ب) قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثى ميراندا في مجلة
هسبريس ١٩٦١

(ج) الجزء الرابع الخاص بتاريخ الموحدين وبداية عهد بنى مرين
نشره ويثى ميراندا ومحمد بن تاويت التطوانى وابراهيم الكتانى
(الرباط ١٩٦٣)

- العذرى : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى
(ت ٤٧٨ هـ / ٩٨٨ م)

- ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان
والمسالك الى الممالك نشر عبد العزيز الاهواني (مدريد ١٩٦٥)
- ابن العربى : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م)

— العواصم من القواصم ، نشر محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٨٧ هـ)

— ابن عربى : محيى الدين (ت بدمشق ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م)

— الفتوحات المكية في معرفة الاسرار الملكية

— العمرى : شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م)

— مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية

والاندلس ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس

— التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢)

— الغبرينى : أبو العباس احمد (ت ٧١٤ هـ / ١٣١٥ م)

— عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية نشر

محمد بن ابى شنب (الجزائر ١٣٢٨ هـ)

— الغرناطى . (الشريف أبو القاسم محمد الغرناطى) (القرن الثامن الهجري)

رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (القاهرة ١٣٤٤ م)

— ابن فرحون . ابراهيم بن على اليعمرى (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م)

الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب . (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

— ابن القاضي : (ت ١٢٠٥ هـ / ١٦١٦ م)

درة الحجال في غرة أسماء الرجال ، جزءان ، نشر علوش (الرباط

١٩٣٤)

— ابن قتيبة . (أبو محمد عبدالله بن مسلم)

الامامة والسياسة .

— القرمانى . (احمد بن يوسف)

— أخبار الدول وآثار الدول (طبعة بغداد)

— ابن القطان أبو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسى

(ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م)

- نظم الجمان في أخبار الزمان — نشر محمود مكى (الرباط ١٩٦٤)
- القلقشندى ، أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م)
- صبح الاعشى في صناعة الانشا ١٤ جزء (القاهرة ١٣٣٨ هـ)
- الكتانى • محمد بن جعفر
- سلوة الانفاس •
- ابن الكردبوس :
- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء — القسم الخاص بالاندلس نشر
- احمد مختار العبادى — صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمديرية ١٩٦٥ •
- المالقي : أبو الحسن النباهي (ت في أواخر القرن الثامن الهجرى)
- المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا نشر ليفى بروفنسال
- (القاهرة ١٩٤٨)
- نزهة البصائر والابصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣) •
- المراكشي : (عبد الواحد)
- الموجب في تلخيص أخبار المغرب — نشر سعيد العريان ومحمد
- العربي العلمي (القاهرة ١٩٤٩)
- المراكشي : ابن عبد الملك (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م)
- الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة نشر منه احسان عباس
- السفرين ٤ — ٥ ويقوم بنشر السفر الاول محمد بن شريفة •
- ابن مرزوق : الخطيب ابو عبدالله محمد العجيسي التلمساني
- (ت ٧٨١ هـ)
- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا ابى المحسن — نشر ليفى
- بروفنسال نخبا منه في مجلة هسبريس ١٩٢٥ •
- الميعودى : محمد الباجي
- الخلاصة النقية في أمراء أفريقية • (تونس ١٣٢٣)

المقرى : شهاب الدين أبو العباس احمد بن محمد التلمسانى
(ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م)

— أزهار الرياض في أخبار عياض نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا
وابراهيم الاييارى وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٩٤٢)

— نفع الطيب من غصن أندلس الرطيب • عشرة أجزاء

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٠٢ هـ •

— المقرئى : تقى الدين أبو العباس احمد بن على (ت ٨٤٥ هـ -
١٤٤١ م)

— السلوك لمعرفة دول الملوك : نشر محمد مصطفى زيادة
(القاهرة ١٩٣٦)

— المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠)

— انعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء نشر جمال الدين

الشيال • (القاهرة ١٩٤٨) •

— مؤلف مجهول :

— نبذة العصر في أخبار ملوك بنى نصر — نشر ألفريد البستاني ؛

كارلوس كيروس العرائش ١٩٤٠ •

— مؤلف مجهول :

— مفاخر البربر نشر ليفى بروفنسال (الرباط ١٩٣٤)

— النويرى : شهاب (ت ٧٣٢ هـ سنة ١٣٣٢ م)

— نهاية الارب في فنون الادب ، مخطوط بدار الكتب المصرية

رقم ٥٤٩ ، وقد نشرت دار الكتب منه ١٢ جزءا •

— النويرى : محمد بن القاسم السكندرى المالكى (ألفه سنة ٧٧٥ هـ)

- الالمام بالاعلام لما جرت به الاحكام المقضية في واقعة الاسكندرية في سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعودها الى حالتها الاولى المرضية مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ .
- ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م) .
- معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان . في ثمانية أجزاء (القاهرة ٢٣٣ هـ ١٠)

ثانياً : مراجع عربية حديثة

- ابراهيم العدوى :
 - الامويون والبيزنطيون .
 - أحمد المكناسي :
 - المدن المدرسة في شمال المغرب .
 - أحمد توفيق المدني :
 - المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا (الجزائر ١٣٦٥ هـ)
 - احسان عباس :
 - العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والاداب - دار المعارف
- بمصر ١٩٥٩ م
- أرشيبالد لويس :
 - القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط - ترجمة
- احمد محمد عيسى
- أشباح :
 - تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة عبدالله عنان
 - أمارى ، ميشيل :
 - المكتبة العربية الصقلية - ليسك ١٨٧٥
 - جمال الدين الشيال :
 - تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي
 - جنثالث بالنشيا :
 - تاريخ الفكر الاسلامي - ترجمة حسين مؤنس ،
 - جورجى زيدان :
 - تاريخ التمدن الاسلامي

- حسن أحمد محمود :
- قيام دولة المرابطين - صفحة معجدة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى
- حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن :
- النظم الاسلامية طبعة ١٩٦٢ •
- حسين مؤنس :
- فجر الاندلس •
- غارات النورماندين على الاندلس - مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد الاول ١٩٤٩
- المسلمون في حوض البحر المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ •
- خوان برنيت :
- هل هناك أصل عربي اسباني لفن الخرائط الملاحية ؟
- معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٣ - العدد الاول ، ترجمة :
- احمد مختار العبادى •
- خير الدين الزركلى •
- كتاب الاعلام القاهرة ١٩٥٩ م) •
- زكى حسن •
- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى •
- زيادة : د. محمد مصطفى
- بعض ملاحظات جديدة تاريخ دولة الماليك في مصر •
- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - المجلد الرابع - الجزء الاول
- سنة ١٩٣٦
- ابن زيدان • عبد الرحمن بن محمد

- اتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس •
- طبع منه خمسة أجزاء (الرباط ١٩٢٨ - ١٩٣٣)
- د سعد زغلول •
- تاريخ المغرب العربي •
- العلاقة بين صلاح الدين وأبو يوسف يعقوب (مجلة كلية
الاسكندرية ١٩٥٣)
- الاستبصار في عجائب الامصار لمؤلف مجهول (نشر جامعة
الاسكندرية
- د. سعيد عاشور •
- أوروبا في العصور الوسطى •
- سليمان الباروني النفوسي • (ت عام ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠)
- الازهار الرياضية في أئمة ملوك الاباضية •
- شكيب أرسلان • (ت ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م)
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر
المتوسط •
- الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية •
- العبادي : أحمد مختار العبادي
- سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس (صحيفة معهد الدراسات
الاسلامية مدريد ١٩٥٧)
- الصقالبة في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوية (مدريد ١٩٥٣)
- الصفحات الاولى من تاريخ المزباطين - مجلة كلية آداب
الاسكندرية ١٩٦٧
- دراسة حول كتاب الحلل الموشية - مجلة تطوان العدد
الخامس ١٩٦٠ •

- الموحدون والوحدة الاسلامية • مجلة التربية الوطنية بالمسلة المغربية مارس وابريل سنة ١٩٦٢ •
- نظام الخلافة في المغرب - مجلة نبراس الفكر بتطوان ١٩٦٢ •
- العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجري - الكتاب الذهبي لجامعة القرويين بمناسبة ذكرها المائة بعد الالف (فاس ١٩٦٠)
- فترة مضطربة في تاريخ غرناطة - صحيفة معهد الدراسات الاسلامية - مدريد ١٩٥٩ •
- النزعات الاقتصادية في حياة لسان الدين بن الخطيب - مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ •
- سياسة ابن الخطيب المغربية - مجلة البيئة - الرباط مايو ١٩٦٢ •
- العبادي عبد الحميد
- المجلد في تاريخ الاندلس • (القاهرة ١٩٥٨)
- صور وبحوث من التاريخ الاسلامي • (الاسكندرية ١٩٤٨)
- عبد الحى الكتانى •
- التراتيب الادارية في المدينة المنورة العلية • (الرباط ١٣٤٦ هـ)
- عبد السلام الهراس •
- ابن اللبانة - مجلة البحث العلمى بالرباط (مايو - أغسطس ١٩٦٤)
- عبد السلام الطود •
- بنو عباد باشبيلية (تطوان ١٩٤٦)
- عبد العزيز سالم •
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس •
- تاريخ المغرب الكبير •

- عبد العزيز بن عبدالله •
- البحرية المغربية والقرصنة — مجلة تطوان العدوان ٣ — ٤
- (١٩٥٨ — ١٩٥٩)
- عبد العزيز الاهواني •
- سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ
- مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة — المجلد السادس عشر ،
- مايو ١٩٥٤ •
- عبد القادر الصحراوي :
- جولات في تاريخ المغرب (الدار البيضاء ١٩٦١)
- عبدالله جنون :
- مدخل الى تاريخ المغرب •
- النبوغ المغربي في الادب العربي •
- عبد المنعم ماجد :
- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر •
- عبد الرحمن الجيلالي :
- تاريخ الجزائر العام ١٩٥٥
- عبد الهادي التازي :
- مهدية المولى اسماعيل — مجلة المغرب مايو ١٩٦٣
- ابن العربي : (الصديق)
- دليل المغرب
- على مظهر :
- محاكم التفتيش
- عمر كمال توفيق :
- تاريخ الامبراطورية البيزنطية

- فتحى عثمان :
- الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضاري
- كليكا سارنلى :
- مجاهد العامري • (القاهرة ١٦٩١)
- لطفى عبد البديع :
- الاسلام في اسبانيا •
- محمد الخضري :
- محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية • (القاهرة ١٩١٦ م)
- محمد رضا الشيبى :
- أدب المغاربة والاندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية •
- (مطبوعات الجامعة العربية ١٩٦١)
- محمد عبد الرحيم غنيم •
- تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى •
- محمد العبدى الكانونى •
- آسفى وما اليه •
- محمد عبد الهادى شعيرة •
- الاسكندرية من العصر الاسلامى الى نهاية العصر الفاطمى
- (كتاب الغرفة التجارية بمدينة الاسكندرية ١٩٤٩) •
- محمد الفاسى :
- نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المرينى الادبية - مجلة البيئة ديسمبر ١٩٦٢ •
- الاعلام الجغرافية ، مجلة البيئة (مايو ١٩٦٢) •
- محمد المنونى •

- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين •
- نظم الدولة المرينية — مجلة البحث العلمى — مايو سنة ١٩٦٤
- الرباط •
- محمد ياسين الحموى ،
- تاريخ الاسطول العربى •
- محمود مكى :
- التشيع فى الاندلس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية
- بمدريد ١٩٥٤ •
- تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالاندلس — نشر
- محمود مكى بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧
- عبد الكريم بن محمد القيسي آخر شعراء الاندلس — مجلة
- العربى ، اكتوبر ١٩٦٧
- الميلى (مبارك بن محمد الهلالى) :
- تاريخ الجزائر فى القديم والحديث
- هونيرباخ : (فلهلم)
- البحرية العربية وتطورها فى البحر المتوسط فى عهد معاوية —
- نطوان ١٩٥٤

ثالثاً : مصادر أوربية

Abbady : « A. Mokhtar » :

Algunos aspectos de las relaciones historicas hispano -
egipcias, Boletin de la embajada de Egipto en Madrid
23 Julio, 1952 - 1953.

Aguado Bleye, «Pedro» :

Manual de la Historia de Espana, 2 tomos.
(Madrid 1944 - 1954)

Alarcon Y. Linares :

Los Documentos árabes diplomaticos del Archivo de la
corono de Aragon.
(Madrid - Granada 1940)

Albornoz : «Sanchez». :

La Espana Musulmana, 2 Tomos.
(Buenos Aires 1946).

Alcover : «B. Miguel». :

El Islam en Malloca.
(Palma de Mallorca 1930).

Alfonso el Sabio :

Primera Cronica General de Espana. Publicada por,
Ramon Menendez Pidal.
(Madrid 1955).

Alfonso Gamir Sandoval :

Organizacion de la defensa de la Costa del reino de Granada desde su reconquista hasta finales del Siglo XVI.

Alfred Bel :

Les Banou Ghanya.
(Paris 1903)

Ali Fahmy :

Muslim sea power in the Eastern Mediterranean from the seventh to the tenth century. A. D., (1950).

Angel Canellas :

Aragon y la empresa del Estrecho en el Siglo XIV.
Estudios de edad media de la corona de aragon. seccion de Zaragoza vol. 11 (Zaragoza 1946)

Amari M. :

Conforti Folitici, Firenze 1851

Argote de Molina :

Nobleza de Andalucia.
(Sevilla 1588).

Arnold : «Thomas» :

The Caliphate.
(Oxford 1929)

Asin : «Jaime Oliver» :

Origen Arabe de Rebato.
(Madrid 1928).

Asín : «Palacio» :

— Contribucion a la toponimia Arabe de Espana.
(Madrid - Granada 1944)

— El Islam cristianizado «Madrid 1931»

Ballesteros : «A.» :

Historia de Espana. Tomo III
(Barcelona - Buenos Aires 1948).

Bargès : «l'Abbé» :

— Histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen
(Paris 1952).

— Complement de l'histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen, ouvrage du Muhammad Abd Al Jalil al Tenessi.
(Paris 1887).

Basset et Terrasse :

Tinmel (Hespéris 1924).

Berchem : Max van» :

Titres Califien d'occident Journal Asiatique. IX 1907.

Belda «Fray Jaime» :

Gronica de los Moros.
(Valencia 1618).

Brunschvig :

La Berbérie Oriental sous les Hafsidés 2 tomes.
(Paris 1940 - 1947)

Bustamante : «Perez» :

Compendio de la Hist. de Espana.
(Madrid 1928).

Caille : J.

La ville de Rabat. Histoire et archeologie.
3 tomes (Paris 1949).

Campaner A. Y Fuertes «Alvaro» :

Bosquejo de la dominacion Islamita en las Islas Baleares
(Palma de Mallorca 1888).

Company : «Antonio» :

-- Memorias historicas sobre la marina. Comercio y artes
de la Antigua Ciudad de Barcelona. Tomas III y IV.
(Madrid 1792).

-- Antiguos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes
de aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde
el siglo XIII hasta el siglo XV.
(Madrid 1786).

Carlos de Luna : «Jose»

Historia de Gibraltar.
(Madrid 1944).

Gascales : «Francisco»

Discursos historicos de la muy noble Ciudad de Murcia.
(Murcia 1621).

Codera «F»

Mochehid Conquistador de Cerdana, centenario della

nascita di Michele Amari.
(Palermo 1910).

Concise Encyclopaedia of Arabic civilization.
(Djambatan - Amsterdam 1959).

Creasy : Las batallas decisivas en la historia del mundo
(Espana 1940).

Cronicas de los reyes de Castilla desde don alfonso el sabio
hasta los Reyes Catolicos ed. Rosell.
(Madrid 1875 - 1877)

Cuartero Larrea : «Miguel»

El Salado, Revista «Ejercito» 1941, No 13.

De Castries :

~~Ed~~

Les sources inedites de l'histoire du Maroc. Portugal I.
Espagne I.
(Madrid Paris 1921).

Derenbourg «Hartwig» :

Omara du Yemen, sa vie et son œuvre, 2 tomes
(Paris 1909).

Diccionario de historia de Espana 2 tomos.
(Madrid 1952).

Dozy «R.» :

— Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne.
2 tomes.
(Amsterdam 1965) 3 ed.

— Supplement aux dictionnaires arabes, 2 tomes.
(Leiden - Paris 1927).

— Scriptorum arabum loci de Abbadides.
(Leyde 1846 - 63) .

Eguilaz y Yanguas «Leopoldo» :

Glosario etimologico de las palabras espanolas de
origen oriental.
(Granada 1886).

Encyclopaedia of Islam :

García Gomez, «Emilio» :

Cinco poetas musulmanes.
(Coleccion Austral n. 513).

Gayangos, «Pascual de Gayangos» :

The history of the Mohammedan dynasties in Spain.
extracted by Ahmad al Maqqari 2 Vols.
(London 1840 - 1843).

Gaspar Remiro. M. :

— Historia de Murcia Musulmana.

— Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez en
el siglo XIV. Extratos de la Raihanat al Kuttab de Ibn
al Jatib.
(Granada 1916).

Gimenez Soler «Andres» :

— La Corona de Aragon y Granada, Boletin de la real
academia de buenas letras de Barcelona (1905 - 1908).

--- Expedicion de Jaime II a la ciudad de Almeria, o el Sitio de Almeria (1309) B.R.A.B.L.B. 1904 no. 14.

Goldziher : «I». :

Le livre de Mohammed Ibn Tumert, Mahdi des Almohades.
(Alger 1903).

Golvin : «L». :

Le Magreb central a l'époque des Zirides, Recherches d'archéologie et d'Histoire.
(Paris 1957).

Golten : «S. D.». :

The Origen of the vizirate and its true character .
(Islamic Culture, Vol. XVI, 1942).

Hopkins : «J. E.». :

Medieval muslim government in Barbary until the sixth century of the Hijra.
(London 1958).

Huel Miranda : «Ambrosio» :

La invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaca,
(Hespéris 1953).

Historia politica del Imperio Almohade, 2 tomos.
(Tetuan 1956).

Julien, : «André CH.» :

Histoire de l'Afrique du Nord de la conquete arabe a 1930.
(Paris 1952).

Latrie : «Mas». :

Traité de Paix et de commerce et documents divers
Concernant les relations des chrétiens avec les arabes
de l'Afrique Septentrionale au moyen âge
(Paris 1866).

Lafuente Alcantara : «Miguel».

Historia de Granada, 4 tomos.
(Granada 1843 - 1846).

Lafuente Alcantara : «Emilio».

Inscriptiones arabes de Granada.
(Madrid 1860).

Leon Africano : Juan (al Hasan ibn Mohammad al Wazzan).
Description de l'Afrique et de les choses notables que en
ella se enciuentran.
(Tetuan 1952).

Lévi-Provençal : «E.» :

— Histoire de l'Espagne musulmane, 3 tomes.
(Paris 1950).

— La Péninsule Iberoïque du Moyen - Âge d'après le Kitab
Ar-Rawd al Mithar d'Ibn Abd al Munim al Himyari
(Leiden 1938).

— Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade
(1350). Melange offerts à William Marçais.
(Paris 1950).

— Un Zagal hispanique sur l'expédition aragonaise de 1309
1309 contre Almería (Al Andalus Vol. VI, 1941 fasc. 2).

Une description de Ceuta musulmane au XV siècle
(Hespéris 1931. tome XII.

Lopez de Ayala, «Pedro»

Crónica de los reyes de Castilla 2 tomos.
(Madrid 1779).

Madelenaluz Pomes :

Los aragoneses en la conquista y Saqueos de Alejandria
por Pedro I de chipre, Estudio de la edad media de la
Corona de Aragon tomo, V .

Marçais : «G.» :

L'architecture musulmane d'occident.

Mariana «P.» :

Historia General de España Tome II.
(Madrid 1948).

Melchor Antuna : «Martínez» :

Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammed II
de Granada.
(Religion y Cultura, 1932).

El polígrafo granadino Ibn al Jatib en la biblioteca del
Escorial.
(Imprenta del real Monasterio 1926)

Mercier : «Ernest» :

Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps

les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830).
2 tomos.

(Paris 1888).

Merimee : «Prosper» :

Histoire de Don Pedro roi de Castille.

(Paris 1865).

Muller : «Marcus Joseph» :

Beitrag zur Geschichte der westlichen araber.

(München 1866).

Ocana : «Manuel Jimenez»

Tablas de conversion de datas islamicas a cristianas y
viceversa.

(Madrid - Granada 1946).

Palencia : «Angel Gonzalez» :

— Historia de le Espana musulmana (1945).

— Historia de la literatura arabigo-espanola
(Coleccion Labor III 1945).

Paz y Mella :

Embajada del Emperador de Alemania Oto I al Califa
de Cordoba Abderrahman III

(Madrid 1872).

Pérès : «Henri» .

La poesie andalouse en arabe classique aux XI siècle
(Paris 1953).

Pons Boigues : «Francisco» :

Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles.
(Madrid 1898).

Prieto y Vives : «Antonio»

Los reyes de Taifas.
(Madrid 1926)

formacion del reino de Granada.
(Madrid 1972).

Prescott «William H.» :

History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic.
(London 1895).

Ribera, «Julian» :

Un monasterio musulmane en Denia, en :
(Disertaciones y Opusculos, Madrid 1928).

Roque : «Chabas» :

Historia de la ciudad de Denia.
(Denia 1874).

Seco de Lucena, «Louis» :

La Alhambra

Sobre el viaje de Ibn Battuta al reino de Granada
(Al Andalus, Vol. XVI 1951)

Los Hammudies senores de Malaga y Algeciras.
(Granada 1953).

Simonet : «Francisco Javier»

- Description del reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas.
(Madrid 1860).

- Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes.
(Madrid 1888).

— Seybold : «C. F.»

Analecta arabo-Italica en (centenario della nascita di Michele Amari, Palermo 1910).

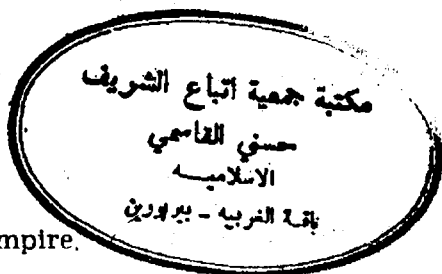
Torres Balbas : « L. » :

- Atarazanas hispanomusulmanas.
(Al Andalus, 1946).

- Rabitas hispanomusulmanas.
(Al Andalus 1948).

Vasillev, « A. »:

History of the Byzantine Empire.
(Madison 1952).



Wlet : «Gaston» :

- Histoire de la nation Egyptienne.
(Paris 1926).

Précis de l'Histoire d'Egypte.
(Le Caire 1932).

Zurita : «Geronimo» :

Los anales de la Corona de Aragon.
(Zaragoza 1688).

فهرس الموضوعات

القسم الاول

البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرون الخمسة الاولى للهجرة

صفحة	المقدمة
٧	١ - قيام البحرية العربية في المغرب
١١	نشأة البحرية العربية الاسلامية في خلافة عثمان
٢١	غزو العرب لصقلية وجزر البحر المتوسط الغربي
٢٥	دور مصر في قيام البحرية الاسلامية في افريقية
٣٥	غزوات العرب في بحر تونس في العصر الاموي
٤٧	٢ - عوامل تفوق البحرية المغربية الاندلسية في القرنين الثالث والرابع للهجرة
	٣ - فتح المسلمين في المغرب والاندلس لجزر البحر المتوسط الاوسط والغربي
٥٦	فتح اقريطش
٦٧	فتح صقلية
٩٥	فتح جزر البحر المتوسط الغربي الاخرى
١٢١	٤ - تفوق المسلمين البحري في غرب البحر المتوسط وتهديدهم لسواحل ايطاليا وفرنسا الجنوبية في القرن الثالث الهجري
١٢٩	في القرن الرابع الهجري
١٣١	٥ - البحرية الاسلامية في الاندلس منذ قيامها حتى نهاية القرن الرابع الهجري
١٣٦	النشاط البحري للاندلسيين حتى طليعة القرن الرابع
١٤٥	غارة النورمان الاولى على الاندلس واثرها
١٤٧	
١٥٢	

١٦٢	غارة النورمان الثانية
١٦٧	دور البحرين في تمصير بجانة
١٧٣	البحرية الاسلامية في أوج قوتها في القرن الرابع
١٧٣	عناية عبد الرحمن الناصر بالاساطيل
١٧٨	قيام المرية قاعدة الاسطول الاندلسي
١٨١	غارة النورمان الثالثة
١٨٧	نشاط اسطول الاندلس على سواحل المغرب وغرب الاندلس
١٨٨	مغامرات الاندلسيين في بحر الظلمات
١٩٥	تدهور البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس
١٩٥	في القرن الخامس الهجري
١٩٥	سياسة الزيريين البحرية حتى منتصف القرن الخامس الهجري
٢٠٠	ضعف البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس في القرن
٢٠٧	القرن الخامس الهجري
٢١٣	سقوط صقلية في ايدي النورمان
٢٢١	استيلاء النورمان على المهديّة
	مراجع القسم الاول

القسم الثاني

البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس

منذ قيام دولة المرابطين حتى سقوط مملكة غرناطة

٢٣٧	تقديم
٢٣٨	البحرية على عهد المرابطين
٢٤٨	البحرية على عهد الموحدين
٢٨٧	وصف الشعراء لاسطول الموحدين
٢٨٩	البحرية في عهد بنى مرين ملوك المغرب
٣٠٢	البحرية في عهد بنى الاحمر ملوك غرناطة
٣١١	الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق
٣٧١	ضميمة
٣٧٩	مراجع القسم الثاني



مطابع ميمنة الحديث
بيروت - لبنان
تلفون: ٢٣١٧١٥

